

# عالم الفكر

المجلد السابع - العدد الثالث - أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٧٦

## الطفولة والمراهقة

- النمو الجسدي في مرحلة الطفولة
- النمو النفسي من الطفل إلى الراشد
- الانفصال عن العالم
- الرحيل إلى الأعماق
- النمو الروحي والخلقي
- والتنشئة الاجتماعية





## الطفولة والمراهقة

### تقديم

زاد الاهتمام في السنوات الأخيرة ، وبخاصة منذ الستينات ، بدراسة مشكلات الطفولة والمراهقة ازدياداً كبيراً تمثل في كثرة الكتابات التي تتناول المشكلات المتعلقة بنمو الطفل ، والتغيرات التي تطرأ على تكوينه الجسمي ، وتطور حياته العقلية والانفعالية ، وعمليات التنشئة الاجتماعية أو التطبيع الاجتماعي ، التي يخضع لها الأطفال في مختلف المجتمعات والثقافات . وتعتمد هذه الكتابات في الغالب على الملاحظة المباشرة الطويلة ، التي تعتبر هي الاداة الرئيسية في البحوث العقلية والتجريبية ، وقد أمكن من طريق هذه الوسيلة التعرف على كثير من التفاصيل والدقائق عن حياة الطفل في سني حياته المبكرة ، وفي مرحلة المراهقة الخطيرة التي كثيراً ما يكون لها آثار عميقة وبعيدة المدى في حياته وتكوين شخصيته وقدرته على التلاؤم مع المجتمع الذي يعيش فيه ، والتواءم مع ثقافة ذلك المجتمع وعاداته وتقاليده وقيمه ، وتقبل الأوضاع السائدة فيه أو التمرد عليه . ولكن على الرغم من كثرة هذه الكتابات التي تتناول جوانب كثيرة من المشكلة فلا تزال هناك نواح كثيرة في حاجة الى مزيد من الدراسة والبحث . ومع ذلك فانه يمكن القول بوجه عام ان الطفولة والمراهقة قد وجدنا منذ بداية القرن العشرين ، وبالذات منذ الستينات ،



من عنابة العلماء في مختلف التخصصات ما لم تجده من قبل ، وإن كان هذا لا يعنى انصراف الكتاب والعلماء والفلاسفة والأدباء تماما عن الكتابة في الموضوع قبل القرن العشرين ، إذ الواقع أن حياة الطفل بالذات كثيرا ما كانت تثير خيال الكتاب والأدباء الذين عالجوها في بعض قصصهم ورواياتهم ، وقدموا لنا صورا دقيقة لما كان يعانيه الأطفال ، وبخاصة في القرن التاسع عشر ، نتيجة للتصنيع والثورة الصناعية ، وما أحدثته من تغيرات في حياة المجتمع في الغرب .

والواقع أن الظروف والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي سادت المجتمع الإنساني عموما ، والمجتمعات الريفية بوجه خاص ، والتغيرات الهائلة التي طرأت على بناء هذه المجتمعات بعد الثورة الصناعية ، كانت من أهم أسباب زيادة الاهتمام بدراسة مشكلات الطفولة دراسة علمية ، والعمل على تشخيص هذه المشكلات ، ومحاولة إيجاد حلول لها . ذلك أن الانتقال من الحياة التي تعتمد في المحل الأول على الزراعة وعلى الأنشطة المتعلقة بها ، إلى الاعتماد على الصناعة وما يرتبط بها من زيادة التخصص والمهارة وتقسيم العمل ، والتحركات السكانية نتيجة لجذب المراكز الصناعية والحضرية للإيدي العاملة من المناطق الريفية ، وانفصال العامل بالتالي عن عائلته الكبيرة ، وما نجم عن ذلك من تخلخل البناء العائلي التقليدي ، وظهور الأسر الصغيرة أو العائلات النواة - كما يسميها علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا - التي أصبحت تؤلف الشكل الرئيسي للتنظيم العائلي في المجتمعات الصناعية والمتقدمة عموما ، كل هذا كانت له آثار عميقة على تنشئة الطفل وعلى تغير النظرة إلى الطفولة والمعاملة التي يلقاها الأطفال ، كما كان وراء ذلك الاهتمام الطبيعى والعميق بدراسة مشكلات الطفولة ووضع الطفل ثم المراهق في المجتمع الحديث .

فالمعروف مثلا أن الأوضاع الاقتصادية في المجتمع الصناعى الحديث تستلزم خروج الرجل والمرأة على السواء للعمل . وقد ترتب على ذلك ظهور أوضاع كثيرة كان لها اثرها في حياة الطفل ونوع الرعاية التي يلقاها ، إذ أن انصراف الأم - ولو جزئيا - عن حياة البيت ورعاية الأطفال كان يتطلب ضرورة إيجاد من يحل محلها للقيام بهذه الوظيفة سواء كان ذلك عن طريق الاعتماد على أشخاص آخرين أو على مؤسسات متخصصة ، وهي كلها بدائل لم تكن العائلة التقليدية الكبيرة تعرفها ، إذ كان الطفل ينشأ بين أفرادها العديدين في وسط صحي يوفر له ما يحتاج اليه من حسن الرعاية والعناية والاهتمام . بل أن هذه الظروف الاقتصادية ذاتها ، واستقلال المرأة اقتصاديا وعدم اعتمادها في حياتها على الرجل كما كان عليه الحال في المجتمع التقليدي ، أدت بالضرورة إلى اكتماش دور الأب في حيات الأسرة الحديثة ، بحيث لم يعد يؤدي نفس الوظيفة القديمة - أو على الأقل لم يعد هو المركز الرئيسى الذى تدور حوله حياة الأسرة ، وأصبح بدم وجود الأب في المجتمع الصناعى الحديث ظاهرة مألوفة ، بحيث تجد من بعض علماء الاجتماع من يتكلم الآن عما يسمى بالمجتمع الذى لا يعرف نظام الابوة أو المجتمع بدون آباء fatherless society ، وهو تعبير يكشف عن كثير من المخاطر والمشكلات التى يعانى منها المجتمع الحديث ، وهى مشكلات تتراوح بين انفصال الزوجين إلى الطلاق إلى ظهور العلاقات الجنسية

خارج الزواج وانجاب اطفال لا يعرفون لهم آباء شرعيين . ومحصلة هذا كله قلة الرعاية التي يجدها الاطفال في الاسرة ، وزيادة الانحرافات السلوكية بينهم وبخاصة بين المراهقين ، وان كانت هناك بغير شك اسباب وعوامل أخرى لهذا السلوك الانحرافي ، الى جانب قلة الاهتمام بالاطفال داخل الاسرة . ولكن الذي يهناها هو ان تصرف الاسرة من بدل العناية اللازمة للاطفال ، وظهور مؤسسات متخصصة للقيام بهذه المهمة ، وما ارتبط بهذا كله من مشاكل تعترض حياة الطفل واساليب تربيته كانت كلها من اهم الاسباب التي دفعت الى زيادة الاهتمام بدراسة هذه المشكلات ، او الى اعتبار الطفولة والمراهقة كمشكلة من المشاكل التي يجب على المتخصصين في العلوم الاجتماعية والسلوكية ان يعطوها ما تستحقه من جهد وعناية .

وليس المقصود بذلك ان الاهتمام بمشكلات الطفولة والمراهقة لم يظهر الا في القرن العشرين؛ اذ الواقع ان حياة الطفل والمراهق كانت تشر دائماً قدراً من الاهتمام ، وكل ما نقصده هو ان القرن العشرين شهد تغيراً كبيراً في نوع الاهتمام نتيجة لتلك التغيرات الاجتماعية والاقتصادية . ولقد تجلّى ذلك في النظريات الكثيرة والآراء الجديدة المتضاربة التي ظهرت بكثرة منذ بداية هذا القرن وهي نظريات وآراء نجد عرضاً لها في الدراسات التي يقدمها لنا الاساتذة الدكتور سيد خيري والدكتور سيد غنيم والدكتور عبد الرحمن عيسوي ، والتي يعالجون فيها نواحي هامة في التطور الفيزيقي والعقلي والانفعالي لدى الطفل والمراهق . ولقد كان لعلم النفس والتحليل النفسي اكبر الفضل في القاء كثير من الاضواء على هذه الجوانب . ولقد دفعت كتابات فرويد وبياجيه Piaget الدراسات السيكولوجية والسيكوتحليلية في هذا المجال دفعة قوية . بل ان كثيراً من العلماء عكفوا ليس على دراسة الطفولة والمراهقة كمرحلة قائمة بذاتها او كوحدة متمايزة بل على دراسة فترة صفرية محدودة من هذه المرحلة بقصد الكشف في أسرارها . فقد زاد الاهتمام مثلاً بدراسة التطور العقلي لدى الطفل خلال الشهور الستة الاولى من حياته ، واعتمد هؤلاء العلماء في ذلك على ألعاب الطفل باعتبارها تعبيراً رمزياً عن تجاربه وتخيالاته وأحواله الانفعالية . وربما كانت ميلاني كلاين Melanie Klein وهي من تلميذات فرويد - من اهم من عمل في هذا المجال بقصد الكشف عن التطورات التي يمر بها الطفل في هذه المرحلة المبكرة من حياته ، ثم عمل ونيكوت Winnicott وهو طبيب اطفال ومحل نفساني - بعد ذلك على تطوير أفكار ميلاني كلاين ، وآرائها واساليبها وطرائقها ، بحيث استطاع ان يتفغل في عقل الطفل في شهره السادس ، وذلك على أساس ان هذه المرحلة المبكرة لها أهميتها القصوى في تكوين الطفل ونموه وتطوره العقلي والجسماني على السواء . فسن الستة شهور تعتبر هي « المرحلة الحاسمة التي يبدأ فيها المتخ باستخدام الخلايا العصبية الإضافية التي يحصل عليها في أثناء نموه والتي رفعت الانسان فوق مرتبة باقي الرئيسيات ، وتصبح حاسة اللمس والمناولة الوسيلة المفضلة لا يدرك العالم الخارجي ... وفي تلك المرحلة فقط يبدأ الطفل في ادراك حقيقة وجود عالم خارجي ، وبالتالي عالم داخلي ايضاً وهو ( الأنا ) . اما قبل تلك المرحلة فان معظم المليارين

من الخلايا العصبية للمخ لم تكن قد استخدمت بعد في مجالات التجربة والذاكرة والمنطق ... » وهكذا . ( انظر موسوعة الهدف ٢٠٠٠ ، صفحة ١٤٧٤ من الترجمة العربية ) . وبصرف النظر عن الأهمية العلمية والعملية لمثل هذه المعلومات ، فالمهم هنا هو ان الاهتمام بالطفل وبحيائه وتطوره بلغ درجة عالية جدا ، بحيث أصبحت مرحلة الطفولة تقسم الى مراحل فرعية قصيرة وصغيرة تتوفر على دراسة كل منها فريق من العلماء بغية التوصل الى مزيد من المعلومات والتفاصيل الدقيقة ، التي قد يمكن الاستعانة بها في تحديد نوع التربية والطريقة السليمة لمعاملة الطفل ، وتنشئته اجتماعيا في المجتمع والثقافة اللتين ينتمي اليهما .



ولقد أسهم علماء الاجتماع بنصيب وافر في دراسة مشكلات الطفولة والمراهقة ، وان كانت معظم دراستهم تدور بطبيعة الحال حول موضوع التنشئة الاجتماعية ، وبخاصة دور العائلة في هذه العملية المعقدة ، والدور الذي يلعبه الوالدان بالذات في تربية الطفل ، او على الاصح في تطويره وتشكيله لنمط الحياة في المجتمع الحديث ، والقيم والقواعد التي تحكم سلوك اعضاءه . كذلك اهتم البعض منهم بدراسة العلاقة بين نمو شخصية الطفل او المراهق ، واختلاف الادوار التي يضطلع بها ، والاضاع التي قد تؤدي الى انحرافات السلوك لدى كل منهما . والملاحظ هنا على العموم ان معظم الكتابات السوسولوجية التي تعالج هذه المسائل متأثرة الى حد كبير بنظريات علم النفس والتحليل النفسي ، وان كان ثمة اتجاه قوي الان الى دراسة التنشئة الاجتماعية على انها عملية تفاعل اجتماعي بكل معاني الكلمة ، اذ يتفاعل فيها الاطفال مع البالغين في العائلة وفي المجتمع ككل وفي كل مناشط الحياة . فهي ليست مجرد عملية تلقين او توجيه وتدريب من البالغين للاطفال الذين كانوا يعتبرون مجرد صفحة بيضاء يمكن للاباء ان يسطروا عليها تعاليمهم وتوجيهاتهم التي يتقبلها الاطفال ويستوعبونها ويتمثلونها ، وبحيث تصبغ شخصياتهم بصبغة معينة محددة . ومع التسليم بان عملية التنشئة تهدف في آخر الامر الى تنمية قوى الطفل وملاكاته العقلية ، وتعمل على تلاؤمه مع المجتمع وتوجيه طاقته واستغلالها الى ابعد حد ممكن ، وتنمية خلقه وارادته وشخصيته عموما ، وتعريفه كيف يتقبل عادات المجتمع وانماطه السلوكية واوامره وقوانينه ، فان علماء الاجتماع الان يرون ان هذه العملية لا يمكن ان تؤدي الى ان يفقد الفرد شخصيته وفرديته ، على الاقل لان كل طفل يولد مختلفا عن غيره من الناحية الفيزيائية ، كما يمر بتجارب وخبرات تختلف تماما عن تلك التي يتعرض لها غيره من الاطفال . فكان المسالة - في نظر هؤلاء العلماء - ليست مجرد عملية صب الاطفال في قالب جامد ، وانما للطفل دوره الإيجابي الذي يقوم به في عملية التنشئة ، وهو دور يجب ان يدرس من طريق مقابله بدور البالغين والكبار .

وعلى أية حال فإنه يمكن القول ان علماء الاجتماع في مجموعهم يحرصون في كتابتهم حول هذا الموضوع على ابراز اثر الظروف والاضاع الاجتماعية على سلوك الطفل والمراهق ، وتأثيرها باعضاء المجتمع الاخرين ، وتأثيرهما فيهم . ومن هنا كنا نجد معظم الكتابات السوسولوجية تعالج موضوعات مثل اثر العائلة في الطفل ، واثار المدرسة والعوامل المؤثرة في سلوكهم كالعنف والتسامح في التربية ، وذلك الى جانب البحوث « التجريبية » التي تعتمد على ملاحظة الاطفال الذين يخضعون لنوع معين من التنشئة كما هو الحال بالنسبة للتنشئة في مؤسسات معينة او في مستعمرات خاصة ، لها نظمها وقواعدها وقوانينها وفلسفاتها المتعلقة بالتربية وهكذا . وقد أدت هذه الدراسات كلها آخر الامر الى ظهور سوسولوجيا التربية او علم الاجتماع التربوي ، الذي يحتل في الوقت اثاره مكانة هامة بين فروع علم الاجتماع ، وإن لم يحظ بالاهتمام الكافي في جامعاتنا وبين علمائنا ودارسينا .



واخيرا فقد افلح علماء الانثروبولوجيا في ارتياد مجالات جديدة وطريقة في دراسة مشكلات الطفولة والمراهقة وذلك حين بدلو الكثير امن الجهد والاهتمام في التطور الاجتماعي للفرد في المجتمعات التقليدية التي كانت تعرف عموما باسم المجتمعات ( البدائية ) وهي تسمية اخذة الان في الاختفاء نظرا لما تحمله من مدلولات تقيمية . ولقد اتجهت الدراسات والبحوث الانثروبولوجية عدة اتجاهات ربما كان اهمها الاتجاه الذي يعني بدراسة المراحل الاجتماعية التي يمكن التمييز بينها ضمن دورة الحياة بالنسبة للفرد ، وبخاصة في المجتمعات القبلية التي يعتمد تنظيمها الاجتماعي على عامل السن اعتمادا مباشرا ، بحيث يتوزع جميع اعضاء المجتمع في فئات متعايزة كل التمايز ، وبحيث تضم كل فئة منها الافراد الذين ينتمون الى مجموعة عمومية واحدة ، ويحتلون بفضل عامل السن مرتبة اجتماعية معينة ، ويمارسون معا نوعا محددا من النشاط الاجتماعي او الاقتصادي او السياسي او الحربي او الديني يتفق مع عمر افرادها ، ومع قدراتهم الفيزيائية وخبراتهم في شئون الحياة والمجتمع . ويعرف هذا النظام في الكتابات الانثروبولوجية باسم نظام طبقات العمر ، على اعتبار ان السن هو العامل الرئيسي او حتى العامل الوحيد في التفاضل او التفاوت الاجتماعي ، وبصرف النظر عن الاختلافات والفوارق الاخرى مثل تفاوت الثروة او غير ذلك . وتعتبر الطفولة والمراهقة في مثل هذه المجتمعات مرحلة عمرية واجتماعية واحدة ، تتميز بارتباط الطفل والمراهق ارتباطا شديدا بمجتمع النساء ، بحيث لايسمح لاي منهما في الاغلب بالاختلاط بالرجال البالغين الا بقدر وحساب ، كما ان الطفل او المراهق ينتقل الى مرحلة الشباب والبلوغ التي يمارس اصحابها مهمة الحرب والبطولة والاغارات الا بعد ان يمر بطقوس وشعائر خاصة تختبر فيها قدراته الجسمية على تحمل المشاق والصمود للصعوبات والقدرة على الحرب ، وهي الشعائر المعروفة في الكتابات الانثروبولوجية باسم

التكريس التي تتميز بما فيها من قسوة وعنف . فيمقتضى هذه الشعائر ينتقل الفرد رسميا من مرحلة الطفولة والمراهقة الى مرحلة الشباب والرجولة المبكرة ، كما يدخل اجتماعيا الى مجتمع الرجال وينفصل عن مجتمع النساء ، ويعتبر لأول مرة عضوا كاملا في المجتمع ككل . وهذا معناه ان مرحلة الطفولة والمراهقة ليست مجرد حالة فيزيقية او فسيولوجية ، وانما هي في المحل الاول مرتبة اجتماعية خاصة اذا عرفنا ان هذه ( المرحلة ) تضم افرادا تتراوح اعمارهم بين سن الولادة ، وسن الخامسة عشرة او اكثرما دام هؤلاء الافراد لم يتم تكريسهم . ومن هذه الناحية يعتبرون - بصرف النظر عن اعمارهم الفيزيكية التي تقدر بعدد السنين - اقربا وزملاء في الطبقة ، ويعاملون معاملة واحدة متشابهة ، ويحتلون مكانة اجتماعية مجددا مع بعض التمييزات الطفيفة داخل الطبقة لا تؤثر في خصائص النظام كنظام . ( انظر في ذلك كله مقالنا عن : « نظام طبقات العمر » - مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ١٩٦٣ ) .

**الاتجاه الرئيسي الثاني** الذى انجبت اليه بحوث الانثروبولوجيين في دراسة الطفولة والمراهقة ، وافلحوا في الاسهام فيه اسهاما وافرا هو الدراسات المقارنة التي تعنى بمقارنة العادات والتقاليد المتبعة في معاملة الطفل او المراهق في مختلف الشعوب والثقافات ، وكذلك مقارنة الطقوس المرتبطة بذلك ، واختلاف نظرة المجتمع الى كل منهما ، والمتابع او المشكلات التي يقابلها كل منهما مع الاهتمام بإبراز العلاقة بين المقومات الثقافية وتلك المشكلات .

وربما كانت كتابات عالمة الامريكية مارجريت ميد هي اشهر هذه الاسهامات وان لم تكن اكثرها عمقا أو اشدها دلالة . فكتابات ميد كما يقول إيفانز بريتشارد بحق - كتابات « انثوية بمعنى الكلمة » فيها « كثير من الجدل والاستطراد اللذين يبلغان حد الثثرة » ، كما انها تنزع الى « تصوير الاشياء في صورة زاهية خلابة » . ولعل أفضل مثال لذلك هو كتابها الشهير عن « البلوغ في مجتمع ساموا *Coming of Age in Samoa* » الذي ظهر أول مرة عام ١٩٢٩ ، واعد نشره عشرات المرات ، وفيه تقارن بين متاعب المراهقة لدى الفتيان في هذا المجتمع ( البدائي ) وفي المجتمع الأمريكي المتقدم الحديث . ويلخص إيفانز بريتشارد الكتاب بقوله - وانا أنقل هنا من ترجمتي العربية لكتابه عن « الانثروبولوجيا الاجتماعية » - و « الكتاب يهدف في أساسه الى ان يبين ان مشكلات المراهقة - وبخاصة عند الفتيات - التي تعتبر ظاهرة عامة أساسية في الحياة الأمريكية لا توجد في ساموا ، وان ظهورها يلزم نوعا معينا من البيئة الاجتماعية ، بمعنى انها لا تنشأ عن الطبيعة ، وانما تنجم عن القيود التي تفرضها الحضارة الحديثة . وعلى ذلك تشرع الدكتورة ميد في دراسة الاختلافات القائمة بين الظروف التي تصاحب مراهقة الفتاة في كلا المجتمعين . وقد اضطرها ذلك الى ذكر كل ما تعرفه من الوضع الاجتماعي العام للفتاة الساموية . فهي تتكلم مثلا عن طريقة تنشئتها ونوع الطفولة التي تمر بها والمكانة التي تشغلها في حياة الاسرة والقربة والمجتمع المحلي الكبير ،

كما تتكلم عن علاقاتها الجنسية المتنوعة مع مختلف الشبان . ولكنها تحرص أشد الحرص اثناء ذلك كله على ان تربط هذه المسائل بمشكلة البحث الأساسية لكي تبين مدى تأثير الظروف الاجتماعية في تشكيل شخصية الفتاة المراهقة ، ونوع رد الفعل الذي يصدر عن هذه الشخصية ازاء التغيرات الفسيولوجية التي يحدثها البلوغ .

والنتيجة التي تنتهي اليها مارجريت ميد من هذه الدراسات هي انه لا توجد فوارق بين الفتاة الامريكية والفتاة الساموية في عملية المراهقة ذاتها ، وانما تكمن الفوارق والاختلافات في الاستجابة لها . فالمرهقة في ساموا تطور ترتيب منظم للميول والاهتمامات ومختلف انواع النشاط ، ولا ينجم عنها اى اجهاد او كرب او ازيمات ، وبذلك تكون عقول الفتيات ببناء عن الاهداء المختلفة المتضاربة والصراعات المتعارضة التباينة ، فلا تراودها التأملات الفلسفية او المطالب الجامعة التي يصعب تحقيقها . والواقع ان الفتاة هناك لا تطمح في اكثر من أن تعيش لأطول مدة ممكنة قبل زواجها مع اكبر عدد ممكن من العشاق والمحبين ، ثم تتزوج من بعد ذلك في نفس قريتها لتعيش مع أهلها واقاربها وتنجب عددا كبيرا من الاطفال .

وعلى العكس من ذلك تماما تعاني الفتاة الامريكية المراهقة كثيرا من الارهاسات والتوتر والاجهاد بسبب اختلاف بيئتها الاجتماعية . فهاهي اذن الفوارق البارزة الهامة بين الحالتين ؟ تعتقد الدكتور ميد ان اهم الفوارق يرجع الى انعدام الوجدانات الشخصية والقيم المتصارعة في ساموا . فالفتاة الساموية لا تهتم لانسان معين او شيء معين اهتماما بالغا شديد العقق ، كما انها لا تبني آمالا عريضة على اية علاقة واحدة بالذات . وقد يكون ذلك راجعا الى ان الفتاة لا تنشأ هناك في محيط العائلة الضيق المحصوره، وانما تجد نفسها تتحرك منذ الصغر في محيط الاقارب الواسع الرحب ، حيث تتوزع السلطة والمحبة بين عدد كبير من الاشخاص ، ولا تنحصران في افراد العائلة وحدهم . ولكن الاهم من ذلك هو ان الثقافة السائدة في ساموا ثقافة متجانسة الى حد بعيد . فهم جميعا يتبعون نفس معايير السلوك ، ويعتقدون نفس المعتقدات الدينية ، ويخضعون لنفس القانون الخلقى . وعلى ذلك فليس هناك اى مجال للمفاضلة او الاختيار مما يقلل فرص النضال والاحتكاك بالآخرين ، ومما يساعد الفتاة المراهقة على تجنب الصراع الداخلي الذي يدور في النفس عادة اثناء عملية الاختيار بين القيم المختلفة ، وما يترتب على ذلك الصراع من سوء التوافق ومن المصائب . اما الفتاة الامريكية المراهقة فانها على العكس من ذلك تجابه في بيئتها الاجتماعية انواعا عديدة من القيم الاجتماعية المتنافرة ، مما يضطرها الى المفاضلة والى الاختيار . والاختيار هو مقدمة الصراع والنضال ( الطبعة الاولى من الترجمة العربية - منشأة المعارف ١٩٥٨ - صفحات ١٤٣ - ١٤٥ ) .

والاساس القوي الذي تقوم عليه كل هذه البحوث العقلية العديدة التي يضطلع بها علماء الانثربولوجيا ويقومون بها في مجتمعات محددة ومعينة بالذات لدراسة عملية التنشئة الاجتماعية

والثقافية ، والتعرف على اساليب التربية والمشكلات التي يواجهها الطفل والمراهق ، ويعتمدون في ذلك على الاتصال المباشر والمعيشة لفترة طويلة من الزمن تتجاوز السنة الكاملة في معظم الاحيان مع استخدام اسلوب الملاحظة المباشرة . فكتابات هؤلاء الباحثين وتقاريرهم هي التي تزود غيرهم من العلماء من اصحاب النظريات بالمعلومات الاساسية التي يقيمون عليها نظرياتهم ويصوغون افكارهم وآراءهم العامة حول المشكلة .. ولذا كانت هذه البحوث والتقارير الحقلية نحتل مكانة خاصة لدى المهتمين بالموضوع .



كل هذه الدراسات والبحوث والنظريات والآراء المتضاربة تدل على الاهمية البالغة التي تحظى بها الان مشكلات الطفولة والمراهقة في مجال العلوم الاجتماعية من ناحية ، كما تعكس من الناحية الاخرى مدى الاهتمام العام ، وبخاصة بين الآباء ، بالتعرف على خير الوسائل التي يمكن اتباعها في تنشئة الاطفال والمراهقين ، بحيث يتحقق الهدف من التنشئة ، وهو تنمية مدارك الاطفال والمراهقين وقواهم وملكاتهم ، مع الحرص على تحقيق تلائمهم مع قيم المجتمع وتقاليد . ومن هنا كان السؤال الملح الذي يواجه العلماء والآباء على السواء الان هو كيف نعامل الاطفال ؟ وما هو الغرض من التربية ؟ وكيف يمكن تحقيق الشخصية السوية ؟ هذه كلها اسئلة لم تكن تتردد في الاغل - على الاقل بنفس هذه الدرجة من الالاح - في الماضي . اذ انه على الرغم من كل ما يقال عن الثورة الصناعية والتغيرات التي أحدثتها في المجتمع فقد كانت هناك في القرن التاسع عشر اوضاع محددة ترسم لكل شخص مكانته ومركزه ودوره وطريقة سلوكه ، سواء ضمن الجماعة التي ينسب اليها معربا ، او مع الاجيال السابقة واللاحقة عليه . ولقد كانت العلاقات بين الآباء والابناء بالذات تتصف بالجدية والصرامة التي قد تخفي وراءها كثيرا من الاهتمام والحب الابوي ، وان لم يكن الأب يهتم باظهار ذلك الحب او التعبير عن عواطفه نحو اولاده ، ويعتبر ذلك نوعا من التذليل والافساد . ولذا كانت وظيفة التنشئة تنحصر في تشكيل الطفل وتطويعه بحيث يتلاءم مع تلك الاوضاع القائمة . ورغم كل ما يؤخذ على هذه الطريقة من جمود وصرامة فلقد افلحت - كما يقول درايتزل Hans Peter Dreitzel - ان تنجب رجالا ونساء لعبوا دورا هاما في تاريخ القرن التاسع عشر في أوروبا . كذلك فانها رغم كل ما يؤخذ عليها كانت تخفي وراءها كثيرا من الاهتمام الحقيقي والحب والتماسك العائلي بحيث كان الطفل يشعر بكثير من الاطمئنان والارتياح والاحساس بالأمن ، وهي كلها عناصر يفتقر اليها كثير من الاسر الحديثة في المجتمعات المتقدمة والصناعية . وهذا لا يعني بطبيعة الحال انه لم تكن هناك حالات من الانحراف في السلوك ، اذ لكل عصر ولكل مجتمع أسبابه واوضاعه التي تدفع الى انحراف بعض اعضائه .

هذه الصرامة في المعاملة يقابلها الان التسامح والحرية الزائدة التي يلقيها الاطفال والتي تدفع

الكثيرين الى التساؤل الناجم عن الحيرة عن اى الاسلوبين في التربية هو الصحيح والمجدي ، أو على الأقل الاثر جدوى ؟ وأين هو الحد الفاصل بين الصرامة الزائدة والحرية الزائدة والذي يمكن ان يؤدي الى خلق الطفل السوى ؟ ومثل هذه التساؤلات تبين لنا ان موقف الآباء من أطفالهم قد تغير تغيرا جذريا ، وان الآباء لم يعودوا يأخذون أطفالهم على أنهم مجرد مسالمين بها وتحصيل حاصل ، وانما على أنهم مشكلة تستحق التفكير والاهتمام . ويقول آخر لم تعد الأم أو الأب الذي يفشل احد أطفاله في حياته يكتفي بأن يندب حظه النعمس ويشفق على نفسه من سلوك طفله ، بل أصبح بدلا من ذلك يعمل الى التعرف على أسباب انحراف الطفل أو فشله ، وقد يرد ذلك في كثير من الاحيان الى نوع المعاملة التي لقيها الطفل . والموقف الصعب الذي يجد البالغون والاطفال على السواء انفسهم فيه الآن هو كيف يمكن التوفيق أو الاختيار بين الافكار التقليدية التي نشأت والبالغون يميلون الى فرضها ويؤمنون بجداوها ، وبين النظريات والاتجاهات الحديثة التي تعطي للطفل مكانة واعتبارا لم يكن يتمتع بهما في الماضي ؟ والمعروف ان التنشئة الاجتماعية هي بالضرورة - ومهما يقل عن الاتجاهات التقدمية فيها - عملية فيها جانب كبير ( رجعي ) أو ( محافظ ) ان صح هذا التعبير لانها - وان كانت تهدف الى خلق الشخصية السوية - فانها تهدف في الوقت ذاته الى المحافظة على البناء الاجتماعي والثقافي التقليدي حتى يمكن ضمان استمرارية الحياة الاجتماعية من طريق نقل التراث الاجتماعي والثقافي الى الاجيال التالية . والمعادلة الصعبة هي في ايجاد وسيلة للتوفيق بين هذين الاتجاهين لضمان الاستمرار مع التجديد ، بحيث يمكن اعداد الطفل لعصر يختلف في مفاهيمه واتجاهاته وقيمه ونظراته الى الحياة عن العصر الذي يعيش فيه الآباء . ان الوصول الى حل هذه المعادلة الصعبة هو في الاغلب الوسيلة الفعالة لضمان عدم تمرد الشباب والاجيال التالية ، وهي المشكلة التي تعاني منها المجتمعات الحديثة . ويعرض لنا الاستاذ الدكتور جواد رضا في دراسته عددا من اللوحات التي تكشف لنا عن كثير من هذه الامور .

الا ان المشاهد على العموم ان معظم الدراسات التي تعالج هذه المسائل تؤكد موقف الآباء الاكثر تسامحا ازاء الاطفال ، ويعتبرون ذلك موقفا صحيا يقوم على التقدير الصحيح والفهم الصائب لمشكلات الطفولة والمراهقة . كما يكشف عن استعداد الآباء لمراجعة انفسهم ومواقفهم من أطفالهم . وهذا هو ما كنا نقصد اليه حين قلنا ان الاتجاه يزيد الآن نحو عدم اعتبار الاطفال عنصرا سلبيا في عملية التنشئة ، او أنهم يستجيبون دائما للمؤثرات الخارجية التي ترد اليهم من البالغين والكبار ، وان الكبار انفسهم ليسوا دائما عوامل ثابتة في بيئة الطفل الاجتماعية ، ولكنهم خليقون بأن يتغيروا تحت تأثير التحدي الصادر من أطفالهم . ومن الغريب انه حتى عهد قريب جدا لم تكن معظم بحوث التنشئة الاجتماعية تعتبر الاطفال « كائنات سيكولوجية واجتماعية وتاريخية في ذاتهم » على ما يقول دراتيزل ، ولم تكن تعتبر الطفولة تصورا او مفهوما متميزا في ذاته ، وانه لم يساعد على ظهور هذا المفهوم الا انشاء المدارس الحديثة بعد التغيرات الواضحة التي طرأت على بناء المجتمع الحديث . كذلك من الغريب ان نجد انه رغم كل الاهتمام الذي يبذره المجتمع الحديث



بالأطفال والمراهقين ولعمليات التنشئة فإن هذا المجتمع الحديث نفسه يخلق جوا غير ملائم تماما للأطفال بوجه عام ، لدرجة أن الكثيرين من الكتاب يشكون فيما إذا كانت هذه المرونة أو هذا التسامح إزاء الأطفال ناجم حقيقة عن فهم مشاكل الطفولة والرغبة في العمل على حلها ، والإيمان بضرورة الاهتمام بمتطلباتها ، أو أنه ناجم عن الشعور بالعجز واليأس والاستسلام للأوضاع الراهنة التي لا يجد الآباء والعلماء لها حلا بعد أن فقدت المؤسسات والنظم الاجتماعية التقليدية ، وبخاصة الأسرة ، دورها ووظيفتها في تنشئة الأطفال ، وبعد أن أصبحت المدرسة ذاتها تعاني الكثير من المشكلات ، نظرا لأن المدارس في العادة توجه التلاميذ نحو سياسة تربوية محددة ومرسومة ، بدلا من أن تعمل على الكشف عن القدرات الخاصة بكل طفل وتوجيهها الوجهة الصحيحة للاستفادة منهم . إن هذا التشكك وما يتعلق به من تساؤلات كثيرة وما يدور حوله من آراء خليق بأن يخدم علماءنا ومفكرينا ما يستحقه من عناية ودراسة واهتمام ، حتى يمكن أن نتجنب في أساليب ووسائل تنشئة الأطفال والمراهقين في مجتمعاتنا كثيرا من المشكلات التي يعاني منها الآباء والأبناء في المجتمعات الغربية الأكثر تقدما .



## النمو الجسدي في مرحلتَي الطفولة

من الطريف أن نجد أن الاهتمام بدراسة الأطفال وخبراتهم وسلوكهم يعتبر مركز جذب لأشخاص عديدين غير أولئك الذين يرتبطون ارتباطاً طبيعياً وثيقاً بتربية الطفل ، وأهم هؤلاء جميعاً الآباء والأمهات ، فهم الذين ، بحكم حبهم لأطفالهم ، يميلون لملاحظتهم في ولع واهتمام عاطفي ، وبتتبعون تطور شخصياتهم ، وللمحون معالم التغير في كل ظاهرة من ظواهر حياتهم ، يشاركون في ذلك كل مهتم بعملية التربية والتنشئة لهؤلاء الأطفال كالمدرسين والمدرسات والمربين والمربيات ، وغير هؤلاء كثيرون . إلا أن هذا الاهتمام الشديد كثيراً ما يجعل ملاحظاتهم ونتائج تتبعهم لما يظرون على هذه الشخصيات من تغير يشوبها كثير من التحيز والاتجاه إلى جانب واحد في أحكامهم لما يلاحظونه ، فغالبية الآباء يلاحظون كل ما يؤيد امتياز أطفالهم عقلياً ، ويتذكرون في ذلك كل حادثة صغيرة مرت أمام أعينهم تفسر في هذا الاتجاه ، بل وينحون في تفسيراتهم هذا المنحى ، ولهذا فإن الاعتماد على تقارير الآباء والأمهات وذاكرتهم المتعلقة بمراحل النمو التي مر عليها أطفالهم ينبغي لدارس نمو الطفل أن يأخذها بحذر شديد ، وأن يجمع ملاحظاته من مصادر

متعددة حتى يستطيع المقابلة بين مختلف الملاحظات والذكريات ويخرج بأكثر قدر من الصحة فيما يتعلق بهذه التغيرات .

أما المتخصصون العلميون ، فانهم يهتمون كذلك بدراسة الاطفال في فروع كثيرة مختلفة من فروع المعرفة العلمية ، فانهم بالرغم من أن موضوع دراستهم غالبا ما تكون مشتركة موحدة تنحصر في نمو الطفل وتطوره إلا أن كلا منهم ينظر الى هذا النمو من وجهة نظر خاصة ترتبط بناحية تخصصه ، وهذه النظرات المختلفة في تجميعها تغطي الصورة المتكاملة عن عملية النمو في شخصية الطفل جسديا ونفسيا من مرحلة ما قبل الميلاد حتى مرحلة النضج التي يستقر فيها النمو ، بل ويذهب الكثيرون إلا أن دراسة النمو لا تتوقف عند مرحلة معينة ، فدراسة المسنين مرتع خصيب في الوقت الحالي للفحوص العلمية الشيقة .

**ولعل أهم هؤلاء العلماء اتصالا بموضوع النمو هو التخصص في علم النفس الارتقائي ، أو سيكولوجية التطور Developmental Psychology أو علم نفس الطفل كما يسمى عادة Child Psychology وبالرغم من أن الدراسة العلمية لهذا التخصص تنصب على متابعة نمو الطفل وتطوره ، إلا أنه يستمد خبراته وبياناته التي تخدم أغراضه هذه من فروع مختلفة من فروع المعرفة ، ويبدو ذلك طبيعيا إذا تتبعنا المجموعة الهائلة والمتنوعة من العوامل الداخلية والخارجية التي تحدد وتؤثر في عملية النمو .**

فبعض هذه المحددات نستمدّها من علم الوراثة العضوية والوظيفية ، وبعضها الآخر نستمدّها من علم الطب عندما نتعرض للخصائص المرضية والعوامل المؤثرة على صحة الطفل ونموه الجسمي والوظيفي ، ويدخل في ذلك علم وظائف الأعضاء Physiology والتشريح Anatomy وعلم الحياة Biology وأكثر اتصالا من ذلك فروع علم النفس المختلفة كعلم النفس التجريبي Experimental Psychology وعلم النفس المرضي Psychopathology والصحة النفسية Mental Hygiene والتوجيه التعليمي Educational Guidance وغير ذلك من العلوم المرتبطة ارتباطا وثيقا بعلم النفس كعلم الاجتماع Sociology والانثروبولوجي Anthropology وبوجه خاص التربية .

**فدراستنا الحالية لنمو الطفل لا يمكن أن تظل من التعرض لحقائق مختلفة من هذه العلوم التي ذكرناها وغيرها بالتقدير الذي يحتاج اليه توضيح معالم هذه الدراسة .**

**وهذه الفروع المختلفة المرتبطة بدراسة النمو تلقى ضوئا هاما على ما يحدث للطفل في مراحل طفولته المختلفة وقد رأينا أن نبدأ بمرحلة ما قبل الولادة .** فحتى عهد حديث كانت دراسة النمو تبدأ من ميلاد الطفل ، أما اليوم فانه من المترقب أن هناك مظاهر كثيرة على جانب كبير من الأهمية تؤثر في النمو بعد الميلاد تتم قبل الولادة ولهذا فان تحديد دراستنا في السنوات التي تلي الميلاد تكون بمثابة مشاهدة رواية تمثيلية من منتصفها أو بعد مرور عدد من فصولها . فإذا بدأنا دراستنا من يوم الميلاد أصبح ما تم قبل ذلك مجهولا لنا تماما ، بالضبط كما يحدث في حضور الرواية من منتصفها عندما تغيب عنا أشياء كثيرة عن خلفيات الشخصيات التي تقوم

بالادوار المختلفة ، وأنه يصعب علينا ان نتتبع نموذج النمو والتطور للطفل الا اذا عرفنا الكثير عنه قبل الميلاد . فلهذا أصبحت دراسة نمو الطفل تبدأ منذ الحمل وتمتد حتى نهاية مرحلة النضج . ولهذا فان دراسة نمو الطفل ينبغي ان تبدأ من مرحلة ما قبل الميلاد لما لهذا المرحلة من أهمية فى توضيح مظاهر ومفاهيم كثيرة فى عملية النمو ، علاوة على مساعدة ذلك على إيضاح ما يزود به الطفل عند ولادته من امكانيات جسمية وعقلية يتضمنها مفهوم النمو او التطور، وقد رأينا قبل عرض مراحل النمو المختلفة للطفل ان من واجبنا ان نوضح ما نعبه بمصطلح النمو ، ونعرفه تعريفا اجرائيا واضحا ، ثم نعرض أهم الطرق العلمية لدراسة هذه النمو .

ولما كانت عملية النمو خلاصة لتفاعل النضج الطبيعي Maturation مع عوامل التدريب والتعليم Learning من البيئة وجدنا من اللازم أيضا توضيح هذا التفاعل بشيء من التفصيل قبل عرض المراحل المختلفة لهذا النمو .

**وبالرغم من تداخل هذه المراحل المتدرجة تباخلا كبيرا نظرا لطبيعتها ونظرا لان النمو فى ذاته عملية متكاملة فان الدراسة العلمية للنمو تتطلب تقسيمه الى مراحل متميزة ، ونوضح المعالم الرئيسية لكل مرحلة من هذه المراحل .**

ولعل انسب تقسيم لمرحلة الطفولة ينحصر فى التمييز بين اربعة مراحل مختلفة :

١ - مرحلة ما قبل الميلاد

ب - مرحلة الرضاعة

ج - مرحلة الحضانه

د - مرحلة الطفولة : المبكرة والمتأخرة

ويمكننا ان نحدد هذه المراحل الاربع بأعمار تقريبية متدرجة فنقول ان مرحلة ما قبل الميلاد تتم خلال الشهور التسعة التى يتم فيها نمو الجنين فى بطن أمه منذ تلقيح البويضة حتى وقت الميلاد . أما مرحلة الرضاعة فتبدأ من الميلاد حتى نهاية السنة الأولى تقريبا . وأما مرحلة الحضانه فتتد من السنة الثانية حتى نهاية السنة الثالثة . وأما مرحلة الطفولة فتنتهى بمرحلة المراهقة ويمكن ان نحددها بين الثالثة والثانية عشرة تقريبا ، وهناك اختلافات كثيرة وخاصة حول المراحل التى تسبق الطفولة الأولى ( المبكرة ) التى تبدأ من الثالثة .

والمرحلة الأولى تستمر حوالى ٩ شهور أو ٢٨٠ يوما ، وبالرغم من صغر مدتها الا ان النمو فيها يتم بغاية السرعة ، وأهم مظهر لهذا النمو هو المظهر الفسيولوجى الذى يتكون خلاله التركيب الجسمى ، أما المرحلة الثانية فهى التى تتضمن انتقال الرضيع الى بيئة مخالفة تماما للبيئة التى نشأ فيها وتعتبر مرحلة ركود فى نمو الطفل الرضيع ، ووظيفتها احداث عملية التوافق مع جسم الأم الخارجى ، وتستمر فيها عملية النمو وركدة حتى تتم عملية التوافق هذه . ووظيفة مرحلة الحضانه تدرج الطفل من الاعتماد على غيره فى قضاء لوازم حياته الى ان يصل

الى القدرة على التحكم في عضلات جسمه ، فيستطيع ان ياكل بنفسه ويلبس ويتكلم ويلعب ، وتعتبر مرحلة الطفولة امتدادا لذلك ، فالطفل الذى تعلم التحكم في عضلاته يتعلم هنا السيطرة على يديه كما يتعلم كيف يتوافق توافقا اجتماعيا ، وهذا يبدأ في سن السادسة تقريبا ، ولهذا يفضل الكثيرون تقسيم هذه الفترة الى فترتين الطفولة الاولى وتنتهى عند السادسة والطفولة المتأخرة وتبدأ بدخول المدرسة . وهاتان المرحلتان هما اللتان يتعلق بهما بحثنا هذا (١) .



### المقصود من النمو :

هناك لفظان يستخدمان بمعنى واحد غالبا ، وهما النمو Growth والتطور Development ونرى منذ البداية التفريق بينهما بالرغم من انه يصعب الفصل بينهما ، فهما يحدثان معا ودائما ولا يمكن ان يحدث احدهما في غياب الآخر . والنمو يقصد به التغيرات الكمية في اجزاء ووظائف الكائن الحى كزيادة في الحجم والتركيب وزيادة الوزن وحجم الجمجمة والتغير في وزن الاعضاء الداخلة في بنیان جسمه ووزن وحجم المخ ، وقد ينتج عن ذلك زيادة في قدرة الطفل على التذكر أو التفكير أو الاستدلال أو التعلم أو الادراك ، فالطفل ينمو بهذه الصورة عقليا وجسديا .

وأما التطور فنقصد به هنا التغير النوعي ، ويمكن ان نعرفه بأنه التتابع المستمر المرتب المتسق من التغيرات والتحويلات التى تؤدي في نهايتها الى هدف النضج ، ويقصد باستمرار هذا التتابع في هذا المجال ان التغيرات تسير في اتجاه واحد وهو الاتجاه الى الامام لا الى الخلف ، كما ان تعريفنا كهذا يفترض ان هناك دائما علاقة بين كل مرحلة والمرحلة او المراحل التى قبلها ، وبالإضافة الى ذلك فان التتابع لا يحدث عن مجرد اضافة بحيث يصبح طول القائمة زائدا عن طولها الاصلى ببضعة سنتيمترات ، أو يصبح حجم المخ اكبر من حجمه الاصلى بقدر من السنتيمترات المكعبة ، ولكن المفروض في التطور ما يحدث من تفاعل ، فهو عملية معقدة متكاملة بين مختلف التركيبات والوظائف ، ولهذا فان كل تغير يعتمد على المراحل السابقة وبالتالي يؤثر على المراحل المقبلة . فالنمو اذن عملية ديناميكية تفاعلية متكاملة ، وينتهى النمو بطبيعة الحال بمرحلة النضج الذى يصل فيه التغير التركيبى نهاية مراحل ، وتستطيع الاعضاء المختلفة القيام بوظائفها على الوجه الاكمل بالمستوى الذى تتيحه له خصائص الطفل وقدراته وامكانياته الجسمية والنفسية ، وبالرغم من ان كل مرحلة من مراحل النمو تقرب الشخص من مرحلة النضج الا انها في حد ذاتها تعتبر فترة كاملة تعطى دليلا على مدى مطابقة سرعة نمو الفرد بالسرعة الطبيعية واقترب قدرات الشخص وامكانياته الجسمية والعقلية من المعدل أو المتوسط المفروض الوصول اليه في هذا السن المعين في تلك البيئة التى يعيش فيها ، فالسن الاولى التى تظهر للطفل تعتبر دليلا على دخوله مرحلة مميزة من مراحل النمو فهى تدل على الاقل على انه

( ١ ) الانعام بين القوسين تدل على داعم المرجع في قائمة المراجع في نهاية البحث .

لم يتأخر في عملية التسنين وأن هذه العملية تسير بتقدم طبيعي في حالات وأنه متأخر أو متقدم في حالات أخرى .

أن الكائن الحي دائما في تغير مستمر جسديا وعقليا منذ يوم ولادته ( أو قبله ) حتى يوم وفاته ، وهذه التغيرات تمر في مراحل مختلفة فقد تكون في بدايتها في أحد الأعمار ، وقد تبلغ اقصاها في أعمار أخرى ، وقد تصل الى نهايتها في أعمار ثلاثة .

وهذه التغيرات المختلفة تؤثر على النمو بالساليب المختلفة ويمكن تقسيمها الى أربعة أنواع رئيسية :

**١ - التغير في الحجم :** ففي كل عام كلما ينمو الطفل فإن ارتفاع قامته ووزنه ومحيط جسمه يزداد عادة ، كما أن الاعضاء الداخلية والتركيبات الحشوية تنمو في الحجم لتواجه المطالب المتزايدة للجسم . وليس هذا قاصرا على المظاهر الجسمية بل يلاحظ كذلك في الوظائف العقلية كالحصول اللغوي وقدراته العقلية المختلفة .

**٢ - التغير في النسب :** لا يمكننا أن نعتبر الطفل رجلا صغيرا كما كان يظن سابقا ، فان ابعاد جسمه تتغير مع زيادة النمو ، فنسبة حجم الجمجمة والبطن والساقين بالنسبة الى حجم الجسم كلها لا تستمر ثابتة أثناء عملية النمو بل تتغير من مرحلة الى أخرى ، وكما ذكرنا في للتغير في الحجم فاننا نلاحظ هذا أيضا في الوظائف والعمليات العقلية ، وهذا ما يميز كل مرحلة عن غيرها من مراحل النمو ، فنسبة الخيال والعدوان والانانية مثلا تزداد في مراحل خاصة وتقل في غيرها بالنسبة لسلوك الطفل .

**٣ - اختفاء بعض المعالم العضوية :** كشمع الجسم الرفيع الذي يكو الجلد في الرضيع ، وشعر الرأس الناعم والأسنان اللبنية وبعض الافعال المنعكسة والمنافاة والصراخ وغير ذلك تعتبر من المظاهر الجسمية التي تختفى لعدم الحاجة اليها كلما ازداد الطفل نموا ، ويتبع ذلك اختفاء بعض المظاهر العقلية والانفعالية كحب التملك والأثرة والزهو بالانتصار وجمع الأشياء والمنافسة وغير ذلك وكلها مظاهر لا تثبت مع الطفل بعد ظهورها في مرحلة من مراحل النمو .

**٤ - ظهور بعض المعالم العضوية الجديدة :** وذلك لان بعض المعالم العضوية او العقلية قد تظهر نتيجة لعملية التعلم ، كما ان عملية النضج *Maturatim* تدفع ببعض المؤشرات للظهور كظهور الاسنان الثابتة والمعلم الجنسية الأولية والثانوية ، وفي العمليات العقلية يمكننا أن نذكر حب الاستطلاع والمعرفة والدافع الجنسي والتأمل والتفكير الديني وغير ذلك .

**وبوجه عام نقول أن عملية النمو تتضمن عمليتين متضادتين ، أولاها ما ينتج عنها اضافة اجزاء ومميزات جديدة ، والثانية تتضمن اختفاء وزوال بعض المعالم القديمة ، وبطبيعة الحال فان عملية الاضافة تزداد اقرا في الاعمار الصغيرة وتبدو أكثر وضوحا ، فهي تساعد على التكوين وملاءمة الصغير للمطالب المتزايدة للحياة المقبلة بينما تزداد عملية الحذف كلما ازداد النمو ودخل الطفل في مراحل جديدة ، ولكن هذا لا يمنع من وجود العمليتين دائما في عملية النمو .**

كما أن بعض هذه العمليات تتأخر في وظيفتها وتسير جنباً لجنب في تأدية وظيفة واحدة ، كما يظهر ذلك في تغير الحجم ونسب وإبعاد الجسم وازدياد الوزن فانه يكون نتيجة عادة لنمو في العضلات والعظام ، وكما يحدث ذلك التأخر في المظاهر البدنية يبدو أيضاً في المظاهر النفسية والعقلية كما يحدث نمو في الذاكرة وفي مستوى الذكاء والقدرة على الاستدلال تبعاً لازدياد نمو الطفل .

ان النمو سواء كان جسيمياً أو عقلياً لا يسير بطريقة منتظمة فهو يبلغ أقصى سرعة خلال الأشهر التسعة الأولى قبل الميلاد ( أثناء الحمل ) ، حيث ينمو الجنين من خلية ميكروسكوبية الى طفل وزن ٧ أرطال في المتوسط و ٢٠ بوصة في طول القامة .

وبوجه عام فان النمو تزداد سرعته بدرجة ملحوظة خلال السنوات الأولى من حياة الطفل ، ويبدو ذلك واضحاً اذا قارنا بين الطفل الوليد والطفل الذي يصل عمره الى ثلاث سنوات ، فمثلاً في هذه المدة تجد ان النمو يكون ملحوظاً واضحاً حتى للوالدين اللذين يقضيان مع الطفل طول الوقت ، وهذا الاسراع في النمو الجسمي يصحبه اسراع في النمو العقلي كذلك ، واما في المرحلة التالية التي تبدأ في سن الثالثة وتنتهي في سن السادسة فان النمو فيها يسير بسرعة كذلك ، ولكن هذه السرعة لن تصل الى السرعة السابقة ، وزيادة عن ذلك فان سرعة النمو تبطيء أكثر بعد السادسة تدريجياً حتى مرحلة البلوغ ، فالطفل ينمو في هذه المرحلة الا ان نموه هذا لا يقاس بالنمو الذي يحدث في السنوات الثلاث الأولى .

وهذا النمو بوجه عام قد لا يلحظه الطفل نفسه ، بل هذا ما يحدث عادة حيث لا ينتبه الطفل لما يحدث بجسمه من تغير الا اذ انبهه اليه غيره أو سمع تعليقاً عليه ، اما الاطفال الأكبر سناً فانهم يكونون أكثر وعياً لما يحدث في أجسامهم من تغيرات وخاصة في المراحل التي تحدث تغيرات وظيفية كمرحلة المراهقة .

ان معرفتنا للنموذج الذي يتبعه النمو البشري يمكننا أولاً ان نعرف ما نتوقعه من اطفالنا في السنوات المختلفة ، فدراسة النمو وملاحظته يؤدي الى تفهم طبيعة المرحلة وما يحدث فيها من نمو جسمي وعقلي ، وعن طريق التنبؤ مادام الطفل ينمو بأسلوب عادى بوجه عام يستطيع المربي ان يعرف من قبل ما سيحدث له جسيمياً وعقلياً فيعد العدة لاستقبال هذا التغير المنتظر . وبذلك لا نتطلب من طفلنا أكثر مما يستطيع آدائه جسيمياً أو عقلياً ، ولنضرب مثلاً على ذلك ان استخدام القلم والقبض عليه بأصابع اليد بطريقة يسهل معها توجيه الوجهة التي يريد بها الطفل تتطلب ان يكون الطفل قد مر بمرحلة معينة يستطيع معها التحكم في أطراف الأصابع وأحداث التأخر بين ثنى وتحريك أصابع اليد المختلفة ، وقد تجبر الطفل على هذه العملية قبل اوانها ، ونطالبه بالتحكم فيها وننتهمه بالتأخر اذا لم يستطع إتقانها ، وبالمثل فان ما يحدث من اجبار الطفل أحياناً على التحكم في عمليات النظافة في التبول والتبرز قبل المرحلة العادية

الطبيعية فيه اشعار للطفل بعدم كفايته للقيام بما كان يجب عليه القيام به مما يسبب له مشكلات انفعالية في المستقبل ، والطفل في هذه المرحلة ينظر الى اوامره وتوجيهات والديه على انها الاوامر الطبيعية للطفل العادي في نفس سنه وبذلك يحرم الطفل دائما من الحوافر والمشجعات التي تعينه على تحقيق ثمراته نموه. وقد يؤدي هذا به الى مقاومة دائمة لكل من يقلل من شأن قدراته وامكانياته الطبيعية .

**والقيمة التشخيصية الأخرى** للدراسة مراحل النمو ومعدلاته تنحصر في وضع معايير المعدلات التي يصل اليها الطفل العادي في مرحلة من المراحل ، فنحن نعلم مثلا ان التسنين الاول يبدأ عند الطفل العادي في مرحلة معينة ، وان المشي أو الجبو يبدأ في المتوسط في سن متوسط محدد ، فاذا تأخر الطفل في عملية من عمليات النمو عما يحدث عادة في الطفل العادي كان هذا تذكيرا بتأخر جسمي أو عقلي لدى الطفل ، واستوجب هذا عناية خاصة منا بالطفل ، ومن الطبيعي ان هذا المعدل بالرغم من انه عام الا انه يتغير نسبيا بين الجنسين ، كما يتغير في كل جنس منهما من مكان الى آخر ، فنعلم مثلا ان مرحلة المراهقة تبدأ في بعض المناطق مبكرة عن غيرها ، ذلك لان المعروف ان النمو دالة للسن أي أن ( ن = د ) ( س ) وليس معنى ذلك انه يتوقف على السن وحده بل يتوقف على عوامل وراثية وبيئية كثيرة يمكن تحديدها الى حد كبير كالمرض والتغذية والعوامل النفسية وغير ذلك ، فاذا حدث لدى الطفل ما قد ادى الى تأخر نموه في مرحلة معينة كانت مهمتنا بعد ذلك مهمة تشخيصية ، حيث يضع الشخص امام عينيه جميع العوامل المحتملة ، وبطريق الحذف يستطيع ان يحدد نفسه في عدد من العوامل القليلة ، وبالرغم من ان هذه العملية التشخيصية تبدو سهلة هينة الا انها في حقيقتها عملية شاقة ، حيث لا تتوفر لدى الاخصائي النفسي عادة المعلومات الكافية التي تساعد على رسم الصورة الكاملة ، ويصبح واجبه اول تحديد الناقص ثم كيف يملأ هذه الفراغات الناقصة ، ففي بعض الاحيان لا يساعده التقدم العلمي الحالي لاكتشاف هذه الفجوات ، ويكون السبيل الوحيد الى ذلك هو استخدام البحث العلمي ، وقد يتطرق هذا البحث العلمي الى فروع كثيرة غير علم النفس كالطب والتربية والانثروبولوجي والاجتماع مثلا ، فمن علم الانثروبولوجيا عرفنا الكثير عن اثر نموذج التدريب في الطفولة على سرعة النمو وطبيعته ، وقد امدنا علم الاجتماع بحقائق كثيرة عن العلاقة بين حجم الاسرة والعلاقات العائلية وخاصة بين الاخوة مما يؤثر على النمو نفسه ، ولما كانت التنفريات الجسمية والنفسية التي تحدث خلال فترات النمو ترتبط ارتباطا وثيقا بالتنفريات العضوية والوظيفية كان من اللازم دائما ان تلجأ الى الطب وعلم وظائف الاعضاء في بحوثنا عن النمو ومسببات سرعته ، اما التربية فهي التي تتيح الفرصة لعامل النضج الوظيفي والعضوي لان يسهل في مجراه الطبيعي ، ويمكننا ان نقبس هنا المعايير الشائعة الاستخدام وهي توضح الامكانيات التي يستطيع الطفل في كل مرحلة القيام بها .



## أولا - مرحلة الحضانة Infancy والطفولة الاولى Early Childhood ( من الميلاد حتى

### ٦ سنوات )

- القدرة على المشى
- القدرة على تناول المأكولات الصلبة
- القدرة على الكلام
- القدرة على التحكم فى التخلص من فضلات الجسم
- ادراك الفروق الجنسية
- احراز الاستقرار الفسيولوجى
- تكوين المفاهيم البسيطة عن الحقائق الاجتماعية
- القدرة على ادراك علاقته انفعاليا بوالديه واخوته وباقى أفراد مجتمعه .
- القدرة على التمييز بين الصواب والخطا وظهور ما يمكن ان نطلق عليه الضمير .

## ثانيا - الطفولة المتأخرة (٦-١٢ سنة ) Late Childhood

- اكتساب المهارات اللازمة للالعاب العادية
- بناء اتجاهات عامة نحو نفسه باعتباره كائنا ناميا
- تعلم التصرف مع زملائه من نفس عمره .
- ادراك دوره كشخص مذكر أو مؤنث .
- تنمية المهارات الاساسية للقراءة والكتابة والحساب .
- تنمية المفاهيم اللازمة للحياة اليومية .
- تنمية الضمير الاخلاقى وادراك مجموعة القيم الاساسية .
- تحقيق الاستقلال الذاتى .
- تكوين اتجاهات نحو الجماعات والمؤسسات الاجتماعية (٢) .

وقد ذكرنا ان هذه المعايير بغض النظر عن الفروق البيئية والفردية البسيطة نسبيا فهى واحدة و ثابتة لجميع الاطفال فى كل سن ، وبهذا نستطيع ان نكتشف الانحراف فى كل طفل من هذا المعيار، والبحث بالطرق العلمية عن الجوانب التى ادت الى هذا الانحراف ، ونعمل على علاجه سواء من الناحية الجسمية او الانفعالية او الاجتماعية . وينبغى ان ندرك ان هذه المظاهر المختلفة فى كل مرحلة مرتبطة متشابكة بحيث لا يتسنى لنا ان نعزل مظاهر النمو العضوى او الجسمى عن الانفعالى او الاجتماعى ، ولنضرب مثلا بسيطا على ذلك : لنفرض ان الطفل كان

حجمه في سن معين زائدا عن المعدل بحيث يبدو أكبر من سنه فان مجرد كبر حجم جسمه هذا يجعله يعاني من مشكلات كثيرة انفعالية واجتماعية فهو لا يستطيع ان يتكيف بسهولة مع الاطفال الذين في سنه لانهم يعتبرونه اكبر منهم ، ويجد هو نفسه حرجا في اللعب معهم ، كما انه لا يستطيع ان يتكيف بسهولة مع الاطفال الذين يناسبونه في الحجم ، ذلك لانهم سيكونون اكبر سنا ولهم ما يناسب هذا السن الكبير من القدرات واليول والاهتمامات ، وهذه بطبيعة الحال لابد وان تختلف عن خصائصه النفسية والاجتماعية ، مما قد يدفع به الى الميل للمزلة وتجنب الآخرين ، والسبب هنا مشكلة جسمية غاية في البساطة كما تبدو .



### الدراسة العلمية للنمو :

ان بداية الاهتمام بدراسة الطفل لم تأت من اهتمام علماء النفس بالطفل نفسه بل من اهتمامهم بطريقة تربيته ومعاملته المعاملة المناسبة لسنه وتتبع ما يظهر عليه من تقدم او تاخر لجعل طرق تربيته تتمشى مع ما يظهر عليه من هذه المظاهر .

ومن اول المصلحين التربويين كان John Amos Comenius الذى عاش في القرن السابع عشر والذى كان ينادى دائما بدراسة الطفل كما هو لا على اعتبار انه رجل صغير وقد كتب كتابين اولهما المدرسة في مرحلة الحضانة « الذى نشر في سنة ١٦٢٨ School of Infancy الذى وصف فيه نمو الطفل حتى السادسة من عمره .

وبعد كومينس ظهر اتجاهان مختلفان في دراسة الطفل : الاتجاه الاول كان متميزا بالمعالجات الفلسفية للتربية ، بينما كان الثانى مباشرا في دراسة الطفل عن طريق الملاحظة . وبمثل الاتجاه الاول لوك Loke في انجلترا وروسو Rousseau في فرنسا ، وبستاويزى Pestalozzi في سويسرا ، وهربارت وفروبل في ألمانيا . وقد كان الاتجاه الثانى اكثر فائدة في دراسة النمو ، ولعل اول خيط في هذا الاتجاه ظهر في سنة ١٧٧٤ وتمثل في مذكرات بستاويزى عن طفلة في سن الثالثة والنصف ، وبعد ذلك في ملاحظات تأيد مان Tidemann التى دونها عن اطفاله ، كما كانت ملاحظات Millicent Skinn التى ظهرت سنة ١٩٠٠ عن نمو طفلة ابنة اختها خلال السنة الاولى من عمرها طريفة للغاية .

وببداية الدراسة العلمية للطفل التى قام بها Stanley Hall في جامعة كلارك Clark في سنة ١٨٩١ اتجهت الدراسات بعد ذلك الاتجاه العلمى ، واتخذت الاسلوب العلمى البنى على الملاحظة الدقيقة المضبوطة ضبطا علميا ، واصبح الاهتمام الاساسى هو دراسة الطفل ذاته في اعماره المختلفة وفي مواقفه المتباينة .

ومن ذلك يتضح ان دراسة وتتبع نمو الطفل قد اتخذ اهدافا متعددة ، فبينما كانت الدراسة في اولها تهدف الى النهوض بالسيب تربية الطفل انحراف التركيز الى الاهتمام بالطفل

قبل مرحلة المدرسة بهدف الوصول بتدريبه على العمليات الجسمية والعضوية البسيطة إلى أقصى ما تتيحه وسائل التدريب ، ثم تركزت الدراسة بعد ذلك في معرفة الإمكانيات الطبيعية ( الفطرية ) التي يزود بها الطفل في مراحله الأولى بحكم فطرته وطبيعته ، حتى يمكن معرفة ما يمكننا بعد ذلك اكسابه من مهارات وإلى أي حد نسير معه في عملية التدريب . كما ان من بين الاهداف الرئيسية التي اتخذتها دراسة الاطفال الصغار اكتشاف مدى صدق بعض النظريات السيكولوجية التي ظهرت في هذا الوقت كنظريات Watson المتعلقة بالانفعالات الفطرية الثلاثة ، أو باكتساب الانفعالات عن طريق الاشتراط ، وغير ذلك من الجوانب العقلية من شخصية الطفل ، كنبات معامل الذكاء والعلاقة بين ذكاء الطفل وذكاء والديه ، والعلاقة بين ذكائه ومهنة الوالد وهكذا (٣) .



### طرق دراسة نمو الطفل :

مما سبق يتضح ان دراسة نمو الطفل تنحصر في :

١ - **الملاحظة الحالية لسلوك طفل معين** في مرحلة معينة ، وقد تتسع هذه الطريقة فتتضمن ملاحظة عدة اطفال في نفس المرحلة من العمر ، والخروج بسلوك متوسط تتميز به هذه المرحلة سواء كان ذلك في الجوانب الحسية الحركية أم في النواحي الوظيفية العقلية أم في النواحي الانفعالية .

٢- **استرجاع نتائج ملاحظات سابقة** Retrospective Reports لطفل معين ، والحصول من هذه التقارير على مميزات كل مرحلة مر عليها الطفل .

٣ - **الاستجابات التي يحصل عليها الباحث من استبيان** يملأه الوالد أو الوالدة أو الاخوة أو الافراد الذين يحتكون بالطفل غالباً كالربيزة أو احدى القربيات .

وسواء استخدم الباحث وسيلة أو غيرهما من هذه الوسائل فإن دراسته لابد ان تكون واحدة من نوعين :

أ - **الدراسة المستعرضة** Cross-Sectional حيث يضم الباحث عدة دراسات تخصص كل منها في جانب معين من جوانب الشخصية وتخرج من هذه الدراسات بمميزات مرحلة من المراحل ، تضم الجوانب الجسمية - الحركية والجوانب الوظيفية والنمو الانفعالي ومختلف مظاهر النمو ، ويتكرر ذلك في كل مرحلة ، وبذلك يخرج الباحث بصورة متتابعة لشخصية الطفل ، والمهم في هذه البحوث ان تكون العينات التي تدرس عينات ممثلة تمثيلاً حاصلياً صادقاً لاجتماع الدراسة ، وجميع نتائج هذه الدراسات التي أجريت على عينات مختلفة يمكننا أن نتخلص من الآثار البيئية بقدر الامكان في المجتمع الواحد .

وبالرغم من المزايا العديدة لهذا النوع من الدراسات ، واتباعها المنهج العلمي السليم بقدر الامكان إلا أن لها مثالب لا يمكن أن نغفلها ، فهي لا تعطينا الا صورة تقريبية للنمو وتتابعه، ولا يمكن أن نصل بها الى صورة دقيقة للنمو في بيئة محددة ، فاذا اردنا أن ندرس النمو الذي يطرا على سن الرابعة عشرة مثلا فلا بد أن تتضمن العينات الأولاد والبنات في أماكن مختلفة قد يختلف فيها النمو الجنسي والعصوى مع ما يتبع ذلك من تغيرات نفسية ، والنتائج التي نحصل عليها في هذه الحالة لا تنطبق على نتائج دراسة النمو لهذه المرحلة في مكان معين ولجنس معين فهي لا تأخذ في اعتبارها الاختلافات البيئية التي تحدث خلال حياة الفرد الواحد من مرحلة لمرحلة أخرى .

كما أنها لا تدلنا على سرعة التغير في مهارة معينة من مهارات الشخصية ، ولتأخذ مثلا مهارة استخدام اطراف الاصابع وتطور هذه المهارة من الميلاد حتى نهاية السنة السادسة فان الدراسة المستعرضة لا تصل في تفاصيلها والدقة في دراستها الى تتبع مظهر دقيق من مظاهر التغير ، كما أن هذه الدراسة لا تدلنا على الوقت الذي يزداد فيه تطور هذه المهارة والفترة التي تبطل فيها .

ب - الدراسة الطولية Longitudenal وتنضم هذه الدراسة فحص مجموعة من الاطفال عدة فحوص في فترات مختلفة متتابعة هي اقسام فترة الدراسة التي يخططها الباحث لنفسه قبل بحثه ، وهذه الدراسة اذا توخت الدقة كانت حريصة على الحصول على نفس افراد العينة من الاطفال خلال نموهم ، ولكن الباحث كثيرا ما تضطره ظروف بحثه الى التنازل عن هذا الاشتراط فيأخذ عينات مختلفة في المراحل المختلفة في نفس الوقت الذي يجري فيه البحث مفترضا في ذلك افتراضا فيه مغالطة كبيرة وهي أن العينات المختلفة تعادل في خصائصها نفس العينة الاولى عندما تصل الى نفس سنها ونفس مرحلة العمر التي تمر بها الآن ، وبذلك يتغلب الباحث على عامل الوقت الطويل الذي كان يمكن أن تستغرقه الدراسة الطولية لو ساءت كما يجب ، وتضمنت الدراسة نفس العينة في مختلف اعمارها ، وفي هذه الحالة تستغرق الدراسة عشرات السنوات ، وعلاوة على ذلك فان الباحث لا يضعن بقاء افراد العينة تحت سيطرته وملاحظته المضبوطة دون تفسير حتى في حالتهم الدافعية وتقبلهم لوضع موضوع الدراسة طول هذه الفترة .

ولكن هذه الدراسة بالرغم من الصعوبات الكثيرة تساعد الباحث على دراسة التغير في ظاهرة او وظيفة معينة مهما كانت دقتها خلال فترة النمو ، ولهاذا فنحن نقضلها ونستخدمها في هذا البحث ، وبعيداً عن كثير من الباحثين النفسيين أن هذه الطريقة هي المسؤلة عن وجود فجوات في معرفتنا عن النمو في الوظائف المختلفة في مختلف المراحل ، لان الباحث عادة لا يستطيع أن يتتبع النمو خلال كل فترة صغيرة من فترات النمو بل يأخذ دراسته في فترات زمنية لا بد أن يفصل بينها فترات مهما كانت صغيرة ، هي التي تخرج عن الدراسة ، وتظل هذه الفترة مجهولة مع ما قد يصاحبها من تغيرات قد تكون حاسمة في دراسات معينة .

وبالرغم من أن هاتين الطريقتين هما الطريقتان الرئيسيتان في دراسة النمو فإن كلا منهما قد تتخذ الأساليب العلمية المناسبة للدراسة ، ومن بين هذه الأساليب العلمية : التجريب عن طريق التحكم في العوامل المؤثرة ، وتثبيت بعض العوامل وتغير غيرها ، وطريقة التجريب على الحيوان على أساس ما بين نمو الطفل الأدمى والطفل الحيوان من عوامل متشابهة ، أو الدراسة المقارنة بين الإنسان والحيوان في مرحلة معينة من مراحل النمو ، كما يتبع بعض الدارسين طريقة عزل فرد أو أفراد من العينة للتخلص من بعض العوامل البيئية والاجتماعية ، وهذه تتبع بدرجة أكثر مع الحيوان لصعوبة تطبيقها على الإنسان . ومهما كان أسلوب الدراسة فيجب ألا نسقط من اعتبارنا الفروق الواسعة بين نغفر الإنسان والحيوان خلال انتقالهما من مرحلة إلى أخرى ، وما قد يتخلل هذا التغير من اختلاف في النضج العضوى والبيولوجى ، وفرص التدريب خلال الحياة وهذا الموضوع هو الذى سنعالجه في النقطة الآتية :



#### النضج والتدريب Maturation and Learning (training)

قد نستنتج مما ذكر عن الأهمية الكبرى للنضج، الذى يتضمن ظهور نماذج سلوكية على الطفل مهما كان أسلوب التدريب الذى يلقاه من البيئة، أن واجب الوالدين لا يزيد عن انتظار حدوث عملية النضج كى تتم في مجراها الطبيعى دون أن ن تدخل في استئجالها أو تحويلها ، والواقع يختلف عن ذلك كثيرا فالعوامل البيئية والتدريب الذى يتلقاه الطفل الصغير من بيئته يلعب دورا هاما في عملية النمو فالعمليتان تسيران معا ، ولكن يمكن تمييز أحدهما عن الأخرى ، وعلى المربى فعلا أن يميز بين هاتين العمليتين ، فزراع النبات لابد أن يميز ما إذا كان سبب رداءة النبات راجعا إلى ضعف في البلده أو قلة الرعاية وسوء الظروف البيئية حتى يستطيع تحسين النتائج في المستقبل . ولا يكفى الآن أن نسلّم بأن العمليتين تتفاعلان في عملية النمو بحيث نستطيع أن نرجع كل مظهر من مظاهر النمو إليهما معا ، ولكن الأهم من ذلك أن نحدد طبيعة عملهما وإلى أى حد يؤثر كل منهما في نمو الطفل .

ويجدد بنا بىءى ذى يله أن نبين أن عملهما لا يكون على صورة الإضافة بل التفاعل التام ، بمعنى أننا لا نستطيع أن نقول أن النمو = النضج + التدريب ولكن الأصح أن نقول أن النمو = النضج × التدريب ، وذلك لأنه إذا انعدم أحد الاثرين فإن الناتج ينعدم تماما ويختفى النمو .

فالطفل الرضيع يكون لديه الطاقة الطبيعية لأن يحبو على الأرض في وقت معين ، ولكن عملية الحبو في هذا الوقت لن تتم بنجاح إلا أن وجد الطفل أمامه مساحة من أرض وكانت لديه حرية الحركة في وقت من أوقات نموه ، والطفل يكون لديه القابلية في وقت معين لينطق ببعض حروف ويستخدم حنجرته في اظهار الاصوات ، ولكنه يحتاج في هذا الوقت إلى عملية التشجيع

والتدريب من المحيطين به حتى تتم عملية الكلام والتحدث بطريقة سلسلة وفي تيارها الطبيعي .  
ويمكننا أن نلخص هنا القواعد التي يتم عليها التفاعل بين العمليتين فيما يلي :

( ١ ) ان التدريب الذي يلقاه الطفل من البيئة التي تحيط به هي الوسط الذي تعمل فيه الامكانيات الطبيعية التي يزود بها الطفل والتي تنضج لديه في سن معين .

( ٢ ) كلما كانت الظروف المادية التي تحيط بعملية التدريب مناسبة اسرع النمو وكانت نتائجها اكثر ضبطا واتقاناً .

( ٣ ) بالرغم من أن عملية النضج تتم طبيعياً فان عوامل التدريب قد تعطل من اثر هذه العملية .

ولكن هذا التعطيل غالباً ما يكون محدوداً والتأثير وكامناً ، بحيث اذا اعطيت الظروف المناسبة عادت سرعة عملية النضج الى طبيعتها ، بل قد تعوض الفترة التي ادت الى تعطيلها من عدم اتاحة الظروف المناسبة .

ولقد لخص جيزيل Gesell هذه القواعد في جملة واحدة حيث يقول (٤) :

« ان النمو الداخلي هبة من الطبيعة ، فنحن يتسنى لنا ان نوجهه ولكننا لا نستطيع ان نخلقها . كما اننا لا نستطيع ان نمنعه بأية قوة بيئية » . ومعنى هذا ان عملية التدريب وامتدادته من توافق انما هي محدودة بالخصائص الدائية والداخلية للكائن الحي الذي ينمو . وينبغي مراعاة هذا فنياً في عمليات التربية والتدريب والتوجيه التعليمي ، حيث ان قدراً كبيراً من الانسداد لطبيعة الطفل تحدث عندما تدفع بالطفل دفعا لعملية لم يستعد لها ولا تناسب خصائص نموه وامكانياته النفسية في هذه المرحلة التي يمر بها ، وهذا ما اوضحه جيزيل في تجاربه العديدة على الاطفال العاديين والتوائم . والتدرجات الجسمية تخضع لهذا التفاعل بين النضج والتدريب ، فبالرغم من ان الاطفال في بعض البلاد كانوا يقيدون في حركاتهم برباط محكم اثناء فترات حياتهم الاولى الا انهم يلحقون بغيرهم من الاطفال الآخرين عندما تترك لهم فرصة الحركة العادية .

واذا قلنا ان التدريب يتيح للامكانيات الطبيعية الفرصة لان تعمل في اعلى حدودها فاننا نفترض عادة وجود حد اعلى لكل وظيفة من وظائف النمو يمكن ان تصل اليه ، ولكن هذا افتراض فقط . ولكننا لا بد وان نعترف بان التدريب له اثره الفعال في نتائج عوامل النضج ، فالاطفال الذين يربون في مؤسسات في سنواتهم الاولى يظهر تأخرهم عندما تصل مرحلة انطلاق القدرة على الكلام حيث يبدو تأخرهم في هذه المهارة عن الاطفال العاديين بدرجة ملحوظة الى ان يسير تفاعلهم الاجتماعي سيرا عاذياً فتتحسن قدرتهم على التعبير والانطلاق اللغوي والى ان يستردوا امكانياتهم الطبيعية في ذلك .

ولعل النقطة الأساسية في عملية التفاعل بين التدريب والنمو تنحصر في عملية التوقيت ، فالتدريب لا يجدي اذا بدل في مرحلة سابقة على مراحل النضج . فالامكانيات الفسيولوجية

ينبغي أن تكون معدة قبل أن تظهر القدرة العقلية ، ومعنى هذا أنه بالرغم من أن الوظيفة والتكوين الجبلي يعملان جنباً لجنب وفي تفاعل تام إلا أن التكوين الجبلي ينبغي أن يسبب الوظيفة ، وهذا ينطبق على المهارات الحركية ، والمهارات العقلية والسلوك الجنسي على حد سواء . فالأطفال الصغار لا يمكن أن يكتسبوا مهارة مبنية على فعل منعكس شرطى إلا إذا كانت مرحلة النضج في الجهاز العصبى مهياً لذلك مهما اكتسبناهم من تدريب ، وقدر الرضيع على قبض الأشياء بيديه لا يجدى معها التدريب قبل أن يكون هو معدا لذلك .

ولعل الصعوبة تنحصر في تحديد السن المناسب تماماً بوجه عام في جميع الأطفال في سر معينة لكي يجرى التدريب معهم، وذلك لسببين: السبب الأول هو أننا لم نستطع حتى الآن الوصول إلى تحديد على السن الذى يتم فيه نضج الوظائف الجسمية والعقلية وذلك لوجود الاختلافات الواسعة والفروق الفردية والبيئية بين الأطفال ، وثانياً بسبب الأفكار غير الصحيحة التى سادت تربية الطفل فترة من الزمن والتي لازالت مؤثرة على المربين ، ومؤداها أن كل طفل ينبغي أن يكون قادراً على التعلم إذا دخل المدرسة أو اتاحت له فرصة التدريب المثمر . والواقع أن هذا يتوقف على أمور ثلاثة :

( ١ ) اهتمام الطفل بالتعليم واحراز التقدم مهما كان صغيراً .

( ٢ ) مدى بقاء هذا الاهتمام ودوامه لدى الطفل .

( ٣ ) مدى التقدم الذى يحرز نتيجة للتدريب والتعلم ، وهذه العوامل ينبغي أن تكون متوفرة جميعاً عندما تحل مرحلة الوصول إلى النضج في المهارة التى يقوم المربي بتدريبها لدى الطفل .

وبالرغم من الأثر الواضح لتفاعل التدريب مع النضج فإن النمو عادة يتخذ نموذجاً عاماً في تقدمه مع وجود الفروق الفردية التى أوضحناها. والمراحل التى يمر بها النمو في جميع الأطفال لا تختلف كثيراً من طفل إلى طفل في بيئة معينة. ويكون أثر هذا التفاعل في حدود السياق الذى تشترك فيه جميع الأطفال في معالته . فالنمو مثلاً ينتقل من الخصائص العامة إلى الخاصة ، فالدراسات العلمية قد أوضحت أن الطفل الصغير يتعلم أولاً الكلمات العامة قبل الكلمات الخاصة، والجنين قبل الولادة مثلاً يحرك جسمه كله أولاً قبل أن يستطيع أن يحدث استجابات محددة ، وحتى في الجانب الانفعالي : فإن انفعالات الطفل الصغير تبدأ عامة ثم تتميز بعد ذلك إلى انفعالات محددة وهكذا . كما أن النمو يبدأ بالأجزاء القريبة أولاً ثم يتدرج إلى الأجزاء البعيدة وهذا ما يطلق عليه Propimodistal Law ويمكن أن نطلق عليه القانون التدرجى أى يبدأ مثلاً من المحور المركزى للجسم إلى الأطراف البعيدة ، وينطبق هذا على النمو قبل الميلاد حيث ينمو الرأس والذراع قبل أن تظهر مبادئ الأطراف وحتى في الناحية الوظيفية فإن الطفل يستخدم ذراعيه جيداً قبل أن يستخدم يديه ، ويستخدم يديه قبل أن يستخدم أصابعه وسيطر على حركاتها .

النمو الجسدي في مرحلة الطفولة



شكل ( ١ ) قوانين اتجاه النمو ، مأخوذة من ( ١٧ )



ولعل ظهور الأسنان دليل آخر على ثبوت نمط التتابع والسياق في النمو لدى الاطفال فبوجه عام تظهر الأسنان السفلى قبل العليا والقواطع قبل الاضراس وبوجه عام نستطيع ان نقول ان الاسنان التي تظهر أولا للطفل هي اولى الاسنان التي تستبدل بأسنان دائمة وهكذا وهذا ما يجعلنا نستطيع ان نرتب التطور السلوكي في مراحل عامة على النحو الآتي :

من ٤ اسابيع الى ١٦ اسبوعا يستطيع الرضيع السيطرة على عضلاته الحركية .

من ١٦ الى ٢٨ اسبوعا يستطيع الرضيع السيطرة على عضلاته التي تحمل راسه وتحرك ذراعه ، وهذا ما يجعله يبدأ في محاولة الوصول الى الأشياء البعيدة من جسمه .

من ٢٨ الى ٤٠ اسبوعا يسيطر على جمعه ويديه ، وهذا يمكنه من الجلوس والقبض والانتقال وتداول الأشياء بيديه .

من ٤٠ الى ٥٢ اسبوعا تمتد سيطرته الى ساقيه وقدميه والي اصابه . كما انه يستطيع ان يقف ، وخلال السنة الرابعة يسأل اسئلة كثيرة ، وبدأ في التعميمات وتكوين بعض المفاهيم البسطة - أما في الحياة اليومية المنزلية ففي هذه المرحلة يبدأ في الاعتماد على نفسه ويزيد هذا الاعتماد حتى نهاية السنة السادسة حين يبدأ بالتعامل مع بيئته حتى نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة كما سبق ايضاحه .

**ونظرا لان هذا البحث يتعلق بالنمو الجسمي لمرحلة الطفولة فان التركيز سيكون على مرحلة الطفولة المبكرة التي تنحصر بين السادسة والثانية عشرة ومع هذا فلا يمكننا ان نتجاهل المراحل السابقة وهي ما قبل الميلاد ومرحلة الرضاعة والحضانة بالقدر الذي نوضح به تأثير هذه المراحل على مرحلتى الطفولة . الا ان دراستنا ستكون طويله فنتبع مظاهر معينة منذ الولادة حتى نهاية الطفولة دون تقسيم لهذه المراحل في هذا التتبع ولكننا سنفرد جزءا خاصا موجزا عن مرحلة ما قبل الميلاد نظرا لتمييزها وارتباط مظاهرها ارتباطا يضطروننا الى دراستها كوحدة متكاملة .**

• • •

### **مرحلة ما قبل الميلاد \***

منذ القدم تداولت افكار أغلبها خرافية عن تأثير خبرات الأم على تطور الجنين في بطنها، فنواحي الشذوذ الجسمي والعقلي في الطفل كانت ترمى لتأثير دم الأم ، ولكن الآن بعد ان أوضح العلماء ان دم الطفل ودم الأم لا يختلطان، واتضح ان دم الجنين انما يتكون من الاوكسجين

\* المعايير الخاصة بالنمو المبكورة في هذا البحث مستمدة من

HURLOCK, E.B. : Child development M.C. Graw-Hill Book Company

والماء والمواد الغذائية التي تمتص الى دم الجنين عن طريق تركيب يشبه المصفاة تعدل الرأى السابق . وقد اتخذت دراسة الجنين اساليب متعددة يمكن تلخيصها في :

- ( ١ ) التقارير التي تقدمها الأم عن تحركات الجنين .
- ( ٢ ) صوت ضربات الجنين والحركات التي يمكن تتبعها بأدوات تتصل ببطن الأم .
- ( ٣ ) الملاحظة المباشرة لأجنة اخرجت عن طريق العمليات الجراحية من بطون أمهاتهم .
- ( ٤ ) دراسات الأجنة في الحيوان .

ولسنا بصدد توضيح لعملية الوراثة في هذا المجال لشرح التكوين الكروموزومى للجنين بما فيه من مورثات ، كما لا تعنينا ايضا الأساليب الموضوعية والعلمية لتحديد جنس الجنين قبل الولادة ، ولكن الذى يعنينا ما يتصل بما يكون عليه الجنين عند ولادته مباشرة . فبمجرد أن تلقح البويضة بالحيوان المنوى الذكرى يبدأ النمو ويتطور من خلية واحدة الى طفل قد يصل تكوينه الى ٢٠٠ بليون خلية من انواع مختلفة ، يتم هذا كله خلال تسعة اشهر في المعتاد ، ويظهر التفير من خلية مفردة ليس لها قدرة في ذاتها الى طفل يتكون من عظام وعضلات وجلد وأعضاء داخلية وجهاز عصبى مستعد للعمل حتى قبل الميلاد . وتدل البحوث على أن النمو لا يتخذ فقط صورة ظهور أعضاء جديدة بل قيام الجسم بوظائف جديدة كذلك بحيث يبدو النشاط على الجنين متخذا صورة مختلفة .

وقد وجد أن بعض الأجنة تكون نشطة خلال ٧٥٪ من وقتها ، بينما نجد أن بعضها الآخر لا يملأ نشاطها أكثر من ٥٠٪ من وقتها . وبعض الأجنة تدير رأسها ، وقد بينت الدراسات أن الحركة في كل اجزاء الجسم تحدث في اوقات محددة يمكن التنبؤ بها على قدر من الدقة ، وقد تبين أنه حتى في حالة الأطفال الذين يولدون عن طريق عملية جراحية فان الحركة تسير تبعاً لنفس النمط وهى تشبه حركة الدودة بانقباض الاذرع والساقين . ويمكن تقسيم حركة الوليد الى نوعين .

- ( ١ ) نشاط عام يتضمن جزءاً كبيراً من الجسم .

( ٢ ) افعال منعكسة أكثر تحديداً ، وحركة الوليد تتوقف على عوامل كثيرة فبعد الولادة مباشرة تقل الحركات في الدقائق الخمسة الاولى ثم تزداد تدريجياً حتى الدقائق الثلاثين الاولى . وقد وجد أن الأطفال الذين كانت حركتهم زائدة وهم في بطون أمهاتهم يكتسبون بعض المهارات الحركية في وقت اسرع بعد ميلادهم من الأطفال الذين كانت حركاتهم قليلة ، وعلى العكس بالنسبة للتوافق مع البيئة الخارجية فالأجنة الكثيرو والحركة يجدون صعوبة أكثر من الأجنة قليلي الحركة في توافقهم مع بيئتهم ، وهناك دراسات عديدة تدور حول اثر طريقة الولادة على نمو الطفل الجسمى والعقلى بعد ذلك ولكن اغلبها غير مؤكد ، اللهم الا اذا كانت الولادة العسرة قد احدثت فعلاً تلفاً في دماغ الطفل نتيجة استخدام الادوات الميكانيكية في اخراج الطفل . فقد وجد وايل وديغز Wile, S. and R. Davis ان الأطفال الذين يولدون

بمساعداً ميكانيكية تظهر عليهم زيادة الحركة معن عدم الاستقرار ، ثم في كبرهم يبدون صعوبة في النطق وفي تركيز الانتباه أكثر من غيرهم ممن يولدون بالطرق العادية ، إلا أنه لا يؤكد أن هذه النتائج المتأخرة تعزى حتماً إلى أسلوب الولادة ، وبوجه عام فإن مشكلة تلف الدماغ أثناء الولادة ليست شائعة للدرجة تستحق معها معالجة نظرية خاصة . فنسبة من يولدون بتلف في أدمغتهم لا تتعدى ٧ ٪ من الأطفال الأحياء .

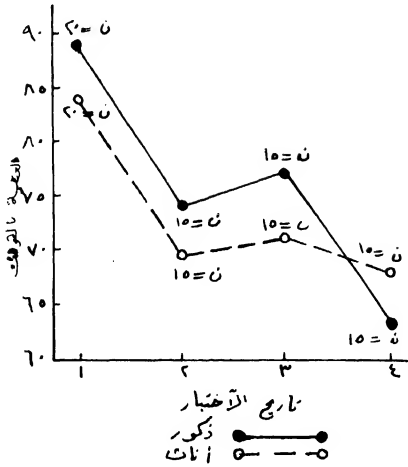
ومن المهم أن نشير هنا إلى أن نوع تغذية الأم وكمية ما تتناوله من غذاء يؤثر في حجم المولود ، فهناك علاقة بين حجم المولود وكمية البروتين الذي تتناوله الأم أثناء الحمل كما ظهر لدى كثير من الباحثين ، كما أن ميريديث Meredith يشير إلى أن المولود الأول يكون أصغر حجماً من المواليد بعد ذلك (٥) .

أما عن نشاطه فإن حركاته تكون عشوائية سواء كانت حركات كلية أو جزئية ، فإذا استثير أى جزء من الجسم في النوع الأول من الحركات فإن الجسم يتحول كله كجزء واحد ، وقد يكون أكثر شدة في الجزء المستثار . والحركة في هذه الحالة تكون غير متناسقة ويكون أكثر أجزاء الجسم نشاطاً هو الجذع والساقان ، وهناك فروق فردية بين الأطفال حديثي الولادة في كمية هذه الحركة . أما النوع الثانى فيتمثل في حركات خاصة كالتركيز البصرى على الضوء ، والحركات التلقائية للعينين ، والحركات المنتظمة للغم ، والتثاؤب ، وتحريك ورفع الرأس ، والحركات العشوائية لليدين والساقين ، ومد الذراعين والقدمين .

وعند الميلاد تكون أعضاء الحس مستعدة للعمل ، إلا أن بعض هذه الأعضاء تكون أكثر اكتمالاً ونشاطاً من غيرها ، فحاسة الشم والدوق والاحساسات الجلدية ( كاللمس والضغط والألم والحرارة ) كما أن الاحساسات العضوية ( كالجوع والعطش ) كل هذه تكون أكثر استعداداً للعمل قبل غيرها ( مثل النظر والسمع ) التي تتأخر قليلاً ، كما أن الاحساس بالألم يزداد بسرعة بعد الميلاد بسرعات مختلفة في مواضع مختلفة من الجسم ، فعتبة الألم تكون أقل في الرأس عنها في الأطراف ، وهناك فروق فردية أيضاً لدى الأطفال حديثي الولادة للاحساس بالألم كما يتضح من شكل (٢) .

تلك باختصار أهم المظاهر التي تهتمنا في دراسة هذه المرحلة التي تقودنا بعد ذلك إلى دراسة الطفولة بمراحلها ، ولن نقسم الدراسة تبعاً لهذه المراحل ، متبعين في ذلك الطريقة العرضية بل نفضل في هذه المعالجة الطريقة الطولية ، فسنتناول المظاهر والمهارات التي تظهر على الطفل واحدة واحدة متتبعين تطورها منذ ولادته حتى نهاية طفولته ، مبينين السنة التي يظهر فيها كل تغير حتى نتضح معالم التطور الذى يحدث في هذه الامكانات كل على حدة وستدخل في هذه الدراسة مرحلتا الرضاعة والحضانة ، دون الحاجة إلى فصلها وتمييزها وسنطلق على هذه المراحل معاً الطفولة المتقدمة والمتأخرة مندمجتين ، فتمتد الدراسة في هذا الجزء لتشمل حياة الطفل من الميلاد حتى نهاية السنة الثانية عشرة .

النمو الجسمي في مرحلة الطفولة



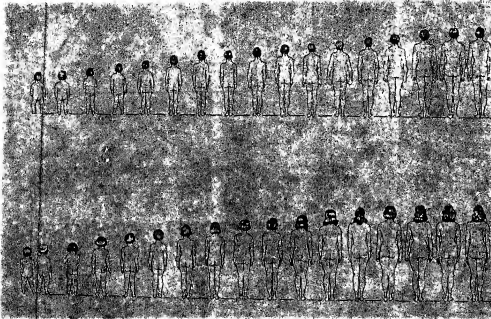
شكل (٢) الفروق الفردية في تنبؤات الأم عند الرضع الذكور والإناث مأخوذ من (١٩)

### ( الطفولة المتقدمة والمتأخرة )

**دورات النمو :** ينمو الطفل عادة في دورات ولا ينمو بانتظام ، فالطفل مثلاً يزداد وزنه عدداً ثابتاً من الأرباط شهرياً ، أو يزداد طوله عدداً من البوصات بانتظام في كل فترة . ولقد بينت دراسة النمو أن هناك أربع دورات للنمو اثنتان منها تتميزان بنمو بطيء والاثنتان الأخريان تتميزان بنمو أسرع من ولادة الطفل حتى استقراء نموه في نهاية مرحلة النفج . وتتم منها مرحلتان حتى نهاية الطفولة المتأخرة . فمن وقت ميلاد الطفل إلى نهاية السنة الثانية تزداد سرعة النمو ، يلي ذلك فترة من النمو البطيء وتتم في نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة حوالي السنة الثانية عشرة .

وينطبق هذا على النمو بوجه عام كما ينطبق على الأعضاء الخاصة وأجزاء الجسم المختلفة ، فالنمو بها يتم على دورات منتظمة وثابتة كذلك .

فلكل عضو أو جزء من الجسم فترة خاصة من النمو السريع أو البطيء ، وكل منها يصل إلى حجمه الناضج في وقت خاص به وهذه الظاهرة يطلق عليها « النمو المنفصل Asynchronous growth » وبالرغم من أن هناك معامل ارتباط موجب بين نماذج النمو في الأعضاء المختلفة أو في العظام فإن في كل مجال من مجالات جسم الطفل تباين كبير في سرعة وبطء النمو



شكل ( ٣ ) مميزات الفروق الجنسية في النمو الجسمي مأخوذة من ( ٧ ) ويتضح في الشكل دورات النمو في الجنسين

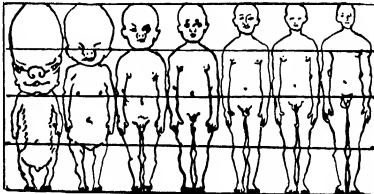
فى اية مرحلة من مراحل الطفولة . ويبدو هذا بوضوح أكثر فى مرحلة المراهقة كما يتضح من شكل (٤) .

ولقد أوضحت منحنيات النمو المتعلقة بطول القامة والوزن أنه إذا استثنى السنة الأولى من العمر فإن نمو الوزن يسير بسرعة أكبر من نمو الطول كما يتضح من شكل (٥) . وفى المراحل الأخيرة من الطفولة ( الطفولة المتأخرة ) فإن الأطراف تنمو أسرع من الجذع ، لدرجة أن الطفل فى هذه المرحلة يبدو وكأنه لا يتكون إلا من يدين ورجلين .

وتبدو قاعدة النمو المنفصل أيضا فى الوجه، حيث ينمو الجزء الأسفل أسرع مما ينمو الأعلى ، وخاصة بين سن الخامسة والثامنة من عمر الطفل . كما بينت بحث Duggins التى نشرها سنة ١٩٥٠ أن شعر الرأس يزداد حجمه بانتظام خلال السنوات الثلاث الأولى من عمر الطفل ، ثم يسير النمو بدرجة أبطأ بعد ذلك (٦) .

كما أن هذه القاعدة تنطبق أيضا على العضلات والعظام والرتين ، حيث تزداد نموا حتى مرحلة النضج بما يقرب عشرين مرة عن حجمها الأصلى ، بينما نجد أن العينين وحجم المخ وبعض الاعضاء الأخرى التى تكون أكثر نضجا فى وقت الميلاد لا تزيد كثيرا عن حجمها خلال مراحل النمو .

وبالإضافة الى قاعدة النمو المنفصل نجد قاعدة أخرى تسير فى اتجاه عكسى وهى قاعدة « اتجاه النمو » Developmental Direction فهناك اتجاه عام لنمو الوظائف والاعضاء المختلفة ، ففى جميع أجزاء الجسم نجد أن التغيرات فى أجزاء الجسم لها قاعدة معينة أيضا ، فالتغيرات فى نسب الجسم تكون طفيفة خلال الأشهر الستة الأولى من حياة الطفل ، ومن



٥٠ سنة ٤٠ سنة ٣٠ سنة ٢٠ سنة ١٠ سنة ٥ سنوات ٢ سنوات

شكل (٤) تطور أبعاد الجسم من الميلاد حتى النضج مأخوذة من ( ١١ ) ويتضح فيه ببطء نمو حجم الرأس وسرعة نمو الأطراف

هذا الوقت حتى نهاية النضج نجد ان حجم الراس ينمو ببطء والاطراف تنمو بسرعة والجلد ينمو بسرعة متوسطة كما ان المخ ولامح الوجه تنضج وتصل الى نهاية تغيرها في الحجم قبل ان تصل باقى الاعضاء واجزاء الجلد والاطراف الى هذه المرحلة من نهاية النمو .

ولنتناول الآن نمو اجزاء الجسم ومعالمه بشيء من التفصيل واحدة واحدة من وقت الميلاد حتى نهاية الطفولة المتأخرة دون ان نهتم بالتقسيمات الداخلية في هذه الفترة حتى تتضح وحدة النمو وتكاملها في هذه الفترة التى تعتبر وحدة أساسية في حياة الانسان ونفصلها فيما يلى :

أ - حجم الجسم وطول القامة والوزن .

ب - نسب الراس والوجه .

ج - نسب الجلد .

د - نسب الذراعين والساقين .

هـ - العظام والمضلات .

و - الاسنان .

ز - الجهاز العصبى .

### أ ( ١ ) حجم الجسم : طول القامة والوزن

يتحكم في نمو حجم الجسم الهرمون الخاص بالنمو Growth Hormone الذى يفرز من الفص الداخلى للغدة النخامية . فاذا كان افراز هذا الهرمون بدرجة معتدلة وفي الوقت المناسب فان حجم الجسم ينمو بدرجة معتدلة ويصبح الجسم عاديا مناسباً لمرحلة النمو التى يمر بها الطفل ، أما اذا قل افراز هذه الغدة من المعتاد فان نمو حجم الجسم يتوقف قبل ان يصل الى نهايته المعتادة ولا يصل الطفل الى الحجم الذى يؤهله له امكانياته الوراثية ، أما اذا زاد افراز هذا الهرمون فان النمو يزداد عن طبيعته ، ولا يتوقف حجم الجسم على هذا الافراز وحده بل يتعلق كذلك بافرازات غدد أخرى كالغدة الدرقية وغيرها .

أما فيما يتعلق بطول القامة فانه بالرغم من الاختلافات الواسعة التى توجد بين طول قامة الاطفال في مرحلة معينة فان هناك نموذجاً تشابه فيه جميع اطفال المرحلة الواحدة . ويمكننا ان نضع هذا النموذج في صورة معدلات تعطينا صورة واضحة للنمو العادى للطفل العادى . فالولود في وقت ولادته يبلغ بين ١٩ ، ٢٠ بوصة ( نصف متر تقريباً ) في طول القامة ، واثناء السنتين الأوليين تزداد سرعة نمو طول القامة حتى يصل في الشهر الرابع الى ٢٣ بوصة أو ٢٤ بوصة ( ٦٠ سم تقريباً ) وعندما يصل الطفل الى الشهر الثامن يصل

طول القامة الى ٢٦ أو ٢٨ بوصة ( ٦٥ - ٧٠ سم ) . وعند تمام السنة الاولى يرتفع الطول الى ٢٨ - ٣٠ بوصة ( ٧٥ سم تقريبا ) . وفي نهاية السنتين يصل طول القامة الى ٣٢ - ٣٤ بوصة ( ٨٥ سم تقريبا ) . حتى يصل الى سن الخامسة يرتفع طول القامة الى ضعف ماكان عليه وقت الميلاد ( متر تقريبا ) ومن ذلك الوقت حتى مرحلة المراهقة نجد ان طول القامة يزداد ببطء بمعدل ٣ بوصات فى كل سنة . ومن الطبيعي ان يختلف طول القامة فى البنين عنه فى البنات ، فيما ان مرحلة المراهقة تبدأ فى البنين متأخرة عنها فى البنات قليلا ( قد يكون الفرق ستة اشهر ) فان طول قامة الولد غالبا ما تقل بوصة او نصف بوصة عن البنت العادية ، كما ان هذه المعايير لا بد وان تختلف باختلاف البيئات ، فقد تنخفض قليلا فى البيئات العربية عنها فى البيئة الامريكية التى اجريت فيها هذه البحوث ، فالمتحنيان المرسومان فى شكل ( ٥ ) يمثلان تدرج الوزن والطول لاحد الاطفال الامريكيين .

والتنبؤ بطول قامة الطفل يمكن احرازه بقدر لا بأس به من الدقة اليوم باستخدام الاشعة السينية لطول العظام ، وبالإضافة الى ذلك فان قامة الطفل تميل دائما لان تزداد زيادة مرتبطة بطول قامة الوالدين ، وبذلك نجد ان طول قامة الوالدين تصلح فى التنبؤ بطول قامة الطفل . وقد وجد بايلسى Bayley ان معامل الارتباط بين طول قامة الطفل وطول قامة والديه يزداد كلما نما الطفل وازداد عمره ، وهذا يزيد من قيمة التنبؤ مع ازدياد مرحلة نمو الطفل ( ٧ ) .

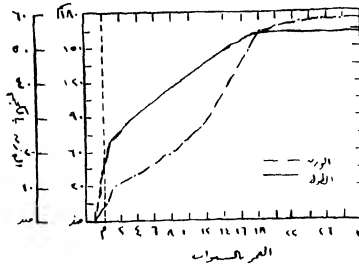
اما عن الوزن فان وزن المولود عند الميلاد يتراوح بين ٦ و ٨ أرطال ( ما يعادل ٣ او ٣ ١/٢ كيلو جرامات تقريبا ) ، وقد يقل الوزن كثيرا عن ذلك فى حالة بعض الاطفال ، فقد يصل الى نصف ذلك بينما قد يصل البعض الى ضعف ذلك ، ولكن هذا الاختلاف فى وزن الاطفال قد يسير بنفس النظام بعد ذلك . ففي نهاية الشهر الخامس نجد ان الرضيع العادى لا ينحصر نموه فى تعويض الوزن الناقص اثناء الميلاد بل يستطيع ان يضيف عليه بقدر اضافى من النمو ، ففي نهاية الشهر الرابع نجد ان وزن الرضيع العادى يعادل ضعف وزنه عند الميلاد . وفى نهاية العام الاول نجد ان الوزن قد بلغ ثلاثة اضعاف هذا الوزن عند الولادة . وفى خلال العام الثانى والثالث نجد انه يكتسب من ٣ الى ٥ أرطال سنويا ، الا ان الوزن بعد السنة الثالثة يتزايد ببطء نسبيا الى ان يبلغ الطفل بداية المراهقة ، ففي نهاية السنة الخامسة ينبغي ان يصل وزن الطفل الى خمسة اضعاف وزنه عند الميلاد ، وفى بداية المراهقة او عند نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة يتراوح الوزن بين ٨٠ و ٩٠ رطلا ( ما يقرب من ٤٠ كيلو جراما ) .

يزداد وزن البنت قليلا عند بداية المراهقة او نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة ، حيث تزن فى المتوسط ٨٨ رطلا بينما يقل الولد العادى اقل من ذلك بثلاثة أرطال تقريبا .

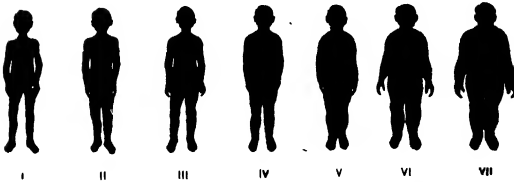


والمعايير التي توضع لكل طفل في اية مرحلة تتوقف الى حد كبير على البنيان الجسمي  
Body built ويمكن تقسيم هذا البنيان الجسمي الى ثلاثة انواع :

- ١ - النوع المكتنز Endomorph ويتميز بجسم زائد السمنة .
- ٢ - النوع المعتدل Mesomorph ويتميز بجسم ثقيل ومتين .
- ٣ - النوع الدقيق Ectomorph ويتميز بجسم طويل ملتف ذي عضلات ملتفة رفيعة نسبيا وعظام طويلة ورفيعة .



شكل ( ٥ ) منحني نمو طول القامة والوزن . مأخوذة من ( ١٨ )



شكل ( ٦ ) انواع البنيان الجسمي مدرجة ( I ) النوع العليق جدا ( II ) النوع العليق ( III ) النوع العليق نوعا  
( IV ) النوع المعتدل نوعا ( V ) النوع المكتنز نوعا ( VI ) النوع المكتنز ( VII ) النوع المكتنز جدا الرسم مأخوذ من ( ١ ) .

وازداد الوزن أثناء النمو لا يتوقف على ازدياد نسبة الدهن في الانسجة بل يتوقف أيضا على ازدياد حجم العظام وانسجة العضلات . اما في مرحلة الحضانة فان الازدياد في الوزن يرجع اساسا الى ازدياد الانسجة الدهنية ، نظر الازدياد كمية الدهن في اللبن الذي يعتبر الوجبة الاساسية في هذا السن ، وكلما نما الطفل وتقدم في مراحل نموه فان وزنه يرجع الى نسبة العظام والعضلات اكثر من الانسجة الدهنية . وفي المراحل المتأخرة من الطفولة تقل أهمية الانسجة الدهنية عن ذلك حتى تصبح مسئولة عما يقرب من ٢١ الى ٢٩ ٪ من الوزن الكلي للطفل ( ٨ ) .

### ب - نسب الرأس والوجه :

ينمو حجم الرأس بسرعة اقل نسبيا من باقي الجسم منذ ولادة المولود . فعند الميلاد نجد ان طول الرأس يبلغ ٢٢ ٪ من طول الجسم كله ، فاذا بقيت النسبة كما هي لاصبح طول الرأس في نهاية النضج ما يقرب من ١٦ بوصة بدلا من ٨ او ٩ بوصات كما هي في الواقع . فمن وقت الولادة الى نهاية النضج نجد ان طول الرأس يبلغ ضعف ما كان عليه عند الميلاد بينما يبلغ طول القامة ما يقرب من ثلاثة امثال ما كان عليه ، واذا رجعنا الى مساحة الرأس وقت الميلاد وجدنا ان المساحة الكلية للرأس تبلغ ٢١ ٪ من المساحة الكلية للجسم ، بينما تصل نفس النسبة الى ١٣ ٪ بعد خمس سنوات و ١٠ ٪ عند نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة ، واذا فحصنا ابعاد الرأس وجدنا ان مؤخرة الرأس تكون اكبر حجما من الجزء الوجهي من الرأس وتكون النسبة بين عرض الرأس وطوله اكبر منها في الاطفال عن الكبار ، فعرض الرأس يكون قد وصل الى نهاية نموه عندما يصل الى الثالثة من عمره ، ولكنه يستمر في الزيادة في الطول حتى بعد نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة .

والنموذج الذي تتبعه زيادة الرأس طولا وعرضا لا يختلف في البنات عنه في الاولاد ، ولو ان رأس الولد يكون عادة اكبر حجما قليلا من رأس البنت في جميع مراحل النمو تقريبا .

ولنتناول الآن نسبة الوجه بشيء من التوضيح : نلاحظ ان الجزء الاسفل من الرأس أثناء فترة الحضانة ومرحلة الطفولة الاولى يكون صغيرا وناقص النمو ، ويرجع ذلك اساسا الى صغر أسنان الطفل الصغير ، وتزداد نسبة الهيكل الوجهي الى الجزء الخلفي من الرأس من بداية الولادة حتى نهاية السنة الثامنة ، وفي هذه السن يختفي مظهر الطفولة الاولى نتيجة لذلك ، حيث تحل مرحلة نمو سريع بين سن الخامسة والثامنة وخاصة بين الاولاد اكثر من اى وقت آخر . ولولا حدوث هذا التغير في نسبة الوجه لاصبحت العين في منتصف الوجه .

وبانتقال الطفل من مرحلة الرضاعة الى مرحلة الاسنان الدائمة تزداد الوامعة بين الفكين العلوي والسفلي ، وتصبح أسنان الفكين اكثر انطباقا ، وهذا يؤثر بطبيعة الحال على شكل الوجه في الطفل ، وسوء الوامعة بين الفكين قد ينتج من عدم انتظام في نمو الفكين او الاختلاف بين حجم الاسنان العليا والسفلى ، او عن طريق مص الاصابع وخاصة قبل سن الخامسة ، او التنفس عن طريق الفم او الضغط على اللثة وخاصة في النوم على الوجه او عض اللسان في مراحل الرضاعة .

وقد يؤثر سوء المواءمة بين الفكين على طريق المضغ عند الصغير وبذلك يؤثر على عملية الهضم، وبالرغم من أن هذا المظهر قد يتحسن مع تقدم النمو إلا أن العلاج التصحيحي قد يكون لازماً في مثل هذه الحالات حتى تنمو لدى الطفل معالم صحيحة للوجه مع وجود الاسنان والدقن في نسبها المعتادة ، وخطوطها المعتدلة .

ويتقدم النمو تحدث تغيرات في معالم الوجه وشكله ، فمنذ البداية تكون مقدمة الوجه كبيرة مستديرة وبارزة ، ثم تصبح مسطحة تدريجياً ، وتقل في الحجم بالنسبة إلى باقي الوجه حتى يصل الطفل إلى الخامسة من عمره ، وتبلغ العينان حجمهما الأقصى كلما اقترب الطفل من نهاية مرحلة طفولته المتأخرة ، وتبتاعد العينان بعضهما عن بعض ، كما أن الشفتين الرفيعتين تزدادان امتلاء حتى تصلان إلى شكلهما الثابت عندما ينضج الطفل جنسياً .

ولعل الأنف هو العضو الذي يبدو في الطفولة أقل تناسباً عن باقي أجزاء الوجه ، فهو يكون في البداية صغيراً وأكثر انبساطاً وتسطحاً على الوجه ، ومن سن الخامسة إلى العاشرة ينمو بسرعة أكبر من أي جزء آخر بالوجه ، وينتج عن ذلك أن الأنف هو أول أجزاء الوجه التي تصل إلى نهاية نموها ، وهذا يحدث في حوالى الرابعة عشرة .

ونلاحظ أنه كلما نمت أعضاء الوجه وقربت من نهاية نضجها يزداد الوجه تحديداً وتثبت ملامح الوجه مع تقدم النمو ( ١٠٩ ) . ( راجع شكل ( ٤ ) في هذا البحث ) .

### (ج) نسب الجذع

إن زيادة وزن الطفل أثناء نموه تؤدي طبيعياً إلى صعوبة اتزان الجسم ويجب العمل على تخفيفها قبل أن يتعلم الجلوس أو الوقوف أو المشي، فكلما كبر الطفل فإن التغيرات في نسب الجسم اللازمة لحصوله على الاتزان المناسب تتحقق عن طريق استطالة الجذع والساقين والرقبة ، وإذا وصل الطفل إلى سن السادسة فإن طول جذعه وعرضه يصل إلى ما يقرب من ضعف طوله وعرضه عند الميلاد ، ومنذ ذلك الحين حتى البلوغ فإن طول الجذع يزداد بما يقرب من ٥٠% مما كان عليه ، ورقبة الطفل في مرحلة الرضاعة تكاد لا توجد ، حيث يستند رأسه تقريباً على كتفيه ، وبالتدريج في مرحلة الطفولة الأولى تظهر له رقبة قصيرة متمثلة تتصل بكتفيه المنحدرين . وحوالى سن الخامسة تبدأ القبة في الاستطالة وتبدو أكثر استدارة، بينما يأخذ الكتفان في أن يكونا أكثر عرضاً وأكثر ثباتاً ، وكلما انخفض الكتفان مع استطالة الرقبة فإن وزن الطفل يزداداً تناسباً وتوزعاً على أنحاء جسمه .

كما أن شكل الجذع أيضاً تحدث به تغيرات سريعة ، ففي السنة الأولى يكون جسم الطفل أكثر سمكاً من أي مرحلة أخرى ويرجع ذلك إلى الزيادة الكبيرة في المحيط العرضي عن الطول . وحتى سن الرابعة أو الخامسة يكون شكل الجذع شبيهاً بالكيس حيث لا يتميز فيه خط الوسط بشكل ظاهر ، كما يكون الكتفان منحدرين ويكون الصدر مستديراً ويكون البطن بارزاً مستديراً ، ومنذ ذلك الحين حتى نهاية مرحلة الطفولة يحدث نقص تدريجى في كثافة وامتلاء

الجلد ، ويتجه الجسم لأن يأخذ الشكل المخروطى أو الاسطوانى المنبسط المنسق الذى يتميز فيه الوسط عن باقى الجسم . وفى هذا الشكل المخروطى فان الاكتاف تأخذ الشكل المستطيل المستعرض وخاصة عند الاولاد ، كما أن شكل البطن ينبسط ويقل امتلاؤه واستدارته وبروزه، ويصبح خط الوسط ظاهرا بشكل واضح، كما أن الحوض يصبح أكثر عرضا وإقل استقامة .

وبطبيعة الحال فان شكل الجذع عند الكبار البالغين يتأثر كثيرا بالسن الذى تنضج فيه المظاهر الجنسية، فقوام الذكر الذى يتصف بعرض في الكتفين وضيق في المقدين يظهر في الاولاد العاديين، والبنات اللواتى تبدو لهن اكتاف عريضة هن اللواتى يتأخر تضجهن ، وبوجه عام فانه بدون اعتبار للسن الذى يتم فيه التضج فاننا نلاحظ أن الشكل العام للجلد عند البنت يختلف عن الشكل العام لدى الولد ، فالأجزاء التى يتميز النمو فيها في الولد غالبا ما يقل النمو فيها عند البنت ، وتعتبر هذه المميزات في كل جنس دليلا على أن النمو عند كل منهما لم يتخذ مجراه الطبيعى ، وقد يحتاج الى العلاج الذى يعيد لكل فرد من الجنسين الشكل المميز لجنسه ، وهذه الفروق بين الجنسين تختلف مرحلة ظهورها بشكل مميز باختلاف البيئة ، فهى عند الشرقيين تختلف الى حد ما عنها عند الغربيين وقد تقل أو تظهر بشكل أوضح في بيئة عن غيرها (١١) .

#### (د) نسب الذراعين والساقين

إن التغيرات التى تطرأ على نسب الذراعين والساقين أثناء مراحل العمر المختلفة هى التى تعطى الجسم صورة الجسم البشرى وتبعده عن الصورة الحيوانية . فعند الميلاد يكون ساقا الوليد قصيرين بشكل ظاهر بالنسبة لأبعاد أجزاء الجسم المختلفة ، كما أن الذراعين يكونان زائدى الطول ، وتكون اليدين والساقان صغيرين نسبيا . فنحن اذا تصورنا انطباق نفس الوليد على الشخص البالغ فان ساقى الشخص البالغ بلفان من القصر حدا يجعل مقدميه في مستوى يعادل مستوى الركبتين أو أعلى قليلا ، وهذا ما يوضح ضرورة اختلاف السرعة التى تنمو بها الأجزاء المختلفة من الجسم .

فالذراعان والساقان تنومان بمقدار ٦٠ إلى ٧٥٪ من وقت الميلاد الى أن يصل الطفل الى سنتين من العمر ، وعندما يبلغ الطفل سن الثامنة فان الذراعين يزداد طولهما بمقدار ٥٠٪ على طولهما في سن الثانية . ونظرا الى قلة سمك الذراعين عادة لدى الطفل بالنسبة لجذعه فان النمو في عضلاتهما في الشخص العادى لا يكون ملحوظا ، ويكون للذراعين عادة شكل اسطوانى عام في هذه المرحلة . وبعد سن الثامنة ينمو الذراعان نموا بطيئا في معدل بالنسبة لطولهما ، بينما نموهما في السمك يزداد بشكل أوضح نظر الاذدياد عضلات الذراع في السمك والامتلاء .

أما الساقان عند المولود حديثا فتكونان قصيرتين متجهتين بطريقة تجعل بطن القدمين يتجهان كل منهما للأخر . وكلما نما الساقان ازدادا انبساطا واستقامة ، فعندما يصل الطفل الى سن السادسة ينبغى أن يكون الساقان والركبتان مستقيمتين لا اعوجاج فيهما ولا تقوس ،

وخلال السنتين الأوليين في حياة الطفل تنمو الساقان بمعدل ٤٠٪ من طولهما الأصلي ، وعندما يصل الى سن الثامنة يزداد طول الساقين بمعدل ٥٠٪ من طولهما الأصلي عندما كان في سن الثانية ، ومعنى هذا أن الساقين ينمون بمعدل أبطأ من نمو الذراعين في بداية مرحلة الطفولة . وإذا طبقنا ما ذكر عن الذراعين فإن الساقين تبدوان رقيقتين وأسطوانيتين حتى نهاية سن الطفولة ، وفي الوقت نفسه عندما تبطيء سرعة نمو طول الساقين نجد أن الزيادة تتم في النمو العضلي لهما وينتج عن ذلك تغير ملحوظ في شكلهما . ونلاحظ أن الأطفال الذين يكون نموها مبكراً عن الأطفال العاديين يميلون لأن يكون لهم ساقان قصيران مختلفان عند تمام نضجها ، بينما نلاحظ أن الأطفال الذين يتأخر نموهم عن المعتاد عادة ما يكون لهم ساقان طويلان أسطوانيان .

وإذا تعرضنا لليدين والقدمين وجدنا أنهما لدى الطفل الرضيع ينمون في الحجم كما ينمون أيضاً في الناحية العضلية قبل أن يتم استخدامهما ، فخلال الطفولة الأولى والطفولة المتوسطة ( المرحلة المتوسطة بين سنوات نهاية مرحلة الطفولة الأولى وبداية مرحلة الطفولة المتأخرة ) نجد أن الأصابع تكون قصيرة بسبب النمو البطيء للعظام ثم يزداد نموها بعد ذلك حتى يصل الى حجمها العادي بعد نهاية الطفولة المتأخرة ( حوالي سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة ) وهذا يحدث أيضاً في القدمين واليدين على حد سواء في وقت واحد ، ويلاحظ أن الأولاد عادة تكون أقدامهم أكبر من أقدام البنات ، وتصل الى نهاية نموها متأخرة عن البنات ، ومن الطريف أن نعرف بأن البحوث قد دلت على وجود معامل ارتباط موجب بين حجم القدم وطول قامة الفرد (١١) .

#### ( هـ ) العظام والمضلات

ينحصر نمو العظام في ازدياد حجمها وفي عددها وفي تكوينها ، وهذه المظاهر كلها تتبع نفس السياق الذي سبق أن أوضحناه في ازدياد حجم الطفل ، ومعنى هذا أن النمو تزداد سرعته خلال السنة الأولى من العمر ، ثم تبطيء هذه السرعة نسبياً بعد ذلك حتى نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة ( راجع شكل (٤) من هذا البحث ) .

ففي الشهور الأولى بعد الميلاد تكون أنسجة العظام هشة وأسفنجية التركيب ، كما أنه تنشأ للوليد غضاريف أو أغشية سمكية في الأماكن التي تظهر فيها العظام بعد ذلك ، وتكون عظام الوليد محتوية على مقدار أكبر من الماء والوارد الشبيهة بالبروتين ، كما تحتوي على كميات أقل من المحتويات المعدنية عن عظام الشخص الكبير البالغ . كما نجد أن هناك تدفقاً أكبر للدم وكمية من الأوعية الدموية وذلك لتزويد الطفل بالمواد اللازمة للنمو وتكون الاغشية الخارجية للطفل سمكية بالقدر الذي يمنع به حدوث الكسور المركبة . وفي ذلك الوقت نفسه تكون العظمة ضعيفة الالتحام ببعضها وعلى عكس ذلك كثيراً ما توجد فجوات بين نهايات العظام .

ويكون نمو العظام كما ذكرنا في الطول من أطرافها حيث تتحول مواضع الالتحام بين العظام بعضها ببعض الى مناطق عظمية مع تقدم النمو . ومع وصول الطفل الى نهاية الطفولة

المتأخرة وبداية المراهقة تتوقف العظام من النمو. أما نمو العظام فى العرض فينتج عن إضافة أنسجة عظيمة إلى حافتها الخارجية فيتضخم السمك وتزداد العظام متانة . وازدياد المتانة والصعوبة لا يحدث إلا بعد الميلاد ، ويتدرج من الجزء المتقدم من السنة الأولى حتى نهاية الطفولة المتأخرة وبداية المراهقة ، وينتج ذلك من تدخل عنصرى الكالسيوم والفسفور وبعض الأملاح المعدنية فى تركيب العظام كلما تقدم النمو .

أما ما يتعلق بالعضلات فإنها تلعب دورا فعلا فى تنظيم نمو الأعضاء الأساسية للجسم كالقلب وأعضاء الجهاز الهضمى والغدد ، كما أنها المسئولة الأساسية عن قوة الجسم وتأخر النشاط. وفى وقت الميلاد تكون الألياف العضلية فى حالة غير ناضجة ، وهذا ما يجعل الوليد ضعيف القوة وقليل النشاط ، وبالرغم من أنه لا تنشأ أنسجة عضلية جديدة بعد الميلاد فإن الأنسجة الموجودة منذ الميلاد تتغير فى الحجم والشكل والتركيب ، كما تزداد طولاً وعرضاً وسمكاً وينتج عن ذلك زيادة فى وزنها .

فى الشخص العادى نجد أن وزن العضلات يزداد من وقت الميلاد إلى نهاية النضج ما يقرب من ٤٠ مرة . وحتى سن الخامسة فإن نمو العضلات يتم بنفس نسبة وزيادة وزن الجسم عامة ، ومن الخامسة حتى السادسة تزداد سرعة نمو العضلات وفى هذا الوقت تبلغ زيادة وزن الجسم عموماً ١٥٪ تقريباً من وزن العضلات فقط . أما بعد هذه المرحلة فإن نمو العضلات يصبح بطيئاً نسبياً، ولكن يتبعها مرحلة تتميز بسرعة النمو ، كما أنه مما يلاحظ كذلك أن العضلات فى الطفولة المبكرة تكون محتوية على قدر كبير من الماء وقدّر قليل من الأجسام الصلبة والبروتينات أكثر مما يتوفر فى عضلات الشخص البالغ نسبياً . وبالإضافة إلى ذلك فإنها تكون أكثر رقة وأقل متانة فى اتصالها بالعظام ويصل سمكها عند تمام النضج إلى ما يقرب من خمسة أمثال سمكها عند الميلاد . كما أن تكوينها يتحول من ٧٢٪ من الماء و ٢٨٪ مواد صلبة إلى ٦٦٪ من الماء و ٣٤٪ مواد صلبة فى البالغ وينتج عن ذلك أن العضلات تصبح أكثر صلابة وثباتاً ، فنجد أن الطفل تتولد لديه تدريجياً الدوافع القوية للقيام بالنشاط العضلى . وقد يدفعه ، وهذا ما يحدث كثيراً ، إلى التحفز وعدم الاستقرار فى الحالات التى يجد نفسه فيها عديم النشاط .

وكأى وظائف عضوية أخرى نجد أن هناك فروقا فردية واسعة فى القدرة العضلية لدى الأطفال ، فالأفراد الذين يمتلكون العضلات العريضة السمكية يكتسبون قوة عضلية فائقة كما أن ذوى العضلات الصغيرة يبدون قدراً أحسن من التأخر فى أوجه النشاط العضلى وبينما نجد أن بعض الأطفال تتعب عضلاتهم بسرعة نجد أن البعض الآخر لهم عضلات لها قدرة كبيرة على التحمل والمثاقفة .

وتتوقف حالة عضلات الطفل جزئياً على إمكاناته الوراثية وجزئياً على حالته الصحية فى الوقت الراهن وبوجه عام ، ومدى استخدامه لعضلاته ، فحتى فى الطفل الواحد نجد اختلافات فى حالة العضلات ، فهى بعد حالة المرض مثلاً غير حالتها قبله ، حيث نجده بعد حالة المرض

سريع الاجهاد والتعب . وبالرغم من أن الفروق بين نمو العضلات في الجنسين لا تكون ظاهرة بالقدر الكافي في الطفولة فانها تبدأ في الظهور بعد ذلك حيث تصبح عضلات الذكر اكبر واوى من عضلات الانثى منذ المراهقة (١٢) .

### (١٠) الأسنان :

ينمو للطفل نوعان من الأسنان : اللبنية والدائمة ، وهذان النوعان يختلفان من نواح كثيرة .

(١) هناك عشرون فقط من الأسنان اللبنية ، بينما الأسنان الدائمة عددها اثنان وثلاثون .

(٢) يكون حجم الأسنان اللبنية اصغر من الأسنان الدائمة .

(٣) تكون الأسنان الدائمة افضل جودة ونوعا من الأسنان اللبنية ، ولذلك تكون اكثر استدامة ، وتبدأ عملية ظهور الأسنان منذ الشهر الثالث بعد الميلاد وتستمر هذه العملية فترة طويلة حيث تصل أسنان العقل الى نهاية حجمها من سن الواحدة وعشرين الى الخامسة وعشرين ، ويكون ظهور الأسنان اللبنية مصحوبا بالآلام قد تسبب للرضيع فقدما للشهية وقد تجعله قليل الاستقرار ظاهر العصبية ، بينما الأسنان الدائمة قد تبرز من اللثة دون أن تصاحبها آية آلام .

وفي المعتاد تظهر اولى الأسنان اللبنية بين الشهر السادس والثامن ولكن سن الظهور هذا يختلف من طفل لآخر ويتوقف على الصحة والاستعدادات الوراثية والتغذية قبل وبعد الميلاد . كما أن للجنسية والجنس وبعض العوامل الاخرى اثرها في ذلك . وقد اتضح من الملاحظات العلمية أن الطفل العادى عندما يصل الى الشهر التاسع تكون ثلاثة من الأسنان اللبنية قد ظهرت له ، كما اتضح أيضا أن الاناث كقاعدة عامة يظهر السن الاول لديهن قبل الذكور ، ولكن بين الشهر التاسع والسنة الثانية فان الذكور يسبقون الاناث في ذلك .

اما ما يتعلق بالأسنان الدائمة فان الطفل العادى عندما يصل الى سن السادسة يكون لديه سن واحد أو اثنان ، ويزداد عددها الى ١٠ أو ١١ سنا عند الثامنة ، ثم من ١٤ الى ١٦ سنا في سن العاشرة ، وفي الثانية عشرة قد تصل الى ٢٤ أو ٢٦ سنا ثم الى ٢٨ سنا حوالى سن الثالثة عشرة ، اما الأسنان الاربعة الاخيرة فهي أضراراس العقل التى تظهر بين السابعة عشرة والخامسة والعشرين وقد لا تظهر اطلاقا .

وقد تظهر حالات تسوس الأسنان حتى قبل أن يكتمل نمو الأسنان الدائمة ، وهذه الظاهرة تظهر بنوع خاص أثناء النمو السريع للطفل حيث تكون مطالب التنفيذ أكثر الحاحا ، وتكون أغلبية الطفل من اصناف ينقصها التنوع المتزن ولذا تظهر كثيرا في مرحلة المراهقة .

والمرحلة التى تفصل بين ازالة الأسنان اللبنية وظهور الأسنان الدائمة تمثل فترة تظهر فيها صعوبات في نطق بعض الحروف ، حيث يوجد عادة فراغ في مقدمة الفكين يسبب صعوبة في نطق بعض الحروف ويظهر ذلك من حديث الطفل ، ولهذا فان معظم الاطفال يتعجلون ظهور الأسنان

الدائمة علاوة على ما يحدثه ظهور الإنسان الدائم من آثار نفسية على الطفل ، فهى دليل على اتجاه النمو نحو الاكتمال (١٣) .

### ( ز ) الجهاز العصبي

ان نمو الجهاز العصبي يكون سريعا قبل الميلاد خلال السنوات الثلاث أو الاربعة الاولى . وينحصر نمو الجهاز العصبي في فترة ما قبل الميلاد في ازدياد عدد وحجم الخلايا العصبية بينما ينحصر النمو بعد ذلك في تطور ونضج الخلايا التي لم تكن قد نضجت بعد عند الميلاد . وبعد سن الثالثة أو الاربعة يسير نمو الجهاز العصبي بسرعة بطيئة نسبيا .

اما ما يتعلق بنمو المخ فان دراسته دراسة مباشرة تصبح مستحيلة ، ولكن يمكن دراسته بطريقة غير مباشرة ، وتكون الدراسة تقديرية وليست دقيقة ، ويتم ذلك عن طريق فحص مخ الافراد بعد المات أو عن طريق قياس ابعاد الجمجمة في حالة الحياة .

وتدل هذه الدراسات على ان نمو المخ يكون سريعا جدا من الميلاد الى نهاية السنة الرابعة ، وتبطيء سرعة نموه بين الرابعة والثامنة من العمر ، ثم يستمر النمو أكثر ببطا حتى حوالى سن السادسة عشرة أى بعد مرحلة الطفولة المتأخرة بكثير ، وعند ذلك يكون حجم المخ قد وصل الى نهايته ، ونظرا لان عظام الجمجمة تكون مرتبطة بعضها ببعض ارتباطا غير وثيق عن طريق الأغشية خلال الشهور القليلة الاولى من الحياة فان فراغا كبيرا في حجم الجمجمة يترك لنمو المخ .

ومن حيث وزن المخ فان وزن المخ يبلغ في المتوسط ٣٥٠ جراما ، بينما يتراوح وزن مخ البالغ الكبير من ١٢٦٠ - ١٤٠٠ جراما ، ولعل النمو السريع في حجم المخ خلال السنوات الاولى من الحياة هو أحد الاسباب التي تؤدي الى اعطاء الجمجمة وزنها الثقيل نسبيا وحجمها غير المتناسب .

ومهما كانت العلاقة بين نمو الاجزاء المختلفة من المخ والنمو العقلي للطفل فان ملاحظة سلوك الاطفال تدل على انهم يكونون قادرين على التذكر وتربط المعاني بين الاشياء والاشخاص ، وعلى القيام ببعض الاشكال البسيطة من الاستدلال . وكلما ارتقى النمو سنة بعد سنة تزداد هذه القدرات العقلية تطورا واكتمالا . وليس المجال في هذا البحث متعلقا بربط النمو الجسمي بالنمو العقلي فهو موضوع آخر يخرج عن نطاق هذا البحث (١٤) .



عرضنا في الجزء السابق بعضاً من أهم مظاهر النمو الجسمي في الطفل من وقت ميلاده حتى نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة وقد راينا ( كما سبق ايضاحه ) أن نورد النمو في هذه الفترة التي يمكن تقسيمها الى عدة فترات واحدة واحدة في كل مظهر من مظاهر النمو الجسمي حتى يسهل تتبعه وملاحظة سياق التطور دون قطع الدراسة بطريقة مصطنعة الى اجزاء تحدها هذه المراحل التفصيلية .



**وبهنا الآن بعد أن أوضحنا هذا النمو الجسدى في هذه الفترة أن تنتقل من الجانب البنائى Structural الى الجانب الوظيفى Functional** فنتتبع النمو الحركى عارضين فى هذا النمو ما يحدث من تطور فى أهم المهارات الحركية التى تظهر لدى الطفل خلال هذه الفترة . ويمكن تلخيص أهمية النشاط الحركى فى الجوانب الآتية :

(١) أن الصحة الجيدة التى تعتبر حيوية بالنسبة لنمو الطفل وسعادته تتوقف جزئيا على تدريبه على المهارات الحركية ، فإذا كان تناسقه الحركى ضعيفا كان أدائه غالبا أقل من زملائه ، ولا يشعر الطفل بارتياح يذكر فى قيامه بالنشاط الحركى ، ويقل بذلك دافعه للاشتراك فيه .

(٢) أن النشاط الحركى يخلص الطفل عادة من الطاقة الزائدة التى يزود بها ويجعله مقبلا على النشاط الذى يزيد من قوة عضلاته ويحسن صحته بوجه عام .

(٣) يعتبر النشاط الحركى أسلوبا من أساليب التغيير والترويح على الطفل ، فنشاط الطفل فى اللعب بأدوات اللعب فى الصغر يساعده على تركيز انتباهه واستخدام وظائفه العقلية ، ومن ثم يساعد على أحداث التغيير والمتعة فى حياته .

(٤) كما أن النشاط الحركى يعطى الطفل فرصة للتفاعل الاجتماعى ، فالنشاط الحركى فى الاطفال عادة لا يتم حينما يكون الطفل منفردا بل يؤدى الى الاتصال بغيره والتعامل معه .

(٥) يساعد النشاط الحركى الطفل على تنمية مفهوم الذات عنده ، فنجاح ادائه إما كان يزيد من مشاعره بالامن تجاه البيئة التى يتفاعل معها .

وستتناول فيما يلى النمو الحركى فى الاجزاء الآتية من الجسم :

(أ) منطقة الرأس .

(ب) الجذع .

(ج) الأطراف .

#### ( أ ) منطقة الرأس .

تبدأ فى هذه المنطقة بتآزر العين الذى يكون ضعيفا خلال الساعات الاولى من الميلاد ، ولكن ذلك يتحسن بسرعة ، لدرجة أن الوليد المادى فى نهاية الشهر الرابع يكون قادرا على أغلب الحركات اللازمة فى عينيه ، فهو فى نهاية الشهر الثانى يستطيع أن يركز عينه على شيء ثابت وبعد شهر يستطيع أن يتتبع عادة شيئا متحركا . ولكن التناسق اللازم فى حركة العين لا يكتمل عادة بشكل يمكنه من القراءة دون اجهاد للعين قبل أن يصل الطفل الى سن السادسة .

ومن الملاحظ أن انعكاسات الابتسام استجابة للمثيرات اللسمية والحركية تظهر على الوليد من نهاية الاسبوع الاول من حياته ، اما الابتسامة ( الاجتماعية ) لشخص أو استجابة لابتسامة

أخرى لا تحدث حتى الشهر الثالث من العمر . ويرى بعض الباحثين أن هذه الظاهرة تعتبر أولى الاستجابات الاجتماعية للطفل .

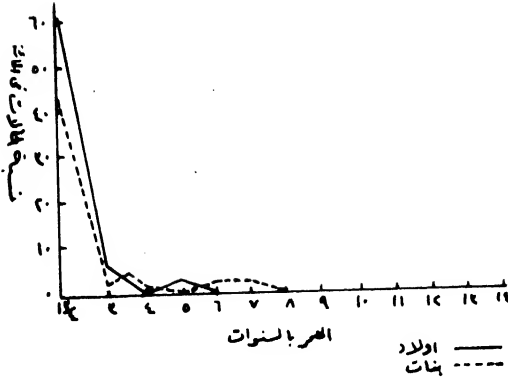
كما نلاحظ أيضا أن أغلب الأطفال الذين ولدوا حديثا يستطيعون أن يرفعوا رؤوسهم للحظات قصيرة ، فالوليد في الشهر الأول قد يحتفظ برأسه أفقية مستقيمة مع جسمه إذا حمل أفقيا ، وبعد شهرين يستطيع أن يرفع رأسه مائلة على الأفقى بحوالى ٣٠ درجة وكلما تقدمت الشهور يستطيع أن يرتفع برأسه وصدره أثناء نومه . ثم يستطيع بعد ذلك أن يدير رأسه بإدارة كتفيه واستخدام عضلات الجزء الأعلى من الجذع ، ولكنه لا يستطيع أن يحتفظ برأسه راسية عندما يجلس دون مساعدة إلا عند نهاية الشهر السادس ، ويتقدمه في العمر تطول المدة التي يستطيع فيها الاحتفاظ برأسه على هذا الوضع (١٥) .

### ( ب ) الجذع )

أن دوران الجسم من جانب لآخر أثناء النوم لا يتوفر للطفل المولود ، ولكن عندما ينتهى الشهر الثانى فإن الوليد يستطيع أن يتنقل من النوم على جانبه إلى أن يصير نائما على ظهره وفي نهاية الشهر السادس يستطيع الرضيع أن يدير جسمه دورة كاملة . وقد لا يتم له ذلك دفعة واحدة ، بل يتم على مراحل ، وفي دوراته عادة يبدأ بمنطقة الرأس ثم الاكتاف ثم الجزء الأسفل من الجسم ، وعن طريق الدفع بالساقين يستطيع الرضيع أن يدير كل جسمه .

ويصبح جلده تحت سيطرته قبل أن يتمكن من الجلوس بنفسه فهو عندما يصل إلى الأسبوع العشرين يستطيع أن يجلس بمساعدة محتفظا بجسمه معتدلا . وبين الشهر التاسع والعاشر فإن الوليد العادى يستطيع الجلوس دون مساعدة لدقائق معدودة ، وفي بداية تعلمه الجلوس يميل بجسمه قليلا إلى الامام ليحتفظ بتوازنه ، كما أن ذراعيه يكونان ممتدين على جانبيه جسمه وكما يكون ساقيه مقوسين بقدميه متقابلين ليعطيه هذا الوضع حيزا كبيرا للانزان .

ومن بين عضلات منطقة الجذع تكون أعضاء الإخراج وتأخر قدرة الطفل للسيطرة عليها وذلك لحاجتها إلى عضلات دقيقة ، فالتحكم في الإخراج معناه كف العمليات التي كانت بطبيعتها لا إرادية . وهذا التحكم لن يتم إلا إذا أصبحت عضلاته قوية ومتأخرة ، حتى يستطيع أن يمنع بذلك الفضلات التي تعمل على الخروج من الجسم . وبالرغم من أن هناك فروقا فردية بين الأطفال في القدرة على هذا التحكم إلا أن هذا يبدأ عادة عندما يتم الرضيع شهره السادس بينما التحكم في المثانة قد يتأخر حتى الشهر الخامس عشر أو السادس عشر حتى السنتين أو السنتين والنصف ، مع حدوث هفوات في حالة مرض الطفل أو إجهاده أو قلقه الانفعالي . أما الامتناع عن التبول ليلا فإنه يحتاج إلى سنة أخرى من النمو . وبوجه عام فإن الطفل عند دخوله المدرسة ينبغي أن يكون قد اكتسب عادة التحكم في البول حتى في حالات الإجهاد والقلق الانفعالي والاستثارة (١٦) .



شكل ( ٧ ) نمو عادات النظافة في الطفل ( التحكم في التبول ) مأخوذة من ( ١ )

### (ج) الأطراف

من أول ما يظهر في أشكال الحركات المتآزرة في الذراعين ينحصر في الحركات الدفاعية . وتبدو هذه من الأيام الأولى من الحياة . وتكون في بداية الأمر حركات ضعيفة التآزر والتنسيق ولكنها في نهاية الأسبوع الثاني بعد الولادة تكتسب قدراً كبيراً من التآزر - أما الوصول إلى الأشياء والقبض على الأشياء ، ما عدا في الحالات التي تلمس اليد الشيء صدفة ، فإنها تحتاج إلى قدر من التآزر بين العين واليد . حيث يجب أن تعمل العينان معاً ، ويرتبط عملهما بحركة اليدين . وفي المراحل الأولى من التآزر بين العين واليد ينظر إلى الشيء الذي أمامه دون أن يصل يديه إليه . وخلال الشهر الرابع يبدأ بالقبض على الأشياء ولكن بشكل بطيء وغير منتظم ، ويتحسن ذلك بعد شهرين . وبعد عدة شهور يستطيع الرضيع الوصول إلى الشيء بيديه والقبض عليه ثم يحوله مباشرة إلى فمه .

وفي انعكاس القبض على الأشياء Grasping Reflex الذي يظهر عند الميلاد أو بعد ذلك بقليل يقوم الإبهام والأصابع مقام الخطاف ، ويتم ذلك قبل أن يستخدم الرضيع يده لأغراض أخرى وفي هذه الحالة فإن الإبهام يعمل في اتجاه مخالف للأصابع ، ومعنى هذا أنه يعمل كوحدة منفصلة .

وانفصال الإبهام عن باقى الأصابع يتم عادة بين الشهر الثالث والرابع ، أما اخذ الأشياء فانه يتأخر حتى الشهر الثامن أو التاسع . كما أن القدرة على القبض على أكثر من شيء واحد أو اخذها معا يظهر في شهور متأخرة . فالطفل العادى في الشهر الخامس ينبغي أن يكون قادرا على أن يقبض على شيء يقدم له ، بينما فى الشهر السابع يستطيع أن يقبض على شيئين ، وفى الشهر العاشر على ثلاثة أشياء (١٧) .

ولنبدا الآن بالنمو الحركى في الساقين والقدمين : نلاحظ أن الحركات اللازمة للمشي تبدأ عند الميلاد أو حتى قبل ذلك . فالطفل المولود حديثا يقوم بحركات بدمية تشبه الركلات أو تشبه الخطو ، وكنتيجة لامتداد الساق والركلات فان الوليد يتعلم التأزر بين عضلات ساقيه وجذعه ، ثم يتعلم بعد ذلك احراز الاتزان بين اجزاء جسمه ، وهذا كله أساسى لعملية المشى ولا يمكن تحقيقه في فترة زمنية بسيطة ، وكثير من الرضع يكون لديهم استعداد للمشي بين الشهر التاسع والخامس عشر ، فعظام وعضلات وأعصاب الساق والجلد تكون معدة لذلك ، ولكن الرضيع يلزمه الاستثارة والمعاونة من الكبار قبل أن يستطيع المشى .

ونشاهد أن الرضيع في نهاية الاسبوع الثانى يستطيع عن طريق حركات ساقيه أن يحرك جسمه عن موضعه ، كما أن أول مظهر للانتقال يتم في الرضيع عن طريق الرفس ثم الجبو الذى يبدأ في حوالى الشهر الرابع ، ويصل الى قمة اتقانه بين الشهرين السابع والتاسع . وبعض الرضع لا يعرفون في هذه المراحل وينتقلون مباشرة الى المشى ، بينما نجد الآخرين يقفون في مرحلة من هذه المراحل فترة قد لا تطول ثم ينتقلون الى المشى .

وفي المراحل المتقدمة من الحركة التى تسبق المشى نجد أن الرضيع يقوم بحركات زائدة في أنحاء جسمه ، وبالتدريج ينتقل التأزر من الرأس حتى منطقة الساقين ، ويظهر التأزر جيدا ومتقنا في مرحلة الزحف ، ويتقدم هذه المهارات تزداد سرعة الطفل في الانتقال .

ويسبق المشى عادة القدرة على الوقوف ويحدث غالبا أن الوقوف مع المساعدة يسير جنبا لجنب مع الزحف ، والسن المعتاد للوقوف مع المساعدة لمدة دقيقة واحدة هو اربعون اسبوعا حتى خمسين اسبوعا . ولكى يحافظ الرضيع على توازنه فانه يقف متباعد الساقين وأصابع القدم متجهة للخارج والركبتان متقاربتان ، ويتجه الرأس والجزء العلوى من الجسم الى الامام ، وبالتدرج يقلل الرضيع من الضغط الذى يبذله على من يساعده في الوقوف الى أن يستطيع الوقوف بمفرده تماما .

ويستطيع بعض الصغار المشى بمجردوقوفهم بينما يتأخر البعض الآخر قلندا من الوقت حتى يكتسب الثقة في نفسه ليخطو الخطوة الاولى . ويحدث المشى التدريجي بمساعدة عادة مع الوقوف في وقت واحد . وفي دراسة لأحد الاطفال وجد أن فترة ٢٥ يوما قد مرت بين الوقوف بمفرده واتخاذ الخطوة الاولى في المشى .

وفي كل انواع الانتقال نجد ان الرضيع يحتفظ برأسه معتدلا حتى يكتشف طريقه ، وفي المشي يكون الجسم معتدلا وتكون الحركة من طريق تحريك الساقين وحدهما ، وكمساعدة لاحتفاظه بتوازنه فان ذراعى الرضيع تتجهان للخارج ، وتتجه القدمان للخارج ، وتتصلب الساقان ، وتتجه العينان الى الامام دون اهتمام بالنظر الى الارض ، وكثيرا ما يتسبب عن هذا وقوع الصغير أثناء المشي لغيباب ما تحت قدميه عن نظره ولصعوبة اتزانه في البداية ولقيامه بحركات زائدة لا تفيد في عملية التحرك .

وبنمو الصغير يحدث تغيران في عملية المشي :

( ١ ) يتناقص ارتفاع مركز ثقل الساقين

(ب) ويتم بذلك سهولة في الخطو . فبعد ان كانت الساقان ترتفعان الى اعلى مما يجب في بداية المشي ، وبعد ان كان يبذل جهدا وطاقة كبيرين في نقل قدميه وتتابع الحركة فيها يقل الجهد تدريجيا وتزداد الخطوة اتساعا وينقل ارتفاع الساقين ويتم ذلك حوالى السنة الثانية او الثالثة من العمر (١٨) .



### اكتساب المهارات في الطفولة

بعد ان يكتسب الطفل القدرة على التحكم في حركاته الكبيرة يبدأ في تنمية مهاراته ، ويقصد بذلك مجموعة التآزرات الدقيقة التى تلعب العضلات فيها دورا هاما . ويمكننا ان نصف المهارة بتعبيرات خاصة بها مثل « آلية سريعة ودقيقة ومرنة » وينبغى الا ننظر الى المهارة على انها عمل مفرد دقيق ، فكل مهارة مهما صغرت « حتى كتابة حرف من الحروف الهجائية هو سلسلة من مئات عمليات التوافق في خلايا الجهاز العصبى ، وتصبح الحركة المعتمدة على اية مهارة عملية معقدة للغاية تتضمن عمليات من التكامل والتمايز في الحركات الدقيقة ومراحل متتابعة من المحاولات وحذف الاخطاء . وتنقسم المهارات الحركية الى نوعين مختلفين :

(١) المهارات العضلية الكبيرة Gross Muscular Skills وهذه مثل الجرى والقفز والرفع والتسلق .

(٢) المهارات العضلية الدقيقة Fine Muscular Skills مثل الكتابة والعزف على الادوات الموسيقية الصغيرة ، او القيام بالاعمال الدقيقة التى تتطلب مهارة في الاداء .

ومن خصائص المهارات ان تعلمها يؤدى الى « العادات الحركية » فانشاط الذى يتكرر حدوثه بسهولة وارتياح يؤدى هذا التكرار الى اكتساب العادات التى تسهل من ادائه وتتابع الحركات فيه وتقليل الانتباه عند القيام به ، فتكرار الصغير لعملية الخطو والمشي يسهل من اداء حركاته وتتابعها بعد ذلك ، ويصبح المشي عادة حركية لا تحتاج الى تركيز الانتباه عند الطفل الكبير كما كانت تحتاج عند الطفل الصغير .

والمهارات لا يكتفى مجرد النضج Maturation في ارتقائها بالرغم من أن الأساس في القيام بها فسيولوجي الطبيعة ، إذ يتطلب نضج الأعصاب والعضلات ومناطق المخ المتصلة بعمليات هذه المهارات ، والتحكم في أوجه النشاط الإرادي المتأخر .

فبالإضافة الى النضج فان المهارات تتطلب تدريباً ، ولكن الأهم في التدريب هو كميته ونوعه ودقته ، فبالرغم أن المهارة تكتسب وتزداد إتقاناً مع تكرار المرات المتتالية ، إلا أن نوع التدريب لهذه المهارات له أكبر الأثر في إتقانها وسهولة أداء حركاتها بعد ذلك ، وكما سبق أن أوضحنا في الجزء الخاص بالنضج والتدريب فان أهمية التدريب وما ينتج من محصول وقيمة لا يحصل عليها الطفل إلا إذا جاء في الوقت المناسب الذي يرتبط ارتباطاً مباشراً بمرحلة النضج الخاصة بالعمليات التي تتضمنها المهارة المطلوبة . ويمكننا أن نفصل ذلك فتوضح العوامل التي يتوقف عليها إتقان الطفل لمهارة معينة :

#### ١ - التدريب في السن المناسب .

٢ - التوجيه والإرشاد بدلا من ترك الطفل ليعتمد على المحاولة والخطأ في أثناء العمليات اللازمة ، وقد يحدث الإرشاد حتمياً عن طريق تقليد الطفل لحركات أحد والديه ، وحتى في هذه الحالة يحتاج الطفل الى توجيهه ليحدث التقليد بأسلوب متقن بعيد عن الخطأ .

٣ - الدافع لإتقان المهارة وقد ينتج الدافع عن طريق تحقيق الطفل للهدف الذي يصرف من أجله الوقت والجهد . فالطفل الصغير حين يبذل جهده في عملية المشي عند تعلمها ، ويجد أنه قد حقق بذلك إحراز الانتقال من مكانه والوصول الى الأشياء التي لم يكن يستطيع الوصول إليها في وضعه الثابت فان ما يصاحب ذلك من ارتياح نفسي ومشاعر الانتصار تساعد الصغير على مواصلة بذل الجهد وتكرار العمليات اللازمة التي تؤدي الى الوصول الى الهدف .



**وبعد ، فذلك عجلة عن تتبع النمو خلال مرحلتي الطفولة ، وقد قدمنا لها بمرحلة ما قبل الميلاد ، وأدمننا بها الفترات القصيرة التي بها يبدأ نمو الطفل ، وبذلك جعلنا الدراسة تتضمن الطفل من وقت ميلاده الى نهاية طفولته ، أي خلال ما يقرب من اثني عشر عاماً .** وقد تتبعنا خلال هذه الفترة النمو الجسمي والنمو الحركي ، وحاولنا بقدر الإمكان بيان الأعمار التي تظهر فيها مراحل التغير في كل جزء من الأجزاء الهامة من جسم الطفل ، وفي كل مظهر من مظاهر نموه وكل مهارة حركية يكتسبها .

### الراجع

- (1) Hurlockb, E. : **Child development**. Mc Craw-Hill, 1964.
- (2) Havighurst, R. T. : **Leisure and life-style.**, Amer. J. Sociology, 1959.
- (3) Shinn, M. W. : **The biography of a baby**. New York : Macmillan, 1900.
- (4) Geseell, A.: **Maturation and the patterning of behavior**. in C. Murchisorn (Ed), **A handbook of child Psychology**. Worecester : Clark University press., 1933.
- (5) Meredith, H. V.: **Adiscriptive concept of physical development.**, In D. R. Harris (Ed.) **The concept of development : an issue in the study of human behavior**. Minneapolis : University of Minnesota press, 1957.
- (6) Duggins, O. H., and M. Trotter: **Age changes in head hair from birth to maturity**. Amer. J. phys. Anthrop., 1950.
- (7) BAYLEY, N. : **Some Psychological correlates of somatic androgyny**. Child Developm., 1951.
- (8) Garn, S. M.: **Fat thickness and growth process during infancy** Num. Biol., 1948.
- (9) Allen, I.: **Facial growth in children five to eight years of age**. Hum. Biol., 1948.
- (10) Meredith, H. V.: **A time series Analysis of growth in nose hight during childhood**. Child Developm., 1958.
- (11) Thompson, H. : **Physical growth**. In L. carmichael (Ed.) **Manual of Child Psychology**, New York : Wiley 1954.
- (12) Walker, R. N.: **Body build and behavior in young children**, child developm, 1962.
- (13) Massler, M., and B. S. Savara : **Natal and neonatal teeth**. J. Pediat., 1950.
- (14) Flavell. J. H. : **The developmental Psychology of Jean piaget**. Princeton : van Nostrand, 1963.
- (15) Breckenridge, M. E., and E. L. Vincent : **Child Development philadelphia saunders**, 1960.
- (16) Spits, R. A. : **Purposing grasping**. Personality, 1951.
- (17) E. L. Vincent, and P. C. Narin : **Human psychological development**, Ronald, 1961.
- (18) Carmichael L. : **Manual of child psychology**, 1954.
- (19) Lipsitt, L. P. and N. Levy : **Electrotractual threshold in the child** Developm, 1959.

سَيِّد مُحَمَّد غَنِيم

## النمو النفسي من الطفل إلى الراشد

### مقدمة

يلقى علم نفس الطفل اهتماما كبيرا من جمهرة المشتغلين بعلم النفس . وقد يكون مرجع هذا الاهتمام هو الطفل ذاته ، نظرا لما للطفولة من جاذبية شديدة نحسها نحن الكبار تجاه الاطفال . وليس من شك ان غالبية الآباء في الازمنة القديمة كانوا يحبون ابناءهم ويهتمون بتربيتهم ، كما نحبههم نحن اليوم ونهتم بتربيتهم ، مع اختلاف وجهات النظر الى الطفل والطفولة . لقد اشار فيليب اريس في استعراضه « للطفولة عبر القرون » ( ١٩٦٢ ) الى ان اطفال القرون الوسطى كانوا ابتداء من سن الثالثة او الرابعة وما بعدها يشاركون في كثير من أنشطة الكبار . ولم تكن للاطفال شخصياتهم المستقلة كاطفال . وقد تطلب الامر مرور مئات السنين في الازمنة الحديثة ، قبل ان تتغير نظرنا الى الاطفال عامة باعتبار ان لهم شخصياتهم المتميزة عن شخصيات الراشدين . وقد سار المجتمع الحديث خطواته واضحة في فصل عالم الاطفال عن عالم الكبار .



والاهتمام الكبير بعلم نفس الطفل أمر عملي ضرورة فهم الطفل الذي نتعامل معه . فقد أصبح لزاماً على الآباء والمربين أن يفهموا الأطفال من أجل أن يتوافقوا معهم ومع مشكلاتهم التي يواجهونها ، وأن يساعدوهم على حل هذه المشكلات بما يهيئ المجال أمام نمو نفسي سليم . فمن خلال الدراسة المنظمة لعملية النمو النفسي والاجتماعي للطفل يمكن أن نقف على ما هو عادي وما هو شاذ في سن معينة ، وأن نعرف الكثير من جوانب شخصيته ، وأن نوجه التوجيه السليم الذي يتوافق مع مرحلة نموه والظروف التي يعيش فيها . وقد يكون هذا الاتجاه من نتائج الأفكار الحديثة ، إذ لم تكن ثمة حاجة قديماً ، لفهم الطفل ولا حتى معرفة خصائص المرحلة الثمائية التي يمر بها ، كما كانت تسود علاقته بالكبار بعض الأفكار التي أثرت في نظرتهم اليه وأسلوب معاملتهم معه ، فهو مثلاً يرى ولا يسمع ، ومن ثم لسنا في حاجة لمعرفة ما يجري في عقله من أفكار أو ما يتكون لديه من ميول واتجاهات . ولقد حدث تغير ملحوظ في تفكيرنا عندما بدأنا ننظر الى التربية كشيء ضروري بالنسبة للطفل ، وكان هذا التغير نتيجة لما طرأ على العالم من تغير اجتماعي ومن ثورة صناعية ، وما نجم عن ذلك من تغير في اقتصاديات هذا العالم ، والأدوار الوظيفية المعقدة التي ظهرت والتي لا يمكن اكتسابها عن طريق التقليد أو النموذج على نحو ما كانت تسير عليه التربية القديمة .

**وإذا كان النظام التربوي القديم يتسم بالشدّة والصرامة في معاملة الطفل ، إلا أن عقلاء المفكرين والمربين سرعان ما أدركوا أهمية النافعية وأن « الحصان الذي يقاد الى الماء قسراً لا يشرب بالضرورة حتى لو ضرب » ، كما أدركوا أهمية الفروق الفردية بين الأطفال في النواحي الجسمية والعقلية والانفعالية وفي الشخصية . ومن هنا ظهرت الحاجة الماسة الى ضرورة ادخال تعديلات على مناهج الدراسة كي تتلاءم ومستويات نضج الطفل . وإذا كان الالتحاق بالمدارس الى عهد قريب قاصراً على طبقات معينة يمكنها الانفاق على العملية التعليمية ، فقد أصبح اليوم عاماً واجبارياً . وإذا كان الوقت الذي يقضيه الطفل في المدرسة قليلاً في البداية ، فقد أصبح في الغالبية العظمى من أنظمة التعليم في العالم اليوم ، يمثل جانباً كبيراً من ساعات نهار الطفل ، هذا بالإضافة الى انشغاله بعد عودته من المدرسة ، بالكثير من الواجبات المدرسية . وقد تطلب هذا الامر وجود قدر كبير من المهارات والقدرات لمواجهة هذه الواجبات ، مما دعا المدرسين الى الاستعانة بعلماء نفس الطفل للجابة على كثير من المشكلات التي تواجههم في العملية التعليمية .**

غير أن المشكلات التي تواجه المدرسين ليست شيئاً بالقياس لتلك التي تواجه الآباء في تربيتهن للإبناء ، فحين يصبح الآباء أكثر تعلماً وثقفاً وإدراكاً بوعياً ، فانهم يبدأون في إثارة الكثير من الشكوك حول الرغبة في الاتجاه الى أسلوب التربية أو النظام الذي تربوا هم أنفسهم عليه . فربما كانت هناك الرغبة الشعورية أو اللاشعورية في أن يكون أسلوب تربيتهن لابنائنا أفضل بكثير من أسلوب تربية آبائنا لنا . ومن ثم أصبح أسلوب « التعقل والفهم » هو الأسلوب السائد اليوم ، أما الاتجاه الى توقيع العقاب والضرب ، فانه - إذا حدث - يكون لذنب بوقع

النمو النفسي : من الطفل الى الراشد

فيه الطفل ، او يكون نتيجة احساس شخص بالفشل . والواقع ان معظم الاسر اليوم تتخذ اسلوب الفهم والتعقل في معالجة مشكلات ابنائها ، كما تفيرت الكثير من المفاهيم والافكار عن الطفل . فهو اليوم يرى ويسمع ، يل ويؤثر الى حد ما في قرارات الاسرة وخاصة اذا ما حفزناه الى القيام بمثل هذه المشاركة . والحقيقة ان هذا التغير هو نتيجة لرفيقتنا في ان نصبح اكثر ديموقراطية في اسلوب معاملتنا مع الآخرين . ففي المجتمعات الاكثر تقليدية ، تقاس قيمة الفرد الى حد كبير بمركزه ووضع في البناء الاجتماعي . ولما كانت مثل هذه المجتمعات متجهة نحو الكبار ونحو سيطرة الرجال ، فان مركز الطفل والمرأة كان فيها وضعيا ومغيبونا أو مهملًا ، ونادرا ما كانت تسمع آراؤهم كأفراد .

وثمة سبب آخر للاهتمام الموجه نحو دراسة علم نفس الطفل في السنوات الاخيرة يتلخص في الرغبة في فهم انفسنا كراشدين . فإخذ الاساليب الهامة لفهم الذات او اكتشافها يكمن في دراستنا لسيكولوجية الطفل . فمن خلال دراستنا للطفل ، يمكن ان نثر على بعض المبادئ معرفة غموض انفسنا ومعرفة من نحن . اننا جميعا ندرك اننا الآن وبالتأكيد اكثر مما كنا عليه في طفولتنا ، وان اكتشافنا للاحداث والخبرات التي مرت بطفولتنا من شأنه ان يملأ الفراغ القائم بين انفسنا في الطفولة وانفسنا اليوم . فنحن ندرس تقارير هذه الاحداث والخبرات التي مرت بنا في الطفولة ، بحثا عن انفسنا ، وعن تفسيرات لنجاحنا او فشلنا ، وعن نواحي الكف والاعاقة التي تعرضنا لها ، واثرها في سلوكنا وقدراتنا وامكانياتنا . وكما يقول **كونجر وموسن وكيجان** ان دراسة سيكولوجية الطفولة تزودنا بالاساس الذي لا بد منه لكي نفهم سلوك الراشدين فهما اكثر دقة . فالبيانات الاكلينيكية المستمدة من تواريف الحالات الخاصة بالمجرمين والمرضى في العيادات والمستشفيات العقلية تكشف لنا عن ان سوء التوافق الشخصي والاجتماعي الذي يشيع بين الكبار يعود بصفة دائمة تقريبا الى الخبرات التي يقيما الفرد في حياته المبكرة . ولقد كان **لسيجموند فرويد** ، ابي التحليل النفسي ، الفضل في ان اظهر بقوة ما لاحداث الطفولة من اهمية ، كما استطاع بتحليلاته النفاذة للمرضى الذين كان يعمل معهم ان يوضح صدق قول الشاعر « الطفل ابو الرجل » ( الترجمة العربية ١٩٧٠ ) .



### ● المجالات والطرق والنظريات :

وبهنا الآن ان تلقى نظرة على مجالات دراسة الطفل وتطورها ، والطرق التي استخدمت في هذا المجال بما يسمح لنا بالبقاء المزيد من الضوء على النظريات التي عالجت النمو النفسي للفرد في طفولته ورشده . .

### ولتبدأ الآن بمجال دراسة الطفل :

ارتبطت دراسة الطفل — كمجال من مجالات الاهتمام — بغيرها من المجالات الكبرى . اذ تمتد اصولها القديمة الى الفلسفة والتربية والتاريخ الطبيعي ، كما ترتبط حديثا بمصادر

كثيرة مثل علم النفس التجريبي وعلم النفس الكلينيكي والطب النفسي والفسولوجيا وطب الأطفال وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا واللغويات . ورغم اختلاط أصوله ، فمن الممكن النظر إليه باعتباره مجالا شبه مستقل . ومع ذلك فحدوده لا تزال غير محددة ، كما ان أهدافه واهتماماته متنوعة . ومن الممكن ان نشير الى ثلاثة مجالات ينقسم كل منها الى قسمين ، تعتبر بمثابة اطار لجميع ألوان النشاط التي تجرى في هذا الميدان .

**فالنراصة قد تتجه لولا :** اما الى ناحية البحث او الى ناحية التطبيق ، اى اما الى الكشف عن كيف يعمل الطفل ، وكيف ينمو ، اوالى القيام بعمل اشياء للطفل ومن اجل الطفل . ومجالات التطبيق المتصلة بالطفل كثيرة ومتعددة تتجلى في مجالات العيادات النفسية ، وعيادات الطب النفسي ، وفي التوجيه المدرسي ، ومحاكم الاحداث ، وفي برامج توجيه الآباء والابناء .

**وقد تتجه النراصة ثانيا :** اما الى الطفل المعادى أو الى الطفل الشاذ . اعنى اما الى النمو الذى يسير سيرة الطبيعي أو الى النمو الذى يشذ عن الطريق العادى او الطبيعي .

**وقد يتجه مجال الاهتمام ثالثا :** اما الى الطفل نفسه وما يجرى به داخليا من عمليات عقلية ونفسية وما يعتره من انفعالات ، او الى البيئة المحيطة به وكيف تؤثر في سلوكه ونموه من خلال عملية التطبيق الاجتماعى التى تأخذ بها الطفل منذ وقت مبكر في عملية نموه .

ومع ذلك ، وبصرف النظر عن ناحية الاهتمام ، فان الهدف هو معرفة شيء أو الكشف عن شيء يتصل بالطفل . ولقد تعددت النواحي التى يركز الباحثون عليها دراستهم للأطفال . فالبعض يهتم بالأطفال كأطفال ، اى باعتبارهم مجموعة فرعية مستقلة عن الكبار ، وبالطرق المميزة التى يسلك بها الأطفال جميعا أو الأطفال فى سن معينة أو الأطفال من نوع خاص أو الأطفال الذين يعيشون تحت ظروف بيئية معينة على نحو ما يتضح فى دراسات **وودكوك ( ١٩٤١ )** ، و**بايبر وميرفي ( ١٩٤٢ )** وكذلك فى دراسات **جيزل** المستعرضة التى أجراها على اعمار خاصة.

اما البعض الآخر فقد ركز الاهتمام على كيف يتغير الطفل أكثر مما ركزه على كيف يسلك فى وقت معين . وهذا الاهتمام بالتغيرات النمائية قد يتركز على التغيرات الجسمية ، أو على النمو العقلى أو على النمو الانفعالى أو على النمو عامة . والامثلة فى هذا الصدد لا حصر لها ويكفى الرجوع الى ما كتبه اليزابيث هرلوك وشارلوت بهلر وأرنولد جيزل وجان يياجييه وجوردون البورت وغيرهم كثيرون .

**وثمة جماعة ثالثة** ركزت اهتمامها على عملية النمو ذاتها مستقلة الى حد كبير أو صغير عن الشيء النامى ، طفلا كان أم حيوانا أم حضارة .، وهذا الاتجاه يتضح على وجه الخصوص فى كتاب هاینز فرنز حيث تساءل فى مقدمة كتابه « علم النفس المقارن للنمو العقلى » من ما هو علم النفس النمائى وما مشكلاته ؟ ورد على ذلك بقوله : ان مفهوم علم النفس النمائى يتضح تماما اذا فهمنا انه يعنى العلم الذى يختص بدراسة نمو الحياة العقلية والذى يتخذ منهاجا محددا ، ونعنى به منهج ملاحظة الظواهر السيكولوجية من وجهة نظر نمائية .

وهناك جماعة رابعة تهتم بدراسة اطفال مفردين ، وكيف يؤدون وظائفهم ، وكيف يشعرون وذلك اما بقصد التشخيص الاكلينيكي ، أو بقصد البحث في نواحي الشخصية أو نمو الشخصية ودينامياتها على نحو ما يتضح في دراسات ميري عن المهارات والمصادر التي يستعملونها مع البيئة .

وأخيرا يمكن أن نشير الى الدراسات التي تجرى بطريقة عرضية على الاطفال والتي يستخدم فيها الاطفال كموضوعات للدراسة التجريبية ، لا لان الباحث يهتم بمعرفة شيء عن الاطفال ، ولكن لان الاطفال هم الاشخاص الذين في متناول يده ، ويمكنه ان يجرى عليهم أبحاثه وتجاربهم باعتبارهم عينات للجنس البشرى عامة. ومن أهم دراسات هذا النوع تلك التي تتصل بأبحاث التعليم ، سواء أجريت في العمل أو في الفصل ، والتي تحاول ان تحدد الظروف الخارجية للتعليم ، والتي يمكن فيها ان يستخدم الكبار أو القيران مكان الاطفال . ومع ذلك يمكن القول أنه حتى في هذا النوع من الدراسات تلتى لا تخبرنا بشيء عن الاطفال من حيث هم كذلك ، فقد يكون لها أهمية تطبيقية بالنسبة للمدرسين أو للآباء .

وهكذا يتبين لنا أن دراسة الطفل تمثل لنا أشياء كثيرة مختلفة يمكن أن يقوم بها أناس كثيرون مختلفون .



### ● طرق البحث في دراسة النمو

ليس الهدف هنا تقديم عرض تفصيلي لمناهج البحث ، بقدر الإشارة الى بعض الطرق الأساسية والأفكار المنهجية التي ظهرت كأدوات خاصة في دراسة النمو . وقد وصلت إلينا هذه الأدوات من مجالات متعددة ، ومن وجهات نظر مختلفة في دراسة الطفل . ولذا يحسن النظر إليها في ضوء المشكلات والفروض التي أوجدتها، أعني في ضوء نظرة تاريخية تربط فيها بين الأدوات والحقب الزمنية أو التاريخية التي ظهرت فيها ، بشكل يلقي لنا الضوء على تطور استخدام هذه الأدوات في دراسة الطفل .

ومن الممكن ان نتتبع بالدراسة أربعة أنواع من الأدوات الرئيسية هي : طرق الملاحظة ، والطرق العملية ، والاختبارات والمقاييس ، والطرق الاكلينيكية . وكل طريقة منها تقابل حقبة زمنية ظهرت فيها . وهذه الحقب الزمنية الأربع هي الحقبة الطبيعية Naturalist Era والتي بدأت في القرن الثامن عشر وبلغت ذروتها في منتصف القرن التاسع عشر ، وحقبة علم النفس التجريبي القديم ، والتي بلغت ذروتها في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، ثم حقبة الفروق الفردية والتي سادت الثلث الأول من القرن العشرين ، ثم حقبة دراسة الشخصية والتي بلغت ذروتها في السنوات العشرين الأخيرة من هذا القرن . وهذا التقسيم التاريخي يقوم على المفهوم المتغير للفرد على نحو ما سوف يتضح من خلال المناقشة التالية لها.

**أولاً : الحقبة الطبيعية :** من المعروف لئان الاهتمام بدراسة الطفل ليس وليد العصر الحديث ، بل يمتد الى عهود قديمة . فقد ورد في الكتب السماوية ما يشير الى تربية الصغار وتقويمهم ، وكذلك في النظريات التي نادى بها فلاطون في الجمهورية ، وفي كتابات المحدثين من الفلاسفة من أمثال جون لوك ، وجان جاك روسو وغيرهما عن تنشئة الطفل . لقد كان جون لوك ( ١٦٣٢ - ١٧٠٤ ) من أوائل المفكرين الذين مهدوا لهذه الحقبة ، فناقش الكثير من الافكار القديمة التي تتصل بتربية الطفل ونشر سنة ١٦٩٣ مقالته « بعض الافكار المتصلة بالتربية » نصح فيها المربين بترك الحرية للطفل كي يعبر عن مشاعره ، والا تقيده حريته الا قليلا . ولم يكن يتفق والآراء التي تذهب الى تدريب الطفل على الصيانة ، او تاجيرهم للعمل ، لان من واجب الآباء ان يهتموا بتربية أبنائهم وأن يبقوا الى جوارهم ما يمكنهم ذلك . وكون الآباء نماذج طيبة أمام الأبناء هو احسن نمط يمكن التأثير به في شخصية الأبناء . ولقد كان **لوك** احد المفكرين الاقوياء من اصحاب التأثير في تنمية الاسلوب العلمى . فرفض الاعتقاد بان المعرفة فطرية ، واكد ان كثيرا من معرفتنا انما مبعثه الاحتكاك بالبيئة ، وان هذه النتائج يجب ان تدمج من خلال الطرق التجريبية . وتعتبر اعمال لوك في الادراك الحسى والتذكر وتداعى الافكار والانفعالات ونمو اللغة من الاعمال التي ساهمت فيما بعد في ارساء قواعد علم النفس التجريبى .

وثمة مفكر آخر كان له تأثير عظيم على الاتجاهات نحو الاطفال ونعنى به **جان جاك روسو** ( ١٧١٢ - ١٧٧٨ ) ، والذي رفض - شأنه شأن لوك - الكثير من الافكار التي كانت سائدة في العصور الوسطى عن الاطفال . ان ما نخرج به من قراءتنا لروسو هو الاحترام الكبير للانفال كأفراد . فمثلا يجب ألا يصر الآباء على اعتدال الطفل لانه لا يهدف بطبعه الى القيام بالخطيئة . انه مخلوق طيب بطبعه ، وان ما يفرضه مجتمع الكبار عليه من قيود وتحريات هو الذى يعرقله ويضطره الى أن يكون شخصا أقل نبالة وفضيلة، وقد كانت نظريته تخالف ما تواضع عليه المجتمع فدعا الى تشجيع الطفل على أن يعبر تعبيرا حرا غير مقيد عن نوازهه الاصيله التي هى في جوهرها واصلا نوازع نبيلة .

لقد بدأت لحقة الطبيعية في اواخر القرن الثامن عشر حين اخذ نفر من الباحثين في دراسة الاطفال باستخدام منهج الملاحظة الفعلية . من ذلك ما قام به المربى السويسرى **جوهان هاينريش بستاوتز** ( ١٧٤٦ - ١٨٢٧ ) من نشر مذكرات تقوم على الملاحظة الدقيقة التي قام بها لنمو ابنه الذى يبلغ من العمر الثالثة والنصف . وقد اعلن هو الآخر اهمية فهم الاطفال وسلوكهم . وقد نظر الى الام باعتبارها اول وأهم مرب للطفل ، وحفرها على أن تصدق مشاورها نحو الطفل ، وان تفتح امامه آفاق هذا العالم وتعده لاستخدام حواسه وتقوية ملاحظته .

وفي القرن التاسع عشر بدأت تظهر سلسلة متتابعة من تراجم حياة الاطفال . فقد قدم العالم المشهور تشارلس دارون ( ١٨٠٩ - ١٨٨٢ ) من بين اعماله العديدة ، مقالة اورد فيها ملاحظاته عن طفله الاول . كما قدم العالم الفسيولوجى **ولهم** تيرى براير Preyer ملاحظاته الدقيقة عن النمو العقلى لطفله خلال السنوات الاربع الاولى من حياته .

لقد لاحظ نمو الانمكاسات منذ الولادة ، كما لاحظ اثر الخبرة والتعلم . ويعد كتابه « عقل الطفل The Mind of the Child » وهو خلاصة ملاحظاته احد امهات الكتب القديمة في علم نفس الطفل .

فالمنهج الطبيعي في دراسة الطفل - شأنه شأن المنهج الطبيعي في علم البيولوجيا - يقوم اساسا على الملاحظة والتسجيل الدقيقين لما يقوم به الطفل في موقف طبيعي وفي مجال نشاطه اليومي . فلم يكن الاهتمام موجها اذن بوجه عام نحو تحليل او معالجة التغيرات في الموقف بقصد دراسة الانواع الخاصة للاستجابات او للتاثير على النمو .

وثمة مظهر آخر لمنهج الطبيعيين ونعني به الدراسة الطولية Longitudinal والتي تقوم على تكرار الملاحظات على نفس الفرد في فترات متعاقبة ( وهذه الطريقة الطولية تختلف عن الطريقة المستعرضة Cross-Sectional حيث ندرس النمو بمقارنة اطفال مختلفين في اعمار مختلفة ) .

والحقيقة ان الكثير من ملاحظات الطبيعيين القدامى تبدو لنا اليوم بسيطة وساذجة . فعلى ملاحظات غير منهجية ، وتتم على فترات غير منتظمة . وطالما انها كانت تقتصر الى المقارنات بين الاطفال وبين المواقف والظروف المختلفة للنمو بين الملاحظين ، فانها كانت اذن دراسات غير مضبوطة تماما . هذا بالإضافة الى ان الملاحظين في الاغلب كانوا لا يحجمون عن انحام مشاعرهم الذاتية وتفسيراتهم الشخصية على ما يرونه من سلوك الطفل ، والذي هو في الاغلب ابنه او احد اقاربه . ومع ذلك ، ورغم كل هذه الانتقادات ، فلا تزال مثل هذه التراجيم الاولى مصدر ثروة للمادة العارضة في نمو الطفل . كما انها تعد بمثابة دراسة للفردية بالمعنى الحديث فالباحثون القدامى كانوا يوجهون اهتمامهم الى دراسة سلوك الطفل « بعامة » اكثر من اهتمامهم بدراسة النواحي التي يختلف فيها طفل عن الآخر .

وبطبيعة الحال استمر المنهج الطبيعي في خلال الحقبة الثانية وهي حقبة علم النفس التجريبي القديم ، ولكن بصورة معدلة وحتى وقتنا الحاضر . فالباحثون القدامى الذين اهتموا بدراسة الطفل كانوا اساسا طبيعيين في اتجاهاتهم ولكنهم بدأوا في تكيف مناهجهم القديمة مع الاتجاه التجريبي الجديد . ومن ثم نجد سير ستانلي هول ( ١٨٤٦ - ١٩٢٤ ) والذي كان مهتما ببحث « محتويات عقول الاطفال » يلجأ الى استخدام منهج جديد للبحث هو منهج الاستبيان questionnaire والذي يتألف من سلسلة من الاسئلة وضعت للحصول على المعلومات عن سلوك الطفل والمراهق ، واتجاهاتهم واهتماماتهم ، كما كان يجمع الاستجابات المكتوبة على هذه الاستبانات من كل من الاطفال وآبائهم على السواء . ويمكن القول ان عمل « هول » الذي استمر في القرن العشرين يحدد بداية الدراسة المنظمة لعلم نفس الطفل . لقد بدأ يركز الانتباه على جوانب معينة من نشاط الطفل ، كما انه يعد من الناحية المنهجية أكثر موضوعية من المناهج الفلسفية وتراجيم الحياة ، هذا بالإضافة الى مكان معالجة نتائج هذه الاستبانات في صورة كمية .

**ثانياً : حقبة علم النفس التجريبي القديم:** وعلى خلاف الطبيعيين الذين اهتموا بالتركيز على الوظائف الكلية للطفل - والطفل دائماً - فان التجريبيين الاول قد ركزوا اهتمامهم على دراسة الوظائف الجزئية كعمليات التفكير والتذكر والادراك والتصور وما اشبهه . ولكنهم كانوا يشبهون الطبيعيين في ناحية البحث عن القوانين العامة او الصور الكلية لهذه الوظائف المجردة النقية . ومن أجل البحث وراء العمومية والنقاء ، تركوا المجال الطبيعي ودخلوا المعمل حيث يمكن تجنب الكثير من تعقيدات الحياة اليومية وتعقد الظروف فيها . وفي المعمل يمكن استخدام الطرق السيكوفيزيكية وتغيير الظروف بشكل منتظم واستخدام كل ظرف على حدة . ولجعل الظروف نقية تماماً لجأ بعضهم الى تخلص المثيرات ، قدر الامكان ، من جميع المعاني على نحو ما فعل ابنهوس في تجاربه المشهورة على التذكر ، والتي استخدم فيها مقاطع صماء عديمة المعنى ، كما أنهم في بحثهم عن العمومية نظروا الى الفروق الفردية التي توجد بين الافراد في الاستجابة للمثيرات المختلفة باعتبارها شوائب تجريبية او اخطاء في القياس ، ولجأوا الى تكرار الاقيسة من أجل الحصول على متوسطاتها . وبالمثل لم يكن يرحب هؤلاء بالتغيرات او الاختلافات في الفروق النمائية . فالتجريبيون الاول كانوا مهتمين أساساً بالوظائف الجزئية عند الكبار ودراستها في ظروف نقية قدر الامكان ، بقصد الوصول الى القوانين العامة التي تخضع لها . ولذا كان نصب التجريب المعمل على الاطفال في هذه الحقبة السيكوفيزيكية المبكرة ضئيلاً .

ولكن بعد ذلك ، اخذ علماء النفس المعمل يوجهون اهتمامهم نحو التغيرات النهائية، وأجريت دراسات على التغير مع السن في مظاهر السلوك المختلفة مثل زمن الرجوع ، وفترات التذكر والنسيان وحل المشكلات وغيرها .

يضاف الى ذلك ان المناهج التجريبية في المعمل اصبحت قابلة للتطبيق على عدد كبير من المشكلات خارج جدران المعمل حيث يمكن دراسة الآثار المباشرة والبعيدة المدى لظروف أكثر تعقيداً ، مثل دراسة القيادة السلطوية ضد القيادة الديمقراطية ضد القيادة المطلقة ، او دراسة منهج تعليم القراءة عن طريق السمع في مقابل البصر . والواقع ان المنهج الاساسي للتجريب والذي استعمر من السيكوفيزيقا يتطلب فقط ضبط الظروف والمقارنة بينها .

**ثالثاً : حقبة الفروق الفردية** ثم ظهر مجال جديد من مجالات الاهتمام في علم النفس العلمى في السنوات الاولى من القرن العشرين . لقد اخذ هذا الاتجاه الجديد مظهرين : الأول النظر الى الناس على أساس وجود سمات متعددة لديهم . والثاني كيفية توزيع هذه السمات على المجموع العام من الناس . فمجال الاهتمام والتركيز في هذه الحقبة لم يكن منصبا على طبيعة الوظائف العقلية او العمليات العقلية المفردة - كما كان في الحقبة السابقة ، بل على مقدار وجودها وتوزيعها بين الناس .

**والفكرة الاساسية التي يقوم عليها هذا الاتجاه ،** هي تلك العبارة التي دوى صداها في تلك الأيام والتي تعزى الى تونديك حيث يقول « ان كل ما يوجد ، يوجد بمقدار ، وكل

ما يوجد بمقدار يمكن قياسه » . وفي هذه الحقبة ، كانت الاختبارات كأداة ، هي موضع اهتمام بالغ لدى علماء النفس . فمع بداية الحرب العالمية الاولى ظهرت الحاجة ماسة الى اجراء الاختبارات السيكولوجية على نطاق واسع على المجندين الجدد في الجيش . ومن ثم ظهر العديد من اختبارات الذكاء . وكان من نتيجة ذلك ايضا ان ظهرت الاختبارات الجمعية التي يمكن ان تطبق على عدد كبير من الافراد في وقت واحد . وبعد الحرب استخدمت الاختبارات العقلية على نطاق واسع في مجال المدرسة وميدان التعليم . ومن قياس الذكاء انتشرت الاستخدامات المختلفة للاختبارات ، فاستخدمت في قياس القدرات الخاصة عند الفرد كالقدرة اللغوية او الرياضية او الميكانيكية او الموسيقية ، كما استخدمت أيضا في قياس الشخصية .

ومن ائمة حركة القياس نذكر **جالتون وجيمس ماكيد كاتل وفوردريك وترستون وترمان وسبيرمان** وغيرهم كثيرون ممن اتي بعدهم . وكانت حركة القياس والتي تعرف الآن باسم « السيكومترية » ظاهرة من ظواهر علم النفس الأمريكي ، وان كانت هذه الحركة قد بدأت اولاً في فرنسا على يد طبيب فرنسي مشهور هو « الفردينييه » ويعتبر بينيه احد الرواد الاول في قياس الذكاء ، حيث وضع اختباره المشهور وزميله سيمون والذي عرف فيما بعد باسم « مقياس استنفورد - بينيه - للذكاء » - والذي خرجنا منه بفكرة هامة في قياس الذكاء هي فكرة العمر العقلي . وكانت هذه الفكرة هي بداية كثير من الافكار التي من هذا النوع والتي استخدمت على نطاق واسع بعد ذلك في دراسة الطفل : كالعمر التحصيلي والعمر التعليمي والعمر القرائي الخ .. ومن المهم ان نلاحظ ان قياس السمات على اساس العمر او اي مقاييس اخرى هو دائما نسبي بالنسبة للمجموع العام من الناس . ومع ذلك فقد عولجت في الغالب كما لو كانت مقاييس مطلقة تعبر عن المقدار الفعلي للذكاء او اي سمة اخرى لدى الفرد .

ويجدر بنا ان نشير الى ان اهتمام السيكومترين الاول بالفروق الفردية كان في الحقيقة موجها الى اختلاف الجماعات في سمة ما في وقت واحد ، وليس الى الطريقة التي بها يختلف فرد عن آخر . ومع ذلك ، فقد طبقت المقاييس العقلية على الافراد بقصد التصنيف التربوي او المهني . واستخدام اختبار بينيه اساسا كوسيلة تساعد على تقدير قدرة الفرد على التعليم ، وفي التمييز بين العاديين وغير العاديين .

ولقد حاول نفر من السيكومترين بعد ذلك الوصول الى تقدير شامل للفرد بتحديد درجته في مجموعة من الاختبارات وتوضيع لقياس سمات مختلفة . ورغم ان هذه الطريقة مكنت المختبر من وضع عدد من الاحكام المستقلة المنفصلة عن الفرد موضع الدراسة ، الا انها لم تبين لنا كيف ترتبط هذه السمات ببعضها بعض .

وغالبا ما يركز السيكومترين على وسائل القياس ذاتها ، وعلى الانماط العامة لتفسير الجماعة في حدود منحني التوزيع الاعتدالي ، واغفال الافراد موضوع الدراسة ( او حتى السمات ) . وعلى الرغم من استخدام الاطفال كأفراد عند تطبيق الاختبارات ، الا ان الاهتمام



الرئيسى لحركة القياس لم يكن موجها الى دراسة طبيعة الطفل كطفل . ولكن حديثا ، أصبح المختبرون اكثر مرونة في تفسير نتائج القياس ، واصبحت الاختبارات وسيلة ضرورية وهامة في دراسة الطفل .

**ولكن كى تكون النتائج التى نحصل عليها من استخدام الوسائل السيكومترية مفيدة ونافعة ، يلزم أن تتوفر فكرتان أساسيتان في نفس المقياس ونعنى بهما الثبات والصدق .**

**أما الثبات** فمعناه أن المقياس يعطى أساسا نفس التقدير عند إعادة تطبيقه على الأفراد .

**أما الصدق** فمعناه أن الاختبار يقيس ما وضع لقياسه . والاختبار الجيد يمكننا من التنبؤ بما سيكون عليه سلوك الطفل أو الفرد بوجه عام . فمثلا اختبار الذكاء يمكننا من التنبؤ بمدى تحسن التلميذ أو الطفل في المدرسة ، ومدى استعداده للدراسة في مستقبل إيامه . ولكن الاحكام الخاصة بأداء الطفل في المدرسة ليست ثابتة تماما ، حيث تتأثر بعدد كبير من العوامل الأخرى غير الذكاء . وعلى العموم ، فنتائج اختبار الذكاء ترتبط ارتباطا عاليا بالتحصيل ، أعنى أن الذين يحصلون على تقديرات عالية في اختبار الذكاء ، يحتمل أن يكون تحصيلهم للدراس عالية ، كذلك والعكس لكن تحدث استثناءات فردية يمكن أن ترجع الى خطأ في احكام المدرسين انفسهم أو الى عمل عدة عوامل أخرى تتدخل الى جانب الذكاء أو الى الاختبارات ذاتها .

ويجب الا يظن القارئ أن الاختبارات كانت هي وحدها الأدوات الجديدة التى استخدمت في هذه الحقبة الخاصة بالقياس العقلية ، ذلك أن مناهج الملاحظة التى اتبعت في الحقبة الطبيعية قد عدلت واخذت هي الأخرى صورة كمية . فقد ظهرت لدينا طريقتان جديدتان انتشرتا انتشارا واسعا ، ونعنى بهما مقياس التقدير rating scale والعينة الزمنية time sample وهذه الأخيرة بالذات وضعت للاستعمال مع الأطفال ، وعلى العموم فقد استخدمت كلا منهما استخداما واسعا في دراسة الطفل .

**وطريقة مقياس التقدير** طريقة يحدد فيها الحكم Judge درجة الفرد بالنسبة لسمه أو مجموعة من السمات كالامانة والتعاون والخضوع والسيطرة . ويمكن أن يكون هذا التقدير نسبيا أى بالنسبة لأعضاء نفس الجماعة التى ينتمى إليها الطفل في ضوء قوائم وضعية توضع لذلك، أو قد يكون تقديرا تقريبا كما يقوم على أساس الاحساس الذاتى للحكم . وتقوم التقديرات في هذه الحالة على أساس الملاحظات الخاصة التى يقوم بها الحكم للسلوك الخاص للطفل ، أو المواقف الخاصة أو على أساس المعرفة الطويلة الأمد بالطفل على نحو ما هو الحال في تقدير الآباء والمدرسين للطفل . وبمقارنة تقديرات نفس الطفل على نفس السمات في اوقات مختلفة ، أو بالنسبة لتقديرات حكاه مختلفين يمكن أن نصل الى معرفة لمدى ثبات هذه التقديرات . وعندما تتوفر للتقديرات درجة ثبات عالية ، فإن التقديرات تسمح لنا في هذه الحالة بإجراء مقارنات بين الأفراد ، وبين الجماعات أو بين الظروف - على نحو ما يحدث بالنسبة لمناهج التدريس - التى تؤثر في الأفراد أو الجماعات . ويمكن أن تطبق التقديرات على الأشياء كما تطبق

على الاشخاص ، على نحو ما تستخدم مثلا في الحكم على رسومات الاطفال تحت ظروف مختلفة . وتعتبر تقديرات الذكاء احدى الوسائل الهامة التي تستخدم في تقدير صدق اختبارات الذكاء ، رغم ان الاختبارات يقصد منها في الحقيقة ان تحل محل هذه النتائج الذاتية . والمشكلة الرئيسية في مقياس التقدير هي في الواقع تحديد السمات المراد تقديرها بحيث يمكن ان تطبق بطريقة مفهومة على جميع الافراد.

**اما النوع الثاني ونقصد به العينة الزمنية** فهي طريقة من طرق الملاحظة يتركز فيها انتباه الملاحظ على حدوث أو عدم حدوث أنواع من السلوك تحدد سلفا ، وتعتبر ممثلة للسمات المراد دراستها. وتجري الملاحظات على عدد محدود من الاطفال في فترات زمنية ، وتحدد من قبل وتغطي عينة من نشاط الطفل بصرف النظر عن التأثيرات العارضة ، كالحالة المزاجية للطفل او الاحداث الخاصة وما شابه . فمثلا استخدمت طريقة العينة الزمنية في دراسة العلاقة بين كون الطفل لديه عدد قليل أو كثير من اللعب ، وبين تكرار انفجارات أو ثورات الغضب والعدوان لديه ، وظهور أو انتشار سمات معينة كالعصبية والاتجاهات الاجتماعية في اعمار مختلفة أو تحت ظروف مختلفة .

**وهناك اتجاه آخر** ظهر في الحقبة السيكومترية يلقي الضوء على الاهتمام بالفردية في الحقبة التي تلى ذلك ، ونعني به ظهور عدد من **الدراسات الطولية** . ولكن ابتداء من اعمال ستانلي هول تحولت معظم دراسات نمو الطفل الى دراسات مستعرضة ، أي مقارنة اطفال مختلفين في اعمار مختلفة . وهذه الطريقة المستعرضة اثارت مشكلة منهجية خطيرة وهي هل وصف عمليات النمو التي تقوم على اساس مادة مستمدة من افراد مختلفين في اعمار مختلفة، يمكن ان تعتبر حقا دراسة أو وصفا للنمو؟ وكانت الدراسات الطولية التي اجريت للاجابة عن هذا السؤال هي تخطيط النمو بالنسبة لنفس الافراد منذ الولادة وما بعدها ، وقد اوضحت بالطبع ان منحنيات نمو الافراد تختلف اختلافا دالا عن المنحنيات التي تجري لها تسويات والتي تقوم على اساس متوسطات الجماعات . ونحن ندين للدراسات الطولية بمعرفة فترات الكمون والطفرات في النمو ، والمسالك النمطية للنمو والتي يسير فيها الافراد المختلفون . ورغم تركيز الباحثين على النمو الفردي ، فان دراسات النمو قد نظر اليها داخل اطار الاقيسة ، كما ركزت على الطرق السيكومترية أو مقياس السمات الجسمية .

**رابعا : حقبة دراسة الشخصية** : ان علم النفس يهتم اساسا بمعرفة كيف يسلك الناس . والسيكولوجيون العلميون الاول وكذلك السيكوميون ، كانوا مع ذلك مهتمين اساما بالمشكلة الفنية ، وهي كيف يمكن فصل العمل الانساني من اجل الدراسة السهلة . ولكن ابتداء من منتصف الثلاثينات كان هناك احساس متزايد بالشكوى من مصادر متعددة من ان دراسة الانسان انتهت الى ان تصبح دراسة اجزاء متعددة ، وان الوقت قد حان الى النظر اليه ككل ، وتجمع هذه الاجزاء في كل متكامل . لانه اذا نظر للكائن الحي جزءا جزءا ، فان الخصائص الانسانية المميزة التي تنتمي الى هذا الكل النامي تميل الى الاختفاء : مشاعره واحساساته واهدافه واسلوبه الشخصي .

فالفرد ليس حزمة بسيطة من السمات التي يمتلكها بمقادير متفاوتة في الكبر والصغر .  
سماته المتعددة إنما تخضع - وظيفيا في نمط منظم - الى اهتماماته الانسانية الخاصة ، وانه  
مهما كانت لديه سمات مشتركة بينه وبين الاشخاص الآخرين ، فان هذه السمات تأخذ  
معناها الفريد الخاص بالنسبة للمحتوى العام الذي يتميز به سلوك الفرد . والحقيقة انه  
تحت تأثير مدرسة الجشتلت ومدرسة التحليل النفسي ، أصبح علماء النفس أكثر اهتماما  
بمفهوم الشخصية ودراستها وطبيعة الفردية، وكيف ينتظم الناس مع هذه الطبيعة . وإذا كان  
السيكوفيزيقيون الاول بحثوا قياس الوظائف النقية « مستقلة عن المعنى » ، وإذا كان  
السيكومتريون الاول بحثوا قياس الذكاء الخالص مستقلا عن الخبرة السابقة والسمات الاخرى  
كالانفعالية ، فان هذا الجيل الجديد من الباحثين أراد ان يعطى لكل هذه الامور دورها الكامل ،  
وان يرى الانسان ككل يتفاعل مع بيئته الحقيقية. وبهذا المعنى ، فان هذه الحقبة الجديدة تعتبر  
عودا الى الحقبة الطبيعية ، ولكنها تختلف عنهما حيث اهتمامها بالفرد وبوحدة الشخصية  
وبالاختلافات والعموميات على حد سواء .

وقد عادت بعض الطرق التي ظهرت في الحقبة الطبيعية الى الظهور ثانية ولكن بصورة  
معدلة . فالتقارير اليومية استخدمت بشكل أكثر دقة، وأمكن تدريب الملاحظين لسلوك الأطفال  
من اجل ان تكون التقارير أكثر ثباتا ودقة ، كما درب الملاحظ أيضا كيف يبقى بعيدا عن نفس  
الوقت الذي يلاحظ فيه سلوك الأطفال ، بمعنى ألا تصبح مشاعره مختلفة بما يقوم بملاحظته  
من سلوك الطفل ، أعني بعبارة أبسط درب الملاحظ على ان يكون موضوعيا في ملاحظته .  
كما عادت الى الظهور الدراسات الميدانية . فباحث ليفين عن القيادة حاولت ان تهيم  
تجريبيا ، بيئة طبيعية بدرجة كبيرة أو صغيرة لجميع الاشخاص ، كما استخدمت طرق ملاحظة  
المجال .

غير ان الطرق الحقيقية التي تنتمي الى هذه الحقبة ، فهي تلك التي اطلق عليها «جوردون  
البورت » اسم المنحى الناموسي nomothetic الذي يهدف الى الكشف عن القوانين العامة  
والمنحى المتفرد أو الاكينيكي الفردي idiographic الذي يهدف الى الكشف عن  
الوحدة المتفردة للكان الحي . ذلك ان من عادة العلماء ان يتجه اهتمامهم الى الكشف عن  
القانون العام أو القاعدة السائدة في السلوك الانساني ، والى وضع المبادئ العامة والكشف  
عن العلاقات والتفاعلات بين المتغيرات ، أو الى استخراج معايير النمو . وهم يستعينون من  
اجل تحقيق ذلك بدراسة مجموعات كبيرة من الافراد يقومون بدراساتهم أو يطبقون عليهم  
اختباراتهم وملاحظاتهم بقصد معرفة القانون العام الذي تخضع له هذه الظاهرة موضوع  
الدراسة . حقيقة، هناك خصائص عامة مشتركة بين افراد الجنس الواحد ، وقوانين عامة تنطبق  
عليهم ، ولكننا مع ذلك لا نجد اثنين من البشر متطابقين تمام التطابق . فالتناس في تفردهم  
أشبه بصمات الاصابع ، ومن المستحيل ان نجد بصمتين متشابهتين لشخصين مختلفين . كما  
ان عالم النفس والمربي كثيرا ما يضطر الواحد منهما الى ان يركز انتباهه على فرد معين بالذات

النمو النفسي : من الطفل الى الراشد

ليحاول فهمه فهما دقيقا شاملا ، ومن ثم يجد نفسه مضطرا الا يقتصر على مجرد فهم المبادئ العامة للنمو والتطور والقوانين العامة التى تحكم سلوك الفرد ، بل يركز اهتمامه على الفرد ككل ، فالخاصية المميزة للانسان هى فرديته ، اعنى اعتباره مخلوقا فريدا في الطبيعة وانه مستقل مكانيا عن غيره من الافراد ، ولا يشبه تماما اى فرد آخر ، وان يسلك في مجاله الخاص في الحياة وعلى طريقته الخاصة .

**وفي بداية الثلاثينات** شاعت بعض الطرق التى تعنى بالمنحنى التفرد ، والتى من أهمها تلك المسماة بالطرق الاسقاطية ، وهذه التسمية أطلقها عليها لورانس فرانك سنة ١٩٣٩ .

وهذه الطرق تواجه الفرد بموقف أو مادة غير محدودة وغير متشكلة وغامضة الى حد ما ليستجيب اليها كما يشاء وكما يحب . والدلالات الخاصة التى يعزوها للموقف تعتبر ذات أهمية بالنسبة له ولطريقة ادراكه لهذا العالم . ومن أشهر الاختبارات الاسقاطية المعروفة والواسعة الانتشار والتى تستخدم على نطاق واسع في دراسة الشخصية اختبار بقع الحبر الهيرمان رور شاخ حيث يفسر المفحوص طفلا كان ام كبيرا ، عددا من بقع الحبر غير المتشكلة . وكذلك اختبار تفهم الموضوع لهنرى مورى حيث يكون الفرد قصة عن كل صورة من الصور التى تعرض عليه ، يكشف فيها عن مشاعره واتجاهاته نحو الموضوعات الرئيسية التى تتضمنها الصورة . وهناك اختبار تداعى الكلمات لـ « كارل يونج » حيث يستجيب المفحوص لقائمة من الكلمات التى تعرض عليه شغافة كلمة كلمة ، ويسجل زمن الرجوع والاستجابة التى يذكرها المفحوص ، والذي بواسطته يمكن الكشف عن مجالات الضغوط في حياة الفرد . وإذا كانت هذه الاختبارات قد وضعت للصغار والكبار على السواء ، فان هناك عددا آخر قد وضع خصيصا للأطفال كاختبار اللعب ( لويزا ديز ) واختبار تفهم الموضوع للأطفال . وعلى العموم يمكن القول بان ليس هناك استجابات صحيحة وأخرى خاطئة للاختبارات الاسقاطية ، وان ما يراه كل فرد انما يتشكل وفق ادراكه وحالاته الانفعالية واتجاهاته وميوله وقيمه . وهذه الاختبارات الاسقاطية يمكنها ان تكشف عن التنظيم الداخلى للفرد دون ان يشعر الفرد بذلك ، أو دون ان توجه اليه الاسئلة بطريقة مباشرة على نحو ما نجده مثلا في الاستخبارات التى يحاول المفحوص احيانا الا يجيب عنها بصراحة أو دقة متناهية .

وفي خلال هذه الحقبة ايضا كان هناك اهتمام متزايد « بالتجربة الطبيعية » هذا المنهج الذى استخدم في ميادين مختلفة كالفلك والاجتماع والطب ، أو حيث تكون الظروف التى تقوم بدراستها خارج قدرة الباحث ويصعب عليه اخضاعها للتجريب وعوامل الضبط ( اما لاسباب خلقية او لاسباب عملية ) . ولذا فليس على الباحث الا ان ينتظر حتى تتفضل الظاهرة بالثول بطريقة طبيعية للملاحظة ، وبدراستها . والدراسات التى أجريت على اثر اصابات الخ في الانسان تدخل بالضرورة تحت هذا النوع . وبالمثل ايضا الدراسات التى قام بها شبيتز Spitz عن اثر الحرمان المبكر على الاطفال ، وكذلك دراسات آنا فرويد والمجلس القومى للبحوث في امريكا عن الآثار النفسية للكوارث . وبالمثل فان اى باحث يهتم

بدراسة النمو الشاذ ، نجاه مضطرا للتعامل مع مثل هذه الحالات التي يقابلها . وبالطبع يمكن اجراء الدراسة على الحيوان حيث يكون الباحث اكثر قدرة على اجراء التجارب واعداد الظروف التي يستحيل اجراؤها على الانسان. والجدير بالذكر ان جانباً كبيراً من الانكسار في سيكولوجية النمو ، يأتي من دراسات اجريت على الحيوانات ويمكن ان نشير الى دراسات ليندل Liddell وغيره على الماعز والخراف ، في علاقة الصفار بالام ، وعلى العصاب التجريبي . ولذلك تعتبر التجربة الطبيعية هي منهج السيكلوجي الاكلينيكي او الطبيب النفسي ، الذي يريد دراسة شخص فرد نتيجة اهتمامه بالان ظروف خاصة ، او البحث عن فروق في الشخصية او في المناهج العلاجية .

**تلك هي المناهج الاربعة الرئيسية في دراسة النمو - الملاحظة والتجربة والاختبارات والمقاييس الاكلينيكية .** وقد ظهرت بالتتابع نتيجة اهتمامات واتجاهات مختلفة لدى الباحثين ، ولكنها جميعها اثبتت نفعها لعدد من الاغراض في دراستنا للكان الحى الانسانى .

• • •

### ● نظرة الى دراسات النمو النفسى

اعتاد غالبية علماء نفس الطفل عند دراستهم لعملية النمو ، النظر الى التغيرات المختلفة التى تطرا على الكائن الحى منذ اللحظة الاولى التى تبدأ فيها الحياة جنيناً في بطن الام ثم تعقبه بالدراسة حتى الرشد . وقد اخذ هؤلاء بفكرة تقسيم النمو الى مراحل زمنية يمر بها الكائن الحى . فهناك مرحلة ما قبل الولادة والطفولة المبكرة والمتأخرة والمراهقة . وعادة يتتبع الباحث داخل كل مرحلة دراسة مظاهر النمو المختلفة وتطورها . فهناك النمو الجسمى والعقلى والاجتماعى والانفعالى . وقد ياخذ الباحث مرحلة بعينها ويعالج فيها جوانب النمو المختلفة ثم ينتقل الى التى تليها وهكذا ، او قد ياخذ مظهراً بعينه من مظاهر النمو ، ويتتبعه بالدراسة فى جميع المراحل ثم ينتقل الى مظهر آخر وهكذا . والنتيجة واحدة فى كلتا الحالتين وان اختلف الاسلوب الذى يتبعه الباحث ، ولواطعنا على الكثير من كتب علم نفس النمو ، سواء ما كتب منها بالعربية او باللغات الاجنبية ، نجدها قد سلكت سبيل هذه الدراسة الوضعية او الشكلية . ومن امهات الكتب فى هذا المجال ما قدمته البرايست هرلوك فى مجموعتها الثلاثية الهامة .

Developmental Psychology ( ١ )

Child Development و ( ٢ )

و ( ٣ ) Adolescent Development ، وما قدمه ارنولد جيزل وآخرون فى تلك السلسلة الرائعة من كتب النمو والتي تعد دراسة تطويرية هامة من الطفولة المبكرة حتى الشباب والنسبى وردت بكتبهم .

## Infant and child in the culture of today ( ١ )

## Child from five to ten ( ٢ ) و

و ( ٣ ) Youth والتي ترجمت كلها الى اللغة العربية ، وكذلك كتاب آرثر جيرسلد وآخرون Child psychology . ولا يمكن حصر الكتب التي سارت على هذا النحو في هذا المجال .

غير ان ثمة اتجاها آخر ذكر على الكائن الحي ككل واهتم بالاطار النظري العام لعملية النمو واقتربت الدراسة فيه من دراسة لنمو الشخصية . والنظرة هنا في شمولها نظرة دينامية اكثر منها وصفية . فقد ركزت معظم النظريات التي اتبعت هذا المنحى الاخير على دراسة العوامل المؤثرة في نمو الشخصية ابتداء من الطفل حتى الرشد ، وكيف أثرت هذه العوامل او المحددات في بناء الشخصية وفي نوع النمو الناتج عنها . وكان من الطبيعي ان تتعدد ايضا النظريات التي سلكت هذا السبيل . ذلك ان ابنية الشخصية وعملاتها لا يمكن ملاحظتها بشكل مباشر ، وانما يتطلب الامر الاستدلال عليهما من النمط للاستجابات التي يقوم بها الفرد داخل اطار موقف معين . ولذا فليس مما يثير الدهشة اذن ان تختلف نظرة الباحثين لنمو الشخصية او بمعنى اوسع النمو النفسي للفرد . فاذا كان فرويد مثلاً يؤكد في تحليله للنمو النفسي على تطور الدوافع والانفعالات وبخاصة خلال السنوات الثلاث الاولى من الحياة ، فان كتابا آخرين من اصحاب الاتجاه النمائى من امثال هانز فرنز ووجان بياجيه لا يلقون اهتماما بالكلية الى نمو الدوافع او الانماط الانفعالية ، بل يوجهون اهتمامهم باكماله الى النمو العرفي ، والتفكير التكيفي ، على حين يتمسك آخرون بالنظرية الفرويدية ولكنهم يدخلون عليها بعض التعديلات والاضافات على نحو ما فعل اريكسون .

واذا كانت النظريات التي كتبت في هذا الاتجاه الثاني كثيرة ومتعددة ، فان ضيق المجال لا يسمح لنا بالتعرض لها جميعها . ولذا سوف يخصص الباحث هنا بالذكر نظريات اربعة لها اهميتها وهي نظرية النمو النفسي - الجنسي لفرويد ، ثم نظرية النمو النفسي - الاجتماعى لاريكسون ، والتي تعد تمديلاً للاولى واطرافاً عليها ، ثم نظرية نمو الذات عند جوردون البورت ، واخيراً نظرية النمو العقلى المعرفى عند جان بياجيه . وسوف نشير الى كل نظرية منها بشيء من الاضافة .

اولاً : النظرية النفسية - الجنسية لفرويد :

ان مادة التحليل النفسي وكتاباته لا حصر لها . ومن المستحيل في مثل هذا المجال ان نقدم عرضاً وافياً لمثل هذه النظرية الضخمة . ولذا سوف تقتصر انفسنا هنا على الجوانب التي من شأنها ان تساعدنا في التعرف على النمو النفسي عند اصحاب نظرية التحليل النفسي . وبحسن قبل ان نتعرض لمرحلة النمو النفسي الجنسي في نظرية فرويد ان نلقى الضوء على ديناميات الشخصية وبنائها ثم نعرض لمرحلة النمو .

### ديناميات الشخصية :

● ان نظرية التحليل النفسي - ككل النظريات الدينامية - تدور حول القوى أو الحوافز ، فهي اساسا نظرية دافعية . والظواهر العقلية ينظر اليها على انها نتيجة قوى متفاعلة يمكن ان تفهم من وجهة نظر تاريخية . وبعبارة أبسط ان فرويد ينظر الى الاحداث الراهنة باعتبارها نتاج نمو سابق تمتد جذوره الى الماضى .

والمصطلح الذى استخدمه فرويد للدلالة على الطاقات او القوى التى تستثير النشاط الانساني هو المصطلح الالمانى Trieb والذي ترجم الى اللغة الانجليزية ، بالمصطلح Instinct والذي يعرف فى اللغة العربية بالغريزة . ولكن هذه الترجمة للمصطلح الالمانى ادت الى الخلط فى فهم هذا المصطلح . ذلك ان Trieb كما استعمله فرويد ، لا يتضمن معنى النمط الثابت غير القابل للتغير ، والذي يعنيه المصطلح Instinct . فتحت الظروف والتاثيرات البيئية ، يمكن للغريزة بمعانيها فى المصطلح الالمانى ، ان تغير من اهدافها وموضوعاتها .

ومفهوم الغريزة من المفاهيم الاساسية فى كتاب فرويد وتفكيره . ومعظم كتابات فرويد تعليمها فكرته وهى ان الانسان ولد مزودا بفرائر معينة . ولقد صادق فرويد على وجود نوعين من الحوافز الانسانية او الفرائر وكلاهما بيولوجى فى طبيعته . اما النوع الاول فيتكون من الحاجات الجسمية البسيطة كالجوع والعطش والاخراج والتنفس ، هذه الحوافز او الدوافع تستثيرها التغيرات البدنية التى تحدث داخل الكائن الحي العضوى . وشباع هذه الحوافز او الحاجات الاساسية أمر حيوى لبقاء الانسان ، كما ان اهدافها لا يمكن تغييرها او تعديلها . ولذا ، فان الاختلاف بين الافراد بالنسبة لهذه الحاجات قليل للغاية ومن ثم فانها تعد قليلة الاهمية نسبيا لعالم النفس .

اما المجموعة الثانية من الحوافز فهي تلك التى وصل اليها فرويد من دراساته للمرضى النفسيين . وهذه يمكن تقسيمها الى قسمين: غريزة الحياة وغريزة الموت . الاولى تخدم غرض الحفاظ على الحياة وتكاثر الجنس ، ويطلق فرويد على القوة الحيوية الدافعة لها اسم « الليبيدو » وهو هذا الجزء من تركيب «الهو» الذى يبحث عن اشباعه من الحوافز الجنسية . ومعنى الجنس عند فرويد اوسع بكثير من مفهومه الدارج فى حياتنا اليومية وفي لغتنا الدارجة . فهو يتضمن بالإضافة الى معناه المتصل بالحوافز الجنسية عند الكبار - كل ما يؤدى الى الشعور باللذة من خلال استثارة المناطق الشبقية للجسم ، وهى المناطق التى لها قدرة على اثارة الاحساس السار أو الشعور باللذة عند الفرد . وهى غالبا المناطق الحساسة فى جسم الانسان كالثدي والغنى والمنطقة الشرجية وعضاء التناسل . والغريزة الثانية وهى غريزة الموت فهى تخدم اغراض الهدم والتدمير .

وتتميز الغريزة عند فرويد بأربع خصائص وظيفية أساسية هى : المصدر والهدف والوضع والقوة الدافعة . ولتوضيح هذه الخصائص لنفرض ان انسانا ما يحس بالمل

النمو النفسي : من الطفل الى الراشد

أسنانه ، فان نتيجة هذا الاحساس تدفعه من خلال مبدأ التوازن الداخلى الى خفض التوتر على النحو التالى :

**المصدر Source :** وهو الحالة البدنية للشخص وهو هنا الالم الذى يحسه الفرد في أسنانه .

**الهدف Aim :** وهو التخلص من الاستثارة أو التهيج البدنى . وهو هنا ازالة الالم الناتج عن تسوس السن والعودة الى حالة الارتياح التى كان يحس بها قبل حدوث الالم .

**الموضوع Object :** وهو يشير الى ظروف النشاط التى تقع بين ظهور الحاجة وتحقيقها . فهو لا يشير الى شيء بعينه أو حالة تشبع الحاجة فحسب ، بل انه يتضمن كذلك كل أشكال السلوك الذى يحدث مستهدفا الحصول على الشيء أو الحالة اللازمة . وهو في هذا المثال ترتيب موعد مع الطبيب والذهاب اليه والجلوس على الكرسي .

**القوة الدافعة Impetus :** ويقصد بها قوة أو شدة الحاجة المحركة . فالم الانسان حين تخف حدته أثناء النهار تقل قيمة المثير الى حد ما ، ولكن حين يصبح الالم غير محتمل خلال الساعات الاولى من الليل تزداد قوة المثير بشكل واضح وتصبح القوة الدافعة أكثر شدة فيزداد اصرار الشخص على ضرورة الذهاب الى الطبيب .

ويرى فرويد ان مصدر الغريزة وهدفها يظلان ثابتين طوال الحياة ، مالم يتغير المصدر أو يزول نتيجة النضج الفيزيقي . اما الموضوع أو الوسيلة التى يحاول بها الفرد اشباع الحاجة فهى تتباين تبانيا ملموسا خلال حياة الفرد ، وذلك نتيجة قابلية الطاقة النفسية للازاحة من موضوع لآخر . وإذا كان هذا الابدال أو هذه الازاحة ممكنة بالنسبة للموضوع فهى غير ممكنة بالنسبة لمصدر الغريزة أو هدفها .



### ✽ بناء الشخصية :

وتتكون الشخصية من ثلاثة نظم أساسية: **الهو ، والأنا ، والأنا الأعلى** . ورغم أن لكل جزء منها وظائفه وخصائصه ومكوناته ومبادئه ودينامياته وميكانيكاته التى يعمل وفقا لها ، الا أنها جميعا تتفاعل معا تفاعلا وثيقا بحيث يستحيل فصل تأثير كل منها عن الآخر وتقدير وزنه النسبى في سلوك الانسان . فالسلوك ، في الاغلب ، هو محصلة تفاعل هذه الانظمة الثلاثة . ونادرا ما يتفرد أحدها بالعمل دون الآخرين . وسوف نوضح فيما يلى كل واحدة منها على حدة وباختصار .



**الهو :** لقد كتب الكثير عن هذا المصطلح الذي وضعه فرويد . و « الهو » هو النظام الاصلى للشخصية والذي يعتبر أساسا لكل حياة انسانية . فهو يوجد مع الانسان منذ لحظة ولادته ، ويظل معه طول حياته . هو ذلك الجزء من النفس الذي يحوى كل ما هو موروث أو غريزى ، كما يحوى العمليات العقلية المكبوتة التى فصلتها المقاومة عن الحياة النفسية الشعورية . فالهو مستودع الطاقة النفسية كما أنه يزود العمليات التى يقوم بها النظامان الآخران بطاقتها .

ويخضع **الهو** لمبدأ اللذة فقط ولا يهتم بأى شيء آخر . انه هذا الجزء الخام ، غير المرتب ، غير المهذب ، الباحث عن اللذة . أنه الزاد الاساسى الذى يحرك الانسان خلال حياته ، انه لا يعرف القوانين ولا يخضع لقواعد وبحث فقط عن شهواته . انه القوة المحركة لوجود الانسان . وعلى الرغم من أنه وثيق الصلة بالعمليات الجسمية التى يستمد منها طاقته ، فان « الهو » نظام نفسى حقيقى ، وليس لمكان محسوس فى جسم الانسان ، كالقلب أو المخ مثلا .

ولا يمكننا أبدا أن ندرك الهو فى صورته الخام . وربما كانت أقرب صورة للهو ، ما يبدو لنا فى دراسة الطفل الصغير أو فى سلوك الدهان ( المريض عقليا ) . فالطفل الصغير يسلك سلوكا انانيا تماما ، يهدف الى اشباع رغباته وتحقيق لذاته دون مراعاة لحاجات الآخرين ، فهو يخضع لمبدأ اللذة فحسب . وكذلك الدهان الذى يسلك كيفما يجب ويمجبه ، فسلوك الطفل والدهان أقرب الى ما يعنيه فرويد بمفهوم « الهو » .

**الانا :** ومن المفترض أن الهو فى صورته الخام ، اذا ترك لاساليبه الخاصة فقد يحطم نفسه . فهو فى حاجة الى ما يضبط طاقته ويوجهها نحو اكبر اشباع ويقدر ما تسمح به مطالب الحياة ودون أن يهدم نفسه أو يحطمها . وينذهب فرويد الى أن الانا تحقق هذه الوظائف وتحققها جيدا . فالانا تتبع مبدأ الواقع وتعمل وفق العمليات الثانوية . فإذا كان الهو يعمل وفق مبدأ اللذة ويستخدم العملية الاولى وتفريغ التوتر بتكوين صورة لموضوع من شأنه أن يزيل التوتر ، الا أن الكائن الحى يتطلب معاملات مناسبة واشباعا واقعيا ، ومن ثم يفرق الانا بين الاشياء التى توجد فى العقل والاشياء التى توجد فى العالم الخارجى . ومن هنا تطبع الانا مبدأ الواقع الذى يعمل على الحيلولة دون تفريغ التوتر حتى يتم اكتشاف الموضوع المناسب لاشباع الحاجة . فمبدأ الواقع يرجى مبدأ اللذة مؤقتا ، لان مبدأ اللذة هو الذى سوف يخدم فى نهاية الامر عندما يوجد الموضوع المرغوب فيه ، ومن ثم يخفض التوتر .

**فالانا إذن امتداد للهو وغير مستقل عنه أبدا .** والانا هو الجزء المنظم وهو الذى يبحث فقط عن إيجاد مخارج تخدم أغراض الهو ، دون أن يترتب على ذلك تحطيمه . ان الانا يستمتع بكل الاشباع التى يسمح للهو أن يستمتع بها أيضا ، ولكنه يستمتع بها بدكاه وبتعقل فى ضبط واختيار وتقرير ما يشبع وكيف يشبع . فالانا إذن يخضع لمبدأ الواقع ، يفكر تفكيراً موضوعياً ومعتدلاً ومتمشياً مع الاوضاع الاجتماعية المتعارف عليها . اما وظيفته

فهو الدفاع عن الشخصية والعمل على توافقه مع البيئة وحل الصراع بين الكائن الحي والواقع او بين الحاجات المتعارضة للكائن الحي .

**الانا الاعلى :** وهذا هو الكون الثالث للشخصية الفرد ، وهو مكون يقع في الطرف الآخر من الهو ، والانا الاعلى هو الاخير في عملية النمو النفسي لهذه الابعاد الثلاثة للشخصية . انه الممثل الداخلى للقيم التقليدية للمجتمع ، وهو شيء موجود داخل الفرد وليس خارجه . انه مكون داخلى وليس مجموعة من القوانين الحاكمة ، وعندما ينمى الفرد « انا اعلى » داخل نفسه ، يكون حينئذ قد اصبح شخصية ناضجة . فالانا الاعلى هو هذا الجانب الخلقى للشخصية ، انه مثالى وليس واقعيا ، هدفه الكمال وليس اللذة . انه هو الذى يقرر ما اذا كان نشاط ما حسنا ام سيئا وفق معايير المجتمع التى يتقبلها ، والقوانين الاجتماعية لا تعنى شيئا بالنسبة اليه ما لم يتقبلها ويتوحد معها .

#### ويمكن تلخيص الوظائف الأساسية للانا الاعلى فيما يلى :

- ١ - كف دفعات الهو وبخاصة تلك الدفعات ذات الطابع الجنىسى او العدوانى ، حيث ان هذه الدفعات هى التى يقابل التعبير عنها من المجتمع بأشد صور الادانة والرفض .
- ٢ - اقناع الانا باحلال الاهداف الاخلاقية محل الاهداف الواقعية .
- ٣ - العمل على بلوغ الكمال ، أى أن الانا الاعلى يميل الى معارضة الهو والانا معا ، والى تشكيل العالم على صورته . الا انه يشبه « الهو » فى انه غير خلقى ، ويشبه الانا فى محاولته ممارسة التحكم فى الغرائز ، ويختلف « الانا الاعلى » عن « الانا » فى أنه لا يحاول ارجاء الاشباع الفريزى فحسب ، بل انه يحاول الحيلولة دونه على الدوام .

تلك هى ديناميات الشخصية وبناءها فى نظرية التحليل النفسى . وفى ضوءها قام فرويد بتفسير أساليب السلوك المختلفة والمراحل النمائية التى تمر بها ابتداء من الطفولة حتى الرشد . ويمثل هذا الانتقال من مرحلة الى مرحلة النمو النفسى الجنىسى للفرد ، والذى قد يتخذ صورة سوية أو غير سوية نتيجة للمؤثرات المختلفة التى يتعرض لها الفرد . وسوف نشير باختصار الى هذه المراحل المختلفة التى يمر بها الفرد فى نموه النفسى من الطفولة حتى الرشد .



#### ❖ مراحل النمو :

ولفظ مراحل يشير الى تتبع نمو الانسان وشخصيته ابتداء من الولادة حتى الكبر . فالطفل قد يمر عبر سلسلة من المراحل المحددة تكوينيا ، ومالم يتعرض هذا النمو فى سيره الى تدخل ظروف شاذة أو معوقة ، فمن المتوقع ان يسير على نحو طبيعى ، وعلى شاكلة ما نجده عند الغالبية العظمى من الناس .

ان فكرة بناء الشخصية ونموها عند فرويد اشبه ما يكون بالطريقة التي يقوم بها البناء حافظا من الطوب حيث توضع طوبة طوبة ، ويسير البناء من اسفل الى اعلى ، وترتبط قمة البناء باساسه او اصله . فشكل البناء وسمكه وجميع خصائصه ترسي قواعده في الاساس الذي يقام عليه . وتفسير شكل البناء تفسير ملحوظا قد يترتب عليه هدم البناء بأكمله . والشخصية بالمثل - في نموها - ترسي قواعدها في السنوات الاولى من حياة الكائن الحي . وهذا الاساس غير قابل للتغير وهو يحدد ما يمكن ان يقام عليه بعد ذلك . فان كان الاساس ضعيفا مهزوزا وغير مستقر ، نشأت الشخصية وتطورت بشكل ضعيف مهزوز غير مستقر كذلك . ومن هنا جاء قول فرويد ان « الطفل ابو الرجل » ، وان الاساس الذي يوضع في الطفولة هو الذي يحدد ما سيكون عليه الفرد في الكبر . ولكن ليس معنى ذلك انه حين ينمو البناء لا يمكن تغييره . ان من الممكن احداث تغييرات طفيفة ، ولكنها لا تتجاوز ابدا حدود ما يتحملة الاساس او الشكل الذي اتخذه . فان حدث هذا التجاوز انهار البناء ( على نحو ما نجد في الشخصيات الذهانية والعصابية ) . وفي العادة يتغير الكثيرون منا مع النمو ، ولكن احساسا منا بخطر الانهيار ، وخوفا على انفسنا من اهتزاز البناء ، فاننا نحذر الابتعاد كثيرا عما يمكن ان يتحملة بناء شخصياتنا .

وعلى هذا النحو ، نجد فرويد يعطى أهمية كبرى لعملية البناء طوبة طوبة من اجل بناء شخصية الفرد في المستقبل ، كما يعطى أهمية كبرى للسنوات الخمس الاولى من حياته ، باعتبارها اهم سنى العمر والاساس الذي يقام عليه كل بناء .

ومن حسن الحظ ان عوامل البناء تتوافر للقالبية العظمى من الناس . فاغلبنا ينشأ في احضان أبوين يتكاتفان معا على تربيته وتنشئته بشكل يجعل الرحلة الطويلة للحياة تسير في خطى واعدة مطمئنة متعاقبة . فأكبر العوامل ذات الاثر في نمونا النفسى السوي وصحتنا العقلية في الرشد ، توضع خلال السنوات الاولى من الحياة .

ان الوليد عندما يرى النور لأول مرة تتركز اهتماماته على اشباع حاجاته الاساسية التي يولد مزودا بها ، واهمها حاجته الى الطعام الذي يحصل عليه عن طريق الفم ، وقربة نهاية السنة الاولى تبدأ عمليات ضبط الاخراج والتدريب على العادات المتعلقة به ، ومن ثم يتركز اهتمامه حول هذه العمليات وتصبح محورا لتركيز من الناحية الجنسية . وفي حوالى سن الثالثة يبدأ الطفل في استطلاع غوامض تشريح أعضائه التناسلية أو أعضاء المحيطين به . هذا ما يحدث لكل فرد . فكل طفل يمر بثلاث مراحل نمائية رئيسية تقع كلها في السنوات الأربع الاولى من حياته ، ويهتم كل منها بجزء خاص من تشريعات جسمه يكون مؤقتا موضع الاهتمام الاول بالنسبة للطفل . فهناك الفم ثم الشرج ثم الجهاز التناسلى . وهذه لا تصبح فقط موضوعات الاهتمام الخاص عند الطفل ، بل ان الخبرات التي ترتبط بها تصبح الطرق التي تؤدي الى الحصول على الاشباع وتؤدي الى الاحباطات ايضا .

فالطفل الصغير يركز اهتمامه أساساً طوال السنة الأولى تقريباً في المنطقة الفموية ، ثم ينتقل هذا التركيز بعد ذلك طوال السنة الثانية والثالثة تقريباً حول منطقة الشرج ، ثم يتركز الاهتمام أخيراً حول المنطقة التناسلية ، وذلك بعد سن الثالثة الى سن السادسة . وطبيعي ان ليست هناك قواعد ثابتة محددة لمجرد الزمن الذي يتحول فيه الطفل من خبرة الى أخرى ، لان ذلك يتوقف الى حد كبير على أسلوب المعاملة الاسرية ، كما ان ليس هناك بالتأكيد فواصل مميزة دقيقة بين كل مرحلة وأخرى .

« لقد لقد سمي فرويد هذه المراحل باسم «مراحل النمو النفسي الجنسي» وهذا هو التعبير الذي لا زالت تعرف به . . ان هذا التعبير يعني ان الطفل على طول تطوره النفسي ، يمر بعلامات مميزة ومحددة لمراحل النمو النفسي الخاصة كلما كانت القوى والدوافع الداخلية في هذا الشخص الجديد تحاول ان تصلة بالناس المحيطين به ، وان تجد الطرائق التي تعطيه الاشباع من هذا الاتصال » .

### وسوف نوضح مراحل النمو النفسي الجنسي هذه دون الاضافة في ذلك :

( ١ ) **الرحلة الفموية :** ترتبط اول مرحلة من مراحل النمو في تكوين شخصية الفرد بالمنطقة الشبكية الفموية وعلى وجه الخصوص بالشفيتين . فالطفل يبدأ عقب الولادة بقليل استخدام الشفتين في الحصول على الطعام ، ويصبح فم الطفل وسيلة الاتصال الهامة بالعالم ، وهو لا يستعمله للحصول على هذا الطعام الشهى للذي الذي من شأنه ان يخفف من حدة التوتر الذي يشعر به في احشائه فحسب ، بل وايضا ليستمتع بخنان الام التي تضعه الى صدرها وفت اشباع هذه الحاجة . ويتكرر هذا الحدث الهام في حياة الطفل كل ثلاث او أربع ساعات ، كما يكتسب الشخص الذي يحتضنه وهو يطعمه من الثدي أو الرضاعة بمرور الزمن نفس أهمية الطعام .

وليس ثمة شك ان هذا الطعام الذي يحصل عليه الطفل يعتبر مصدر اشباع ولذة . فهو طعام شهى ، ولذيذ ( وهذا هو مبدأ اللذة ) . وسواء كان يحصل عليه عن طريق الثدي أو عن طريق الرضاعة ، فان الوليد في شهره الاول سيعلم ما يتعلم ( عن طريق مبدأ اجبار التكرار ) ان التجويف الفمي واللسان والشفيتين عند ملامس هذه الاشياء تصبح مصدر لذة وسعادة بالنسبة له ( منطقة شبكية ) . ومن الطبيعي ان يتعلم الطفل استخدام الشفاه كلما اراد الحصول على هذا الاحساس الساكن او اللذة ، فهو عندما يحس ثمانية بالجوع ، تقوم المنطقة الفموية بتوحيها وتؤدي به الى الشعور باللذة . ولما كان الطفل في هذه المراحل الاولى من حياته يعتمد كثيراً على العادات التي يكونها ، فانه يلجأ الى استخدام الشفاه في الحصول على اللذة اياً كانت حالة الجوع التي يكون عليها . وتبعاً لذلك ، وبعد ان يكون قد درب الشفاه على أحداث اللذة ، فقد يلجأ الى استخدام الاصابع أو أي مثير آخر ( كأصابع القدم مثلاً ) من أجل الحصول على اللذة سواء كان جائعاً أم غير جائع ( خفض التوتر ) . وهكذا تصبح الشفاه من الآن فصاعداً مصدراً للحصول على اللذة .

ولما كانت الأشياء التي تظهر أولا في نظامها ، تكون آخر ما يترك هذا النظام ، فإن المرحلة الفنية والمنطقة الشبقية الفنية تكونان على هذا الأساس أطول وأقوى مراحل حياة الإنسان . فهو دائما يبحث عن لذة المنطقة الفنية ، وهو يقوم بذلك حتى إذا كان مثل هذا النشاط غير مجد في حل المشكلة أو في خفض التوتر .

(ب) المرحلة الشرجية : والمجموعة التالية من الخبرات ذات الأهمية البالغة في تشكيل طباعنا وعلاقاتنا بالناس هي التدريب على عملية الإخراج وعاداته . وكما كان الحال خلال المرحلة السابقة لا يتركز الانتباه فقط على جزء معين من تشريح الجسم ، ولكن على وظيفة هامة ترتبط به . وتختلف الاتجاهات التي تتكون في هذه المرحلة اختلافات بينة ، الأمر الذي يتوقف على ما يظنه الآباء أحسن مران ونظام للتدريب يمكن استعمله » .

وحين يتجمع قدر كاف من فضلات الطعام لدى الطفل ، فإن ذلك يسبب له توترا في الأمعاء يؤدي إلى الشعور بعدم الارتياح أو الألم . وطرذا الفضلات وإخراجها يزيل عنه مصدر القلق ، ويحدث له الشعور بالراحة . وعند بداية التدريب على النظافة - وهذا ما يحدث عادة في السنة الثانية من العمر - يلتقى الطفل بأول خبرة حاسمة مع التنظيم الخارجى للدفة غريزية . فعليه أن يتعلم إرجاء اللذة التي يحققها له متخلصه من توتره الشرجي ، أى عليه أن يتعلم الخضوع لمبدأ الواقع ، وأن يقوم بعملية الإخراج حين تصل هذه الضغوط إلى حد معين ، وأن يقوم بها في أماكن معينة وليس في أى مكان يشاء . وتتوقف نتائج هذا التدريب على الأسلوب الذي تتبعه الأم في تدريبه على ضبط عملية الإخراج . فإن كان أسلوبا شديدا صارما ، فقد يقبض الطفل على فضلاته ويصاب بالامساك . وحين يعمم هذا الأسلوب في الاستجابة إلى مجالات من السلوك فيما بعد ، فقد ينمو لدى الفرد خلق قابض ويصبح عنيدا شحيحا ... أما إذا كانت الأم من النوع الذي يتودد إلى الطفل ليخرج فضلاته وتسرف في مديحه عندما يستجيب لذلك ، فإن الطفل تتكون لديه فكرة قوامها أن النشاط الخارجى بإكماله أمر بالغ الأهمية .

وقد تكون هذه الفكرة أساس الخلق والانتاج . وعلى العموم ، يقال أن العديد من السمات الأخرى ترجع جذورها إلى المرحلة الشرجية ( هول ولندزى ص ٧٦ ) .

وبالتأكيد يستطيع الطفل أن يحس بأن عملية التدريب على الإخراج هامة جدا بالنسبة لأمه وأبيه ، والا فلماذا كل هذه الضجة التي تثار حولها . أنه يتعلم في وقت مبكر أن ما يقوم به من عمل أو مال يؤديه يكون له اثره على المحيطين به . وليس من شك في أن الخبرات التي ترتبط بالتدريب على الإخراج ، وما ينتج عن ذلك من اتجاهات الأطفال نحو الآباء ، تضع اللبنة الأولى لكثير من الاتجاهات والأعمال التي يقوم بها الفرد في مستقبل حياته . إنها أول عهده بالتأديب والنظافة ، وربما قد يتعلم منها أشياء أخرى كثيرة . فقد يتعلم من هذه العملية « أن يثابر على العمل حتى ينتهى من العملية الإخراجية » ، وهذه بلا شك خبرة لها علاقة بالثابرة والإصرار فيما بعد ذلك من أيام الحياة في أى عمل تقوم به ، كما قد تغذى عنده الإحساس بالقوة إذ يمكنه التحدى والعناد ومنع الإخراج ، وليس هناك من يجبره على القيام بذلك إذا أراد الامتناع عن القيام به .

(ج) **المرحلة الجنسية** . وتتفجر في حياة كل كائن بشري في حوالى سن الثالثة او الرابعة رغبة في استطلاع أمور الجنس ، ويرتبط بهذه الرغبة قدر معين من الاستشارة الجنسية . والمنطقة الشبقية الثالثة التى تلى المنطقتين السابقتين هى الأعضاء التناسلية . ولا شك أن الطفل يستمد لذة من اللعب بهذه الأعضاء . وتكون حياة الطفل الانفعالية أى علاقته الوجدانية بأفراد الوسط المحيط به في هذه الفترة ، أشبه بالحياة العاطفية للكبار . وفى خلال هذه الفترة ( من سن ٣ - ٥ ) تكون علاقاته العاطفية والاجتماعية بوالديه قد أخذت تنمو وتعتقد « بهيئة السبيل لظهور عقدة أوديب . وتستمد عقدة أوديب اسمها من أساطير الأفريق حيث كان أوديب طفلاً لأحد الملوك ، وتكهن المنجمون أنه سوف يقتل أباه حين يكبر ، فنذره الملك في العراء . ولما كبر أوديب التقى بالملك وتنازع على امر ما ، فقتل أوديب الملك دون أن يعرف أنه أبوه ، ثم دخل المدينة وتزوج ملكتها ، وهى أمه ، دون أن يعرف أنها أمه . وقد اتخذ فرويد من هذه الاسطورة صورة لما يعانيه الطفل الإنسانى إبان طفولته المبكرة في صلتة بوالديه والتي تسمى باسم « الصراع الأوديبى » .

ذلك أن أول موضوع يمر بخبرة الطفل - عدا نفسه - هى أمه . إنها أول انسان يطعمه ويلبسه ويحبه ويجب كل مطالبه وحاجاته . والطفل يعتمد على الأم في هذه المرحلة الأولى من حياته اعتمادا كلياً . ومن هذا الاعتماد من أجل الحياة والتوحد معها ، ينمو الاحساس بالحب للأم .

ثم ان الطفل بالإضافة الى حبه لأمه واكتشافه لجسمه وأعضائه التناسلية يصبح أيضاً على معرفة بالدور الذى يقوم به الاب في حياته . فالاب انسان اكبر وأقوى منه بكثير ، وأنه أقل وجوداً معه في البيت ، وأنه يشبهه في الجنس ، ثم انه يشاركه في حب الام ويحظى باهتمامها .

وفى الحقيقة يبدو أن له بعض الأولوية في وقت الام ومحبتها ، وتكون النتيجة الطبيعية لهذا هو الاحساس بمنافسة خفية وغير مقصاحة . وفى المراحل الأولى لهذه المعرفة ، لا يفعل الطفل الذكر شيئاً لكبح احساسه بالغيرة . ومع ذلك يبدأ الكبت في الظهور مع استمرار النمو . ثم هو يلاحظ أيضاً أنه من الناحية الجنسية ، أقرب شبهاً بأبيه منه بأمه ، وهى حقيقة تؤدى به الى التوحيد مع الاب مثلما توحد مع الام . وينشأ التناقض الوجداني ( مبدا الازدواج أو الثنائية ) من هذه الشحنة الوجدانية نحو شخصين مختلفين كلاهما يعتبر ضروريا وهاما لسعادته وراحته . فهو من ناحية يحب أن يشارك الاب في حب الام ، تلك المشاركة التى لا يحبها نظراً لرغبته في الاستئثار بحبها ، ولكنه من ناحية أخرى أكثر شبهاً بالاب منه بالام ، وهو احساس بالتوحيد يجلب له السرور والرضا . وطالما أنه مع استمرار النمو ينمو أيضاً مبدا الواقع ، فإنه قد يتوقع نوعاً من العقاب يوقعه به الاب ، أعنى عقاب الاب له على مشاركته في حب الام . ولما كانت معرفته بالعالم لا تزال قاصرة ، ولما كانت تربيته لا تزال تدور حول المناطق الناعمة والشرجية والجنسية ، فإن أى عقاب يمكن أن يوقع به الاب ، سوف يتصل بهذه المناطق الشبقية . ولما كانت الصفة الجنسية الوحيدة التى تميزه عن الام هى عضوه

الذكرى ، إذن ، فإن هذا العضو هو الذى يمكن أن يوجه اليه الثأر والانتقام من جهة الأب ، حتى يجعله أقرب شبيهاً بالأبني ويبعد عنه في الوقت نفسه صفته الذكرية الوحيدة . ويشبه ذلك من حيث الأهمية أيضاً أن عضو الذكر هو عضو التحريم الذى يجب أن يزال من أجل استبعاد أى احتمال لمجرد التفكير في قيام أية علاقة محرمة مع الأم . وهذا الخوف الشديد هو الذى أشار اليه فرويد باسم عقدة « الخصاء » . فالطفل الذكر يخاف من إزالة هذا العضو الذى يجعل منه ذكراً شبيهاً بالأب مما يترتب عليه فقد التوحد مع الأب ، كما يخاف أيضاً من منافسته المستمرة للأب في حب الأم ، وجذب اهتمامها . ومبدأ الثنائية هذا يترتب عليه ظهور القلق عند الطفل بشكل يعجز معه عن أحداث التوافق إلى أن يدخل مبدأ الواقع ميكانيزم الدفاع عن الانسا ونعني به ميكانيزم الكبت . وبذلك يجد الطفل طريقاً لحل مشكلته .

**وتعتبر الفترة من الثالثة حتى الخامسة أو السادسة من أقوى فترات النضال العنيف لدى الطفل . ومع ذلك فهي تستمر كعامل حيوى خلال حياة الفرد ، كما يكون لها أثر في اتجاه المراهق نحو الجنس الآخر ونحو مصادر السلطة وفي علاقته بزوجته واطفاله .**

هذا فيما يتصل بالولد الذكر . أما عن البنت ، فإن عقدها تسمى باسم « عقدة الكتوا » . وتتطور علاقتها بأبيها تطورا أكثر تعقيدا ، يتأثر بها تستشعره البنت من احساس بالفيرة من الأم لمشاركتها في حب الأب . وما تستشعره من وجودها بغير هذا العضو الذكرى واعتبارها أمها مسئولة عن ذلك . وإلى جانب اتهامها لامها بأنها المسئولة عن حالة الفقد هذه ، فإنها تتوحد بقوة مع الأب ، لأنه يمتلك هذا العضو الذى تحسده عليه ، ويظهر حسدها واضحا في المقارنة مع أبيها الذى يمتلك شيئا تفتقده هي .

ومرة أخرى تظهر الثنائية عند الفتاة . ذلك ان مشاركتها لامها من حيث افتقارهما إلى شيء ما ، يقوى توحدها الأولى والأصلى مع الأم ، ويحدث التناقض الوجدانى حالة قلق انفعالى عند الفتاة . وقد أطلق فرويد على حالة القلق هذه اسم « حسد القضيب » . ولاتصل البنت بسهولة إلى حل هذا التناقض الوجدانى مع وجود فروق سيكولوجية عديدة بين الذكر والانثى . ويستمر هذا الحسد لدى الفتاة فترة أطول ، كما تصبح أكثر تمردا على الأم مع المراهقة ، وتعديل اتجاهها تدريجيا حتى توفق هي الأخرى في الحصول على شريك حياتها بالزواج . ومرة أخرى تكشف - كما سن تناقشها الوجدانى نحو الجنس وذلك في دورها كأم لأولاد ، وبنيات ودورها كزوجة لرجل .

#### **( د ) فترة الكمون :**

ويدخل الطفل في مرحلة كمون جنسي تبدأ في حوالى سن السادسة أو السابعة أو الثامنة . وفي هذا الوقت يصبح الطفل أكثر اهتماما بالعديد من الأمور الأخرى غير الجنس ، إذ يخصص لمثل هذه الأمور وقتاً أطول مما كان يخصصه لها من قبل . ولكن لا يحتمل أن نفوته فرصة استطلاع أمور الجنس في أى مجال من المجالات التي تتاح له فيها فرصة القيام بذلك . وبغالب ما يحصل الطفل في هذه المرحلة على المتعة من اللعب

والعمل المدرسي ويمكن القول بوجه عام أن الكثير من صراعات الطفل القديمة عن الجنس تكون قد تقدمت قليلا في ناحية الاتضاح ، وأن الموضوع كله قد أصبح مفهوما بصورة أفضل .

وبالإضافة الى ذلك ، فإن الأطفال في هذه المرحلة يبدأون في استقلال بعض اهتمامهم وميولهم في غيرهم من الناس كأصدقائهم وزملائهم في المدرسة ، بدلا من أن يكونوا منطوقين على انفسهم . وفي هذا الوقت تتاح لهم أول فرصة لتنمية مشاعر الحب والمتعة والتعلق بالرفقاء في عالمهم الذي بدأ يتسع بعض الشيء ، ولو أنه لا زال صغيرا ومعروفا - عالم زملاء اللعب والعلمين والإبطال والنجوم من الذكور والإناث .

( هـ ) **المرحلة التناسلية :** والمراحل الثلاث السابقة على مرحلة الكمون - وهى الفمية والشرجية والقضيبية - تعرف باسم **المراحل قبل التناسلية** . وتتميز شحناتها بأنها ذات طابع نرجسي حيث يحصل الفرد على اللذة من تنبيه مناطق معينة من جسمه ، وأن شحناته تستهدف الآخرين لأنهم يتيحون له أشكالاً إضافية من اللذة الجسدية فحسب . ومع المراهقة يبدأ بعض هذا الحب يتلمس طرقاً تقوده الى اختيارات موضوع حقيقي ، ويشعر المراهق في حب الآخرين ، تحده دوافع الإيثار وليس مجرد أسباب نرجسية . فالجاذبية الجنسية والتنشئة الاجتماعية والنشاط الجماعى والتخطيط المهنى والاستعداد للزواج وتكوين الأسرة تبدأ جميعها في التعبير عن نفسها بصورة واضحة . وفي نهاية المراهقة تصبح الشحنات الانفعالية الاجتماعية الغريبة أكثر ثباتا ، ويتحول الفرد من النرجسية او البحث عن اللذة الذاتية الى راشد تسيره الحقيقة الواقعية والمجتمع ( هول ولندزى ص ٨٠ ) .

وأخيرا ، يحسن ان نشير الى أنه على الرغم من أن فرويد قد ميز بين مراحل أربع من النمو النفسي الجنسي ، إلا أن هذه المراحل ليست منفصلة بعضها عن بعض ، أو أن الانتقال يكون فجائيا من مرحلة الى أخرى . وبذلك يكون التنظيم النهائي للشخصية هو نتيجة اسهامات هذه المراحل الأربع .



### ثانيا : نظرية اريكسون :

لقد ادخل اريك اريكسون تعديلات على نظرية فرويد في النمو النفسي الجنسي في ناحيتين أساسيتين : الأولى : التأكيد على التفاعل المتبادل - وربما بصورة أكثر مما عند فرويد - بين المحتوى الاجتماعى والمراحل البيولوجية المعينة التي يمر بها الكائن الحى . والثانية : التوسع في المراحل . فبعد ان كانت هذه المراحل أربع عند فرويد ( الفمية - الشرجية - القضيبية - التناسلية ) ، أصبحت ثمانية عند اريكسون .

وسوف نعرض نظرية اريكسون بشيء من الاختصار مستعينين في ذلك بما قدمه في كتابه « الطفولة والمجتمع » طبة ١٩٧٠ ( ١٧ ) ، « والهوية : الشباب والازمات » طبة ١٩٦٨ ( ١٨ ) .



وقد أشار أريكسون في بداية حديثه عن نمو الشخصية الى أن هناك صورا كثيرة لخصائص الشخصية السوية وأخذ بتعريف **ماري جاهودا Marie Jahooda** التى تذهب الى أن الشخصية السوية هي « تلك التى تسيطر على البيئة بنشاط ، وتكشف عن وحدة معينة ، ولديها القدرة على ادراك العالم وادراك نفسها على نحو سليم » . ومن الواضح أن هذه المعايير تعد نسبة إذا نظرنا إليها من ناحية النمو المعرفى والاجتماعي للطفل . فالطفولة تتميز في الحقيقة بالغياب المبدئي لهذه المعايير ، وينموها التدريجي بعد ذلك في خطوات معقدة من التمايز المطرد . ومن هنا ، يرى أريكسون أن من المفيد أن نبين الطريق الاساسى لنمو الشخصية وخصائصها السوية .

ويذهب أريكسون الى أنه عند محاولة فهم عملية النمو ، يحسن أن نتذكر جيدا مبدأ « **التخلق المتعاقب** » ( \* ) **Epigenetic Principle** والذى نستمدّه من نمو الكائن الحى العضوى داخل الرحم . ويتعميم هذا المبدأ نوعا ما ، يمكن القول بأن أى شيء ينمو ، إنما يكون له منذ البداية ، خطة اساسية ينمو وفقا لها . ومن هذه الخطة الاساسية تقوم الاجزاء ، ويكون لكل جزء وقت محدد لظهوره ، حتى يكتمل ظهور الاجزاء جميعا ، فتكون كلا وظفيا . هذا ما يصدق بشكل واضح على نمو الجنين ، حيث يكون لكل جزء من أجزائه وقت محدد لظهوره ، ولا تعرض للتلف أو نقص التكوين . وعند الولادة يتخلّى الطفل عن التبادل الكيميائي الذى كان يتم داخل الرحم ، كى يفسح المجال امام نظام جديد من التبادل الاجتماعى مع مجتمعه الذى سيحيا فيه ، وحيث تتعرض قدراته وامكانياته المتزايدة بالتدرج لكثير من فرص النمو ومن الإحباطات التى تظهر داخل الاطار الثقافي الذى يعيش فيه . أما كيف يستمر الكائن الحى النامى في نموه ، لا عن طريق نمو أعضاء جديدة ، ولكن عن طريق التتابع المحدد لظهور القدرات الحسية والحركية والاجتماعية ، فهذا ما تمتلئ به كتب النمو . لقد أمدنا التحليل النفسى بالكثير من المعلومات التى تتصل بالخبرات المزاجية ، وعلى وجه الخصوص بالسرعات الداخلية التى تكشف عن الطريقة التى بها يصبح الفرد شخصية متميزة ، ولكن من المهم أيضا أن نتحقق من أن الطفل السوى فى تتابع خبراته الشخصية يمكنه ، اذا منح قدرا معقولا من التوجيه السليم ، أن يخضع لقوانين النمو الداخلية ، تلك القوانين التى تسمح بتتابع ظهور الإمكانيات فى تفاعلها الهام مع الشخصيات والمؤسسات الاجتماعية التى يتفاعل معها . وإذا كان هذا التفاعل يختلف من ثقافة لأخرى ، إلا أنه يجب أن يظل داخل اطار « المعدل الطبيعى للسرعة والتتابع السرى » الذى يحكم كل تخلق متعاقب . وعلى ذلك ، يمكن القول بأن الشخصية تنمو وفقا لخطوات محددة سلفا في استعداد الكائن الحى العضوى ، من أجل أن يعرف ويتفاعل ويتجه نحو مجال أوسع من الأشخاص والمؤسسات ذات الأهمية بالنسبة له . ولذا يستخدم أريكسون عند عرضه لمراحل نمو الشخصية تصورا لهذا التخلق المتعاقب في النمو النفسى ابتداء من الطفولة الاولى حتى الرشد .

\* **Epigenesis** : التخلق المتعاقب : نظرية تقول بأن الجنين يتكون بسلسلة من التشكلات المتعاقبة ( وهي تتنافس التخلق السبقى القائلة بأن جميع اعضاء الجنين موجودة وجودا سبقيا في الجرومة ) .

ومن الطبيعي ان يواجه الطفل في كل مرحلة من مراحل نموه مشكلة أساسية عليه ان يحلها بصورة مؤقتة على الأقل ، اذا اراد ان يتقدم في حيوية وثقة الى المرحلة التالية . وهذه المشكلات او هذه الصراعات بين المشاعر وبين الرغبات لاتحل باكملها على الاطلاق ، نكل تغير في الخبرة والبيئة من شأنه ان يظهر هذه الصراعات في صورة جديدة . على ان من المعتقد ان كل نوع من هذه الصراعات يبدؤ في انقضى صورة ووضوحها في مرحلة معينة من مراحل نمو الطفل ، ومنتى حل هذا الصراع او هذه المشكلة حلا طيبا في ذلك الوقت ، تم وضع اساس التقدم الى المرحلة التالية .

### ونقدم فيما يلي وصفا للمراحل النمائية الثمان عند أريكسون .

١ - الإحساس بالثقة الأساسية في مقابل عدم الثقة الأساسية : وعند وصف مجموعة الاتجاهات الأساسية المتعاقبة للنمو ، استخدم أريكسون مصطلح « الإحساس ب » sense of ومع ذلك ، يجب ان يكون من الواضح بشكل مباشر ان مثل هذه الإحساسات ، كالإحساس بالصحة او الحيوية او الإحساس بالافتقار الى كليهما ، تنطبق على جميع الاشياء التي تنتشر ظاهرة على السطح او توجد في الأعماق . فهي تنطبق على الحالات الشعورية وما قبل الشعورية واللاشعورية . فالثقة ، كخبرة شعورية يمكن ان تخضع للاستيطان ، ولكنها هي ايضا وسيلة للسلوك تقبل الملاحظة من الآخرين ، ثم بانها اخيرا حالة داخلية يمكن ان تتحقق فقط عن طريق الفحص والتفسير بالتحليل النفسي . وكل هذه الأبعاد الثلاثة يمكن الاستدلال عليها حين نتحدث عن « الإحساس ب » .

وأول مكون للشخصية السليمة هو « الإحساس بالثقة » . وهذا الإحساس يظهر عادة خلال السنة الأولى من حياة الطفل ، وهو كغيره من مكونات الشخصية لا ينمو مستقلا عن غيره من مظاهر النمو الأخرى . والشعور بالثقة لا يعني ان الطفل قد أصبح قادرا على استخدام جسمه في حركة هادفة ، وانه قادر على التعرف على من حوله من الناس والاشياء فحسب ، بل وايضا يستعمل كتعبير موجز عن خاصية مميزة لكل خبرات الطفل المشبعة في هذا السن المبكر .

وأول مظهر من مظاهر الثقة الاجتماعية لدى الطفل في هذه المرحلة هو ما يتجلى في سهولة الحصول على الغذاء ، وعمق النوم ، والشعور بالارتياح عقب القيام بعملية الإخراج . وتساعد خبرة التنظيم المتبادل بين قدراته المستقبلية . واساليب الام التي تروده تدريجيا باحتياجاته المختلفة ، على احداث التوازن لمشاعر عدم الارتياح . ومع ازدياد ساعات اليقظة ، يجد الطفل ان الخبرات الحسية المتزايدة من شأنها ان تثير لديه الإحساس بالالفة والتوافق مع مشاعر الارتياح الداخلية ، وتصبح اشكال الارتياح ، وكذلك الناس والاشياء المحيطة به ، امورا مألوفة لديه .

ويستمد الطفل من الثقافة التي يعيش فيها بعض الاساليب الأساسية . ومن أبسطها وأسرعها ظهورا ، أسلوب « الأخذ » ، لا بمعنى « ان يذهب ويأخذ » ، ولكن بمعنى ان « يستقبل ويتقبل ما يقدم له » وهذه العملية تبين بسهولة وبسيطة ، ومع ذلك فان أي اضطراب

فيها من شأنه أن يكشف عن مدى تعمق هذه العملية . فهذا الطفل الصغير يتعلم كيف ينظم استعداده « للاخلاء » مع أساليب الام التي تسمح بدورها للطفل أن ينسق وسائله ، عندما تنمى هي وسائلها في العطاء . ونتيجة لهذا كله ينمى الطفل أيضا التوحد مع الام ، ويصبح أخيرا معطيا على نحو ما كانت الام .

وقد يظهر لدى بعض الاطفال الحساسين على وجه الخصوص أو الذين لا تعوض احيائهم المبكرة ، قدر من الضعف في احداث مثل هذا التنظيم المتبادل المبكر ، الامر الذي يسبب اضطراب العلاقة مع العالم الخارجى بعامه ، ومع الاشخاص المهمين بخاصة : غير أن هناك بالطبع طرقا أخرى لتوكيد هذا التبادل من خلال مواقف أخرى غير المواقف الغمية المستقبلية . فهناك احساس الطفل بالسرون عندما ترضعه الام الى صدرها أو عندما تبسم له أو تتحدث اليه أو تدله . وإلى جانب مثل هذا التعويض « الافقى » ( الذى يحدث خلال نفس مرحلة النمو ) وهناك أيضا التعويضات « الطولية » في الحياة والتي تظهر خلال المراحل التالية من دورة حياة الفرد .

وخلال المرحلة الغمية الثانية ، تنمو لدى الطفل بعض القدرات للحصول على اللذة باتخاذ اساليب أكثر ايجابية وأكثر ادماجا ، وبشكل مباشر . ففي هذه المرحلة تبرز الانسان ، ومع بزوغها يظهر السرور من القيام بالقضم على الأشياء أو عضها . ويتصف هذا الاسلوب الإدماجي النشاط بعدد من الانشطة الأخرى . فالعين التي كانت من قبل سلبية في استقبالها للانطباعات التي تحدث ، تتعلم الآن التركيز على الأشياء ، وفصلها وإدراكها على أرضيتها الفارضة وتبناها . وبالمثل تتعلم أعضاء السمع أن تميز الأصوات الهامة والتركيز عليها وإدارة الرأس ورأعها ، وتتعلم الأذرع الوصول إلى الأشياء والقبض عليها باليدين بشكل محدد .

**ومن الصعب تفسير أزمة هذه المرحلة الغمية نظرا لأنها تتألف من الانغلاق الزمنى**  
**لنماذج ثلاثة :** ( أ ) حافظ قوى الإدماج وأفراد وملاحظة التوتر المصحوب بعدم الارتياح نتيجة بزوغ السن وغيرها من التغيرات في الجهاز القمى (ب) المعرفة المتزايدة للطفل بنفسه كشخص متميز . (ج) التحول التدريجي للام بعيدا عن الطفل ، وتجاه أمور كانت قد تخلت عنها إلى حد ما خلال فترات الحمل الأخيرة ، أو المدة الأولى للرعاية ، أو ربما لاستقبال طفل جديد .

وعندما تستمر الام في تقديم الثدي خلال مرحلة العض ، فإن من الضروري إذن أن يتعلم الطفل كيف يستمر في الرضاعة من غير عض ، وحتى لا يترتب على ذلك أن تسحب الام الثدي في غضب أو ألم . ويشير العمل الاكلينيكي إلى أن هذه المرحلة المبكرة في تاريخ حياة الطفل تروده ببعض الاحساس بفقدان الثقة ، وتترك انطبعا لديه بأن وحدته مع الام قد تحطمت مرة واحدة وإلى الأبد . وهذا الفقدان المفاجيء لحب الام الذي اعتاده الطفل - ودون أن يكون هناك بديل مناسب في هذا الوقت المبكر يعوضه هذا الحب من شأنه أن يحدث اكتئابا شديدا لدى الطفل ، أو على أحسن الظروف احساسا بالانقسام الداخلى وحنينا غامضا للجنة المفقودة . وإزاء هذا التجمع القوى للاحاساس بالحرمان والشعور بالانقسام ، والفقدان يجب أن تؤكد الثقة الأساسية ذاتها خلال حياة الفرد .

ويتضح فقدان الثقة الاساسية في حالات المرض، النفسي ولدى حالات الفصام الطفلى ، كما تضح مظاهر فقدان الكامن الطويل الامد لهذه الثقة في شخصيات الراشدين الذين يتسمون بالانسحاب الشديد والبعد عن الناس وبالاكتئاب . وقد وجد بالنسبة لمثل هذه الحالات ، أن اعادة بناء الثقة بالنفس هو المطلب الاساسى للعلاج ، لانه ايا كانت الظروف التى احدثت الاضطراب الذهاني ، فان الشللوذ أو الانسحاب الذى يظهر فى سلوك الكثيرين من المرضى ، انما يخفى وراءه محاولة لاستعادة التبادل الاجتماعى واعداد الثقة مرة اخرى .

وأول عمل لانا هو اقامة انماط متينة ثابتة لحل الصراع الرئيسى للثقة مقابل فقدان الثقة ، وهذا بلا شك واجب من واجبات الرعاية التى تقوم بها الام . ويجب أن نوضح هنا ، أن مقدار الثقة المستمد من الخبرة الطفيلية المبكرة ، لا يتوقف على الكميات أو المقادير المطلقة للطعام أو على اظهار الحب للطفل فحسب ، وانما يتوقف ايضا على نوع العلاقة بين الطفل والام . فالامهات يخلقن الاحساس بالثقة في ابنائهن عن طريق هذا النوع من المعالجة التى يتضمن الرعاية الحساسة لحاجات الطفل ، وعن طريق هذا الاحساس العميق بأنه جدير بالثقة الشخصية داخل اطار الثقة في أسلوب حياة المجتمع والثقافة التى يحيا فيها . ومن شأن هذا أن يشكل لدى الطفل اساس الاحساس بالهوية ، والذى سوف ينضم فيما بعد الى الاحساس بأن الامور « تسير على ما يرام » وانه « هو هو » ، وانه « جدير بثقة الآخرين به » . حقيقة قد يواجه الطفل ، سواء في هذه المرحلة أو المراحل التالية عليها ، مجموعة من الاحباطات التى لا يمكن للطفل النامى تحملها احيانا ، ولذا يجب الا يعتمد الآباء في أسلوب تربيته للطفل على وسائل معينة للتوجيه عن طريق المنع أو المتح فحسب ، بل يجب أن يكون لديهم ايضا القدرة على الانتفاع العميق للطفل بأن ثمة معان تكمن وراء ما يقدمونه له من اشياء أو امر ونواه . ان الطفل لا يصبح فى النهاية عصابيا نتيجة ما يتعرض له من احباطات ، وانما لفقدانه المعنى الاجتماعى لهذه الاحباطات .

٢ - الاحساس بالاستقلال مقابل الشعور بالخجل والشك وبعد ان توضع بذور الاحساس بالثقة على أساس متين ، يبدأ الانتقال الى الكون الثانى من مكونات الشخصية السليمة ، وذلك فى الفترة ما بين سن الاثنى عشر والخمسة عشر شهرا . وتنصرف معظم طاقة الطفل فى هذه المرحلة الى تأكيد ذاته من خلال الافعال التى يقوم بها من حيث انه انسان له عقل وله ارادة خاصة .

وهناك اساس فسيولوجى للسلوك المتميز فى هذه المرحلة . ذلك أن تضج الجهاز العضلى وما يترتب عليه من تآزر وتوافق بين عدد من الانماط المتصارعة للحركة والفعل ، يعبء المسرح امام تجربة مجموعتين من الاساليب الاجتماعية فى وقت واحد : القبض والاسترخاء ، الامساك والاخراج . وكما هو الامر بالنسبة لكثير من الحالات ، يمكن أن تؤدي صراعاتها الاساسية فى النهاية اما الى العدوان أو الى توقعات واتجاهات لطيفة معتدلة . فالقبض أو الامساك يمكن أن يصبح احتجازا قاسيا أو مدمرا ، كما يمكن أن يصبح نمطا من الرعاية ، بمعنى انه يمتلك ويحتفظ بما يمتلك . وبالمثل قد يصبح الاخراج أو الاسترخاء وسيلة لاخراج عدوانى لقوى مدمرة ، كما يمكن أن يصبح استرخاء بمعنى « دع الامور تمر ، وتنتهى » .

وفي هذه المرحلة يجب أن يكون الضبط الخارجى من النوع الذى يعيد الطمأنينة مع قدر من الحزم . فالطفل يجب أن يشعر أن الثقة الأساسية في الوجود ، والتي استمر محتفظا بها رغم ثورات المرحلة السابقة وأزماتها سوف لا تتعرض للخطر نتيجة هذا التغير الكامل المفاجئ ، وهذه الرغبة العنيفة المفاجئة للقيام بالاختيار بين أن يحتفظ بعناية أو أن يخرج بعناد . فالحزم في هذه المرحلة أمر ضرورى لأنه يجب أن يحميه من الفوضى التى يمكن أن يتردى فيها نتيجة لاحتياسه غير المدرب على التمييز والتفضيل ، وعدم قدرته على القبض والإخراج دون تحفظ وحذر . فينبغى على الأم والبيئة المحيطة به أذن ، أن تعضد الطفل وتشجعه على « الوقوف على قدميه » والاستقلال بنفسه، وأن تحميه ضد الخبرات القاسية والعديمة المعنى والتي يسيطر عليها الخجل والشك .

فالبيئة إذن يجب أن توجهه توجيه الحكيم ، وأن تجنبه مشاعر الخجل والشك في قيمته كشخص ، وأن تسلك أزاءه بحزم وتسامح ، بحيث يستطيع أن يتمتع بكونه شخصا مستقلا ، وأن يمنح الاستقلال للآخرين .

**ويذهب أريكسون إلى أن الخجل انفعال لم يدرس بعد بما فيه الكفاية ، لأنه في مجتمعاتنا الحديثة ، سرعان ما تمتصه الخطيئة بسهولة . ويفترض الخجل أن الفرد قد تعرى تماما ، كما يفترض أيضا الشعور بأن الآخرين قد اطمأنوا عليه ونظروا إليه . فهو واع بذاته أو خجل من نفسه . لقد رؤى وهو على غير استعداد أن يراه أحد . ولعل هذا هو السبب في أننا نحلم أحيانا بالخجل في موقف يشعر فيه الفردان الآخرين بتفرسون فيه . وهو في حالة من العرى الكامل أو وهو في ملابس الليل « وبدون سروال » . وكان يعبر عن الخجل كدافع يدفع الفرد « أن يذفن وجهه بين يديه » أو « أن يتمنى أن تبتلعته الأرض هنا أو هناك » . ويعتبر أريكسون الخجل أساسا بمثابة ثورة موجهة ضد الذات . فهذا الذى يشعر بالخجل يود لو أجبر العالم ألا ينظر إليه ولا يلاحظ ثورته ، يود لو يحطم أعين العالم ، ثم هو بالإضافة إلى ذلك يود أن يصبح هو ذاته غير مرئى .**

**والشك قرين الخجل .** وإذا كان الخجل يتوقف على الشعور بالتعري والاكتشاف أمام الناس ، فإن الشك - حسب ما أوصله الملاحظة الكلينيكية إلى الاعتقاد - يتصل بالشعور بأن للفرد « قبل ودبر » ( أى أمام وخلف ) وخاصة الدبر ، لأن هذه المنطقة الخلفية من الجسم مع تركيزها المدوائى والبييسى على العضلات العاصرة والإرداف ، لا يمكن أن يراها الطفل ، ومع ذلك يمكن أن تخضع لإرادة الغير . « فالدبر » هى تلك المنطقة من الجسم التى يمكن أن يسيطر عليها أو يتكسحها - بالخيال أو بالفعل - هؤلاء الذين يمكنهم مهاجمة قدرة الفرد على الاستقلال، أو الذين قد يصنعون ما تخرجه الأمعاء بأنه خطأ أو عيب في الوقت الذى يشعر فيه الطفل بالارتياح وقت إخراجها . وهكذا الإحساس الرئيسى بالشك فيما يخلقه الفرد وراءه ، يشكل قوام الصور الأخيرة واللفظية للشك القهرى ، والذى يعبر عنه في الرشد في خوف المصاب بالهذاء من المضطهدين المختفين ، ومن الاضطهادات الخفية السرية التى تدبر من الخلف .

وتعتبر هذه المرحلة من مراحل النمو النفسي الحاسمة في تكوين الفرد نظرا لما يوجد فيها من صراع بين الحب والكراهية ، بين التعاون والعناد ، بين حرية التعبير عن الذات وقمع الذات . فمن الاحساس بضبط النفس دون فقدان التقدير للذات ، ينتج احساس مستمر ودائم بالارادة والاستقلال والزهو ، على حين ينتج عن الاحساس بعدم القدرة على ضبط النفس ، وان التحكم مصدره خارجي ، احساس مستمر ودائم بالشك والخجل .

ويجدد بنا ان نشير الى ان هذه النتائج المتصلة بالاحساس بالاستقلال والخجل والشك ليست امورا مبالغ فيها نتيجة الاهتمام الزائد بالمشكلات الاكلينيكية ، وانما هي امور نجدها متمثلة « حتى لدى الراشدين الناضجين وغير العصبيين . فهؤلاء غالبا ما يكشفون عن حساسية تنصل « بالفقدان المخجل لماء الوجه » . وعن « خوف من ان يهاجم من الخلف » ومعظم هذه الاحساسات هي بقايا لمراحل النمو المبكرة التي يمر بها الفرد من طفولته ، والتي يتغلب على معظمها وهو في طريقه الى الانتقال الى المراحل التالية .

٢ - الاحساس بالمبادأة مقابل الاحساس بالذنب وفي كل مرحلة جديدة تظهر معجزة اخرى تتكشف للعيان وتمثل املا جديدا ومسئولية جديدة للجميع . ومعجزة هذه المرحلة هي الاحساس بالمبادأة . ونحن الآن نقترب من نهاية السنة الثالثة حيث تصبح عملية المشي سهلة وميسورة لدى الطفل . حقيقة ان كتب النمو تشير الى ان الطفل يمكنه ان يعشى قبل هذا السن بكثير ، ولكن المشي والجرى يصبحان جزءا هاما من اساليب سيطرة الطفل على البيئة المحيطة به . انه يريد ان يكتشف المجال الحيوي الذي يعيش فيه . فالطفل في هذه المرحلة شغوف بعقد مقارنات بين الاشياء والاشخاص ، ولديه القدرة على الاستطلاع المستمر للفروق في الحجم والنوع بعمامة ، والفروق في الجنس والسن وبخاصة . انه يحاول ان يفهم الادوار المستقبلية والادوار الجديرة بان يتخيلا ، انه يريد ان يكتشف اى نوع من الاشخاص يمكن ان يكونه . وهو يحس فجة بأنه قد نما وكبر سواء في جسمه او في نفسه ، وانه قد اصبح اكثر نشاطا وحيوية واكثر لمانا وكذا في احكامه وانه يمتلك مزيدا من الطاقة والنشاط اللذين يسمحان له بان ينسى الفشل بسرعة ، وان يقترب مما هو مرغوب ( حتى ولو بدا هذا المرغوب غير مؤكد او خطرا ) فالمرحلة مرحلة تعلم نشط عنيف ، تعلم يقود الطفل من نواحي قصوره وضعفه الى امكانات مستقبلية وجديدة ، مرحلة اندفاع في المكان عن طريق الحركة العنيفة النشطة ، مرحلة غزو للمجهول يدفعه اليه حب استطلاع شديد . ثم هو في هذه المرحلة يستطيع ان يرتبط وبشكل مباشر برفاقه من نفس سنه ، ويمكنه بتوجيه الاطفال الاكبر منه سنا ، او بتوجيه الكبار من حوله ، ان يتعلم سياسة التعامل مع هؤلاء الرفاق ، سواء في المدرسة او في الشارع او المجتمع الخارجى .

وهكذا تضيف المبادأة الى الاستقلال صفة مباشرة العمل ومواجهته وتخطيطه من اجل ان يصبح نشطا ومتحركا . ويرى اريكسون ان مصطلح المبادأة - رغم ما يحمله من مدلول امريكي ذى صبغة اقتصادية - يعد جزءا ضروريا بالنسبة لكل عمل . فالانسان يحتاج الى

الاحساس بالمبادأة بالنسبة لكل نشاط يقوم به ، وكل عمل يتعلمه أو يؤديه ابتداء من جمع الحصول في الحقل الى القيام بتنفيذ مشروع هندسى .

**ويرى أريكسون أن تعلم الطفل في هذه المرحلة هو الى حد بعيد من النوع الاقشامى والعنيف .** انه يبعد الطفل عن نواحي قصوره وضعفه ، ويقربه في ذات الوقت من امكانياته المستقبلية .

واسلوب الاقحام الذى يسيطر على كثير من مظاهر سلوك هذه المرحلة قد يتخذ العديد من الانشطة والتخيلات المتشابهة . وتتضمن هذه :

- (١) اقحام المكان بحركة نشطة وعنيفة .
- (٢) اقحام الطفل بنفسه فيما لا يعنيه من امور عن طريق حب الاستطلاع .
- (٣) اقحام نفسه في آذان الاخرين وعقولهم عن طريق صراخه العدوانى .
- (٤) اقحام نفسه على اجسام الاخرين بالهجوم المادى عليهم .

(٥) واخيرا باقحام عضو التذكير - بالتفكير او التخيل - في جسم انثى . وهذه المرحلة هى نفسها المرحلة القضيبية في نظرية الجنسية الطفيلية عند فرويد . انها مرحلة حب استطلاع طفلى واستشارة جنسية واهتمام زائد وانشغال بامور الجنس كافتقار البنت الى عضو التذكير .

**ومرحلة التجول -** والتى هى مرحلة لعب وجنسية طفلية - تضيف الى الاساليب الاجتماعية الاسلامية اسلوبا جديدا لدى الجنسين هو اسلوب « الاحداث او الصنع making » وهو بالمعنى الطفلى اسلوب « الفوز بشيء » وهذه العبارة توحى بالاستمتاع بالمنافسة والاصرار على بلوغ الهدف واللذة في الفوز والسيطرة ، وينصب التركيز عند الولد الذكر على الاساليب « القضائية - الاقحامية » ، على حين تتحول عند الفتاة الى أساليب المسلك المفاجيء والاختطاف العدوانى او - في الحالات المعتدلة - اتخاذ اساليب تجعلها جميلة وجذابة . وبذلك ينشأ الطفل متطلبات المبادأة الذكورية والانثوية وبعض صور الذات الجنسية التى سوف تصبح مقوما أساسيا من مقومات المظاهر الموجبة والسالبة لهويته المستقبلية ، كما تزداد تخيلات الطفل . فالولد ينقسم في تخيلات قوامها انه أصبح هائلا أو أسدا ، ولكن احلامه تدور حول مخاوف تتصل بالحياة وبالاطراف . فهى مرحلة « عقدة الخشاء » والخوف العميق من الفقد . اما البنت فلديها اقتناع بانها قد فقدت العضو الذكري عقابا لها عن تخيلات وافعال سرية خفية .

**وفي هذه السن يكون الضمير قد نما و أصبح اعظم حاكم للمبادأة .** فالطفل لم يعد موجها باناس من الخارج فحسب ، بل أصبح ايضا يسمع « الصوت الداخلى » للملاحظة الذات وتوجيهها وعقابها ، هذا الصوت الذى يعلق على أفعاله ويحذر به ويهدده ، وتلك هى بداية

نشوء الاخلاق عند الطفل . غير ان تزمّت الكبار وتحميلهم للطفل أكثر مما يطيق ، سوف يجعل الامر صعبا وخطيرا بالنسبة للروح والاخلاق معا . ذلك ان ضمير الطفل يكون بدائيا وقاسيا وغير متسامح ، وقد ينتج عن ذلك نوع من الحصر الشديد . فاذا كان من الممنوع أن يفعل كذا ، فمن الخطورة بمكان أن يفكر حتى مجرد التفكير فيه ، وقد يدفع الى هذا القرار غيرة وحسد ومراة واتجاه نفسى شرير تجاه العالم . ومثل هذه المشاعر تجبر الطفل على تقييد ذاته ، وقد يصبح هذا التقييد لا شعوريا ويكون جزءا من الشخصية يقوم بوظيفته ويؤثر في سلوكها . ولعل أحد الصراعات العميقة في الحياة هو ذلك الصراع الذى يتكون نتيجة كراهية الاب الذى يكون في بداية الامر نموذجا للضمير ، ولكنه في النهاية يرتكب الخطايا التى لا يتحمل ضمير الطفل اتيانها . وهنا يصل الطفل الى الشعور بأن المسألة ليست مسأله اخلاق عامة ، بل هى قوة قسرية وتعسفية تفرض عليه .

**وهذه المرحلة النمائية لها مزايا ومخاطر.** فالطفل في هذه المرحلة يكون أكثر استعدادا للتعليم بسرعة وقوة ومشاركة الالتزامات والاعمال التى يقوم بها الغير ، منه في أية مرحلة أخرى ، فهو شغوف لان يتعلم ، ومشوق وقادرفى نفس الوقت على القيام بالاعمال التى يشارك ويتعاون فيها مع الأطفال الآخرين من اجل التصميم والبناء ، كما يرحب بالاستفادة من المدرسة ، وان يضاهي النماذج الاصلية التى يراها . انه يظل بالطبع متوحدا مع الاب من نفس الجنس ، ولكنه في الوقت نفسه يبحث عن فرص يتيح له فيها التوحد مع العمل ، مجالا للمبادأة دون حدوث صراع طفلى ، او شعور اوديبى بالذنب ، وكذلك البحث عن توحيد أكثر واقعية يقوم على روح المساواة التى خيراها من العمل مع الآخرين . واذا استطاع الطفل في هذه المرحلة ان يفهم جزئيا بعض الادوار والوظائف التى يستطيع القيام بها كشخص راشد ، فانه سوف يكون مستعدا للانتقال في نمو سليم الى المرحلة التالية .

٤ - **الاحساس بالعمل مقابل الشعور بالنقص :** واذا كان طفل المرحلة السابقة مستعدا لان يتعلم في شغف وسرعة وان يصبح كبيرا ، وان يشارك في الالتزامات والنظام والعمل ، وان يعمل ويشارك في البناء والتصميم فان اطفال هذه المرحلة يصبحون أكثر ارتباطا بالمدرسين وآباء الأطفال الآخرين ، وأكثر ميلا الى ملاحظة وتقليد أعمال بعض الناس الذين يمكنهم ادراكها كرجل الشرطة ورجل المطافىء والبستاني . وهذه المرحلة تبدو كلها وكأنها تمهد السبيل للدخول في الحياة . واقتصاد بالحياة هنا حياة الدرس ، سواء تم ذلك في الحقل او العسكرية او الفصل ، والطفل في هذه المرحلة ينسى الكثير من الآمال والرفيات السابقة وينصرف الى الاعمال الحقيقية . ذلك ان الفرد قبل ان يصبح إبا من الناحية البيولوجية ، عليه ان يعمل أولا ليرعى أسرته ، ومع الدخول في مرحلة الكمون ينسى الطفل المتقدم بشك طبيعى نحو التضج او يعلى الرغبة في ان يوجد انفسا او ان يصبح إبا او تصبح اما . انه يتعلم الآن ان يكتسب المعرفة عن طريق انتاج الاشياء .



وإذا كان جميع الأطفال محتاجين في بعض الأوقات الى ان يتركوا يلعبون وحدهم او ان يتركوا - فيما بعد - في حصة الكتاب أو الراديو أو السينما أو التلفزيون ، وإذا كان جميع الأطفال يحتاجون في بعض الأوقات الى القيام ببعض الألعاب الإيهامية ، فانهم ، ان عاجلا أو آجلا - سوف يحسون بالاستياء والسخط اذا لم يوجد لديهم الاحساس بالقدرة على القيام بعمل شيء ما أو عمله جيدا وباتقان . وهذا الاحساس بالقدرة على العمل هو ما أطلق عليه أريكسون اسم «الاحساس بالإنجاز» أو «الاحساس بالصناعة» ، فبدونه يشعر الطفل بالضيق ، فبالعمل يعرف الفرد ويعرف مجتمعه أنه قد أصبح من الناحية النفسية مؤهلا لان يكون ابا ، حيث يلزمه العمل لرعاية الأسرة من الناحية الاجتماعية ، قبل أن يصبح ابا من الناحية البيولوجية .

وتقول « إيفي هندريك » ان مبدأ العمل يعلم الفرد لذة اتمام العمل وإنجازه ، وذلك نتيجة الانتباه المستمر والاجتهاد التواصل . والأطفال في جميع الثقافات يتقنون خلال هذه المرحلة بعض نواحي التعليم المنظم والذي يأخذ عادة صورة تعليم مدرسي حيث يتجمع الأطفال حول مدرسين مؤهلين جيدا للقيام بعملية التعليم . وفي المجتمعات البدائية ، حيث لا تعلم منظم ، يقوم الكبار بدور تعليم الصغار الذين يلتقطون المهن من الكبار . ويقلب الميل لدى الطفل في مثل هذه الحالات حين يقبل على تعلم صنعة ما . وعلى ذلك ، فان أساسيات التكنولوجيا تنمو عندما يصبح الطفل قادرا على معالجة الأدوات والعدد والسهم التي يستخدمها الكبار من حوله . وحيث يتطلب الأمر ان يصبح المتعلم على قدر من التخصص المهني ، فان واجب المدرسة في هذه الحالة هو ان تزود الطفل بأكبر قدر من التعليم الاساسي لاتقان تخصصه . ومن الملاحظ انه كلما أصبح دور التعليم أكثر تخصصا ، وأصبحت المواد الدراسية أكثر عمقا ، قل دور الآباء في العملية التعليمية . وأصبح أكثر تحديدا . ومن هنا ، تصبح المدرسة هي المصدر الاساسي للثقافة بما لها من قدرة وامكانات على تحقيق اهداف المجتمع التربوية .

**والخط الاساسي في هذه المرحلة يكمن في احساس الطفل بعدم الكفاية والنقص .** وقد يرجع ذلك الى فشل الطفل في تنمية الشعور بالمبادأة في المرحلة السابقة ، او أن وضعه بين اقرانه الذين يشاركونه العمل أو الدراسة يشعره بالمعز في التوحد معهم ، او أن مكان التعليم والعمل لا يوفر له من الخبرات والمثيرات ما يتحدى قدراته الكامنة . ومن هنا يصبح النجاح في المدرسة أحد عوامل الصحة النفسية للطفل ، وكما يقولون النجاح يولد النجاح . ومن شأن ذلك ان يجعل النمو النفسي للطفل سويا وطبيعيا الى حد بعيد . والمدرس الناجح هو الذي يعرف كيف يساعد التلميذ على أن يشق طريقه في المدرسة ، ويعينه على التغلب على مشكلاته المدرسية وعلى المواقف التي تعترض سبيله . انه يعرف جيدا كيف يجعل الطفل يتناول اللعب والعمل . انه يعرف كيف يقدم الجهود الخاصة وكيف يشجع الأطفال على بذل المزيد من الجهد ، وكيف يعالج هؤلاء الذين لا ينظرون باهتمام الى المدرسة ويعتبرونها سجنًا . ولكن من واجب الآباء ايضا أن يجعلوا أبناءهم يحبون مدرسيهم

وبحسب الثقة فيهم ، لأن الطفل محتاج الى التوحد مع مدرسه مثلما هو محتاج الى التوحد مع ابيه .

**٥ - الاحساس بالهوية مقابل اضطراب الدور** وباقامة صلات مبدئية حسنة مع عالم المهارات والادوات ، ومع الدخول في مرحلة المراهقة ، تنتهي فترة الطفولة الحقة ، وتبدأ مرحلة الشباب . وتعود المشكلات مرة اخرى الى الظهور بسبب التغيرات الجسمية والفسولوجية السريعة ، والتي تعادل في سرعتها سرعة النمو في مراحل الطفولة المبكرة ، وكذلك بسبب الاضافات الجديدة للنمو الجنسي . ويصبح الشاب النامي الذي يواجه بمثل هذه التغيرات اكثر انشغالا بمظهره امام الآخرين ، اكثر مما هو عليه في الحقيقة .

والمشكلة الرئيسية في هذه المرحلة بالنسبة للمراهق هي مشكلة تكوين الاحساس بالهوية ، اى معرفة من هو ، وما دوره في هذا المجتمع ، وهل هو طفل - على نحو ما كان ينظر اليه من قبل - ام راشد - على نحو ما هو صائر اليه الآن ، وهل لديه القدرة التى تجعل منه انسانا له كيانه وقيمته في هذا المجتمع . ومثل هذه المشكلات تحتل مكانا هاما من تفكير المراهق واهتماماته ، كما يصبح اكثر انشغالا واهتماما بالتوفيق بين ما تعلمه من مهارات وادوار في مراحل نموه السابقة ، وبين ما هو مقبول اجتماعيا الآن . وهو في بحثه عن احساس جديد بالهوية والاستمرار ، عليه ان يخوض الكثير من المعارك التي سبق ان خاضها من قبل .

وى اريكسون ان التكامل الذى يحدث الآن في صورة هوية الذات ، اكبر من مجموع توحيدات الطفولة . انه نتيجة الخبرة النامية لقدرة الانا على احداث تكامل بين كل التوحيدات السابقة وتقلبات الليبدو والقدرات المنبثقة من المواهب ، والفرص التي تقدمها له الادوار الاجتماعية . فكل هذه التغيرات هي التي تعمل على احداث التكامل الجديد في صورة هوية الذات لدى المراهق .

ويمثل خطر هذه المرحلة النمائية في اضطراب الدور role confusion وارتباكها . وتوضيح معنى هذا المفهوم اشار اريكسون الى عبارة وردت في رواية آرثر ميللر Death of a Salesman على لسان احد المراهقين في سياق حديثه مع امه « انسى لا تستطيع ان امسك بشيء يا امى ، انسى لا تستطيع ان استحوذ على اى نوع من انواع الحياة » . فاذا التغيرات الجسمية السريعة التى تحدث للمراهق سواء من حيث الشكل او الحجم ، وازاء نضجه الجنسي ، ونظرة المجتمع اليه ، والتغيرات المختلفة التي تطرأ على ادواره الاجتماعية ، لا يملك المراهق الا الاحساس بهذا الاضطراب في الهوية .

وسواء سيطر المراهق على اضطراب الهوية ، او اصبح نتيجة لذلك جانحا او عصابيا او ذهائيا ، فان هذا يتوقف على خبرات الماضي وعلى الشكوك القوية السابقة التي مرت به . فان تم تشخيص هذه الاحداث وعلاجها بشكل سليم ، فسوف يحدث تكامل جديد لدى الفرد ، ويرى طريقه في الحياة . وفي بعض حالات المراهقة ، يكون عدم القدرة

على الاستمرار او الاستقرار في عمل ما او في وظيفة واحدة أحد الاسباب التي تؤدي الى اضطراب الهوية عند المراهق .

**ويجد المراهقون راحة نفسية في التواجد معاً ، فهم يميلون الى تكوين الشلل . ومن أجل الإبقاء على وحدة الجماعة أو الشلة ، يتوحد المراهق ، ولو وقتياً ، الى الحد الذي يصل فيه أحياناً الى فقد الظاهر لهويته ، مع إبطال الشلة . وهذه هي بداية « الوقوع في الحب » والذي ليس اسماً أو كلية ، جياًسياً . فحب المراهقة هو الى حد بعيد محاولة للوصول الى التعريف بهوية الفرد عن طريق إسقاط صورة الذات المختلطة على الغير ورؤيتها هكذا معكوسة وواضحة بالتدرج . ولعل هذا هو السبب في أن معظم حب صغار الشباب هو حب كلام وحديث .**

**وصغار الشباب يتعصبون أحياناً بشكل ملحوظ لبني جنسهم ويسلكون بقسوة وعدم تسامح تجاه من يختلف عنهم في اللون أو الأساس الثقافي أو حتى في بعض المظاهر البسيطة كالزى والشارات وغيرها من الأمور التي ينظر إليها مؤقتاً بأنها علامات تشير الى من ينتمي الى جماعته ومن هو خارج عنها . ومن المهم أن نعرف أن مثل هذا التصلب وعدم القدرة على التسامح يمكن أن يكون أسلوباً دفاعياً ضد الإحساس باضطراب الهوية وتشوشها . فهم يساعدون بعضهم البعض بقوة وحرارة عند الوقوع في مشكلات مع السلطة ويختبرون بصورة حمقاء أحياناً قدرة بعضهم البعض ، ومدى انتمائهم الى هذه الجماعات من أجل ضمان الولاء لها . واستعداد الشباب للقيام بمثل هذه الاختبارات القاسية وتحملها أحياناً ، يفسر لنا مدى مالبعض المذاهب السياسية الدكتاتورية أو بعض الجماعات المتطرفة من أغراء على عقول أمثال هؤلاء الشباب . ففي مثل هذه الأحوال يفقد الفرد هويته نتيجة التشوش والاضطراب في التفكير ، حيث لا يفكر إلا بعقلية الجماعة التي تدفعه الى تحقيق أهدافها . وأمثال هؤلاء الشباب يتعرضون للانفصال والانزوال عن حياة غالبية المجتمع الذي يعيشون فيه ، كما يفقدون الثقة بأنفسهم وبقدرة على توجيه دفة حياتهم بسلام .**

ومع أن « الإحساس بالهوية صعب التحقق ، إلا أنه يحفظ الفرد وبقية من فوضى الدوافع البيولوجية ، ويمكنه من المحافظة على المبادئ والقوانين ، والوقوف أمام ضمير مستبد قاس شكاك . أما فقدان الهوية أو فقدان الشعور بأن هناك قدراً من « التماثل » والاستمرار ، فإنه يعرض الفرد لصراعاته الطفلية ، ويؤدي الى اضطرابات انفعالية » .

**٦ - الإحساس بالسود والتألف مقابل العزلة والقوة المكتسبة في أبة مرحلة يمكن اختصارها بقدرته الفرد على تجاوزها بطريقة تسمح له بالحصول على فرص أكبر في المرحلة التالية ، لم تكن متاحة له في المرحلة السابقة . فالراشد - الذي يخرج من البحث عن الهوية - يكون مثبوقاً ومرحبا أن يدمج هويته بهوية الآخرين . فهو على استعداد للإحساس بالود والتألف مع أشخاص من نفس الجنس أو من الجنس الآخر أو مع نفسه . فتكون لديه القدرة على أن يسلم نفسه للانتماءات والمشاركات المحسوسة مع الغير ، وأن ينمي**

لديه القوة الاخلاقية التى تمكنه من ان يفنى بتمهدياته حتى لو اقتضى الامر القيام بتضحيات ووعود هامة .

وفى مقابل اللفة والود نجد الابتعاد ، اعنى الاستعداد للعزلة ، واذا لزم الامر ، هدم القوى والاشخاص الذين يبدو فى وجودهم خطريهدد الذات وتعمد على العلاقات الوثيقة التى تربط الفرد بالآخرين .

واذا تحرينا الدقة ، فان هذه المرحلة هى مرحلة النمو الكامل للتناسلية الحقيقية True Genitality . ذلك ان غالبية حياة الجنس السابقة كانت من نوع البحث عن الهوية او خاضعة للشهوات القضيبيية او الفرجية التى تجعل حياة الجنس نوعا من الصراع التناسلي . اما التناسلية الحقيقية ، فهي من الناحية الاخرى حالة دائمة من السعادة الجنسية المتبادلة . لقد سئل فرويد مرة عما يظن ان الشخص السوى قادر اكثر على فعله . فاجاب « ان يحب وان يعمل » to love and to work . وهذه العبارة البسيطة تدعو الى التأمل العميق ، لانه عندما قال فرويد « ان يحب » كان يعنى الحب التناسلي . وعندما قال « يحب ويعمل » فانه كان يعنى العمل المنتجة عامة ، والذي لا يشغل الفرد الى الحد الذى يفقد الفرد او ينسى حقّه او قدرته على ان يصبح كائننا محبا ومتناسلا .

واذا كان التحليل النفسي قد قطع شوطا بعيدا فى التوكيد على التناسلية كعلاج عام للمجتمع ، وقدم بذلك بضاعة جديدة لكثير من يرغبون تفسير تعاليه على هذا النمو ، الا انه لم يوضح دائما - فى نظر اريكسون - كل الاهداف التى يجب ان تتضمنها التناسلية بالفعل . فمن اجل ان يصبح لهذه التناسلية قيمة اجتماعية مستديمة ، فان الصورة المثلى للتناسلية يجب ان تتضمن : ١ - تبادلية الشبق الجنسي ٢ - ومع شريك يحبه ٣ - ومن الجنس الآخر ٤ - وان يكون مستعدا ومرحبا ان يشاركه الثقة المتبادلة ٥ - وان يكون مستعدا ومرحبا ان ينظم معه دورات ( ا ) العمل ( ب ) والانجاب ( ج ) والترويج ٦ - وبذلك يضمن للتناج او الصغار جميع مراحل النمو السوى .

وخطر هذه المرحلة هو العزلة ، اعنى تجنب العلاقات التى تسلم الى الود والمحبة والتآلف ، وقد يؤدى هذا الاضطراب وهذه العزلة الى حدوث مشكلات خطيرة فى الشخصية .

(٧) الانتاجية مقابل الجمود . لقد كان التركيز فيما سبق منصبا على الطفولة والمراهقة . ولكن مع التقدم فى السن والوصول الى الرشد واكتمال النضج يبدأ الاحساس الابوى والاحساس الابوى يتضمن النمو التطورى الذى جعل الانسان هو الكائن الحى المعلم والمتعلم على حد سواء . واصرارنا المستمر على تصوير الاطفال والنظر اليهم باعتبارهم معتمدين ومتكبلين دائما على الكبار ، يجعلنا ننسى ايضا اعتماد الجيل الاكبر والمتقدم فى السن على الجيل الاصغر منه . ان الشخص الناضج يحتاج دائما الى الشعور بان هناك من يحتاج اليه ، والنضج يحتاج الى توجيه مثلما يحتاج الى تشجيع ممن يقدم اليه ونراه .

والابوة ، أساسا ، هي الاهتمام بتربية الجيل الجديد الناتج وتوجيهه ، وإن كان هناك آباء - اما بسبب سوء الخط أو عوامل نفسية خاصة ، لا يقومون بهذا العمل نحو اولادهم . وقد يتسع مفهوم الابوة أيضا فيشمل مترادفات أكثر ألفة كالانتاج والخلق .

اما الاخفاق في انماء هذا المكون من مكونات الشخصية السوية ، فكثيرا ما يؤدي الى نوع من الانقماش في الذات والاحساس العام بالجمود والفقر الشخصي ، فنبدا الفرد غالبا في امتناع ذاته واشباع رغباتها كما لو كان هو الشخص الوحيد أو الطفل الوحيد ، ويتساهل مع نفسه وينتظر من الآخرين التساهل معه ، أى يسلك بطريقة طفلية غير ناضجة .

وثمة حقيقة هامة تتلخص في أن مجرد الطفل أو حتى الرغبة في انجابه ، لا ترتفع الى ضرورة الاحساس بالابوة . فبعض صفار الآباء يعانون فيما يبدو من تأخر في القدرة على تنمية الرعاية الحقبة لابنائهم ، ويمكن أن ترجع أسباب هذا الاخفاق الى الانطباعات غير السارة في الطفولة المبكرة وفي التوحدات الخاطئة مع الآباء، وفي الحب الزائد من الحد للذات ، وفي الافتقار الى الثقة في الاطفال أو الرغبة في الشعور بالاستقلال وعدم الارتباط بالغير ، والاحساس بالعزلة . وقد يحدث هذا عند بعض الاشخاص نقصا في الاحساس بتكامل الانا .

(٨) تكامل الانا مقابل اليأس : Ego Integrity vs Despair وتظهر ثمان المراحل السبع السابقة في هذا الشخص الذي نما على العناية بالاشياء والاشخاص ، وعلى ملاءمة نفسه مع النجاح والفشل في هذا العالم ، والذي أوجد الآخرين وولد الاشياء والافكار . ولم يجد اريكسون مصطلحا أفضل من مصطلح «تكامل الانا» لوصف هذا الشخص . وهذا المصطلح يشير الى أن الفرد قد أصبح قادرا على توكيد نمو الانا في نزعتها نحو النظام والمعنى ، ونحو التكامل الانفعالي المخلص لحملة صور الماضي ، والاستعداد لتحمل الزعامة والقيادة في الحاضر وإلى تقبل دورة حياة الفرد ، وتقبل ما يتصل بها من اشخاص باعتبارهم ذوي أهمية ومغزى في هذه المرحلة من تاريخهم ماداموا قد ادوارساتهم في هذا السبيل .

كما يعنى « تكامل الانا » أيضا حبا جديدا ومختلفا للابوين، حبا خاليا من الرغبة في أن يكونوا غير ما هم عليه ، أو أن يتخلصوا من عيوبهم وأن يتقبل حقيقة أن حياة المرء هي مسؤوليته وحده . كما يعنى أيضا احساسا بزمالة الرجال والنساء الذين ساهموا في خلق أنظمة واشياء وأقوال تكشف عن كرامة الانسانية . وعلى الرغم من معرفته بنسبية جميع الاساليب المختلفة للحياة والتي اعطت معنى للكفاح الانساني ، فإن الشخص الذي لديه تكامل الانا يكون على استعداد للدفاع عن كرامة أسلوبه في الحياة « أمام كل ما يتعرض له من تهديدات مادية كانت او اقتصادية . فهو يدرك أن حياة الفرد وكرامته تتوقف على تمسكه بأسلوبه الذي يقوم عليه شعوره بالتوحد .

والادلة الاكثنيكية والانثروبولوجية توحى أن نقص أو فقدان هذا النمو لتكامل الانا يتضخ في ناحيتي الاعمى واليأس . فالقدر المصير لا يتقبله الفرد كاطار للحياة ، كما انه يخاف الموت . وهو يعبر عن اليأس في صورة الشعور بان الزمن قصير ، وانه اقصر من أن يسمح

النمو النفسي : من الطفل الى الراشد

لل فرد ان يبدأ حياة أخرى من جديد ، أو ان يحاول تجربة طرق أخرى بديلة للتكامل . ومثل هذا اليأس غالباً ما يختفى وراء مظاهر الاشمئزاز وبغض الجنس البشرى والاستياء المزمى الزمن لمؤسسات معينة وأشخاص معينين ، وهذا الاشمئزاز وهذا الاستياء انما يعنيان فقط احتقار الفرد لنفسه وازدراؤه لها .

وهكذا يربط أريكسون بين مراحل النمو والتكيف ، ويربط بين اتجاهه التحليلي واتجاهات أخرى انثروبولوجية واجتماعية .



### ثالثاً - نظرية نمو الذات عند جوردون البورت

جوردون البورت من كبار المشتغلين بدراسة الشخصية ، وكتب في هذا المجال العديد من الكتب . وقد نظر الى الشخصية من حيث هي أسلوب متميز من أساليب التكيف التي يقوم بها الفرد ، لا توجد عند الولادة ، وان كان من الممكن القول بان بدورها توضع مع الولادة ، ان أساليب التكيف المميزة المبكرة والتي على أساسها يمكن ان نفرق بين طفل وآخر تتضح في شدة نشاطهم التلقائي وتكراره ، وفي تعبيراتهم الانفعالية والمزاجية ، وانه ليس من المحتمل قبل بداية الشهر الرابع ان يكون الطفل قد نضج نضجاً كافياً وتعلم تكوين عادات متميزة للتكيف .

ومع بداية النصف الثاني من السنة الاولى تبدأ استجابات الطفل التوافقية المتميزة مع العالم المادى والاجتماعى تظهر بوضوح ، وان الصفات المتميزة التي يمكن ملاحظتها في وقت مبكر من حياة الطفل تعميل الى الاستمرار وبشكل ملحوظ يسمح للملاحظ ان يتنبأ بما ستكون عليه شخصية الفرد في المستقبل . فالشخصية اذن نامية متطورة تخضع لمظاهر النمو النفسى السوى وغير السوى ، وفقاً للمحددات المختلفة التي تؤثر فيها ، ووفقاً للظروف التي يمر بها الفرد .

والذات هي لب الشخصية ، بل هي لب كيان الفرد ووجوده . وفكرة الذات تنمو وتتطور ، وتمر بمراحل متعددة في نموها وتطورها . واذا كنا عرضنا للنمو النفسى الجنسى عند فرويد ، والنمو النفسى الاجتماعى بصورته المتطورة عند أريكسون ، فجدير بنا ان نشير أيضاً الى نظرية أخرى تتصل بصميم النمو النفسى للفرد ، وهي نمو ذاته ابتداء من الطفولة المبكرة حتى المراهقة ، وهذه النظرية هي نظرية البورت .

### § مراحل نمو الذات عند البورت :

١ - الطفولة المبكرة : من المؤكد ان الطفل ليست لديه اية معرفة عن نفسه « كذات » وهذا ما تكشف عنه الملاحظات المديدة التي قام بها العديد من علماء نفس الطفل من امثال جان بياجيه وغيره . فالطفل لا يمكنه ان يميز بين ذاته والعالم الخارجى . فهو ينظر الى جسمه كما لو

كان شيئاً غريباً عنه ويلعب بأصابع قدميه كما لو كانت دميته ، أى أنه ليست لديه أية معرفة عن وجود ذات جسمية أو ذات اجتماعية . فالحدود الفاصلة بين ما هو جزء منه ، وما ليس جزءاً منه لم تتضح بعد ، ويحسن أن نفرق بين الشعور ، والشعور بالذات ، فهما ليسا مترادفين لا عند الطفل ولا حتى عند الراشد . فالطفل على الرغم من أنه يحس ويشعر بما يجرى حوله من حالات وتغيرات نفسية ، إلا أنه يفتقر في هذه المرحلة الأولى من عمره إلى الشعور بالذات . أما البالغ فلديه الناحيتان معاً ، وإن كانتا غير متماثلتين : فهو يشعر ، كما أنه يشعر بلذاته .

والطفل يكتسب الشعور بالذات بشكل تدريجي خلال السنوات الأولى من حياته . وهذه المرحلة الأولى من حياة الطفل والتي تشمل على السنتين الأولىين يسميها بياجيه باسم « المرحلة الحسية الحركية » وفيها يستقبل الطفل انطباعات من العالم الخارجى ، ويستجيب لهذه الانطباعات دون أن تكون هناك ذات وسيطة بين هذه الانطباعات وهذه الاستجابات . فهو يحس ويشعر ويستجيب للضغوط الواقعة على سطح الجلد ، ويستجيب للأصوات الهادئة الناعمة الصادرة من الأم ، وردود الأفعال الحسية الحركية هذه تدخل في كل شيء غير « متشكل » أو كل شيء غير متميز عن الذات والعالم الخارجى على حد تعبير بياجيه .

ومع استمرار النمو يبدأ الطفل باكتشاف جسمه . ففي حوالى الشهر الخامس أو السادس يمسك بأصابع اليدين والقدمين ويمسك بالأشياء الصغيرة المحيطة به . ولكن الأشياء والأصابع التى تقبض عليها هى شيء واحد بالنسبة إليه ، شيء واحد لم يتميز بعد إلى مكوناته . وهو عندما يحمل في قدميه ، يحاول أن يمسك بها وأن يضع أصبع قدمه في فمه ، وهو أن أصابع قدمه فهو يتألم دون أن تكون لديه أية فكرة عن أنه هو سبب ألمه . وقد تستثيره رؤية صورته في المرآة وهو في شهره الثامن تقريباً ويحمل في يدها ويحاول اللعب معها دون أن يدرك أن هذه الصورة التى يراها هى صورته هو . والجدير بالذكر أن الطفل في العادة يميز صورة والديه في المرآة ، قبل أن يستطيع أن يميز صورته هو بوقت طويل .

ثم هو حين يبدأ يتنقل في أرجاء البيت بالخرف من مكان لآخر ، قد يصطدم بأشياء كثيرة تسبب له ألماً فيبدأ يدرك بالتدريج أن هناك أشياء خارجية جامدة ، وأن الاصطدام بها يسبب له ألماً . أى يبدأ يدرك أن هناك أشياء خارجية عنه . وهو يصل إلى فكرة الشيء الخارجى الذى « ليس هو » قبل أن يتمكن من أن يدرك أنه له ذاتا متميزة عن هذا العالم الخارجى بوقت طويل . وكما يدرك وجود الأشياء الخارجية قبل ادراكه لذاته ، فكذلك يدرك وجود الآخرين قبل ادراكه لذاته . فهو يتعرف على الوجوه المألوفة في البيت من الإبن والأخوة ، كما يتعرف على الغرباء عن البيت . وهذا التعرف على « الغير » يسبق أيضاً التعرف على الذات.

ويذهب البورت إلى أن أول مظهر لفكرة الذات في هذه المرحلة الأولى هو « الإحساس بأن له جسماً » ، وأن هذا الجسم ، جسمه هو . فالطفل يستقبل سلباً من الإحساسات العضوية الداخلية ، كما أنه يتأثر أيضاً بالكثير من المثيرات العديدة الموجودة في العالم الخارجى .

وبالطبع لا يكون لهذه الاحساسات الجسمية أى اثر في تكوين الذات مالم تكن متكررة . ومعرفة هذا التكرار للاستجابات البسيطة المتلاحقة يتطلب نفسجا مناسباً في اللحاء بشكل يسمح بالاحتفاظ بآثار الخبرات السابقة . وكما ينمو الاحساس بالذات الجسمية من الاحساسات العضوية المتكررة التى تترك آثارها في نفس الطفل فإنه ينمو أيضاً من الاجباطات المتكررة التى تصدر عن العالم الخارجى . فالاحساس بالذات الجسمية هو في نظر البورت وثيقة وجودنا ، بمعنى أن احساساتنا وحركاتنا تعدنا بمعرفة ثابتة عن وجودنا .

ولكن رغم ما للذات الجسمية من أهمية ، إلا أنها ليست كل شيء في تكوين فكرة الذات عند الطفل في هذه المرحلة الاولى من الحياة ، فهناك افكار أخرى لها أهميتها .

### هناك ثانياً : هوية الذات واستمرارها : فانت هو نفس الإنسان الذى كنت عليه واثنت

في سن الثالثة أو الرابعة من عمرك ، رغم أن كل شيء يتصل بك ، حتى خلايا جسمك والبيئة المحيطة بك قد مرت بها تغيرات عديدة جداً . ثم أن كل فرد منا يتعرف على ذاته . فانا نذكر بعض الافكار والاحداث التى مرت بذهنى بالأمس ، وفي الغد سوف اذكر بعض ما مر بى من افكار واحداث في يومى وأمسى . وأنا على ثقة أيضاً من أن هذه الافكار والاحداث تتصل بشخص واحد هو انا . ففكرة هوية الذات تعتبر بالغة الأهمية طالما أن التغير هو مع ذلك القاعدة الاساسية للنمو . فرغم ما بطراً على أفعالنا وافكارنا من تغير ، إلا أن الذات تبقى هي هي مستمرة ومتصلة .

### وتلعب اللغة دوراً هاماً في هذا الصدد . فعندما يبدأ الطفل التحدث والتعبير عن رغباته

يستخدم من الالفاظ ما يشير الى حاجاته ورغباته ، وأنه ، يعنى « هو » ، يريد أن يأكل أو أن يشرب أو أن يحصل على لعبة ما : فلفظ « انا » أو ما يشير اليه يعتبر عاملاً واضحاً في علاقته بالعالم الخارجى . ثم أن اسم الطفل الذى يتردد على سمعه في اليوم الواحد مرات عديدة ، قد يساعده أيضاً على أن يدرك ذاته كشيء متميز ومستقل . وهذا الاسم يكتسب معنى ودلالة بالنسبة للطفل في عامه الثانى . ومع الاسم تأتى المعرفة بالوضع المستقل ، وأن له وجوداً مستقلاً عن وجود الآخرين يتمثل في هذه الذات الجسمية التى بدأ يحس بوجودها . وإلى جانب الاسم هناك أشياء أخرى يمكن أن تمد بمثابة نقط ارتكاز هامة للتعرف على الذات كاللباس ، والأشياء الخاصة . فبعض الأطفال في سن الثانية أو الثالثة ، قد يكشفون عن احساس بالهوية حين ينظرون الى بعض ممتلكاتهم الخاصة كالحذاء الجديد أو شريط الراس أو الفستان الذى ترتديه .

والى جانب الذات الجسمية وهوية الذات واستمرارها ، هناك ناحية ثالثة تلعب دوراً هاماً في هذه المرحلة من تكوين فكرة الذات هى **رغبة الطفل في إثبات وجوده أو تقديره لذاته** . ففى سن الثانية أو الثالثة يحاول الطفل القيام ببعض الأشياء بنفسه ، كدفع المشاية بنفسه أو تناول بعض الأشياء واللعب بها بنفسه ، ويتنقل في أرجاء البيت يستكشف ما فيه . ويجب للذة كبيرة في القيام بمثل هذه الألوان من السلوك التى — أن أعيقت من جانب الكبار — يشعر الطفل كأنها ضربة موجة لتقديره لذاته . بمعنى أن الذات قد احبطت أو أعيقت ، ونتج عن ذلك



شعور بالضعف أو احساس بالفضب . ويحس الطفل بلداته ويكون واعيا بها لدرجة كبيرة . ويكون هذا السلوك واضحا لدى طفل هذه المرحلة حتى ان البعض يسميه الحاجة الى « الاستقلال الذاتي » . وهي سمة ملحوظة وبارزة في فكرة الذاتية عند طفل الثانية أو الثالثة . وهذا ما يتجلى في ثورة المعارضة التي يتميز بها طفل هذه الفترة . بالنسبة للطعام والملبس واطاعة الاوامر وكل ما يريد الإباء إعادة . فهو ينظر الى أوامر الكبار كما لو كانت تهديدا يهدد تكامله . ولذلك تتضح عنده ظاهرة الرفض ، كما لو كان الرفض بقوله « لا » وسيلة لحماية الذات من كل ما يؤدي الى تحقيرها . ولمثل هذه الفكرة ذهب أريكسون في دراسته للنمو النفسي عند الطفل في حديثه عن المرحلة الثانية من مراحل النمو النفسي للطفل والتي سماها باسم الاستقلال الذاتي ، كما سمى الخطر الذي تتعرض له هذه المرحلة باسم الخجل والشك . والفكرتان - تلكما اللتان أوردتهما البورت وأريكسون - قريبتان الى حد بعيد .

وعلى ذلك ، فالظواهر المميزة لنمو فكرة الذات في السنوات الأولى من حياة الطفل عند البورت هي :

١ - المظهر الأول : الإحساس بالذات الجسمية .

٢ - المظهر الثاني : هوية الذات واستمرارها .

٣ - المظهر الثالث : تقدير الذات .

ب - مرحلة ما قبل المدرسة :

لكن مرحلة ما قبل المدرسة - وهي الفترة ما بين الرابعة والسادسة - سرعان ما يفقد الطفل فيها هويته ويختلط عنده الوهم بالحقيقة ، ويسيطر على العا به النوع المعروف باسم « اللعب الإيهامي » الذي يتوهم الطفل نفسه فيه فارسا أو شريطا مثلا ، ويخلق له من الوهم والخيال أصدقاء : أطفالا كانوا أم حيوانات . وفكرة الذات الجسمية تكون عنده أكثر وضوحا ، فجميع أعضاء جسمه هي ملك خاص به وحده .

كما أن طفل هذه المرحلة يكون « ذاتي المركز » الى حد بعيد . فالأطوار الرجعي لتفكره هو ذاته . فالقمر يتبعه في كل مكان وحشماشسان ، والله موجود ليحفظه ويحميه ، كما أن وجهة نظره تعتبر مطلقة . فالآخرون يفكرون على نحو ما يفكر هو ، ولذا فهو ليس في حاجة لأن يعبر عن وجهة نظره أو يفسر أقواله وعباراته للآخرين . ولكن مركزية الذات هنا ليست قائمة على معرفة بالذات أو أنها تدور حول الذات ، وإنما هي تصدر عن الطبيعة الشخصية لتفكير الطفل في هذه المرحلة فحسب .

ومن ثم فإن هذه المرحلة تتميز في نظر البورت بمظهرين جديدين ، بالإضافة الى المظاهر الثلاثة السابقة التي تتميز بها السنوات الثلاث الأولى . وهذان المظهران هما :

٤ - المظهر الرابع : امتداد الذات واتساعها .

٥ - المظهر الخامس : صورة الذات .

فالدات تنسج لتسجل أشياء كثيرة ، كما يلعب الاحساس بالملكية في نفس الوقت دورا هاما . فهذه الكرة كرتى ، وهذه الدراجة ذراجتى وهذه أمى وهذا أخى وهذا بيتى .. الخ . وكلها تصبح امتدادا للذات وتشير أيضا الى اتساعها لتشمل العديد من الأشياء . وبطبيعة الحال لا تنسج ذات الصغير في هذه المرحلة لتشمل كل ما يحيط به في دائرة عالمه الكبير على نحو ما نجد مثلا بالنسبة للكبار ، وإنما أساس هذا الاتساع الكبير الذى سوف يحدث فيما بعد يتم وضع بدوره في هذه المرحلة حينما يحس الطفل بتملك أشياء كثيرة .

وبالإضافة الى امتداد الذات واتساعها ، تأخذ صورة الذات في الاتساع أكثر واكثر . فمن طريق التفاعل المتبادل مع الكبار والوالدين يمكنه أن يقارن بين سلوكه الواقعى وما هو متوقع منه . فهو ولد مشاغب ، ووالده يريدانه ولدا هادئا مطيعا لطيفا . ولكن صورة الذات هنا ليست نامية على نحو ما هى في المراهقة . وعلى العموم فبلدون فكرة الذات كما هى وكما يريد أن تكون عليه ، تكون موجودة في هذه المرحلة .

**ج - مرحلة الطفولة المتأخرة :** ومع دخول الطفل المدرسة الابتدائية أى في الفترة ما بين سن السادسة والثانية عشرة ، يزداد احساس الطفل بهويته وبصورته ذاته . ويقدرته على امتداد الذات . وسرعان ما يتعلم الطفل أن ما هو متوقع منه خارج المنزل يختلف الى حد كبير عما هو متوقع منه داخل المنزل . فمستويات الرفاق في اللعب والمشى والكلام والملبس شيء جديد عليه . ثم هو يحاول أن يدمج نفسه مع جماعات الرفاق وأن يندمج مع الشئلة وفي عالم الواقع ، كما يقل لعبه الإيهامى ، ويزداد احساسه بذاته الواقعية . ولذلك نجده يرتبط بالمعايير الخلقية واحكام اللعب وقواعدها ويتبعها بكل دقة . ويكون راضيا عن نفسه اذا هو تكيف مع الواقع الخارجى والاحكام الخارجية وامتزج مع الشئلة ونمت صورة ذاته .

وهذه الفترة هى أيضا فترة نمو عقلى . وهى فترة تتميز بالمزيد من الرغبة في المعرفة وحب الاستطلاع وكثرة الاسئلة والاستفسارات . وهذه هى بداية الاحساس بمظهر جديد من مظاهر نمو الذات وهو المظهر السادس عند البلوغ .

**٦ - المظهر السادس : الذات منطقية عاقلة** ووظيفة الذات هنا كوظيفة « الانا » عند فرويد التى تحاول أن تجد حلا ومخرجا للمشكلات التى تخلفها النزاعات الفرويدية والنزعات المكبوتة « الهو » ثم الواقع أو البيئة الخارجية ، ثم الاوامر والنواهي التى تصدر عن الوالدين والمجتمع ( الانا الأعلى ) . فوظيفة الذات العاقلة هى محاولة تجنب المشكلات والصعوبات التى تثيرها هذه النواحي الثلاث ، ولكنها بالطبع ليست دائما عاقلة تماما ، بل تكون أحيانا مجرد ذات دفاعية تحاول خلق المعاذير والتبريرات كى لا تجرح الذات . فهى تنكر العوائق الموجودة القائمة وتتلمس وسائل الهروب ووضع الخطط التى هى مجرد حلول مزيفة لمشكلات الحياة .

### د - مرحلة المراهقة :

وأخيرا تأتي مرحلة المراهقة وفيها يبحث المراهق من جديد عن ذاته . فهو في طفولته المبكرة قد أحس بهويته ولكنه فقدوها ان شئنا القول في الأسرة وفي الشئلة وفي الولاء لهما . والان تصبح مشكلة المراهق هي البحث من جديد عن هويته .

وكثيرا ما تواجه المراهق في هذه الناحية صعوبات جمة تزيد من مشكلاته في هذه المرحلة . فأسلوب معاملة الوالدين له مرة كطفل ، ومرة كرجل ، من أسباب مشكلاته وعدم استقراره . فسلوكه وتصرفاته تكون أحيانا سلوك الاطفال وتصرفاتهم ، ولكنه مع ذلك قد بلغ من الناحية الجنسية والجنسية مبلغ النضج الذي يكفي للنظر اليه كرجل .

وصورة المراهق عن ذاته تتوقف على الآخرين وتقبلهم أو نبذهم له . وثورة المراهق وتعمده على السلطة لهما علاقة هامة ببحثه عن هويته وذاته . أنها محاولته الأخيرة للاستقلال الذاتي . وقد يلجأ المراهق الى أساليب تكشف عن قلقه وعرض بحثه عن شيء لم يصل اليه بعد . فالوان الزى التي يرتديها . وتصنيف شعره بالصورة التي يقوم بها ، وتقليده للإبطال المختلفين ، كل ذلك تعبير عن القلق وعدم الاستقرار . وعادة ما ينظر الآباء الى مثل هذا السلوك وهذه الخبرات نظرة بعيدة عن الاحترام والتقدير للمراهق . ولذلك فهو يقوم به في الاغلب خارج البيت وفي صحة الزملاء .

ويكون الصراع حول الحاجات الجنسية واضحا ، وتتناقض وجداناته ، وعواطفه ويتذبذب أحيانا بين الإيمان والاحاد . وقد يجد كثير من المراهقين في الدين حلا لمشكلاتهم ، كما تظهر أهداف المستقبل واضحة جلية ، ويحتل التفكير في المهنة التي يعد نفسه لها في المستقبل جزءا كبيرا من تفكيره . كما أنه يرسم للمستقبل خطة موضوعة . وهو بهذا يدخل بعدا جديدا على ذاته لم يكن موجودا من قبل في الطفولة . وغالبا ما تكون آمال الشاب بعيدة ومستويات طموحه عالية جدا . ولكن مع تقدم السن سرعان ما يتكشف البعض ان مآلديهم من قدرات واستعداداته أقل مما لديهم من آمال وأحلام ، فيعدل من صورة ذاته ومن مستويات طموحه بما يتفق وقدراته واستعداداته . وهذا دليل على مستوى عال من النضج ، وعلى هذا النحو يضيف البورث البعد السابع في تكوين الذات ونموها وهو :

### ٧ - المظهر السابع : الجوهر المعيز .

وهذا المظهر الأخير يتميز بالاتجاه والقصد المرغى مما يساعد على تحديد أهداف الفرد . وليس من الضروري ان تكون الأهداف جامدة وثابتة ، ولكن يوجد هدف رئيسي يهدف الفرد الى تحقيقه فقط . وهذا المظهر الهام في نموات الذات لم يكن موجودا من قبل . فالطفل الصغير الذي يريد ان يكون طيارا او طبيباً ليس لديه الاتجاه المتصل والجهد التكاملي لبلوغ ذلك وتحقيقه . أما الشاب فهو يرسم ويخطط ويحس بالهدف وينشط الى تحقيقه . وبالطبع يحتاج هذا كله الى قدر من النضج في الشخصية قد لا تجده عند جميع المراهقين . فالبعض قد

يصل الى مرحلة المراهقة دون أن يكون لديه إحساس واضح بالهدف . وهؤلاء في الاغلب لا تكون شخصياتهم ناضجة ، ولذا ، فاحساسهم بالذات لا يزال فجاً اولياً .

ولكن هذه المظاهر المختلفة للذات ليست متباعدة . فهي جميعاً حالات تكشف عن الذات على نحو ما نحسها ونشعر بها . وكل واحدة منها مرحلة من مراحل نمو الذات ويمكن أن نربطها بعضها ببعض تحت اسم واحد . وقد اختار البورت لها اسم الذات الممتدة المميزة . وقد أشار البورت الى أنه لم يسمها الذات وكفى ، لان معظم الكتاب Proprium يطلقون اسم الذات أو الانا على مظهر واحد أو مظهرين من المظاهر السابقة . ولهذا فهو يفضل أن يضع لها تسمية جديدة تضم هذه المظاهر المتعددة للذات .

#### ٨ - المظهر الثامن : الذات العارفة

وبعد أن حدد البورت الوظائف الموحدة المميزة للتنوع ، والتي تعتبر موجودة لدينا كلها يتساءل عما اذا كانت لدينا ، بالإضافة الى ما سبق ، ذات عارفة يمكن أن تضاف وظيفتها الى كل الوظائف الاخرى للذات الممتدة وتعددها وتذكرها ؟ لقد ذهب وليم جيمس الى انه لا توجد لدينا مثل هذه الذات العارفة . فهي لا توجد كشيء له كيان يمكن تمييزه عن المجموع الكلي للخبرات ، أو يمكن انتزاعه من مجرى هذه الخبرات . فكل لحظة شعورية ترتبط باللحظة السابقة ، وعلى هذا فالذات العارفة توجد مضمحلة على نحو ما ، في قوله « الابتكار نفسها هي الذات المفكرة » .

أما معارضو جيمس فيقولون أن مجرد سلسلة من الخبرات لا يمكن أن تتحول هي ذاتها الى شعور أو وعي بهذه السلسلة كوحدة ، كما أن الافتكار الماضي لا يمكن أن تؤخذ بذاتها على أنها هامة أو مثيرة للاهتمام ، ما لم تكن هناك ذات تثير اهتمامها أو تكون هامة بالنسبة اليها . فالذات العارفة هي المحك النهائي ، وهي التي تنبثق كمستلهم نهائي لا مفر منه .

وسواء اخذنا برأى جيمس أو برأى معارضيه ، فمن الملاحظ أن هناك اتفاقاً بينهم في ناحية أن الوظيفة المعرفية ضرورية وحيوية بالنسبة لنمو الذات . فنحن لا نعرف أشياء فحسب ، بل إننا نعرف ونتعرف على الملامح التجريبية لذاتنا الموحدة المميزة ، اننى أنا الذى لدى احساسات جسمية ، وأنا الذى لاحظته وبتى من يوم الى آخر ، وأنا الذى لاحظت وأفكر في توكيد ذاتي وامتدادها ، وفيما أبدية من تيريرات كما أراقب اهتمامي وكفاحي وهكذا . أفكر في وظائفى الخاصة الموحدة المميزة ، وأكاد أدرك وحدتها الاساسية ، وأشعر بارتباطها الوثيق على نحو ما بالوظيفة العارفة ذاتها .

ومع ذلك يتدرك البورت الامر ويرى خطورة هذا القول اذا التزمنا بوجهة النظر العلمية ، فاذا صرحنا بأن الذات «عامل مستقل» داخل الشخصية هي التي تعرف وتريد وتهدف الخ ، السنا في خطر اذن من خلق شخصية داخل الشخصية ؟ فاذا تساءلنا مثلاً ماذا يعمل هذا الشخص بجد ، فاننا لا نعرف شيئاً اذا قلنا لأن ذاته تريد بذلك . فقولنا أن الذات

تفعل هذا أو ذلك ، وتريد هذا أو ذلك ، وترغب في هذا أو ذلك ، إنما يثير مجموعة من المشكلات الصعبة التي هي أقرب إلى الفلسفة منها إلى العلم . ولذا يلزم البورت إلى أنه في بناء الشخصية - إذا فهم فهمًا صحيحًا بما في ذلك البناء الموحد المميز - سوف نجد التفسيرات التي تبحث عنها . فليس من الحكمة أن يتخلى عالم النفس عن مسؤولياته في تفسير مظاهر السلوك المختلفة ويعزو مشكلاتنا إلى وسائل داخلية أو إلى عامل خفي يحرك الخيوط على حد تعبيره . وإذا كان من الممكن - لاغراض فلسفية معينة - أن ننظر إلى الذات كوحدة متصلة ثابتة أو أن نهبط الخلود مثلاً ، فإننا في علم النفس يجب أن نتجنب الفصل القاطع بين الذات « كعامل » ووظائف الانظمة الموحدة المميزة داخل الشخصية .

تلك هي المراحل الثمان التي يمر بها « نمو الذات » منذ الطفولة المبكرة حتى المراهقة عند البورت ، وليس من العسير علينا أن نجد الكثير من أوجه التشابه بينها وبين مراحل النمو النفسي عند أريكسون ، وإن كانت الأسس النظرية التي يستند إليها كل منهما مختلفة إلى حد ما .



#### رابعاً - نظرية النمو عند جان بياجيه :

وكما هو الحال بالنسبة لفرويد ، فإن جان بياجيه اهتم أيضاً بدراسة المراحل العامة التي يمر خلالها الفرد في نموه النفسي العقلي . فنظريته نظرية شكلية تهدف إلى وصف المراحل المختلفة للنمو . ولكنه - على عكس فرويد الذي أكد نمو العمليات الدافعية والانفعالية كالدوافع الجنسية والمشاعر المتصلة بها ، فإن بياجيه ركز اهتمامه كله على النمو المعرفي ، أعني العمليات العقلية المميزة للنمو من الطفولة حتى المراهقة والرشد . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن أسلوب الدراسة والملاحظة الذي استخدمه كل من فرويد وبياجيه كان مختلفاً ، مثلما اختلفت مفاهيمهما في البحث . لقد درس فرويد النمو النفسي في الطفولة أساساً من خلال وصف الراشدين لحياتهم الوجدانية أثناء فترة الطفولة ، وذلك خلال جلسة العلاج النفسي ، أما بياجيه فقد قام بالملاحظة الدقيقة لما يقوم به الطفل من سلوك ودون تدخل مباشر من جانبه . كان يعطى الأطفال مشكلات لحلها ويفحص الطرق التي يتبعونها في حل هذه المشكلات في أعمار زمنية مختلفة . وجزء كبير من أعمال بياجيه الأولى ، والتي نشرت سنة ١٩٢٦ في كتابه الأول « اللغة والفكر عند الطفل » كانت بمثابة تقرير للملاحظات الدقيقة التي قام بها على السلوك اللغوي التلقائي للطفل . كما أن كثيراً من مظاهر السلوك التي أوردتها في دراساته الأولى والتي امتلأت بها ملاحظاته المديدة التي وردت في كتابه « ميلاد الذكاء عند الطفل » لم تكن نتيجة تدخل مباشر من جانبه كمجرب وباحث . ومع ذلك فقد تضمنت معظم دراساته واحدة أو أكثر من صور التدخل التجريبي البسيطة ، والتي تلخص في إدخال نوع من المثيرات في وقت معين خلال النشاط التلقائي للطفل . ومن هنا كانت معظم دراساته تحمل الطابع الشكلي للتجارب الدقيقة ، بمعنى

أن السلوك موضوع الدراسة منذ البداية بمثيرات معينة يدخلها المجرّب . ومن الممكن أن نميز أنواعا مختلفة من الأساليب التي اتبعها على ضوء أهمية المثيرات والاستجابات اللفظية في الموقف الاختباري .

ولقد كانت وجهة نظر بياجية - كما هو الحال بالنسبة لفرويد - متسقة مع اتجاه داروين في التكيف . فهو ينظر الى السلوك كعملية تكيف مع الحياة ، عن طريقها يؤكد الفرد حالة التوازن بين نفسه والبيئة . فالتغيرات التي تحدث في البيئة تؤدي باستمرار الى اضطراب هذا التوازن، ومن الممكن أن يعود الفرد الى حالة التكيف فقط من خلال تغيير الفرد لنفسه ( أى اللامسة مع البيئة ) أو معالجة البيئة ( التمثيل ) وينمو التفكير العقلى من خلال عملية التغير التكيفى المستمر بين الفرد والبيئة .

#### دراسة تطور النمو المعرفى عند بياجيه :

الهدف من هذه الدراسة هو وصف النمو العقلى عند الطفل من الميلاد حتى النضج . لقد قسم بياجيه النمو العقلى عند الطفل الى أربع مراحل أساسية periods ، مشيراً بذلك الى الحقب النمائية الكبرى ، ثم قسم كل مرحلة منها الى مراحل فرعية stages ، مشيراً بذلك الى التقسيمات الفرعية الصغرى لكل مرحلة من المراحل الكبرى . فالمرحلة الحسية مثلاً تنقسم الى ست مراحل فرعية لكل منها مميزات الخاصة . وسوف نقدم في دراستنا لهذا الموضوع تلخيصاً موجزاً للمراحل الأربع . ولن يريدها التوسع في هذا المجال ، عليه الاطلاع على الكتب العديدة التي كتبها بياجيه وتلاميذه في هذا الصدد .

#### المرحلة الاولى : المرحلة الحسية الحركية - من الميلاد حتى الثانية Sensorimotor Period

والمرحلة الحسية الحركية للنمو تقابل من حيث الزمن الفترة المحددة للطفولة المبكرة التى تشمل السنتين الاوليين من حياة الطفل . والسمة البارزة لهذه الفترة ، كما يراها بياجيه ، هى أن الطفل فيها يكتسب المهارات والتوافقات البسيطة التى من النوع السلوكى . والصون الاجمالية العامة في هذه المرحلة المبكرة صور حسية حركية . فهى تنظم المعرفة الحسية وتؤدي الى السلوك التكيفى ، ولكنها لا تكون مصحوبة بأى نوع من التصورات المعرفية او الدهنية للسلوك او البيئة الخارجية . والطفل في خلال هذه المرحلة ينتقل من مجرد ولید يعمل على مستوى الفعل المتعكس والمستوى المركز حول الذات الى مستوى متسق نسبياً من الافعال الحسية الحركية ازاء بيئته المباشرة التى يحيا فيها . ولكن التنظيم في هذه المرحلة تنظيم « عملى » بمعنى أنه يتضمن القيام بالتوافقات الادراكية والحركية مع الأشياء . أكثرهما يتضمن المعالجات الرمزية لهذه الأشياء .

وفي أثناء هذه المرحلة يكتسب الطفل القدرة على أحداث التناسق بين المعلومات الصادرة عن الاجهزة الحسية العديدة ، وكأنها مصادر مختلفة للمعلومات عن الشيء الواحد أكثر مما هي مصادر غير مترابطة . فالطفل يصبح قادراً على النظر الى الشيء الذى يستمع اليه ، كما أن قبضه على الأشياء وسيره توجهه الادلة السمعية والبصرية والمسية .

وثمة مظهر آخر لاكتساب الطفل في هذه المرحلة الحسية الحركية يتضح في قدرته على العمل كما لو كان العالم الخارجى مكانا ثابتا ، وليس شيئا يتوقف وجوده على ادراكه له . فالطفل يصبح قادرا على البحث عن الاشياء التى اخفت من امامه ، ويبحث عنها على أساس معرفته بالمكان الذى ذهب اليه او اخفت فيه . كما ان من الممكن ان يتخذ طريقا - في بحثه عن الشيء - غير الذى اخذه الشيء وكان لديه معرفة بالمجال المحيط تسمح له باتخاذ طرق عدة توصله لنفس المكان . كما ان في استطاعته ايضا ان يعود الى النقطة التى بدأ منها ، وربما اخذ طريقا يختلف عن الطريق الذى اتخذه اول الامر .

ثم انه يقدر على القيام بسلوك موجه نحو هدف ومحكوم منذ البداية بشيء من القصد . فمن الممكن ان ينظم معا عملين او ثلاثة بقصد الوصول الى نقطة النهاية في سلسلة ما . كما يمكنه - قرب نهاية المرحلة - ان يقوم بأعمال جديدة لم يحاول القيام بها من قبل للوصول الى اهداف لم يكن في استطاعته الوصول اليها . وبعبارة أبسط يكون في مقدوره ان يجرب اشياء جديدة ويختبر صوره الاجمالية العامة الواحدة تلو الاخرى ، كما لو كان يبحث عن الامكانيات السلوكية للشيء فى امكانه ان يغير افعاله تلقائيا ومختارا .

**وتعد كتبه الثلاثة الآتية المصادر الرئيسية لهذه المرحلة . الكتاب الاول « ميلاد الذكاء عند الطفل »** حيث قدم فيه ملاحظاته عن نمو السلوك التكييفى عند الطفل ، كما اشار الى النمو التدريجى للصور الاجمالية الحسية الحركية خلال فترة الطفولة المبكرة . وقد تركزت ابحاثه في هذا الكتاب على الملاحظات الدقيقة والتمعنة والتى استخدم فيها اساليب التجريب البسيط على اطفاله الثلاثة « جاكيلن ولوسين ولوران » خلال فترة طفولتهم المبكرة منذ اكثر من اربعين عاما . اما **الكتاب الثانى فهو « تركيب الواقع عند الطفل »** والذى قام فيه بتحليل معرفة الطفل وكيف يعكس سلوكه الافتراضات العديدة عن طبيعة الاشياء والزمان والمكان والسببية . وفى **الكتاب الثالث « اللعب والاحلام والتقليد »** فغيه يصف نمو اللعب والتقليد خلال فترة النمو الحسى الحركى . وفى صورة موجزة للغاية يمكن ان تقدم الملامح الرئيسية للمراحل الستة الفرعية التى تشتمل عليها المرحلة الحسية الحركية :

**الرحلة الفرعية الاولى (من صفر الى شهر) :** لا يظهر فيها شيء كثير الى جانب الانفال المنعكسة التى يولد الطفل مزودا بها .

**الرحلة الفرعية الثانية (من شهر الى ٤ شهور) :** وفيها تبدأ الانشطة المنعكسة العديدة تخضع لتعديلات مستقلة نتيجة التجربة والخبرة وتناسق بعضها مع بعض بطرق متعددة .

**الرحلة الفرعية الثالثة : (من ٤ - ٨ شهور) :** وفيها يبدأ الطفل القيام بأعمال موجهة نحو الاشياء والاحداث خارج حدود جسمه بصورة أكثر تحديدا . فهو في محاولاته اعادة ظهور الآثار البشئية التى حققها عفوا وعن غير قصد من قبل ، يكشف عن نوع من التبشير بالقصد او الاتجاه نحو هدف .

**المرحلة الفرعية الرابعة :** (من ٨ - ١٢ شهرا) : وفيها يتضح القصد بشكل ملحوظ محدد على نحو ما يتجلى في الوسائل والغايات الاولى .

**المرحلة الفرعية الخامسة :** ( من ١٢ - ١٨ شهرا ) : واذا كان الطفل في المرحلة الرابعة يتقن بانماط السلوك العادى والمألوف ويستخدمها كوسائل في المواقف الجديدة ، فانه في هذه المرحلة يجرب ليكتشف وسائل جديدة .

**المرحلة الفرعية السادسة :** ( من ١٨ شهرا الى سنتين ) : وفيها يبدأ الطفل القيام بتصورات داخلية رمزية للمشكلات الحسية الحركية ، مخترعا الحلول عن طريق سلوك المحاولة والخطا الضمنى ، أكثر منه عن طريق السلوك الصريح . ويحدث هذه التصورات الاولى البدئية يكون الطفل قد تجاوز اساسا مرحلة النمو الحسى الحركى ليدخل في مرحلة ما قبل العمليات .

ويكتشف الطفل قرب نهاية هذه المرحلة الاولى من المراحل الكبرى ، عن استبصار وفهم ملحوظ بالبيئة التى يعيش فيها . ففى امكانه استخدام الاداة للوصول الى الاشياء . كما يمكنه التنبؤ بالنتائج المباشرة نسبيا لما يحدث من افعال ، وان يدرك اسباب الاحداث التى تحدث . ويمكنه ايضا ان يستخدم الآخرين كموامل مساعدة لتحقيق النتائج التى يريدها . وهذه القدرات كلها قدرات محدودة . ولكن مجرد كونها موجودة يعتبر في حد ذاته انجازا في هذه المرحلة . ولتحقيق هذه الانجازات يجب مواجهة بعض المتطلبات الهامة التى منها :

**١ - اكتساب صور اجمالية عامة** (سكيا) تكون مضبوطة داخليا وقابلة للانتقال . فالطفل يجب ان يكتسب ذخيرة من الصور الاجمالية العامة التى تعمل بهدوء خلال قدر من الضبط الداخلى ، كما يجب ان تكون قادرة على الانتقال ايضا . فكل صورة اجمالية يجب ان تكون مترابطة داخليا باتساق وانتظام . فالسلوك هو تتابع افعال حركية يؤدى كل فعل منها وبهدوء الى الفعل الذى يليه . وهذه السهولة في اداء الوظيفة تتضمن ما اسميناه بجودة الضبط الداخلى . اما قابلية الصور الاجمالية للانتقال والحركة فتتضمن قابليتها للتكيف بالنسبة لمجموعة من المواقف والاشياء . فطفل الثانية يمكنه ان يلتقط الاشياء بشيء من الدقة ، ويمسك كل شيء بدقة وسهولة وبلا تردد ، وان كان القبض على الاشياء يتغير ويتكيف تبعاً للظروف المختلفة .

**ب - مفهوم الواقع :** وبالإضافة الى ما يجب ان يكون لدى الطفل من ذخيرة الصور الاجمالية العامة ، فمن الضروري ان يميز الخصائص الرئيسية لبيئته . ففى طفولته الاولى يفترض ان الاشياء الخارجية لها صفة الدوام والاستمرار النسبى ، وانها تستمر في الوجود حتى ولو لم تصبح موضوعا لادراك مباشر . فالمعرفة الحسية تتغير تغيرا جوهريا حين يفلق الطفل عينيه او يدبر راسه او عندما تتحرك الاشياء ذاتها في البيئة او تغير شكلها . ويسمى بياجيه هذا الافتراض بهوية الاشياء الدائمة باسم « مفهوم الشيء » . فعندما ينظر الطفل بعيدا عن الشيء ، او عندما يختفى الشيء عن نظره ، يجب ان يكون الطفل قادرا على الرجوع اليه والبحث عنه وتوقع ظهوره ثانية . والمادة الاولى لهذه السمة من سمات النمو هى استجابة الطفل لاختفاء الاشياء من مجال



ادراكه . ومع ذلك ، فليس يكفي مجرد أن يعرف الطفل أن الشيء المختفى لا يزال موجودا ، بل يجب أن يكون قادرا على تنظيم معرفته عنه حتى يكون بحثه وتنقيبه مناسباً . ومعنى ذلك ، أنه يجب أن يفهم أو يدرك أن الأشياء والأفعال مستقرة في مكان وزمان متصلين ، وأن هذا المكان الذي يوجد فيه يحوى الأشياء كما يحوى جسمه أيضاً . والحقيقة أنه يعمل كما لو كان جسمه شيئاً في المكان شبيهاً ببقية الأشياء الأخرى .

**ج - التعرف على السبب والنتيجة :** وبالإضافة الى مألديه من ذخيرة الصور الإجمالية وفكرته عن المكان الخارجى ، فمن الضروري أن يكون قادراً على معالجة مشكلات تتضمن السبب والنتيجة . ومرة أخرى ، قد يبدو الأمر بالغ الصعوبة عندما نحاول تحديده . ذلك أن العلاقة العائنية بين حادثتين يُسم إدراكها فقط خلال أدلة معينة مثل التجاور والتقارب المكاني في تتابع الأحداث الوسيطة . ولكن واحدة من هذه ليست مؤكدة تماماً . فالطفل قد يفسر قدمه في الهواء ، وقد ينجم عن ذلك حركة كرة موجودة الى جوار قدمه . ومع ذلك فليس من الضروري أن يؤدي نفس الفعل الى نفس النتيجة . إلا أنه اذا أمكن للطفل أن يحدث مرات عديدة نفس النتيجة ، فقد يسلك على نحو كما لو كان يعتقد أن رفس القدم يحدث بطريقة آلية حركة الكرة . ومن الملاحظ أنه قرب نهاية هذه المرحلة يصبح الطفل أكثر وعياً ومعرفاً بالأحداث الوسيطة ، كما يحدث تقدم ملحوظ في التعرف على العوامل الخارجية المتضمنة في تتابع العلي.

**المرحلة الثانية :** مرحلة التفكير التصورى من الثانية حتى السابعة Preoperational Period  
وبلى المرحلة الحسية الحركية مرحلة أخرى تستغرق عدة سنوات تنمو خلالها بالتدرج الصورة المعرفية الداخلية للطفل عن العالم الخارجى وقوانينه وعلاقاته الكثيرة . وتسير هذه المرحلة بطريقة تدريبية : فالصورة الإجمالية التصورية الأولى هي مجرد نسخة داخلية للصور الإجمالية الحسية الحركية . ومع ذلك وبالتدرج ، تنتظم الصور الإجمالية التصورية في انظمة مترابطة يسميها بياجيه ادائية أو اجرائية operational . وهذا معناه أن الأفعال الداخلية التي هي عناصر النظام تخضع لقوانين عقلية معينة كالمجموعات والتجميعات . وحين يحدث ذلك فإن الطفل يكون قد وصل الى مرحلة العمليات المعيارية Concrete operations .

**ومرحلة ما قبل العمليات** هي أساساً مرحلة انتقالية لا تتميز بحدوث أى توازن أو اثبات . فنهاية المرحلة الحسية الحركية تمثل نوعاً من التوازن على المستوى السلوكى ، كما أن مرحلة العمليات المحسوسة أو المعيارية (المرحلة الثالثة) تمثل توازناً جديداً على مستوى أعلى ، بينما هذه المرحلة الثانية هي انتقال بين المرحلتين الأولى والثالثة . وإذا توخينا الدقة ، يمكن القول بأن بياجيه قد قصر نفسه على مراحل ثلاث فقط من مراحل النمو الفكرى . وهو بالفعل فعل ذلك في بعض كتبه ، وهي : المرحلة الحسية الحركية التي تنتهي بالسنة الثانية ، ومرحلة العمليات

النمو النفسي : من الغفل الى الراشد

المحسوسة او العيانية والتي تنتهى عادة باكتساب قوانين التجميع والمجموعات المختلفة ، ثم مرحلة العمليات الشكلية والتي تبدأ عادة من الحادية عشرة او الثانية عشرة . وكل مرحلة من هذه المراحل الثلاث السابق الاشارة اليها تتميز ببلوغ حالة من التوازن والثبات . يميزها عن غيرها من المراحل .

وان كنا من اجل التوضيح سنأخذ بفكرة جعل « مرحلة ما قبل العمليات » مرحلة قائمة بداتها رغم كونها انتقالية .

وفي هذه المرحلة نلاحظ وقوع الطفل في اخطاء ظاهرة واضحة في مجال تفكيره التصورى او العقلى . فهو يقع في تناقضات ظاهرة أحيانا . فقد يذكر في لحظة ما ان الشيء (ا) اكبر من الشيء (ب) ، ثم يعود بعد ذلك ، فيقول ان الشيء (ب) اكبر من الشيء (ا) دون ان يدرك التناقض الظاهر بين هذين القولين .

وفي هذه المرحلة ايضا يقوم الطفل بمحاولاته الاولى غير المنظمة نسبيا في الاتصال بعالم الرموز، هذا العالم الجديد الغريب بالنسبة اليه . ويميز بياحيه أحيانا مراحل فرعية ثلاثا داخل هذه المرحلة الثانية الكبرى وهى :

١ - بدايات التفكير التصورى ( من ٢ - سنوات ) .

ب - التصورات او الحدوس البسيطة ( من ٤ - ٥ ١/٢ سنة ) .

ج - التصورات او الحدوس المفصلة ( من ٥ ١/٢ - ٧ سنوات ) .

واذا نظرنا بدقة الى طبيعة التصورات ، نجدان أساس عملية التصور هى القدرة على التمييز بين الدال Signifiant و « المدلول عليه » Signifie .

ومن ثم القدرة على استدعاء أحدهما والاستدلال عليه بمجرد ظهور الآخر او انارته . وقد اطلق بياحيه على هذه العملية اسم « الوظيفة الرمزية » La fonction symbolique . وعلى الرغم من ادراكه ان الطفل في المرحلة الحسية الحركية يكشف عن نوع من الاستدلال البسيط ، كاتخاذ الدليل الادراكى علامة على ان شيئا ما على شكل الظهور - الا انه لا يمكنه القيام بالتمييز بين الدال والمدلول عليه . ، هذا التمييز الذى يحدد لنا امتلاك الطفل للوظيفة الرمزية والتي تسمح له بالانتقال بين الدكاء الحسى الحركى والدكاء التصورى . فطفل المرحلة الحسية الحركية لا يمكنه ان يستدعى ذهنيا الدال (سواء كان كلمة أو صورة ) . وابتداء من سن السنة والنصف وظهور اللغة عند الطفل ، نلاحظ تمايزا تدريجيا بين الدال والمدلول عليه . فالطفل يمكنه ان يستدعى صورة الشيء الغائب بواسطة شيء آخر ( اى بالتصور ) . وهذا التمايز بين الدال والمدلول عليه هو أساس ظهور الرمز . والرمز هو الذى يسمح لنا بالقيام بعملية التصور . فعن طريق قطعة الخشب يتصور الطفل وجود سيارة يتمثل فيها لعبته .

وليس ثمة شك أن الذكاء التصوري بامتلاكه الوظيفة التصويرية يختلف اختلافا واضحا عن الذكاء الحسى الحركى الذى يقتصر اليها . ويمكن أن نوجز هذه الفروق في النقاط التالية :

**أولا :** إن الذكاء الحسى الحركى يصدر عن الأفعال أو الإدراكات المتتابعة التى يدركها الطفل الواحدة تلو الأخرى. أما التفكير التصورى فلديه القدرة من خلال وظيفته الرمزية هذه على ادراك مجموعة من الأحداث المنفصلة في صورة واحدة . فهو وسيلة أسرع وأكثر مرونة ، يمكنه استمداء الماضى وتمثل الحاضر والتنبؤ بالمستقبل في فعل واحد منظم ومختصر زمنيا .

**ثانيا :** إن الذكاء الحسى الحركى يستند أساسا الى المكان القريب ، أى المكان الذى يمكن للطفل ادراكه في المحيط الذى يوجد فيه . فهو لا يستجيب اذن للمكان البعيد ( كالجبال والنجوم باستثناء القمر ) وبالمثل يستند الذكاء الحسى الحركى الى الزمان الحاضر . فليس هناك توقع سوى لمستقبل مباشر قريب، كما أن ليس هناك استجابة ، سوى لماض قريب حيث يواصل القيام بعمل ما تركه منذ لحظة وجيزة . أما التفكير التصورى ففيه يعد الطفل مجال المعرفة الى مكان بعيد ، وإلى زمان يتجاوز الماضى والمستقبل القريبين ، أى أنه يتميز بالامتداد في الزمان والمكان .

**ثالثا :** لما كان الذكاء الحسى الحركى ذكاء فعليا أو ذكاء عمليا ، فإنه يقتصر على تتبع الأهداف المحسوسة للفعل أكثر من طلب المعرفة والبحث من حيث هما كذلك . أما التفكير التصورى فهو بطبيعته يهتم بتنظيم أفعاله من حيث هى قائمة على أشياء ، أكثر من اهتمامه بتسجيل « النجاح أو الفشل التجريبيين » . فالتفكير التصورى يهتم اذن بتأمل الفعل أكثر من اهتمامه بالفعل نفسه .

**رابعا :** وبواسطة قدرته على الخروج من نطاق الحاضر المباشر ، فإن التفكير التصورى يمكنه أن يمد مجاله الى خارج نطاق الأفعال المحسوسة الواقعية للذات ، وخارج مجال الموضوعات الواقعية المحسوسة في البيئة . ويهدف هذا التحرر من الواقع المحسوس هو المعالجة الرمزية لأحداث غير محسوسة ( على نحو ما يحدث فيما بعد في التفكير العلمى والرياضى عند الكبار ) .

**خامسا :** لما كان الذكاء الحسى الحركى قاصرا على الأفعال الحسية الحركية أكثر من تصورات الواقع ، فهو بالضرورة حادث خاص أو مسألة فردية . أما الذكاء التصورى فهو من ناحية أخرى يمكنه أن يصبح - بل هو يصبح بالفعل - اجتماعيا عن طريق مجموعة الرموز المتعارف عليها والتى يشارك فيها أفراد الجماعة كلها .

وعلى ذلك ، فظهور الوظيفة الرمزية سأت القدرة على التمييز بين الدال والمدلول عليه - والقيام بعملية الاستدلال بينهما ، يؤدى الى صورة عقلية ذات امكانيات أبعد مدى بكثير من أية صورة من صور الذكاء الحسى الحركى .

### وفي ضوء ما تقدم يمكن أن نقدم باختصارهم الخصائص المميزة لمرحلة التفكير التصوري:

١ - **مركزية الذات** : فطفل مرحلة التفكير التصوري أو مرحلة ما قبل العمليات ، يكون - بالنسبة للتصورات - مركزي الذات ، تماماً مثلما كان طفل المرحلة السابقة بالنسبة للأفعال الحسية الحركية . ولصفة التمرکز الذاتي في مرحلة ما قبل العمليات ، نتائج كثيرة أهمها : أن الطفل يكشف باستمرار عن عجز نسبي في الأخذ بعين الاعتبار بوجهة نظر الغير كأحد الاحتمالات الممكنة ، وأن يحاول أن ينسق وجهة نظره مع وجهات نظر الغير .

ويمكن أن نوضح ذلك بمثال بسيط من الخيرات التي تمر بنا في طفولتنا وتتمثل مع تقدم السن بالفرء . أن من يركب منا سيارة مثلاً في ليلة مقمرة ، يبدو له القمر كما لو كان يسير معه ويتبعه . ونحن جميعاً نعلم بطريقة أو بأخرى أن هذا مجرد خداع ، وأن من بين المبررات التي تدفعنا الى عدم الأخذ بمثل هذا الاعتقاد الذي يلازمنا في طفولتنا المبكرة ، أن نفترض مثلاً أن هناك شخصين يركبان سيارتين تسيران في اتجاهين متضادين . فإذا أصر كل منهما على أن القمر يتبعه ويسير في اتجاهه هو، كان معنى ذلك أن القمر يسير في نفس الوقت في اتجاهين متضادين . وفي هذا بالطبع تناقض واضح . ومثل هذه النظرة تتطلب من الفرد فصل المظهر عن الحقيقة . فالقمر ثابت ونحن الذين نسير ونتحرك . ومثل هذا الفصل بين المظهر والحقيقة يتطلب من الفرد الأخذ بعين الاعتبار لوجهات نظر الغير ، الأمر الذي لم يصل اليه الطفل في تصوراتهِ بعد ، وشبه بهذا أيضاً مانجده لدى الطفل في مجال اللغة والاتصال حيث يبدو أنه يقوم بجهد قليل حقاً لتكييف لفتته وحديثه لحاجات المستمع .

ونتيجة لانتقال الطفل الى الأخذ بوجهة نظر الغير ، نجده لا يحس بالحاجة الى تبرير انكاره للآخرين أو البحث عن التناقضات الممكنة التي تكمن في افكاره ومنطقه . فهو حين ينقل فكرة أو افكاراً الى أطفال آخرين ينقلها كما لو كان الآخرون يفهمون انكاره ووجهة نظره . ويعتقد يياجه اعتقاداً جازماً أن الطفل يصبح على معرفة بنفسه ويصبح قادراً على تبرير افكاره والارتباط بالمعايير المنطقية والاجتماعية من خلال التفاعلات المتكررة مع الآخرين ، وبخاصة تلك التي يجد فيها الطفل نفسه مضطراً المرة تلو المرة أن يصرّف دور الآخرين ، وأن يستمع لوجهة نظرهم وأن يدخلها في اعتباره . ومن هنا ، فإن التفاضل الاجتماعي هو الذي يحطم مركزية الذات عند الطفل . ومع ذلك ، فهذا التمرکز حول الذات طور من اطوار النمو لابد أن يمر به طفل هذه المرحلة .

٢ - **فكرة الثبات** ومن الفروق الهامة بين الإدراك الحسي والتفكير التصوري أن التفكير يربط الماضي بالحاضر مما يساعد تفسير المشكلة التي تواجه الفرد ، بينما الإدراك يتحدد بالمادة التي تقع تحت حواس الفرد بشكل مباشر . وهذه السمة للتفكير تعتبر ذات أهمية

في نظر بياجيه ، وتكوين المفهوم يعتبر امراً هاماً بالنسبة لتفكير الطفل في هذه المرحلة . واحدى المشكلات الكبرى بالنسبة للطفل هذه المرحلة قد تكون عدم قدرته على ادماج المادة التي يستمدّها من خبراته الماضية من أجل الوصول الى احكام صحيحة يستحيل الوصول اليها بدونها . ولقد عالج بياجيه موضوع الثبات في مجالات متعددة فدرس فكرة الثبات المكاني وثبات الكم المتصل وثبات الكم المنفصل ، ويكفى ان نشير الى مثال واحد وليكن ثبات الكم المتصل من أجل ان نعرف الى أى حد يجد الطفل صعوبة في الوصول الى هذه الفكرة .

« اعطيت قطعتان من الصلصال من نفس الشكل وبنفس الحجم ونفس الكم . شكلت احدهما على هيئة قرص مستدير والاخرى على هيئة اسطوانة مستطيلة . ثم وجه السؤال الى الطفل : هل نفس كمية الصلصال واحدة في الاثنتين ( ثبات المادة ) ؟ وهل لدينا نفس الوزن ؟ هل لدينا نفس الحجم ؟ ... وقد وجد ان الطفل في بعض الاحيان لا يقول بالثبات . فيقول مثلاً : ان هذه اكبر لانها طويلة ورفيعة ، وفي مرحلة ما قبل العمليات ، لا نجد ثباتاً . اما في سن السابعة فان الطفل يصل الى فكرة ثبات الكم . وفي سن ٩ - ١١ سنة ، نجده يصل الى فكرة ثبات الوزن . اما فكرة ثبات الحجم فانه يصل اليها في حوالي سن ١١ - ١٢ سنة .

#### المرحلة الثالثة : مرحلة العمليات المحسوسة او العيانية : من السابعة حتى الجادية عشرة Concrete Operations

وفي حوالي سن السابعة يكتسب التنظيم الفكري للطفل عن البيئة المحيطة به ، صفة الثبات والتماسك بفضل تكوين مجموعة من التراكيب العرفية . وفي هذه المرحلة يبدأ الطفل في ان يبدو معقولا ومنظما في توافقاته مع البيئة ، بمعنى انه يبدو ان لديه اطارا فكريا ثابتا ومنظما يستخدمه في تعامله مع عالم الاشياء المحيطة به . ففي استطاعته ان يرتب مجموعة من الاشياء حسب حجمها ويدخل اشياء جديدة داخل المجموعة . وفي امكانه ان يفهم ان عدد الاشياء في مجموعة ما ، لا يتغير بمجرد اعادة الترتيب المكاني لهذه الاشياء . ومن الممكن ايضا ان يفهم الكثير من العلاقات البسيطة بين اصناف او انواع الاشياء . فعلى يمكنه ان يدرك ان صنفا ما لا يمكن ان يحتوي على اعداد اقل مما يحتوي عليه أى من الاصناف الفرعية الداخلة تحته . وباختصار يكتسب الطفل في هذه المرحلة مفهوما بدائيا عن الزمان والمكان والعدد والمنطق . وهذه المفاهيم التي في ضوئها تنتظم فكرتنا عن الاحداث والاشياء.

واذا كنا قد اوضحنا ان طفل مرحلة ما قبل العمليات العقلية ( المرحلة الثانية ) يختلف تفكيره عن طفل « المرحلة الحسية الحركية » من حيث انه يعمل على مستوى التصور الذهني في مقابل مستوى الفعل المباشر فان طفل مرحلة العمليات المحسوسة او العيانية والتي نحن بصددّها يختلف في تفكيره عن طفل المرحلتين الاولى والثانية . فهو يختلف

من طفل المرحلة الحسية الحركية من حيث انه يعمل على مستوى العمليات ، أى الاداء العقلى غير المحدد ، وليس على مستوى الفعل المباشر ، كما انه يختلف عن طفل المرحلة التصورية من حيث انه يعمل وفق نظام أو نسق معرفى متكامل ، به ينظم العالم من حوله . فاذا كان تفكير طفل المرحلة التصورية يفتقر الى الثبات والتنظيم الذى يجعله يسلك أحيانا بطريقة منطقية وأحيانا يفشل فى مواصلة القيام بنسق منطقي بسيط فى الظاهر ، فان طفل مرحلة العمليات المحسوسة أو العيانية - والمرحلة الشكلية التى تليها - يكون تفكيره ثابتا ومستقرا ، ينتج عن تنظيم « الافكار الأدائية أو الإجرائية فى أنظمة مترابطة تمكن الطفل ان يسلك بثبات وبصورة منطقية ، وان يستخرج من افكاره ما تتضمنه من نتائج . ولذا يقول بياجيه « ان طفل مرحلة العمليات المحسوسة أو العيانية يسلك فى مجموعة متنوعة من الافعال ، كما لو كان لديه تنظم تمثيلي غنى متكامل يعمل فى حالة توازن مع عمليات الملاعبة . وهذا هو جوهر الخلاف بين هذه المرحلة والمرحلة السابقة عليها . والحقيقة أن معظم ما يتجلى فى المرحلة التصورية يمكن ان يفيد فى مرحلة العمليات المحسوسة .

وحين تبلغ الاعمال المعرفية العقلية هذا المستوى الخاص من الثبات والتنظيم ، أى حين تنتظم فى وحدات تامة متماسكة وتركيب محدد قوى ، هنا يطلق عليها بياجيه اسم « العمليات العقلية » . ومن هنا جاءت التسميات العديدة للمرحلة الثانية وهذه المرحلة الثالثة ثم المرحلة الرابعة ، فقد سميت هذه المراحل على التوالى باسم « مرحلة ما قبل العمليات العقلية » ومرحلة « العمليات المحسوسة أو العيانية » ومرحلة « عمليات التفكير الشكلى أو المنطقى » . ان طفل مرحلة ما قبل العمليات العقلية لديه بالطبع افعال تصورية . ولكن هذه الافعال التصورية التى تسمى أحيانا باسم « الحدس » إنما هى تعبيرات معرفية منفصلة ومتفرقة ولا تتجمع فى كليات متماسكة . ومن هنا يمكن القول بأن « العمليات على نحو ما حددها بياجيه هى الملكة الخاصة بمرحلة الطفولة المتأخرة ومرحلة المراهقة .

أما ما نوع الاداء الذى يسميه بياجيه باسم العمليات operations ، فإن أى عمل تصورى ذهنى يكون جزءا متكاملًا من شبكة أعمال مترابطة ، يعتبر أساسا « عملية » . ولقد أشار بياجيه الى العديد من هذه العمليات ، فهناك عمليات الإضافة المنطقية ( الجمع ) ، وعمليات الطرح والضرب والقسمة ، سواء فيما يتصل بالانواع أو العلاقات . وهناك العمليات العقلية العددية المختلفة الانواع ، والتى أطلق عليها اسم العمليات المنطقية الاخص *Infralogical Operations* وتتضمن الكم والزمان والمكان وغيرها . وهناك أيضا العمليات التى تتصل بنظام القيم والتفاعل المتبادل بين الافراد ، ولعل الإشارة الى العديد من هذه العمليات ، ما يجعل القارئ على الفقه . من ذلك مثلا : عملية الاستجابة لمجموعة من الأشياء التشابهة فى ناحية معينة وتكوين نوع من الانواع ، وعملية ضم الانواع معا (الجمع

المنطقى للانواع ) وتكوين فرع اشمل واعم يضم هذه الانواع جميعا كضم نوع النباتات ونوع الحيوانات لتكوين نوع الكائنات الحية ، ثم هناك عملية العود ثانية الى الانواع الاصلية من طريق الطرح المنطقى ، اى فصلها واستخراجها ثانية من النوع الذى يضم الانواع الى آخر هذه العمليات المتعددة التى اشار اليها بياجيه فى هذه المرحلة والتى ليس هنا مجال التوسع فى شرحها .

ومن الممكن ان نلخص اهم منجزات مرحلة العمليات المحسوسة او العيانية بقولنا ان تفكير طفل مرحلة العمليات المحسوسة يكشف عن تقدم ملحوظ اذا قورن بتفكير طفل مرحلة ما قبل العمليات المنطقية اى المرحلة التصورية . ولعل اهم منجزات هذه المرحلة هى ان تراكيبها المعرفية تتألف من أنظمة تكون فى حالة توازن ، اعنى تتألف من كليات متماسكة من العمليات القابلة للاتكاس ، والتى تمكنه من ايجاد التنظيم والثبات بين الاشياء والاحداث فى العالم المحيط به ، بشكل كان يستحيل على طفل مرحلة ما قبل العمليات ان يقوم به . فاذا كان طفل مرحلة « ما قبل العمليات » يميل الى العمل فقط فى ضوء الواقع الظاهرى الذى يقع امام ناظرية ، فان طفل مرحلة العمليات المحسوسة يبدأ بمد تفكيره من الواقع الى الممكن . وهذا النمو هو نتيجة طبيعية لتكوين التراكيب المحسوسة . فلو اخذنا متسلسلة مكونة من عناصر ثلاثة محسوسة ولكن ا ، ب ، ج ( الواقع ) فان طفل مرحلة العمليات المحسوسة يكون اكثر استعدادا من طفل مرحلة ما قبل العمليات للتنبؤ بإمكان تطبيق هذه العلاقة على عناصر جديدة مثل د ، هـ ( اى الممكن ) . وهذه الخطوة تعتبر من اهم الخطوات تمهيدا للانتقال الى المرحلة الرابعة والاخيرة .

#### المرحلة الرابعة : مرحلة العمليات الشكلية ابتداء من سن الحادية عشرة Formal operations

وتبدأ هذه المرحلة من حوالى سن ١١ - ١٢ سنة وتصل الى حالة توازن فى حوالى سن ١٤ - ١٥ سنة . وهى مرحلة بداية التفكير المنطقى عند الكبار . فالمرافق فى هذه المرحلة يمكنه ان يتعامل بنجاح ليس فقط مع عالم الواقع المحسوس ( على نحو ما كان فى المرحلة السابقة ) بل وايضا مع عالم المجردات والقضايا المنطقية . فهو يفهم المبادئ الاساسية للتفكير العيلى والتجيب العملى ، ويستطيع القيام بتجارب ، واستخلاص التضمنات الصحيحة على الاقل فى بعض الحالات .

وتعتبر مرحلة العمليات المنطقية او الشكلية تنويعا للنمو العقلى . فهي بمثابة حالة التوازن النهائى التى يسير نحوها التطور العقلى المعرفى منذ بدايته الاولى . لقد عالج بياجيه هذا الموضوع فى مؤلفات عديدة اهمها كتابه الذى الفه مع هيلدير عام ١٩٥٥ والذى ترجم الى اللغة الانجليزية عام ١٩٥٨ تحت عنوان « نمو التفكير المنطقى من الطفل حتى الرشد » والخاصية

المميزة للتفكير الشكلى ترجع بلا شك للدور الذى يقوم به « الممكن Possible » فى علاقته بالواقع « Réel » فالتفكير الشكلى - اذا قورن بالتفكير فى مرحلة العمليات المحسوسة - يكون بذلك صورة جديدة من صور التوازن التى يسير نحوها هذا التطور العقلى . ولعل مما يلقى الضوء على هذه العمليات الشكلية أن نربط بينها وبين العمليات المحسوسة السابقة عليها والتى صدرت عنها . فطفل المرحلة المحسوسة او العيانية تواجهه صعوبات منها :

١ - أن العمليات المحسوسة عيانية ، أى محسوسة وغير مجردة ، بمعنى أن تركيبها ونشاطها التنظيمى يتجه نحو الاشياء والاحداث المحسوسة الموجودة فى الواقع المباشر . حقيقة أن تكوين الانظمة المحسوسة يسمح ببعض الانتقال والسير نحو الممكن أو غير الموجود ، الا أن هذا السير أو هذه الحركة يكون نطاقها محدودا ويتألف غالبا من تعميمات بسيطة التركيب موجودة على محتوى جديد ( على نحو ما سبق أن اشرنا فى معرفة الطفل امكان نقل العلاقة ١ ، ب ، ج ، د ، وتطبيقها على د ، هـ ) ، كما أن نقطة البدء بالنسبة للعمليات المحسوسة - كما هو الحال أيضا بالنسبة لما قبل العمليات - هى دائما - « الواقع أكثر منه الممكن » . فطفل المرحلة من ٧ - ١١ يعمل كما لو كان واجبه الاساسى هو تنظيم وترتيب ما هو موجود امامه مباشرة . أما الانتقال البسيط المحدود للتنظيم والترتيب على اشياء ممكنة ، فهو أمر يقوم به عند الضرورة . ولذا فهو ينظر اليه كحالة خاصة من النشاط . أما مالا يستطيع طفل مرحلة العمليات المحسوسة أن يفعله ، ويستطيع الراشد القيام به ، فهو يمثل جميع الاحتمالات الممكنة منذ البداية ومحاولة الكشف عن أى هذه الاحتمالات يوجد فعلا فى المادة الراهنة . وبهذا الاسلوب الأخير يصبح الواقع حالة خاصة من الممكن وهذه هى إحدى خصائص العمليات الشكلية المنطقية .

٢ - وكون طفل مرحلة العمليات المحسوسة لا يزال مقيدا - نسبيا - بالظواهر الخارجية ، فهذا من شأنه أن يخلق صعوبة أخرى . أن عليه أن يتغلب على الخصائص المتعددة للاشياء والاحداث (كالكتلة، والوزن والطول والزمن ... الخ) واحدة واحدة، لأن وسائله المعرفية ليست « شكلية » بدرجة كافية ، ولا منفصلة او مستقلة بدرجة كافية عن الموضوع الذى تحمل عليه من أجل أن تسمح بتمايز الشكل عن المحتوى . فالطفل بعد أن يصل الى فكرة ثبات الكم ، يظل لفترة غير قصيرة ، عاجزا عن بلوغ فكرة الثبات بالنسبة للوزن والحجم .

٣ - أما الصعوبة الثالثة فهى أن أنظمة العمليات المحسوسة المتعددة ، تعتبر بمثابة نقط تنظيم أكثر وأقل انفصالا من ٧ - ١١ سنة، فهى لا تترايط فيما بينها لتكوين نظام متكامل بسيط ، نظام يمكن للطفل أن ينتقل من تركيب فرعى الى تركيب فرعى آخر بالنسبة لمشكلة واحدة . فبينما يوجد لدى طفل مرحلة من ٧ - ١١ سنة نوعا من عمليات القابلية للانعكاس (وهما



النفي والتبادل ) ، فانه لا يوجد لديه مع ذلك نظام كلى شامل يسمح له بتنسيق الاثنين معا ، وحل المشكلات ذات المتغيرات المتعددة والتي تتطلب هذا التنسيق . فالتركييب المعرفية تعجز اذن عن الترابط فيما بينها في نظام كلى موحد لازم للقيام ببعض العمليات المعقدة .

وفي ضوء هذه الصعوبات التي نجدها في مرحلة العمليات المحسوسة ، يمكن ان نتنقل الى دراسة اهم خصائص التفكير الشكلي الذي يتميز به تفكير الراشد . وكثير من خصائص تفكير هذه المرحلة ليست مترابطة بسهولة احداها بالآخرى بطريقة ذهنية واضحة ، ولكنها تعتبر مهمة في نمو قدرة الفرد على حل المشكلة .

#### خصائص التفكير الشكلي :

**الخاصية الاولى :** تتصل بالتطور او بالنمو لقدرة الطفل على فهم العلاقات المنطقية بين الانواع . فاذا كان طفل مرحلة العمليات المحسوسة يمكنه فهم العلاقات المنطقية بين الانواع التي تعرض او تقدم اليه ، فان الراشد في مرحلة العمليات الشكليه عليه ان يدرك بوضوح او ان يتحقق من العلاقات الممكنة ، بحيث يمكنه تصميم مواقف تزوده بالمعلومات او المعرفة التي يحتاج اليها .

**الخاصية الثانية :** هي ان جزءا من قدرة الطفل على ادراك جميع الامكانيات يتمثل في سهولة بوقدره الطفل على التفكير التوافقي او الترابطي . وبعبارة اخرى يتمثل في قدرته على مراجعة كل الاختيارات بطريقة منتظمة تسمح بالانتقال خلالها تنابعا اذا لزم الامر ، ويعرف انه استنفذها جميعا . وقد وصفت العلاقات الممكنة المختلفة بين الانواع في نظرية المنطق الشكلي . ويكون طفل مرحلة العمليات الشكليه قادرا - بطريقة حنسية - على استعمال النسق الكامل للمنطق الشكلي من اجل الحصول على المعرفة التي يريد بها .

**الخاصة الثالثة :** هي التغير الذي طرأ على العلاقة بين الواقع والممكن . وهي اهم الخصائص جميعا ومنها استمد يباجيه بقية الخصائص الاخرى . فبدلا من ظهور « الممكن » في صورة امتداد محدود وبسيط للواقع او للافعال التي تجرى في هذا الواقع ، فان العكس هو الذي يحدث اذ يصبح الواقع تابعا للممكن . فالراشد على عكس طفل مرحلة من ٧ - ١١ سنة - يبدأ نظره الى المشكلة موضوع البحث بمحاولة النظر في جميع الاحتمالات والعلاقات الممكنة التي تصدق على المادة . ومن ثم يحاول خلال الجمع بين التجريب والتحليل المنطقي ان يصل الى معرفة اى هذه العلاقات الممكنة تصدق في الحقيقة على هذه المادة . فالواقع اصبح ينظر اليه كمجموعة فرعية داخل وحدة تامة من الاشياء التي تسمح المدة بظهورها كقروض . فهو ينظر الى « الواقع » كجزء موجود داخل وحدة « ممكنة » .

فنحن اذن بازاء خطوة في غاية الاهمية من خطوات النمو الفكرى ونعنى بها التحرر من عبودية الملامة للواقع المباشر على نحو ما وجدنا في المرحلتين السابقتين . وهذا التحرر يأخذ شكلا جديدا في المراهقة والرشد يتمثل في قلب دور الواقع الى ممكن . وليس هذا بالامر اليسير ، اذ هو بمثابة اعادة توجيه اساسى نحو المشكلات المعرفية . فالراشد لم يعد يشغل نفسه بشبات وتنظيم الاشياء المحسوسة وهى التى تتصل اتصالا مباشرا بالحواس ، وانما تظهر لديه خلال الاعادة الجديدة للتوجيه ، القدرة على تصور كل ما يمكن وجوده .

ان التفكير الشكلى هو في اساسه تفكير « افتراضى - قياسي Hypothetico déductif » والقياس لا يقوم هنا مباشرة على حقائق مدركة في العالم الخارجى ، وانما على منطوقات افتراضية ، اى على قضايا تقوم على فروض ، ان يضع المعطيات من حيث هى معطيات بسيطة مستقلة من حقائقها الواقعية الخارجية . فالقياس يتألف اذن من ربط هذه المعطيات او الفروض فيما بينها واستخلاص النتائج الضرورية المترتبة على ذلك ، حتى ولو لم تتجاوز حقيقةها التجريبية حدود الممكن . فهذا القلب لدور كل من الممكن والواقع - أكثر من اية خاصية اخرى - هو الذى يحدد التفكير الشكلى . وقد اوضح بالارد Ballard هذه الحقيقة في قوله : ان الاستدلال لا يقوم على الاعتقادات وانما على فروض . فاذا سلمنا بالافتراضات: كذا ، وكذا ، فانه يتبع اذن ان نصل الى كذا وكذا من النتائج. وطفل المرحلة من ٧ - ١١ سنة يقيم استدلالا لا على اساس معطيات المشكلة وفروضها ، بل على اساس الواقع والحقيقة . أما الراشد ، فانه يستدل على اساس التسليم بصديق او كذب الافتراضات التى يبدأ منها استدلاله .

تلك هى المراحل الاربع للنمو المعرفى ابتداء من الطفولة المبكرة حتى الرشد ، اى ابتداء من النمو الحسى الحركى حتى التفكير المنطقى . وليس ثمة شك ان وراء هذا النمو هدف . لقد كشف لنا هذا النمو عن تقدم مستمر ومتصل نحو حالة من التوازن Equilibre يسير نحوها الذكاء . لقد كان هذا الذكاء في بداية الامر امتدادا للمجال الإدراكى الذى يفتقر الى وجود القابلية للانعكاس ، ثم مع بداية ظهور العمليات اصبح المجال أكثر اتساعا وأكثر قدرة على القيام بالعمليات العقلية المختلفة ، وأكثر تحررا من الاشياء الواقعية والمحسوسات ، كما اصبح ايضا أكثر ثباتا وانظاما على نحو ما يتضح لنا بشكل ظاهر في المرحلة الرابعة والاخيرة من مراحل النمو العقلى وهى مرحلة التفكير الشكلى. فنمو الذكاء يتحدد اساسا في نظرية بياجيه باعتباره تقدما نحو التوازن .

وليس من شك ان ثمة عوامل اساسية هى التى تفسر لنا هذا السحر نحو التوازن . والنضج هو احد هذه العوامل ، وهو التفتح الطبعمى الذى يطرا على الكائن الحى ، ثم الخبرة وهى العامل الثانى . فالتعلم عملية هامة تفسر اكتساب الانسان لكثير من الخبرات التى تمر به

في الحياة . ولا يمكننا بحال من الاحوال ان نكرائر التعليم أو اثر تراكم الخبرات المكتسبة من البيئة التي نعيش فيها . ثم هناك ثالثا الوسط الاجتماعي . فقد لا يكتسب الطفل مثلا فكرة الشيء ( كفكرة الثبات ) من البيئة المادية وتفاعله معها ، وإنما قد يلقي هذه المفاهيم والافكار عن طريق الوالدين والمدرسين أو المحيطين به . غير ان كل واحد من هذه العوامل لا يكفي لتفسير التنظيمات المعرفية ، ولذا ينتهي بياجيه الى تقديم نظريته التي تقوم اساسا على فكرة التوازن . فبسبب احتواء الانظمة العقلية المنسقة على تناقضات ذاتية ، وبسبب ما تحدثه لدى الطفل من صراعات ، فان الطفل يجد نفسه مدفوعا بقوة لاحداث التناسق بين افكاره واعادة تنظيمها في كل منسق متوازن . وهذه هي عملية احداث التوازن عند بياجيه .

• • •

وبعد ، فقد استعرضنا اربع نظريات من نظريات النمو النفسى ، يمثل كل منها اتجاها من الاتجاهات الهامة في نظريات النمو النفسى . فهناك نظرية النمو النفسى الجنى عند فرويد ، ونظرية النمو النفسى الاجتماعى عند اريكسون والتي ادخلت بعض التعديلات والاضافات على النظرية الاولى ، ثم هناك نظرية نمو الذات عند اليوت ، وأخيرا نظرية النمو العقلى المعرفى عند بياجيه . واذا امعنا النظر في هذه النظريات النمائية الاربعة ، نجد تقاربا واضحا بينها حاول الباحث بيانه في التخطيط التالى :

★ ★ ★

تخطيط للعلاقة بين النظريات النمائية لكل من  
فرويد - اريكسون - البورت - بياجيه

المرحلة العمرية	المراحل النفسية الجنسية عند فرويد	المراحل النفسية / الاجتماعية عند اريكسون	مراحل نمو الذات عند البورت	مراحل النمو العقلي عند بياجيه
من صفر الى ٢	الفعية	الاحساس بالثقة مقابل عدم الثقة	الاحساس بالذات الجسمية	المرحلة الحسية الحركية
من ٢ الى ٣	الشرجية	الاحساس بالاستقلال مقابل الشك والخجل	هوية الذات تقدير الذات	المرحلة التصورية أو مرحلة ما قبل العمليات العقلية
من ٣ الى ٦ (ما قبل المدرسة)	القضيبية (الأوديبية)	الاحساس بالمبادأة مقابل الشعور بالذنب	امتداد الذات صورة الذات	
من ٦ - ١١ (المدرسة الابتدائية)	الكمون	الاحساس بالإنجاز والاثام (الصناعة والعمل مقابل النقص)	الذات منطقية عاقلة	مرحلة العمليات المحسوسة أو العيانية
من ١٢ - ١٧ (المدرسة الثانوية ثم الرشد واکتعال النضج)	التناسلية	الاحساس بالهوية مقابل اضطراب الهوية . والاحساس بالود والتآلف مقابل العزلة . الانتاجية مقابل الجمود . تكامل الانا مقابل اليأس	الجوهرة المميز الذات العارفة	مرحلة التفكير الشكلي أو المنطقي

## المراجع

### أولا : المراجع العربية :

- ١ - جابر عبد الحميد جابر ومحمد مصطفى الشعميني : النمو النفسي والتكيف الاجتماعى - القاهرة - دار النهضة العربية - ١٩٦٢ .
- ٢ - جون كوتنجر وبول موسن وجيردم كيجان سيكولوجية الطفولة والشخصية .  
ترجمة أحمد عبد العزيز سلامة وجابر عبد الحميد جابر . القاهرة - دار النهضة العربية - ١٩٧٠ .
- ٣ - سيد محمد غنيم : اللغة والفكر عند الطفل . الكويت . عالم الفكر . المجلد الثانى - العدد الاول -  
ابريل / يونيو ١٩٧١
- ٤ - سيد محمد غنيم : النمو العقلى عند الطفل نظرية جان بياجيه ( الجزء الاول ) القاهرة - حويات  
كلية الآداب بجامعة عين شمس - ١٩٧٢ - العدد ١٤ .
- ٥ - سيد محمد غنيم : النمو العقلى عند الطفل فى نظرية جان بياجيه ( الجزء الثانى ) القاهرة - المطبعة  
العالية - ١٩٧٣ .
- ٦ - سيد محمد غنيم : سيكولوجية الشخصية : مصادرها ، قياسها ، نظرياتها - القاهرة - دار النهضة  
العربية - ١٩٧٥ .
- ٧ - هولد . د لتدريج : نظريات الشخصية ، ترجمة فرج أحمد فرج وآخرين - الهيئة المصرية للتأليف والنشر  
القاهرة - ١٩٧١ .

### ثانيا : المراجع الأفرنجية :

7. Allport G. : *Personality. A Psychological Interpretation.* New York, Holt Richart and Winston, 1937.
8. Allport G. : *Becoming : Basic considerations for a Psychology of Personality.* New Haven. Conn. Yale Univer. Press 1955.
9. Allport G. : *Personality and Social Encounter.* Boston. Beacon Press 1960.
10. Allport G. : *Pattern and Growth in Personality.* New York, Holt, Rinchart and Winston 1961.
11. Aires P. : *Centuries of Childhood.* New York, Knopf. 1962.
12. Bandura A. & Walter R. H. : *Social Learning and Personality development.* New York, Holt Rinchart & Winston 1963.
13. Barker R., Kounin J. & Wright H. : *Child Behavior and Development.* New York, McGraw Hill Book Company, 1943.
14. Bishchof L. J. : *Interpreting Personality Theories.* New York. Harper and Row, 1964.
15. Carmichael L. (ed.): *Manual of Child Psychology*, 2nd ed. New York, Wiley, 1954.
16. Cashdan A. & Whitehead J. (eds). *Personality Growth and Learning.* London, Longman Group Ltd. 1971.
17. Erikson E. H. : *Childhood and Society.* Penguin Books 1970.

18. Erickson E. H. Identity : Youth and Crisis. New York. W. W. Norton & Comp. 1968.
19. Flavell J. H. : The Developmental Psychology of Jean Piaget. Princeton Von Nostrand 1963.
20. Freud S. : New Introductory Lectures on Psychoanalysis. New York, Norton 1935.
21. Freud S. : The Ego and the Id (1923). Hogarth, 1947.
22. Freud S. : Beyond the Pleasure Principle, New York, Liveright 1950.
23. Gesell A. & Ilg. F. L. : Child Development, 2nd ed., New York Harper 1949.
24. Hurlock E. B. : Developmental Psychology. New York. McGraw-Hill Book Comp., 1953.
25. Hurlock E. B. : Adolescent Development, (2nd ed.) New York, McGraw Hill Book Comp., 1955.
26. Hurlock E. B. : Child Development, (5th ed.) New York, McGraw Hill Book Company 1972.
27. Inhelder B. et Piaget J. : De la logique de l'Enfant a la logique de l'Adolescent. Paris. Presses. Univer. France, 1955.
28. Jersild A. T., Telford C. W. & Sawrey J. M. Child Psychology (7th ed.) New Jersey, Prentice Hall Inc. 1975.
29. Kegan J. & Moss H. A. : Birth to Maturity: A Study in Psychological Development. New York. Wiley 1962.
30. Medinnus, G. R. & Johnson R. : Child & Adolescent Psychology. New York. John Wiley & Sons Inc. 1969.
31. Mussen P. H., Conger J. J. & Kegan J. Child Development and Personality. New York, Harper and Row 1963.
32. Piaget, J. : La g n se du nombre chez l'Enfant. Delachaux et Niestle Neuch tel, 1941.
33. Piaget J. : La Naissance de l'Intelligence chez l'Enfant. Delachaux et Niestle Nechatel, 1948.
34. Piaget, J. : Play, Dreams and Imitation in Childhood, New York, Norton, 1951.
35. Piaget, J. : Essai sur les Trnasformations des op rations logiques, Paris, Presses Univer. France, 1952.
36. Piaget J. : "La formation des connaissances." Bull. Psychol. Paris 1955—1956, pp: 148-156, 268-495, 701-727.
37. Piaget J. : "Les relations entre la perception et l'intelligence dans les development de l'enfant." Bull. Psychol. Paris, 1956-1957. 10, 376-381, 751-760.

38. Pichon E. : *Le Development Psychique de l'Enfant et de l'Adolescent*, 2 ieme ed. Paris Masson & Cie (Ed). 1947.
39. Rayner E. : *Human Development; an Introduction to the Psychodynamics of growth, maturity and ageing*. London. George Allen & Unwin Ltd. 1971.
40. Reese H. W. & Lipsitt L.P.: *Experimental Child Psychology*. New York Academic Press 1970.
41. Riegel, K. F. : „History as a Nomothetic Science. Some Generalizations from Theories and Research in Developmental Psychology,” *J. of social issues* 1969 Vol. XXV No. 4.
42. Riegel K. F. *The Changing Individual in the changing society*. New York, Academic Press 1972.
43. Riegel K. F.: “Influence of Economic and Political Ideologies on the development of Developmental Psychology,” *Psychol. Bulletin*, 1972, Vol. 7 No. 2 129-141.
44. Ruch F. & Zimbardo P. *Psychology of Life* 8th ed. London Scott, Foresman and Company 1971.
45. Stone F. & Church J. *Childhood and Adolescence. A psychology of growing Person*, 7th ed. New York. Random house 1957.
46. Watson R. I. & Lindgren H. C. *Psychology of the Child*, New York, John Wiley & Sons Inc. 1973.

★ ★ ★

محمّد جواد رضا \*

## الانفصال عن العالم والرحيل إلى الأعماق

الواح ملونة من أزمات الطفولة والشباب في المجتمع المعاصر

### الواح الأول

#### العالم الكئيب

« يتهايمون معا ...  
هادئون بلا معنى ...  
كالريح في الأشباح ...  
أو أقدام الفئران على الحصاد الهشيم ...  
في مخزننا الجاف ...  
صور بلا هيولى ... ظلال بلا ألوان ...  
قوى مشلولة ... إيماءات بلا حراك ...

( \* ) عميد كلية الآداب والتربية في جامعة الكويت واستاذ التربية المقارنة فيها . له العديد من الكتب والبحوث المنشورة منها ( فلسفة التربية والرها في تفكير معلم المستقبل ) ، ( التربية والتبدل الاجتماعي في الكويت والخليج العربي ) ، ( التربية والمراعاة الاجتماعية ) ، ( التعليم الثانوى ) و ( قاهرة العنف في المجتمعات المعاصرة - تفسير سايكوسوسيولوجي ) .



الرجال الجوف ...

سقط القناع ...

يتساندون ...

خوذا مملوءة قشاً ...

تّى . اس . ايليوت

« الرجال الجوف »

مجموعة قصائد

١٩٠٩ - ١٩٣٥

• • •

« ارى افقا بنجيع الدماء

تنور واختفت الانجم

وحبلا من الارض يرمى به

كما قذف الصاعد السلم

اذا مد كفا له ناكث

تصلنى ليقطعها مبرم

تكور من جثث حوله

ضخام وامجادها اضخم

وكفا تمث وراء الحجاب

فترسيم في الافق ما ترسيم

وجيلا يروح وجيلا يجيء

ونارا ازاءهما تضرم

ويا ويح خائفة من غد

اذا نفس الغد ما ينظلم »

محمد مهدي الجواهري

١٩٤٩

• • •

« سمعت صوت بندق . شعرت بالدمر . كانوا يطلقون نيران بنادقهم ومسدساتهم في الليل ولم استطع النوم . كنت مرتوعة وفزع من أنهم قد يشرعون بنادقهم على نوافذ غرفتي ويطلقون النار علي . نمت ليلتئذ مع أمي في فراش واحد . كان هناك مخزن قريب من بيتنا تلتهمه النيران . كانوا يوقدون النار في كل شيء . خيل لي يومئذ ان العالم كله يحترق . . . »

من اعترافات طفلة بنت اربع سنوات  
ايام العنف الاسود في واتس - لوس انجلوس

١٩٦٥

« ... لقد استمرت الحرب الفيتنامية طويلا حتى لم يعد يوجد الآن فرد واحد في فيتنام يملك اية فكرة عن كيف كانت الاحوال قبل الحرب . ان اطفالنا يجهلون معنى السلام ، واذا تخيلوه فانهم يتصورونه مكانا جميلا وأوقاتا مريحة خلوا من المشاكل والازمات والمسؤولية ، نوعا من انواع الجنة على الارض ... »

« من رسالة لعالم نفسي فيتنامي موجّهة  
الى الاستاذ موديس فريزر وقد نشرها في صدر  
كتابه :

Children in Conflict, Penguin Books, 1974.

• • •

## الوح الثاني

### السقوط النفسي

منذ اربعين عاما تقريبا كتب رئيس جامعة ييل Yale الدكتور آنجل J. R. Angell يقول :  
ان ما بين ١٠٪ - ١٥٪ من طلبتنا الجامعيين يعانون من امراض نفسية معاناة حقيقية تهدد  
بتدمير فاعليتهم وسعادتهم . وفي الاجتماع السنوى للجمعية الطبية الملكية البريطانية عام  
١٩٦٠ اشارت التقارير الى ان ١٤٪ من طلبة الجامعات البريطانية يعانون من امراض نفسية  
على درجة غير يسيرة من الشدة . وفي المؤتمر المالي الاول حول الصحة العقلية لطلبة الجامعات  
المنعقد في جامعة برنستون في نفس الوقت تقريبا اكدت البحوث المقدمة في المؤتمر مذهب اليه  
الرئيس آنجل عام ١٩٣٦ مع التنبيه الى زيادة النسبة وبروز ظاهرة الانتحار بين الطلبة (١) .  
في سنة ١٩٦٦ كتب نيكولاس موليسن Nicholas Malleon يقول ان مايقارب ٢٠٪ من طلبة  
الجامعات البريطانية يعانون من اضطرابات نفسية معوقة لتقدمهم العلمي على درجات متباينة من  
القوة . (٢) وفي سنة ١٩٧٠ نشر انتوني رايلى Anthony Ryle الامور الطبي في جامعة  
سكس Sussex في كتابه «**الصعاب الطلابية**» ان حوالى الثلث من طلبة الجامعات البريطانية  
معرضون للاصابة باضطرابات نفسية على درجات متباينة من الشدة . (٣) وفي سنة ١٩٧٦ نشر كل  
من ميل وميلر ان في جامعة صغيرة مثل جامعة سوانسي هناك ما بين ٣٠٠٠ - ٤٥٠٠ طالبا وطالبة  
يعانون من امراض نفسية جدية، وان مستشفيات الجامعة وعياداتها النفسية تواجه وضعاً صعباً  
للغاية في تلبية الحاجات العلاجية لهؤلاء الطلبة . ومن الدراسات التحليلية التي قام بها هذان

(١) Davy, B. W. ; The Source and Prevention of mental ill health in University Students, proceedings of the Royal Society of Medicine, England, April 22, 1960.

(٢) Malleon, N.B. ; A Handbook of British Student Health Services, London, Pitman, 1966.

(٣) Ryle, A. ; Student Casualties, Pelican Books, 1970.

الباحثان تبين أن ١٤ ٪ من الطلبة الجامعيين يشكون من التعاسة في علاقاتهم الشخصية ،  
١٠ ٪ يقاسون من إحاسيس الكآبة و ٧ ٪ كانت مشاكلهم تنجم عن مصاعب دراسية . (٤)

في المؤتمر الدولي السابع للمائدة المستديرة لتقدم الارشاد النفسي المنعقد بين الحادى عشر  
والخامس عشر من شهر ابريل ١٩٧٦ في جامعة فيرزبورج في ألمانيا الاتحادية وجه الاستاذ أرنولد  
W. Arnold رئيس جامعة فيرزبورج السابق ورئيس قسم علم النفس فيها ، وجه الانتباه الى  
ما أسماه « الأخلاقيات النفسية الجديدة » New Psychological Ethics في معرض  
التحذير منها . قال الاستاذ أرنولد :

« يجب التذكير بحالات مأسوية ومروضية في المجتمع الحديث . في جلسات الارشاد النفسي  
غالباً ما يمسع الواحد منا عبارات تصدر عن الاطفال الصغار . . ان أمى لم تكن ترغب في  
مجيئى الى هذا العالم وهى حتى الآن تعبر عن ضيقها بوجودى معها . . »

#### ثم يعقب الاستاذ أرنولد على هذا بقوله :

« . . ان هذه الصرخة الانسانية تعلن عن قلق وجودى ، وهى دعوة للبحث عمن يمكن  
الوثوق به ، انها التماس للشفقة والحب ولإمكانية الاعتماد على شخص ما . ان كل الأخلاقيات  
النفسية القديمة قد تلاشت من الوجود الاجتماعى تقريباً . كثيرون يشعرون بأنهم وحيدون  
ومهجورون . وإذا كان الاطفال والشباب يحسون أنهم مرفوضون وغير مرغوب فيهم من قبل اولياء  
امورهم ومن امهاتهم على وجه التخصيص فانهم يقفون على ارض بوار ، في حالة من القنوط الكامل  
من أى رجاء . . . » (٥) .



### الروح الثالث

#### الضحايا

بتاريخ ٧ سبتمبر ١٩٧١ كتب أحد الأطباء العموميين في مدينة « لندن برى » يقول معقبا على  
ضحايا الحرب الأهلية في أيرلندا : -

« انى أحب ان اناشد أولئك المشتغلين في الاقناع السياسى والعاملين في منطقتى كريكمان  
ويوك سايد شيئاً من الحلم والتبصر في عواقب مايفعلون . خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية

(٤) Miller, P. — Miller, T. ; Student Problems, Remedies and Satisfactions, British Psychiatry, Sep. 1973.

من المهم ان نلاحظ هنا ان الجامعات العربية لا تنشر ولا تملك معلومات معاملة عن الاوضاع النفسية والمقلية لطلابها ، ولذا  
ببقى مشاكلهم النفسية ومعاناتهم مقصورة عليهم وغير محسوس بها في العالم الخارجى .

(٥) Arnold, W. ; Counselling Activities in Modern Society, Proceedings of Seventh International Conference for the advancement of counselling, 11-15, April, 1976, Würzburg.

دعيت لمعالجة بعض ضحاياهم . أحد هؤلاء الضحايا حاول الانتحار منذ ذلك الحين أكثر من مرة . واحدهم الآخر تطلب علاجاً عاجلاً في حالة القلق العنيف الذي سيطر عليه . ان عددا كبيرا من الناس الطبيين يسقطون يوميا فريسة الخوف مما يحمله الاقتتال اليهم وهم لهذا يعتمدون اعتمادا متعاديا على المهدئات الطبية كي يستطيعوا مواصلة حياتهم اليومية . ان عواقب هذا الابتكال المكثف على هذه المهدئات الطبية هي اوضح من ان يستطيع أحد التنبؤ بها « (٦) » .

في وقت قريب من هذا الوقت كتب باحث آخر في آثار الحرب الأهلية في إيرلندا على الاوضاع النفسية والعقلية للأكفال والشباب يقول ان التعرض لتجربة تفجير القنابل والانارات النفسية والاستفزازات يوما بعد يوم صارت تضاعف حالات الكآبة والمماناة العصابية ، حتى صار يمر على كل يوم موكب طويل من المراجعين في العيادة يروون قصصا مخيفة عن معاناتهم من الخوف والمماناة المعزقة لشخصياتهم ولهذا اجدني ملزما ان اصف لهم كميات كبيرة من المهدئات الطبية والسكنات . ولأول مرة في حياتي المهنية اجدني مضطرا لاعطاء الحبوب النومة بمقادير كبيرة نسبيا للأطفال لاساعدهم على النوم ، ولتمكينهم من مواصلة ادائهم لواجباتهم المدرسية . ولأول مرة في حياتي المهنية ايضا بدأت اخاف على سكان مدينتي - ديري - من انهم لن يستطيعوا اجتياز مرحلة الاضطرابات النيفة هذه من دون تعرض نظام حياتهم الاجتماعية للانهيال التام . (٧)

**لقد ترتب على حياة العنف والقتل والدمار التي عاشتها بلغاست والمدين الإيرلندية الأخرى منذ اندلاع الحرب الأهلية في سنة ١٩٦٩ ظهور نوعين من الأمراض النفسية بين سكان هذه المدن وخاصة الصغار منهم .**

**أولا :** كانت هناك الهزات النفسية الشديدة التي كان يبثلى بها الافراد الذين كانوا يتعرضون بصورة مباشرة الى المظاهرات والإشتباكات الدموية في الشوارع . وغالبا ما كان يمكن معالجة الآثار المترتبة على هذه التجارب ، وذلك بالمهدئات الطبية او دخول المريض الى مراكز العلاج النفسي والعصبي لفترات قصيرة .

**ثانيا :** زادت نسبة الابتلاء بالأمراض النفسية ذات الطبيعة التعجيزية للمصابين بها ، والتي تتطلب علاجاً أكثر تعقيدا ، كاحالة المرضى الى المالجين النفسانيين ، او إلزامهم بدخول مستشفيات الأمراض العقلية لفترات طويلة . ومن الملفت للنظر ان هذا النوع الثاني من الأمراض النفسية ظهر على نطاق اوسع في المناطق المجاورة لمناطق الصراع الدموي الفعلي . ان هذه الظاهرة تتفق مع الاستنتاجات العامة المستخلصة من أيام الحرب العالمية الثانية ، والتي أثبتت انه في زمن الاضطرابات والحروب تزداد ظواهر الانهيال العصبي والأمراض العقلية في المناطق التي « يتوقع » فيها الناس اشتعال الاضطرابات اكثر من تلك الاماكن التي تصبح مسرحا فعليا للصراع، وهذا ما صار الاطباء النفسيون يطلقون عليه اسم « عقدة الغزو » The Invasion Complex (٨)

Belfast Telegraph, Sept. 7, 1971.

(٦)

Sinclair, F., Belfast Telegraph, Sept. 16, 1971.

(٧)

Fraser, M., Children in Conflict, pp. 81-82, Penguin Books, 1974.

(٨)

لقد خرج الاستاذ فريزر من دراساته التي أجراها على آثار النزاع الدموي الإيرلندي على الأوضاع النفسية للأطفال ، خرج بنتيجة كبيرة وهي انه ليس هناك اى طفل ممن يعيشون في ظروف الاضطرابات وقد نجا من الوقوع في نوع من أنواع القلق المبهض واضطراب النوم ، والخوف من الاضطراب للانفصال عن أبويه وعائلته ، او من رفض المدرسة لقبوله فيها ، او من فقدان الشهية والاضطرابات المعوية والتفوطية والبولية ومن أنواع الصداق .

لقد تجمعت لدى الدكتور فريزر اعداد كبيرة من عينات ضحايا الامراض النفسية الناجمة عن احوال القتال اليومي في شوارع بلفاست وغيرها من مساح القتال في المسن الايرلندية ، وكلها حالات مأسوية بالقياس الى صفر اعمار الضحايا وما سيترب عليها بالنسبة لقابل حياتهم . **والحالتان التاليتان يمكن ان تكونا مثيلين مثبتيين عن آثار هذا الخراب النفسي البكر .**

● **مارجريت ، طفلة في الثالثة عشرة** راجعت الاطباء بسبب نوبات اغصاء متكررة واعراض قلق شديد جراء ماشهده من مناظر الاقتتال الدموي في شوارع بلفاست . اضطرت عائلتها الى تغيير سكنها بعد اندلاع الاضطرابات عام ١٩٦٩ وعندما احترقت جميع المنازل حول بيتها . وعلى الرغم من أن منزل العائلة لم يدمر تدميراً كاملاً الا ان العائلة تعرضت للاستفزاز والابتزاز وتعرضت لممتلكاتها للنهب . وبعد فترة من الاستقرار في سكن مؤقت اشترت العائلة منزلاً جديداً في مكان آمن سرعان ما أصبح هو الآخر واحداً من اسوأ نقاط الاضطرابات . انفجرت المظاهرات والاشتباكات بعد خمسة أسابيع من نزول العائلة في منزلها الجديد . ولعدة ليالٍ أصبحت شوارع الحي الجديد ميدان معركة حربية حقيقية بين الفرقاء المتقاتلين من جهة ، وبينهم وبين رجال الجيش والأمن من جهة أخرى، وكثيراً ما وقع الصدام في حديقة المنزل الجديد الذي نزلته عائلة مارجريت .

عندما وقع هذا للمرة الأولى ، راحت مارجريت تصرخ وتزعق وخرت مغشياً عليها وكان لا بد من نقلها الى المستشفى حيث جاءت نتائج كل الفحوص البدنية سلبية . اخرجت مارجريت من المستشفى ولكنها - وعلى الرغم من تمتع منطقتها السكنية ، بعد ذلك بهدوء نسبي - ظلت تتعرض لنوبات الغصاء سواء في المدرسة أم في البيت ، واضطرب أكلها وبدأ وزنها في الهبوط .

كانت مارجريت ثانی طفل في عائلة مكونة من سبعة أطفال . كان أبوها عاطلاً مزمناً ، وكان هو وأماها يعانيان من توتر عصبي مزمن وسرعة انفجار عاطفي منذ ان بدأت الاضطرابات في بلفاست . لم يكن في تاريخ طفولة مارجريت ما يثير الانتباه . كانت دائماً خجولة مترددة ولكن مشاكلها مع أترابها بدأت بالازدياد منذ انفجار الاضطرابات السياسية في أغسطس ١٩٦٩ . منذ ذلك الوقت بدأت مارجريت تعاني من فقدان القدرة على النوم توهماً ان دارها ستحرق وانها ستحترق معها . كذلك صار الخوف الشديد يمتزجها من ظواهر أخرى ، مثل الضوضاء والضجيج والصراخ الجماهيري في الشوارع ، الأمر الذي تحول الى خوف من الدهاب الى المدرسة ، فاخذت تقصر في أداء واجباتها المدرسية ، وهذا أدى بدوره الى انحطاط مستواها الدراسي .

ظلت ظاهرة الاغماء تتكرر عند مارجريت لأشهر عدة وبخاصة كلما شاهدت تجمعات من الناس حتى حين لم يكونوا في حالة تظاهر ، وكذلك عند سماع الاشارات العابرة الى حوادث الاشتباكات الدموية او اخبار الصراع السياسي من أيوبها او من جيرانها . ولقد حاول الاطباء الذين تولوا علاجها في مستشفى الأمراض العقلية ان يوضحوا لها العلاقة بين ظاهرة الاغماء المتكررة عندها وبين التجارب القاسية التي مرت بها ، وأن الثانية هي سبب الاولى وان ليس هناك أى سبب تشرىحي أو عضوي أو فسيولوجي للاغماء . وقد احرزت بعض التحسن بعد لاي ، الا ان مستواها العلمى استمر في الهبوط ، الامر الذى اوجب نقلها الى صفوف ضعاف المتعلمين .

●●● **مارى** ، كانت في العاشرة من عمرها حين جاء بها الى العيادة لأول مرة بسبب تعرضها لنوبة صرع ناجمة عن حالة من القلق الشديد . وكانت ماري اصغر اربعة اطفال في عائلتها ، وكانت العائلة تعيش في واحدة من اسوأ مناطق بلقاست اضطرابا وأكثرها اقتتالا .

اختفى أبو ماري دون أن يعثر له على اثر لمدة ثمانية أشهر قبل جلبها الى المستشفى ، والمعتقد انه كانت هناك اسباب سياسية وراشيدية . وقد تعرضت والدتها لحالات من الكتابة الشديدة بسبب الحوادث الدموية الأخيرة في بلقاست . كانت ماري قد تعرضت لحالات صرع ثانوية قبل ١٩٦٩ ، غير انها كانت نوبات عابرة وقليلة صارت تتكرر بعدد اكبر وبتدرجات اعلى من الحدة بعد انفجار الصراع السياسي . وقد قصت ماري بدايات انهيارها النفسى على طبيبها على الوجه التالى :

« في أحد أيام أغسطس ١٩٦٩ جاءت مجموعة من رجال الشرطة الخاصة الى الشارع الذى نطقن فيه وبدأوا يطلقون الرصاص على المتظاهرين اثر احراق معمل صغير يقع في الشارع الذى كنا نقيم فيه . وطلبت مني امي الصعود الى الطابق الاعلى من الدار ووضعني في احدى حجر النوم وتركني وحدي ولكنها نسيت ان تسحب مستأثر الحجر التى وضعتني فيها . وجلست عند حافة الشباك انظر الى مايجرى في الشارع كما لو كنت في حالة شلل كلي . لم اكن خائفة في تلك اللحظات وانما المنظر كان يبدو كما لو كان فيلما سينمائيا . بعد يومين من ذلك الحادث كنت ورفيقاتي في طريقنا الى المدرسة ، وكنا نركض لاننا كنا متأخرات وفجأة عاودتنى صورة الناس يتراكضون في الشارع ومن ورائهم رجال الشرطة الخاصة بينادقهم ورشاشاتهم . بفتة أحسست ان ساقى يعتريها ضعف شديد ثم سقطت الى الارض ولم افق الا في المستشفى حيث اخبرنى الشرطي اني تعرضت لحالة اغماء .

ذات مرة قالت لي امي اوقدى طباخ الغاز . وفجأة تذكرت قتابل الغاز التى كان رجال الشرطة يطلقونها على المتظاهرين فبدأت أشهق شهيقا سريعا ، واخذت بدأى ترمعثان ثم تهاويت الى الارض ولم افق الا في المستشفى . في اليوم التالى . في المدرسة . كنا في درس اللغة وكان الموضوع الاصوات التى تخرجها الاشياء المختلفة ، سألنا المعلمة ماهي الآلة التى تخرج الصوت . . تنكاليك . . تذكرت من دون أى شيء آخر صوت سيارة الاطفاء واحسست بيدى ترتجفان ، ولم افق الا وانا ساقطة على الارض في حالة اغماء اخرى . . . »

استمرت ماري معوقة بهذه النوبات التي كان يسبقها ارتفاع مفاجيء في حدة التنفس . وكانت اشياء كثيرة تسبب تعرضها للاغماء ، مثل انين جرس المدرسة او رؤية الشرارات الكهربائية حتى رؤية الاطفال يركضون وهم يخرجون من المدارس .

اعيد ادخالها الى مستشفى الامراض النفسية ثم احيلت الى عيادة نفسية للأطفال وهناك وجد من الضروري حجب الاخبار التلفزيونية عنها ، وحيل بينها وبين سماع الاحاديث عن القتال او المظاهرات نظرا لاتضاح العلاقة بين القلق وسرعة التنفس الذي اصبح النمط الذي يقود الى ظاهرة الاغماء لديها . لقد اوشكت ذات مرة ان تتعرض للاغماء بسبب رؤيتها لعبة عند احد اصدقائها على شكل دبابة نفائسة للهب فما كان من المسؤولين عن علاجها الا ان ابعدها اللعبة عنها لاتقاذها . (٩)



على ان ضحايا الطفولة والشباب لا يقتصرهم رصاص الحروب العنقودية المشتجرة وحدها . فقد يكون في الحرب الصامتة الملته عليهم من الآباء والامهات احيانا ما هو اشد تكللا بهم واكثر تخريبا لوضعهم النفسية والعقلية ، وذلك بسبب ما يسقطه هؤلاء الآباء والامهات احيانا من آثامهم الماضية على اولادهم وبناتهم ، وبما يقتضونه من اولادهم وبناتهم من تويضات نفسية عن فشل قديم عاونه ، او مرارة نفسية قاسوها في طفولتهم وظل جرحها يكبر معهم حتى اذا كبر اولادهم وبناتهم ورشدوا ظنهم المثابة التي توفى لهم فيها ديونهم القديمة على آباءهم وامهاتهم . ولنجتزئ هنا بمثلين اثنين .

● **المستر ميلر** مواطن من مدينة نيويورك وهو يعيل من الاطفال سبعة يضاف اليهم زوجه وامه وهكذا يستوى عدد افراد الاسرة عشرة . والمستر ميلر ليس من ذوى الدخول الواسعة ، وكبرى بناته هي دوروي في المرحلة النهائية من الدراسة الثانوية . ودوروي ترغب ان تظهر من المظاهر باجملها ، وهي كاية شابة في عمر هاستهويها مفاتيح الشباب من عطر وحلي وملابس وحفلات وغير ذلك . وهي تدرك ان موارد العائلة المالية لا تكفي لنوالها ما تريد . وهي ذات الوقت حريصة على كرامتها واسم عائلتها . والمدارس في الولايات المتحدة تدرك حاجات الشباب ، وتعيان كثيرا من الاسر قد تعجز عن الوفاء لابنائها وبناتها بما يريدون . ولذلك فهي - اى المدارس - تضم الى اجهزتها الادارية اجهزة متخصصة بتشغيل الطلاب في العطل الصيفية الطويلة في المصانع او منتجعات الاصطياف والاستجمام وتضرب بذلك عصافيرين بحجر واحد ، فهي اذ تريح الاسرة المعسرة او المضيق عليها في الرزق من قدر من تكاليف المدرسة فانها في الوقت ذاته تنيل الاولاد والبنات فرصة الخبرة العملية ، وتعلم الاعتماد على النفس ، واحترام الكد من اجل العيش بكرامة ، ثم تعيد الاولاد والبنات في آخر الصيف الى منازلهم بجيوب مملوءة بمقادير محترمة

من المال تضمن لهم ما يشتهون من متع الشباب . وكانت مدرسة دوروثي تقدم هذه الخدمات لطلابها شأنها شأن المدارس الاخرى . وتقدمت دوروثي الى مكتب تشغيل الطلاب لتلتصم عملا خلال الصيف ، ووفرت لها المدرسة عملا مربحاً في احد المصانيف الجميلة . فلما اشعرت دوروثي اهلها بالترتيب الصيفي انفجر الاب مغضباً من اقدام ابنته على ذلك ثم راجع المدرسة ناقماً ومعتزلاً ومحتجاً . ويعجب اولو الامر في المدرسة من نعمة الرجل واعتراضه على حين كانوا يظنون انهم قد احسنوا اليه والى ابنته ، فيناقشونه في الامر ، ويتذرع الرجل في البداية بأن الامر يتنافى وحبه لابنته ، فهو لا يريد لها ان تتحمل متاعب العمل في هذه السن المبكرة . فاذا نوقش في ان البنت هي الراغبة في العمل وهي الساعية اليه قال ان كرامته تأثي عليه ان يرسل ابنته للعمل في الفنادق . فاذا انبىء بان اسرا اكبر من اسرته دخلوا فيه في المجتمع ذكراً ترسل بناتها للعمل دون ان تجد في الامر حرجاً قال انه يخشى على ابنته من ذئاب الرجال في تلك الاماكن ، الامر الذي يشير دهشة المسؤولين لان ابا من البنات اللواتي سبق لهن العمل في الماضي لم تتعرض لمكروه فما الذي خوف المستر ميلر من مثل هذه المحاذير ؟ هنا جاب ميلر انه متأكد من ذلك .

— وكيف تأكدت من ذلك ؟

— ان هذا شأني الخاص ...

— ولكنه شأن المدرسة ايضاً ؟ فالمدرسة ليست أقل حرصاً على شرف بناتها من اولياء امورهن ؟

— اني اعلم مالا تعلمون .

— واني لك هذا العلم الذي لانعلم يا مستر ميلر ؟

— ان القضية بسيطة ... يأتي الرجل المصطاف المور الى هذه الاماكن هرباً من زوجته او من عمله .. فتنصل به الفتاة عن طريق خدمته على المائدة ، فتستهويه فيشتهيها فيترك لها في اليوم نصف دولار على المائدة ، ثم يصير نصف الدولار دولاراً في اليوم الثاني .. ثم يتجاوز الامر الدولار الى دعوة لرقصة على ساحل البحيرة تحت ضوء القمر .. ثم الى هدية صغيرة ثم هدية اكبر .. وهكذا تبدأ الفتاة تنجر الى الشرك المنصوب لها حتى تكتشف في نهاية الطريق انها دفعت الكثير لقاء ثمن بخس .

كان المستر ميلر يقول هذا بكل اخلاص للمسؤول عن تشغيل الطلبة ، ويتذرع به الحيلولة دون ارسال ابنته للعمل والمسؤول فاجر فاه عجبا ودهشة مما يقول هذا الاب الغيور . فلما اتم المستر ميلر حديثه قال له المسؤول :-

— انك ياسيدي تثير عجبنا الى حد الخوف .. فهل لك ان تعطينا واقعة واحدة مصداقاً لما تقول وعلى ما تليقه من التهم ؟

فما كان من المستر الا ان يبلغ به الغضب مدهاء فينفجر صارخاً في وجه المسؤول ...



— أية بيئة تريد ... ؟ كل الرجال يفعلون هذا ... لقد كنت انا نفسي افعله ردحا طويلا من الزمن .

بعد ذلك تهاوى ميلر على مقعده كمن القى من كاهله ثقلا كبيرا واستراح . ورفع الحجاب امام مسؤولى المدرسة . اذن كان المستر ميلر يصارع كئامه هو واخطائه هو وضحاياه هو من خلال اعتراض على عمل ابنته . كانت الامام والاختاء والضحايا تثر في صدره ان الرجال كلهم على شاكلته ، وان ابنته لن تكون شيئا مختلفا من اللواتي سقطن في شباك ابيهما . واذن لم يكن هناك حب ابوى ولا كرامة شخصية يابيان على الرجل ارسال ابنته للعمل وانما كان هناك الخوف ... الخوف من ان تدفع ابنته ثمن حرمان بنات الاخرين التي استباحها في شبابه ... لان الآباء الذين ياكلون اغنابا لم تضج تضرس اسنان ابنائهم ، كما يقول الانجيل .

●● الآن تودود شاب في التاسعة عشرة من عمره ، وهو مخفق في عمله الجامعي نتيجة احساس عميق بالعجز في المساهمة في رسم مستقبله وتخطيط حياته القابلة وهو يعاني من القلق وضالة الشعور بالرضا عن نفسه وعن الحياة . لقد كان طفلا وحيدا لايويه اللذين كانا يتمتعان بمركز اجتماعى محترم وقد حرصا منذ البداية على حمايته من حقائق الحياة المؤذية . وكان كلما سال ابويه بعض الاسئلة اجيب من قبلهما « انتظر حتى تكبر » . وكلما حاول ان يقوم ببعض الاعمال على مسؤوليته الخاصة ساله ابواه « او تفنك قادرا على القيام بذلك ؟ » . وكلما حاول ان يناقش مستقبله المهني معهما قالا له « ان امامك الكثير من الوقت لتفكر في ذلك ، اما في الوقت الحاضر فان واجبك الوحيد هو الالتحاق بالجامعة » . وكانت الهواية الوحيدة التي سمح له بممارستها هي لعبة « الجولف » وكانت تلك هي الهواية الوحيدة لاييه ايضا . وعندما الحق بالجامعة سال ابويه « ما الفرض من ذهابي الى الجامعة ؟ » وكان الجواب « اننا سنقرر ذلك فيما بعد بطبيعة الحال » . كان الابوان يفكران في مستقبله المهني الا انهما جعلتا ذلك سرا مكتوما ليتأكدا من طاعته المطلقة لتوجيهاتهما . اخيرا بدا الشاب يحس بالرهق من هذه الحياة التائهة التي كان يحيها . ثم جاء اليوم الذي كان لا بد ان يجيء في هذه الحالة وكل حالة اخرى مشابهة لها عند الاطفال المبكوتين وصرح الشاب قائلا « اننى اشعر باننى مثبط . اننى لا ادرى الى اين اسير ولا الى اين اذهب . اننى لا احس باننى اساهم في تقرير مصيرى . عندما اسال سؤالا فانى لا احصل على جواب . حتى حينما ادخل على ابوينى وهما منشغلان بحدث من الاحاديث فانهما يسكتان فجأة . اننى لم اشعر بأية لذة من حيايتى في السنتين او السنوات الثلاث الاخيرة . انى شديد القلق . انى اعتقد ان الامور تعاكسنى بشكل سيء تماما (١٠) » .



## اللوحة الرابع

### الرفض

**الاستاذ -** اريد أن اعرف الفلسفة وراماطلة الشعر وارساله بهذه الصورة المبعثرة .

**الطالب -** هل يزعجك ذلك ؟

**الاستاذ -** كلا ... ولكنى من جيل متقدم على جيلك ولم يكن من الدوق العام في زماننا ارسال شعور الرجال بالشكل الذى تفعلون انتم الآن .

**الطالب -** اعتقد انها قضية ذوق شخصي .

**الاستاذ -** ولكنها ظاهرة عامة والظواهر العامة لا يمكن أن تترجم عن اذواق شخصية . ولو كانت قضية ذوق شخصي لاختلف الشباب فيها . واذا كانت ظاهرة اجتماعية عامة ثابتة - وهى كذلك فعلا - فلا بد لها من فلسفة . ان الظواهر الجماعية في السلوك الانسانى هى قوانين غير مدونة ولكنها فاعلة في السلوك .

**الطالب -** لم اخبرك الحقيقة ... ولكن ماهو غرضك على وجه التحقيق ؟

**الاستاذ -** حب الاستطلاع ومحاولة فهم الدوافع الانسانية .. انا معنى بمشاكل الانسان ... وابا ادرك ان الظواهر السلوكية لا بد أن تكون رموزا لأشياء أعمق جذورا في النفس البشرية ...

**الطالب -** صدقت ... ان الشعر الطويل المرسل المشوش والقدر أحيانا هو رمز لشيء أعمق منه بكثير .

**الاستاذ -** هو رمز على ماذا ؟

**الطالب -** الرفض .

**الاستاذ -** ولكن رفض ماذا ؟

**الطالب -** قيم المجتمع ؟

**الاستاذ -** أى من قيم المجتمع ؟

**الطالب -** قيمه الاستهلاكية . قيمه الاستحواذية . ان روح الاقتناء والاستزادة والانفراد بالأشياء والتكثر منها والتنافس عليها بدأت تدمر الأسس الانسانية للمجتمع . الناس يتنافسون على اقتناء البيوت الفخمة والاناث الفخم وامتلاك أكثر من سيارة واحدة وأكثر من جهاز تلفزيون . حتى الكلاب والقطط أصبحت مما يتنافس فيها الناس . بهذا صرف النظر عن الانسان نفسه الذى يفترض أن يكون الفأية العليا من الحياة كلها ، من الوجود . لقد وضع الانسان في خدمة الأشياء بدلا من أن تكون الأشياء في خدمته . اليس ذلك شيئا مأسويا ؟

**الاستاذ -** نعم .. هو مأسوى بالفعل .. ولكن ما علاقة ذلك كله بالشعر الطويل المنثور .  
الانسان صاحب العقيدة يكافح من أجل افكاره بشعر ومن دون شعر . . وهل يعنى كون  
بعض الرؤوس صلعاء ان اصحابها ليسوا من اصحاب الافكار الانسانية العالية ؟

**الطالب -** انت الآن تمزح ...

**الاستاذ -** بل انا جاد .

**الطالب -** حسنا اذن . لنبدأ من هذه النقطة . لوعدنا الى الورا قرنين او ثلاثة قرون  
سنجد ان الشعر الطويل للرجال كان ظاهرة عامة . حتى الانبياء .. عيسى وموسى عليهما  
السلام مثلا ... تجدهما مصورين او منحوتين بجذائل طويلة مرسلة على اكتافهما وذوائب اطول  
مدلاة على جباههما . طف كنائس الدنيا كلها فلن تجد المسيح مصورا في تمثال واحد من دون  
جذائله وذوائبه . هذا هو الاصل الثقافي للشعر الطويل المرسل عند الرجل . رجال الصحراء  
العرب الى اليوم يتزينون بشعور طويلة تحتكوفياتهم المهففة في الهواء . ان لهذا التعلق  
بالشعر الطويل سببا بطبيعة الحال . ان الشعر اكثر من اى شيء آخر يعطى الرجل شخصيته  
المتفردة المتميزة وعندما تجزؤ فروة راسه بتغير شكله كليا وربما اضطربت اوضاعه النفسية .

**الاستاذ -** ولكن هل تحمل هذه القضية كل هذه المضامين ؟ الا ترى انك تحمل الاشياء  
فوق طاقتها ؟

**الطالب -** عموما ... ليست هذه « هي » القضية ...

**الاستاذ -** ما « هي » القضية اذن ؟

**الطالب -** الانسان « هو » القضية .. ان حضارتكم الراهنة تمجد الابداع الانساني ولكنها  
تدمر الكائن المبدع نفسه . هذا من صنع البورجوازيين .

• • •

### اللوح الخامس

#### القنوط

**الاستاذ -** ولكن من اين جئت بفكرة « المبدع » ؟

**الطالب -** ان الاعتداء على الانسان يسدامبكرا . منذ الطفولة المبكرة . انهم يحاولون صكب  
في قلوبهم المورثة ، يجب ان تكون صورة اخرى مكررة عن ملايين صور الرجال الجوف . الم  
تسمع بكتاب « اندريه جيد » ، اينها المائلات . انى اكرهك ؟

**الاستاذ -** بلى سمعت به .

الانفصال عن العالم والرجيل الى الاعماق

**الطالب -** لقد كان جثرا ضد معاملة الاطفال على انهم راشدون صغار . لقد كرر سارتر الشكوى ذاتها والاحتجاج ذاته في كتابه « الكلمات » (١٩٦٣) وقد حاول سارتر في هذا الكتاب التنبيه الى ان خير طريقة لتفادي جعل الناس نوريين هي توفير تربية ديموقراطية اصيلة لهم .

**الاستاذ -** ولكن البورجوازيين الذين هاجمتهم قبل قليل لم يبنوا مجدهم ونفوذهم على هذه التربية الديموقراطية الاصيله ؟

**الطالب -** ان البورجوازي يفسر وجوده على هذه الارض بانه نوع من انواع الحق الالهي . اما البروليتاري فلا يملك مثل هذا اليقين ، لانه لا يتمتع بنفس الضمانات التي يتمتع بها الطرف الآخر .

**الاستاذ -** ما الذي يمنعه من ذلك ؟

**الطالب -** لان الصناعة كما يقول « اندريه مالرو » دمرت صورة الله في الضمير الانساني وبهذا محت من امام الانسان كل ما يعترض طريقه، وعندما وصل نهاية اتعابه لم يجد الا الموت كما وجده وانسى امام جسد حبيته . (١١)

**الاستاذ -** ولكن الا ترى أنك تتخذ موقفا مغرقا في التشاؤم من العالم ؟

**الطالب -** ابدا .. انه عالم عبثي قائم على الخديعة .

**الاستاذ -** الخديعة ؟

**الطالب -** نعم الخديعة .. انها في المركز من المأساة الانسانية المعاصرة .. او لم تسمع بمحنة « هنري مارتان » التي هي رمز لازمات كسل الشباب المخدوع في هذا العالم ؟

**الاستاذ -** بلى سمعت به اليس هو صاحب « سارتر » الذي ...

**الطالب -** بلى انه هو . لقد انضم مارتان الى المقاومة الشعبية الفرنسية سنة ١٩٤٥ وهو في السابعة عشرة من عمره ، وابلى بلاءا حسنا ، ثم نقل الى البحرية الفرنسية بعد الحرب ، وأرسل الى الهند الصينية حيث اوحى اليه انه ارسل للمشاركة في تحرير شعوب المنطقة من الاحتلال الياباني . غير انه سرعان ما اكتشف انه كان متوقفا منه ان يسهم في ابقاء تلك الشعوب تحت السيطرة الفرنسية الاستعمارية ، فاحس بالخيانة وحاول ثلاث مرات شراء حريته من الجندية واخفق فيها كلها فما كان منه عام ١٩٤٩ الا ان قام بتوزيع منشورات مناهضة للحرب في قاعدة طولون العسكرية انتهت به الى السجن خمس سنوات .

**الاستاذ -** هل كان في مقدوره ان يغير العالم وحده ؟

**الطالب -** كلا .. وتلك كانت خطيئته المهلكة .. انه اراد ان يعلن حربا على النظام العالمي الفاسد ، وان يقودها ويخوضها وحده ، على حين ان المخدوعين في العالم كثير كثير ، افرادا كانوا ام جماعات .

( ١١ ) دانسي مصطلح ديني فرنسي عاش بين ١٦٦٦ - ١٧٠٠ - وانتهى عاشقا مات بين يدي عشيقته . لقد طرح مارلو افكاره هذه في روايته « الفاتحون ١٩٢٨ » و « الامل ١٩٣٧ » .

**الاستاذ - وكيف تخدم الجماعات ؟**

**الطالب -** ان خدمة الجماعات لا تختلف من خدمة الافراد الا بالدرجة فقط . الم تقرا ما كتبه « توينبي » عن خدمة الرجل الاسود في الولايات المتحدة .

**الاستاذ - وماذا قال توينبي ؟**

**الطالب -** قال توينبي ان «الزنجي الامريكي» وعد أولا بأن تحريره من الرق ، ومن ثم توحده مع الرجل الابيض سيضعان حدا لضمة مركزه الاجتماعي ومستواه المعاشي . ولكن في كل مرة كانت آمال الزوج تخب . وكان من نتيجة ذلك وتبعها له ان اصبح الزنجي حائرا ضائعا شاكسا تاكل المرارة قلبه ، وقد دفع ذلك فيما دفع اليه الى ان تتجه قطاعات من المجتمع الزنجي الامريكي الى الايمان بحياة جديدة قائمة على الانفصال الكلى عن الرجل الابيض ، انفصال قائم هذه المرة على اختيار السود ومن صنهم يجري تحقيقه بوسائل العنف (١٢) .

**الاستاذ -** اذا كان العالم يبدو لكم مزاجا عجيبا من العبيثة والخديعة والافتراء ، فانتهم لا تبقون على باب من ابواب الرجاء مفتوحا امام مسؤوليات المستقبل .

**الطالب -** نعم هو ذلك . القنوط من الامل هو العقلائية الوحيدة التي تجعل العالم محتتملا ، وهي التي تحيل هذه التجربة المبهضة - الحياة - الى حالة من حالات الوعي . لقد تنبأ صامويل بيكيت Samuel Beckett (١٣) لذلك منذ ١٩٣٨ في شخصية مورفي .

**الاستاذ - وما هي رؤيا بيكيت عن العالم من خلال مورفي ؟**

**الطالب -** محض عبث لا مبرر له ولا طائل تحته . فانت تعرف ان مورفي مواطن من مواطني دبلن يعيش في لندن على الصدقات ، وهو وحداني ذاتي سيء العشرة يؤمن بان عقله عبارة عن « مجال ضحل كبير مفلق انفلاقا تاما بالنسبة للعالم الخارجي . وهو يريد ان يوصد بوابات عقله من دون العالم الذي تبهضه عبيثته وبطلانته وفوضاه ، وهي امور لا تترك له فرصة للتوافق مع هذا العالم ، ولذا فهو يرى ان المعتكف الوحيد في العالم هو « عقله » الذي هو المكان الاوحد حيث يستطيع ان يجد السلام الداخلي فيه ، وحيث لا يكون الا « هبوة » في ظلام الحرية المطلقة . الطريق التي يسلكها مورفي الى الرحيل الى اعماقه الداخلية هي ان يربط نفسه عاريا الى كرسي هزاز ثم بهتز وبهتز حتى « يحيي عقله » .

ان رحيله بعيدا عن زعزعات العالم الخارجي « عالم الامتداد » وتقدمه الى « كهف النفس » ذلك الكهف الباطني المظلم يتعقد بحبه لعاهرة اسمها سبليا وهي « مخلوق شهواني » تبحث

(١٢) Toynbee, A., *Experiences*, p. 248, Oxford University Press, 1969, London.

(١٣) صامويل بيكيت كاتب مسرحي ايرلندي ولد عام ١٩٠٦ واختار باريس منذ صدر شبابه مستقرا له حيث نشر اكثر مسرحياته باللغة الفرنسية وبنى معجده الادبي هناك وهو بعد الان بالإضافة الى برخت ويونسكو القاب الحرية المسرحية العالمية في الاربعين سنة الاخيرة . ومن اهم اعماله « مورفي » ١٩٣٨ و « في انتظار جودو » ١٩٥٢ و « نهاية اللعبة » ١٩٥٧ و « كيف الحال » ١٩٦١ .

من مركز اجتماعي محترم بافترائها بمورفي وحملها اليه على البحث عن عمل . غير ان العمل الذي يحصل عليه مورفي يكون في مصحة للأمراض العقلية . في هذا المكان يجد مورفي « ملاذه من الدنيا » ويحس بنوع غريب من السعادة بسين المتأئين عقليا ، لانهم ولجوا المنطقة التي يحاول هو الوصول اليها عن طريق كرسيه الهزاز . على أن سعادة مورفي لا تدوم طويلا لانه يحترق ذات يوم هو وكرسيه الهزاز .

يترك مورفي وراءه وصيته يوصي فيها ان تحرق رفاته وان توضع بقاياها في كيس من الورق وان تحمل الى مسرح « آبي » السلى » انتقضت فيه أسعد ساعات هذه البقايا ، وان تنثر في مجارى مياه ذلك المسرح دون احتفال او اظهار للحنن . ولكن حتى هذه الأمنية الأخيرة كانت غير ممكنة التحقيق ، ذلك ان الصديق الذي حمل رماد رفات مورفي - وقبل ان ينفذ الوصية - يدخل في شجار مع عامل البار في المسرح فيقذفه بكيس الرماد في لحظة غضب وينتثر الرماد على الجدران وأرضية البار ويصبح في التو موضع الدهس والنخس بنعال السكران ، وهكذا ينفذ جسم مورفي وعقله ونفسه مبعثرة على أرض البار . وقبل ان يبرز فجر اليوم التالي تكون الأرض قد كنست من « الرمل والبيرة واعقاب السكران والزجاج والكبريت والبصاق والقيء » المختلطة ببقايا رفات مورفي .

**الاستاذ -** لا أمل اذن امام الانسان في شيء من الخير او الرجاء فيه ؟

**الطالب -** لا بل هنالك أمل .. هو اقرب الى البطلان منه الى الحقيقة .. هو الأمل في الأمل ..

**الاستاذ -** لا أفهم ؟

**الطالب -** انه وجود المرتقب الذي يربنا ببيكيت كيف ان كل الناس تتوقعه ، ولكنه لا يجيء .. ومع هذا فهم يحلمون بمجيئه وهم لا يريدون ان يخسروا هذا الحلم لانه هو الشيء الوحيد المتبقى لهم . (١٤)



( ١٤ ) في مفتاح مسرحية « في انتظار جودو » نسمع هذا الحوار بين صطوكين ينتظران جودو على قارعة طريق وقد عصبهما الجوع :

استراجون - هل أنت متأكد ان هذا هو المكان الذي علينا ان ننتظره فيه ؟  
فيلاديمس - لقد قال بجوار الشجرة . ماذا تريد ان تقول ؟ اننا في المكان الخطأ ؟

استراجون - كان يجب ان يكون هنا .

فيلاديمس - انه لم يؤكد انه سيأتي

استراجون - واذ لم يأت ؟

فيلاديمس - سوف تأتي غدا

استراجون - ثم بعد غد

فيلاديمس - بعد غدا

استراجون - المسألة هي ....

فيلاديمس - الى ان يأتي .....

## اللوحة السادسة

### الضياع

**الاستاذ -** ألا ترى ان بيكيت وامثاله ليسوا ممثلين للعالم ، وان الوضع الانساني ليس بالسوء الذي يصورونه به ؟

**الطالب -** ولكن الكتاب من طبخته هم ضمير العالم .

**الاستاذ -** ليست هناك معايير هادية في هذه الدنيا غير رؤى هؤلاء الكتاب ، وغير الصراع السياسي والكفاح الدموي ؟

**الطالب -** مثل ماذا ؟

**الاستاذ -** خذ القيم مثلا .. ألم تكن حتى الآن دليلا هاديا للبشرية ؟ ألم تكن مصدرا من مصادر الاستقرار النفسي للانسان العادي ؟

**الطالب -** الانسان العادي الذي لا يفكر بطبيعة الحال ... ذلك هو الذي تريد .. اليس كذلك ؟

**الاستاذ -** ابدا .. الانسان المفكر هو الذي يعرف القيم ويميزها ويسترشدها بها .

**الطالب -** قد يكون الامر كذلك ولكن المشكلة هي انه ليست هناك قيم متفق عليها أصلا ، ولذا فأننا لسنا في وضع أفضل من وضع مورفي في انفصاله عن العالم .

**الاستاذ -** وكيف ذاك ؟

**الطالب -** القيمة شيء نسبي ، والنسبي قابل للتعليل والتأويل .. وما كان كذلك لا يمكن الاعتماد به .

**الاستاذ -** ومن أين جاءت نسبة القيم ؟

**الطالب -** جاءت من غياب الإجماع عليها . فهناك من يرى ان القيمة شيء ذاتي ، وانها لا توجد الا كمواظف أو احساسيس بالرغبة أو النفور ، بالحب أو الكره ، بالاحترام أو الازدراء نحو شيء معين أو نحو شخص معين . فالاكل والشرب والاستمتاع بالموسيقى أو تأمل غروب الشمس كلها قيم لأنها تثير فينا احساسا للذيل ، وتقديرا ، وتوهجا في المشاعر . انها تعطينا اجارب شخصية في طبيعة الاحساسات التي نلدها . وهذا لا تكون القيمة الا اهتماما أو متعة يعطي الاشياء معنى في نظرنا عندما نرغب فيها أو نحس بالحاجة اليها . حتى عندما تكون القيمة في الشيء فعلا فان الشيء نفسه لا يكتسب من الأهمية الا بمقدار رغبة الانسان فيه أو حاجته اليه ، وكما يقول بيرى R. B. Perry فان « أى شيء مهما كان - يكتسب قيمة » عندما يحظى

باهتمام الانسان به ايا كانت درجة الاهتمام ، بالضبط كهدف الرامي الذي لا يصبح هدفا الا عندما يقع التصويب عليه من قبل راممين » . (١٥)

ويوضح باركر هذه الحقيقة بشكل ادق في قوله « ان القيم تنتسب الى العالم الداخلي ، عالم العقل . ان اشباع الرغبة هو القيمة الحقيقية ، اما ما يساعد على تحقيق الرغبة او اشباعها فهو مجرد أداة . القيمة هي دائما خيرة ، وليست شيئا . الأشياء يمكن ان تكون قيمة ولكنها لا يمكن ان تكون قيمة على الاطلاق . اننا نعكس القيمة الداخلية على العالم الخارجي ونسيفها على الأشياء التي تحقق الرغبة او تساعد على تحقيقها » . (١٦)

**الاستاذ** - اراك تغلوا غلوا شديدا في نفى واقعية القيم الانسانية ، وتنفي عنها صفة الموضوعية والحقيقة ، على حين اني اعلم ان قيم الأشياء فيها وليست في الانسان . وفي تخميني انه لو لم تكن الأشياء قيمة بل انما قيمها الانسان . الانسان يكتشف قيمة الأشياء فقط . ولا ريب ان هناك ميزة او خاصية او نظاما للخصائص والمزايا في « الشيء » تجعل الحكم عليه ضروريا ومعقولا في وقت معا لانها تثير فينا استجابة تقييمية Appreciative Response . بعبارة اخرى .. ان فيها شيئا مستقلا يلد العين او الاذن او الحاسة الخلفية او الملكة الجمالية في الانسان . وعلى هذا فان الانسان لا يهتم الا بتلك الأشياء التي تبدو له ذات قيمة أصلا .

**الطالب** - قد يكون هذا حقا ... ولكن اكتشاف قيمة الشيء لا يتحقق الا من خلال التجربة الفردية ، اي الانفعال بالأشياء ، وهذه قضية ذاتية صرف .

**الاستاذ** - هذا حق ولذا فاننا يجب ان نعي بين أمرين مهمين ، بين التجربة النفسية المصاحبة للحكم على الشيء من جهة ، وبين « الشيء Object » أو « الوضع Situation » الذي نحكم عليه .

**الطالب** - كيف تفصل الانفعال عن موضوعه ؟ ألا يبدو ذلك صعبا ان لم يكن مستحيلا ؟

**الاستاذ** - لاستحالة في الامر . خذ مثلاً أحكام الناس على الجو من حيث هو حار او بارد . اننا هنا لا نقول ان احكامهم نفسها حارة او باردة لانها احكام موضوعية من جهة ، ولان ما هو حار او بارد انما هو موجود خارج الانسان . وفي هذه الحالة نستطيع ان نختبر دقة احكامهم بمقاييس الحرارة فوسكون صوابا او خطأ - اي الاحكام - مرهونا بمدى توافقها مع ما يشير اليه ميزان الحرارة حتى في الحديث عن الجمال ... اننا لا نقول عن شيء انه جميل ما لم يكن فيه ما يبرر هذا الحكم كالوانه مثلا او تناسق ابعاده او هيئته . قيم الأشياء هي في الأشياء ذاتها غير ان

(١٥) Perry, R. B. ; General Theory of Value, pp. 115-116, Longman's Green and Company, New York, 1926.

(١٦) Parker, D.H., Human Values, pp. 20-21, Harper & Brothers, New York, 1931.



اكتشافها ليس مسيرا للجميع لأنه رهين بالخبرة والمثقة ، فالإنسان الدواقة هو الذى يميز الطيب من الخبيث وعندما يعجز الناس عن اكتشاف قيم الأشياء فانهم يبرهنون على عجزهم ليس غير .

**الطالب -** انك لم تزد الامر وضوحا .. كل ما فعلت انك خلطت « الشيء » ب « التجربة » او « الموضوع » ب « الانفعال » وجعلتهما شيئا واحدا .

**الاستاذ -** تلك هي بالضبط طبيعة الأشياء . لأن القيمة - في التحليل الاخير للأشياء - هي ذات طبيعة علائقية ، بمعنى أن كلا من العوامل الذاتية والموضوعية ضرورية لخلق القيمة ، ذلك ان عملية خلق القيمة او ايجادها او احداثها هي علاقة خاصة او معرفة بعلاقة خاصة تتكشف لاشخاص حساسين او قادرين على التفهم . ان القيمة هي حسيلة تفاعل متغيرين او اكثر في حالة معينة . وهناك خصائص او حالات بيئية تثير في الأجهزة الحسية تلك الاستجابات الفريدة التى نسميها احكاما اخلاقية . في مثل هذه الحالات لا يمكن الجواب على السؤال .. « هل الجمال موضوعي ام ذاتي بكملة نعم أولا . الجواب الصحيح هو ان الجمال صفة او خاصية في شيء معين تكون من قدرة ذلك الشيء على احداث اللذة في ذات متاملة . ان السؤال .. هل الجمال موضوعي ام ذاتي ؟ مشابه منطقا للسؤال .. هل حالة التسمم موضوعية ام ذاتية ؟ ان تجربة اللذة مثل الموت .. انها ليست طاقة ولا قدرة ... انما هي حدث بعض الأشياء قادر على التسبب به في بعض الناس على حين ان الجمال - من الناحية الأخرى - هو مثل التسمم ليس حدثا ولا خاصية وانما هو طاقة او قدرة تملكها بعض الأشياء ... لاحداث اللذة في بعض متاعليها ... » (١٧)

**الطالب -** لقد اعطيت للقضية عمقا عقلانيا جدليا وعزلتها عن ملاساتها الحياتية . ان جيلنا ينظر الى القضايا الاخلاقية على انها مشاكل عملية محمولة في الرحم الاجتماعي ولا يمكن التماسها في الجدليات الميتافيزيقية . الفقر والعوز والبطالة واستغلال الانسان للانسان والعبودية الفكرية .. هذه كلها ليست امورا جدلية محضة .. انها من افرازات التركيبة الاجتماعية التي تحتوى الانسان ولا سبيل الى تبديلها الا بتبديل التركيبة الاجتماعية ذاتها . عندما طرحنا قضية القيمة طرحناها على انها أداة استهداف في الحياة العملية ، أداة للبحث عن الخلاص الانساني .

**الاستاذ -** ومن قال ان مسألة القيمة معزولة او قابلة للعزل عن مشاكل الحياة الانسانية وعن معاناة الانسان ؟ الاخلاق عموما ليست نظاما في بناء القيم الضابطة للسلوك الانساني فرديا كان ام جماعيا . بوهكدا فان الحديث في القيم ان هو الا المدخل الطبيعي الى مناقشة النظام الاخلاقي الموجه للمعاملات الانسانية والجماعية منها على وجه التخصيص .

**الطالب -** هذا حق .. لولا انك اضفيت على المعالجة درجة عالية من الضبابية اللغوية التي اضاعت المعالم الاساسية للمعضلة الانسانية .. معضلة الاهداف وعبثية الوجود وسقوط

الانفصال من العالم والرحيل الى الامتاق

الانسان في محاولة ابتداء النظم الاجتماعية التي تعطي الوجود الانساني على الارض معنى ، وتعينه على ملء فراغ الزمن الضائع في انتظار جودوالدى يعرف الجميع انه لن يגיע .

**الاستاذ -** القضية هنا تصبح قضية اختيار ، اختيار التفسير الاتي بالنبوة والمالىء لفراغ الزمن ، وهذه مسألة اخلاقية صرف .

**الطالب -** ولكن المسألة الاخلاقية ليست اقل ضبابية ولاغيشية من مسألة القيمة ، والسقوط في غياب الاختيار الاخلاقى ليس اصعب من ضياع الطريق امام الباحثين في معنى القيمة .

**الاستاذ -** ومع هذا فلا بد من الاختيار . تريد الحق .. ان السلوكية الاخلاقية للانسان تبدأ بالاختيار اصلا . لقد كان المتدينون الاوائل والمتأفيريقيون اخلاقيين من الطبقة الاولى رغم ان اخلاقياتهم قد لا تقدم حلا لمعضلات عصرنا .

**الطالب -** هل كان في غيبياتهم حل حتى لا يمتص عصرهم وعبودياتهم هم انفسهم ؟

**الاستاذ -** ربما لم يكن .. ولكن الرؤية كانت واضحة عندهم . وهذا ما منحهم السلام العقلي على الاقل .

**الطالب -** ولكنه كان سلاما مكذوبا .. كان تسليما ولم يكن سلاما .

**الاستاذ -** كانت الطريق امامهم منورة . كانت عقيدتهم هي مجموعة الحدود التي قضت بها القوة العليا ، ارادة الله . ومع تطور المفهوم الديني اصبح وجود الانسان كله رهينا بطاعة هذه التعاليم ، كما صارت هذه الطاعة البرر الوحيد لوجود الانسان على الارض والسبيل الى مثوبته في الحياة الاخرى ، وقد اكسبه ذلك درجة عالية من النبل .

**الطالب -** الطريقة هذه لم تكن عقلانية ، ولهذا حاول الانسان عقلنتها .

**الاستاذ -** قاده هذا الى المثالية الاخلاقية . ابتدأت هذه المثالية بأفلاطون وانتهت ب « كانط Kant » الذى كان واحدا من ابرع الفلاسفة المتأفيريقيين ومبلور الاخلاقية المتأفيريقية في كتابيه ( ميتافيزيقية الاخلاق Metaphysics of Morals ) و ( نقد العقل العملى Critique of Practical Reason ) . لقد اطلق كانط على فلسفته الاخلاقية اسم « الاخلاقية الصورية Ethical Formalism » هل قرأت كانط ؟

**الطالب -** اجل قرأته واعرف قوانينه الاخلاقية العامة ، واعرف شروطه لاخلاقية الفعل الانساني وهي ثلاثة ( اولها ) مبدء الكونية بمعنى ان الفعل الاخلاقى ينبغي ان يبتنى ليس من الرغبة او الميل ولكن من مبادئ يمكن تعميمها على كل الظروف والاحوال وان تصدق في كل تلك الظروف والاحوال ايضا . و ( ثانياها ) مبدء الانسانية كفاية في ذاتها ، بمعنى ان الانسان هو غاية الحياة العليا على هذه الارض ، ولا يجوز استعماله اداة لغاية اخرى كما في الرق او البغاء او الاستغلال الاقتصادي . والمبدء الثالث هو مبدء الاستقلال ، بمعنى ان المبادئ الاخلاقية

التي يطيعها الإنسان لا ينبغي أن تفرض عليه من الخارج ، بل ينبغي أن يفرضها هو على نفسه ، أى أن يختارها بإرادته الحرة ، وهو يملك الوسيلة لذلك متمثلة في العقل والاحساس الفطري بالواجب المنبعين من الداخل ، داخل الإنسان ، واللذين هما برهان ذاته العليا .

**الاستاذ -** الست ترى في هذه المجموعة من القوانين نظاما متكاملًا للسلوك السوى وطريقا الى الرقعة الانسانية ؟

**الطالب -** بلى ، لولا أن مثالية كانط افغلت حرب المصالح الاقتصادية بين الطبقات ورمت نفسها بالعدم . حتى قبل ظهور ماركس والماركسية ظهر الاخلاقيون النفعيون مثل **جرمي بنثام** J. Bentham ( ١٧٤٨ - ١٨٣٢ ) و**جسون ستيورات ميل** J. S. Mill اللذين بنيا نظريتهما في الاخلاق على القول بأن اخلاقية الفعل الانساني مرهونة بنتيجته ، فان كانت النتيجة جيدة او ممتعة كان الفعل اخلاقيا ، والا فانه غير اخلاقي ، وان يكن ميل قد حاول التقليل من خطر هذه النزعة الفردية بربطه مبدأ « النفع » لا بالفرد وانما بالجماعة او « بحدى صلاحيته في تحقيق السعادة العظمى » ، أى سعادة المجتمع . لقد قال ميل في هذا الصدد « ... ان سعادة الغالبية من الناس هي المعيار الاخلاقي الوحيد لالتماس الخطأ والصواب في السلوك الانساني ، وما دما نعيش في مجتمع غير عادل فان البعض منا يجب ان يضحي بنفسه او مصالحه في سبيل الآخرين ، وهذا هو جوهر الاخلاق ... » .

**الاستاذ -** هل لك من مأخذ على التفسير النفسى للاخلاق ؟

**الطالب -** اكثر من مأخذ واحد . **اولا** ان ميل اعترف اننا نعيش في مجتمع غير عادل ولكنه ربط صلاح هذا المجتمع او اصلاحه بالنزعة الفمية ، التضحية بالذات في سبيل سعادة الآخرين ، وهو يعلم جيدا ان هذه دعوة غير مستجابة في المجتمع التجارى الذى كان يعيش فيه والذى كان يقوم على الربح وعلى الازدياد منه . **ثانيا** ان المجتمعات لا تصلح بالصدقات . لا بد لك من نظام ثابت في تقرير الحقوق والضعافات للإنسان ، ولا بد من وضوح العلاقة وثباتها بين الجهد والمكافأة . ان شر ما يهدد المجتمعات ان تظهر فيها طبقات طفيلية غير منتجة تعيش على جهود الناس المنتجين .

**الاستاذ -** لقد حاول **ديوى** وغيره من « الاخلاقيين التحليليين » ان يطرحوا بدلا عقلانيا من كل المذاهب المتقدمة . وكان **ديوى** John Dewey ( ١٨٥٩ - ١٩٥٢ ) في كل حياته مثالا للمفكر العلمي الذى يسترشد بالتجربة ويعتمد نتائجها معيارا لتحليل الاوضاع الانسانية والنظم الاخلاقية . وقد ربط في كتابه « **الطبيعة الانسانية والسلوك الانساني** » Human Nature and Conduct ( ١٩٢١ ) ، ربط الاخلاق الى علم النفس الاجتماعى رافضا بذلك التسليم القديم بوجود « قيم خالدة » تقرر مسبقا ما هو خطأ وما هو صواب ، ومؤمنا بان القيم الاخلاقية الحقيقية يجب ان تمر باستمرار بعمليات تحويل واعادة بناء من خلال التفكير الناقد وعلى ضوء التبدلات في الوضع الاجتماعى الانسانى وتعاطف المعرفة الانسانية . لقد رفض ديوى التسليم بصواب تلك

الاشياء التي يمكن البرهنة نظريا على انها نافعة ومرضية في جميع الاحتمالات المتوقعة ولجميع الاطراف المعنية . ورغم تقدير ديوى للتاكيد الذي وضعه النفعيون على نتائج الفعل كمييارا لاختلاقيه الا انه لم يوافقهم على ربط المعايير الاخلاقية بالذلة المستخلصة من فعل من الافعال وذلك لانه اعتبر الدوافع والشخصية والذات جزءا لا يتجزأ من السلوك ولا يمكن اهماله . وعلى هذا الاساس رفض التسليم بوجود فضائل محددة ومتفق عليها لان هذه الفضائل غالبا ما ترتبط بالمادة والعرف السائد في وضع اجتماعي معين ، وهما عرضة للتبدل بتبدل ذلك الوضع . ( ١٨ )

**الطالب** - لقد كان ديوى محلا مختبرا للمشاكل الاجتماعية فاضطر الى اغفال دور نظام توزيع القوة الاقتصادية في صياغة الاهداف الاخلاقية للمجتمع ، وكان عليه ان يولى قوانين الحركة الاجتماعية الواقعية مكانا اكبر من اطاره النظري للاخلاق .

• • •

### اللوحة السابع

#### التعليق

خارج اطار العبئية الوجودية وسقوط النظم الاجتماعية في بلوغ الوضع الانساني الامثل . .  
كيف نفسر ازيمات الشباب في المجتمع المعاصر ؟ لا انتمائته العقلانية او الدينية ؟

حاول هيريت ماركوزه في كتابه « الانسان ذو البعد الواحد » ( ١٩٦٤ ) تفسير ذلك بخواء الحياة الانسانية الداخلية الحديثة من تلك التجارب المتويزة باطنيا للوجود الانساني ، تلك التجارب التي كانت تعطي انسان ما قبل الثورة الصناعية ازدهارا باطنيا من خلال الاتحاد مع الله ، او التوحد مع النظام الطبيعي للكون . فرضية ماركوزه ( ١٩ ) الاساسية في هذا الكتاب هي « ان التقدم التكني حين ينسحب على نظام كامل للسيطرة والتنسيق يخلق انعطافا من الحياة

( ١٨ ) للتوسع في هذا التجمل الاخلاقي ، راجع كتاب

A History of Modern Philosophy by: Wm. K. Wright, pp. 546-549, Macmillan Book Company, N.Y., 1965..

كذلك راجع كتاب « فلسفة التربية والزها في تفكير معلم المستقبل » للدكتور محمد جواد رضا ص ١٢٢ - ص ١٢٣ ، نشر جامعة الكويت ١٩٧٢ .

( ١٩ ) ولد هيريت ماركوزه في برلين سنة ١٨٩٨ وتلقى دراسته الجامعية في جامعتي برلين وفرانكفورت حيث نال في الاخرة دكتوراه الفلسفة وكان موضوع رسالته « نظرية هيغل Hegel في طبيعة الوجود وعلاقتها بفلسفة التاريخ » . عندما استولى النازيون على السلطة هرب الى سويسرا ، ومنها الى الولايات المتحدة وابستقر في جامعة كولومبيا حيث نقل اليها بالاشتراك مع ماكس هورفايمر « معهد الابحاث الاجتماعية » من مدينة فرانكفورت . بين ١٩٥٤ - ١٩٦٧ عمل في التدريس في جامعة براندس ، ومنذ ١٩٦٧ وهو يدرس في جامعة كاليفورنيا . من اهم كتبه « ابروس والعصافرة » « الانسان ذو البعد الواحد » « العقل والثورة » ( الماركسية السوفييتية ) .

والسلطة التي تمتص قوى المعارضة للنظام القائم ، أو تفند أى احتجاج ضده باسم التطلمات التاريخية للتححر من الكلدح والسيطرة . حتى الفكر يتم اخضاعه بحيث لا يعود مصدرا لنقد الحياة الاجتماعية » .

**ان ظروف العمل فى المجتمع الصناعى الرعوى تميل الى جعل العامل سلبيا .** ذلك ان انسياب الانتاج فى مصنع شبه اوتوماتيكى ودرجة المهارة العالية لدى العامل وزيادة نسبة المستخدمين كل ذلك من شأنه ان يقضى على أى شعور بمعارضة نظام العمل ، وهكذا تهيم مؤسسات دولة الخدمات Welfare State على حياة الذين يعمون بنعمها ومزاياها وذلك من خلال سيطرتها على مستوى معيشتهم ، لان زيادة الاستهلاك كفيفة كما يقول ماركوزه باضعاف حوافز تقرير المصير حرصا على التمسك بما هو متوفر لها من نعم الحياة الباطلة ولكن الخلابة .

الى تفسير قريب من هذا التفسير ذهب **ارنولد توينبي** فى تفسير ثورة الشباب وازماته بان التقدم الصناعى تسبب فى « انعدام الذاتية الفردية وانسحاق الفرد فى آلية الحياة الميكانيكية من جهة ، وفى آلية الحياة الاجتماعية من جهة اخرى . ذلك ان الفردية التنافسية المميزة للمجتمع الرأسمالى .. وتعاونية النمل او النحل الشيوعية والقومية ذات الطبقة القليلة ... كل واحدة منها تمثل الاخرى وكلها تمثل التكنولوجيا فى .. لا شخصيتها impersonality وان تنظيمها اجتماعيا ذا طبيعة لا شخصية يناقض جوهر الطبيعة الانسانية ، ولهذا فهو تنظيم مقدر على الطبيعة الانسانية ان ثور ضده . وعندما يستجاب احتجاج الطبيعة الانسانية المبرر تماما سواء بشكل صورى موروث او بالصمت الخالص فان الكائن البشرى سيجد نفسه مسوقا الى استنتاج انه لا يحمل غير العنف المادى سيكون قادرا على جلب الانتباه له كائنسان وسط العلاقات اللاشخصية التي يجد نفسه فيها » . (٢٠)

على ان ماركوزه H. Marcuse يضع تأكيدا خاصا على اثر النزعة الاستهلاكية الجديدة فى مطابقة السلوك العقلاني للانسان الحديث . والفرضية الاساسية هنا هى ان تكنولوجيا المجتمعات الصناعية الراقية قد جعلت فى مستطاع هذه المجتمعات ازالة التناقضات الخارجية وذلك من خلال امتصاص جميع اولئك الذين كانوا فى ظل النظم الاجتماعية السابقة يشكلون اصواتا او قوى رافضة ومنشقة . والتكنولوجيا تفعل ذلك جزئيا من خلال خلق الكفاية والوفرة المادية وهكذا يتحرر من الحاجة المادية التي اعتبرها ماركس شرطا مسبقا للحريات الاخرى مدخلا لتوليد عيوديات جديدة ، فمن خلال تلبية احتياجات الافراد المادية تزول اسباب الانشقاق والاحتجاج وينقلبون الى ادوات سلبية بيد النظام الاقتصادي القائم .

ولكن الا يبدو هذا تناقضا ؟ ينفي ماركوزه التناقض باشاراته الى انه عندما يتم اشباع حاجات الفرد الى السلع المادية على حساب احتياجه واحتياج الاخرين الى الحرية وغيرها

من القيم يفقد الانسان حرية اختيار مصيره . ويطلق ماركوزه على النوع الاول اسم الاحتياجات الباطلة ، وهو يضمن حكمه هذا ان الناس العاديين ليسوا هم الذين يقررون - في المدى البعيد - حاجاتهم الحقيقية . بمعنى ان الانماط الحياتية ترسم لهم من قبل الآخرين لانهم ليسوا احرارا في التفريق بين الباطل والحقيقي من الحاجات . وهكذا يكون للانماط الاستهلاكية في مجتمع الوفرة تأثير مزدوج طبقا لتفسير ماركوزه . فهي اذ تلبي احتياجات الانسان المادية التي قد يقوده الحرمان منها الى الاحتجاج والثورة فانها تحمل من الناحية الاخرى على التكيف لفرائض الوضع القائم والتسليم بها . ذلك انه « اذا كان العامل ورئيسه يتمتعان بنفس البرامج التلفزيونية ويزوران نفس دور اللهو . واذا كانت الموظفة الضاربة على الآلة المطاطية تستطيع ان تتزين بنفس المستوى الذي تتزين به ابنة صاحب العمل الذي تعمل عنده . واذا كان الزنجي يستطيع امتلاك سيارة كاديلك ، واذا كان هؤلاء جميعا يقرأون نفس الصحف ، اذا كان ذلك كله كذلك فانه لا معنى للضرورة زوال الطبقات ، بل هو يدل على بعد المدى الذي يذهب اليه المجردون من اسباب الهيمنة الاجتماعية جراء رفضهم وراء الحاجات الباطلة التي تخدم هدفا واحدا هو الحفاظ على الوضع الاجتماعي والاقتصادي القائم . ان تكيف المجردين من اسباب القوة الاجتماعية لقوالب الاستهلاك هذه يعزز وسائل الانتاج واسع النطاق mass production ولكنه لا يخلقه » .

لقد بنى ماركوزه نظريته في عبودية الانسان الجديد للحاجة المادية على فرضية اعمق في الحضارة المعاصرة ، اذ هو يرى ان هذه الحضارة قد فصلت فصلا يكاد يكون مأسويا بين العالمين الداخلي والخارجي للانسان . في هذه الحضارة ظاهرتان مركبتان ، الاولى هي انتقالها من فترة اليقين والتوثق بصواب اخلاقياتها اiban ازدهار العهد البورجوازي الى فترة لاحقة اساسها الارتياح والرفض . ففي فترة اليقين نشأ تمييز جلي بين العالم العقلي والروحي من جهة ، والعالم المادي من جهة اخرى . العالم العقلي والروحي يفرض على الفرد متطلبات تتجاوز تلك التي يفرضها العالم المادي . ويفترض في الفرد في الاطار الاول ان يطور نفسه داخليا وفق تلك المتطلبات، ومثل هذا التطوير ممكن من دون حاجة الى اجراء تغيير في العالم المادي المحيط بالفرد .

هذا التصددع المتعالي يعتبر جزءا من طابع الثقافة البورجوازية . وكلما ازداد التصددع تعاضلت الحاجة للتعبير عن الذات بمفاهيم: العالم الداخلي . وهنا يصبح مفهوم السعادة في صورتها الرومانتيكية مفهوم ذلك الجزء من الشخصية الذي يكافح لتحقيق رغباته التي خلقتها الضرورة من دون تعبير ولا انجاز . اما القطاعات غير الروحية فهي قطاعات الحياة المادية . ان الروح تشد جمالا مثاليا وسعادة مثالية غير ممكنة التحقيق . وعندما لا يتمكن البورجوازي من شيء غير الحفاظ على نظامه الاجتماعي والاقتصادي من خلال « تسييس » هذا النظام شيئا فشيئا واخضاع الفرد لمطالب هذا النظام ، عندئذ يكون حتما مهاجمة « العالم الداخلي » للفرد ؛ ذلك العالم الذي يستطيع فيه الفرد ان يحتفظ بقدر ضئيل من الحرية الخاصة المتحررة من المطالب

الخارجية للعالم البورجوازي . ولكن اذا كانت متطلبات العالم المادى الخارجى تقود بالضرورة الى الاعتماد على العالم الداخلى ، فان التمسك بالموضوع على الحرية يعنى نقضا للسعادة ، وهذه هى الظاهرة الثانية التى يفترضها ماركوزه سبباً فى ازمات الانسان المعاصر . **ان الحرية والسعادة - عند ماركوزه - ترتبطان ببعضهما ارتباطاً شديداً ، والسعادة بوصفها « تحقيقاً لجميع الطاقات الكامنة فى الفرد تفترض الحرية فى وجودها ، بل انها هى الحرية ذاتها »** . ولما كان الفلاسفة الاخلاقيون سواء منهم من عاش فى العالم القديم او فى العصر البورجوازي قد وعوا عجز الانسان امام محيطه الخارجى ، فقد رفضوا اى احتمال لقبول اية سعادة معتمدة على ظروف المحيط الخارجى ان تكون هدف الانسان . (٢١)

لقد قادت فكرة الحرية المحدودة فى العصر البورجوازي وفى الاطر الثقافية البورجوازية الى فكرة اشد تزمناً ومحدودية عن السعادة ، ومن هنا غدت فكرة المتعة فى المجتمع البورجوازي مرتبطة بحرية الفرد المقيدة بضرورات العمل ومقتضيات السوق الاستهلاكية . المتعة هنا تنقيد بفكرة الفراغ وهذا سبب تدنى قيمتها نسبياً ، وهذا التدنى يصدق على حرية الجنس بصورة خاصة . فقد كتب « سبينوزا » يقول عن المتعة الحسية « اننا نستطيع ان ننغمس فى اللذات على ان يكون ذلك الى الحد الضرورى للحفاظ على صحتنا » . وكتب « فيشته » فى اتجاه مماثل يقول « انه لامر مفاهيم للترف والانسانية الاصيلتان تتحول طاقة الانسان عن انجاب النسل الى وسيلة للمتعة الجنسية » (٢٢) . لقد كان الجنس من جهة نظر سبينوزا وفيشته موضوعاً فى خدمة حاجات المجتمع البورجوازي النامى يومئذ . وعلى الرغم من ان الفصل بين المتعة وانجاب الاطفال امر واضح فان الانجاب المتزايد يقدم للدولة البورجوازية ماتحتاج اليه من العمال والجنود فى وقت مما . او على الاقل هذا ما يذهب اليه علماء الاجتماع الاشتراكيون مثل **الاستاذ الكساندر سينالاى** الذى ينظر الى هذه الازدواجية او الانشطارية على انها نتيجة طبيعية للازدواج فى الاسس الاقتصادية للمجتمع البورجوازي ، اى فى ملكية وسائل الانتاج بين اولئك الذين يعملون ولا يملكون .. واولئك الذين يملكون ولا يعملون . يقول **سينالاى** مدلاً على رايه « ... خذ مثلاً على ذلك الازدواج الخلقى للمجتمع البورجوازي الذى يسهم كثيراً فى زيادة التوترات الخطيرة ذات الثمن الباهظ وفى زيادة الحساسية الفردية والخوف وحالات المرض العقلى . فمن السهل جداً تحت هذه الظروف ان يكون الشخص رب عائلة طيباً ، او ان يكون عدواً من اعداء تعذيب الحيوان ، ولكنه فى الوقت نفسه يستسيغ استغلال عماله بلا خجل او ان يهدم

( ٢١ ) للتوسع فى نظرية ماركوزه عن انماط السيطرة الجديدة راجع كتابه

One dimensional Man, Sphere Books, London, 1972.

خصوصاً ص ١٦ - ص ٢٨ .

Russell, B., History of Western Philosophy, p. 557, Unwin University Book 1969.

( ٢٢ )

حياة عوائل الآخرين من منافسيه او ان يقوم بترويج الدعاية للحرب . الازدواج الخلقى هو التفسير. ان عبارات مثل .. « التجارة تجارة » .. او .. « حسنا تلك قضية سياسية » .. هذه العبارات وامثالها تكشف عن وجهة نظر مخيبة وداعية للقنوط . ان التهديم القاسي لحياة الناس ، السلوك الذى لا يرتضيه الانسان الشهم ممكن الوقوع جدا في الدوائر التجارية وفي الحياة السياسية . الازدواج الخلقى مرة اخرى . هل هذه حقا قضية اخلاقية محض ؟ على العكس تماما ففي المجتمع الذى تنقسم فيه العملية الانتاجية بين العاملين والمالكين ، ويميز فيه بين العمل والعامل لا يستغرب ابدأ ان يكون الازدواج الخلقى انعكاسا للازدواج في الاوضاع المادية » (٢٣)

### • • • الوح الثامن

#### المخرج

القول بانفصال الشباب عن العالم لا ينبغي ان يؤخذ على اطلاقه . لان العالم الذى انفصل عنه الشباب ليس عالم الانسان نفسه وانما هو عالم القيم الباطلة التي تحدت الى هذا الجيل تركه « ثقيلة » وميراثا قبيحا من رواسب الماضى البشرى الثقيل بالنظم والاستغلال والازدواجيات الاخلاقية التي افترتها عصور التخلف والاعتبارات الطبقيّة الاستغلالية التي زينها في عيون التقنيين على هذا الجيل الجهل والحرمان والاسر الاجتماعي . فهو اذن لم يكن انفصالا بقدر ما كان رفضا . وقد وعى هذه الحقيقة اكثر الباحثين في ازمان هذه الاجيال الراضة واعتبروا مسؤوليتهم الاخلاقية نحوها هي في التعمق في تحليل هذه الازمان وتشخيص مسببات الرفض ، وعدوا ذلك وفاء منهم ببعض ما لهذه الاجيال عليهم .. ، هذه الاجيال التي استطاعت لأول مرة - ربما - في تاريخ الانسان ان تمتلك الوعي والذكاء والشجاعة لكي تختار حياتها الخاصة وقد كان جان بول سارتر اول من حاول تنبيه المجتمع الانسانى المعاصر الى ما في حركة الرفض الشابة من اخلاقيات صميمية تستحق لا الدراسة والفهم وحسب وانما هي تستحق الاحترام كذلك . ففي مقابلة صحفية اجرتها معه مجلة « نوفيل او بزرفاتور » في ١٩٦٨/١١/٤ واداعتها اذاعة الكوسموبورج قال سارتر معقباً على ثورة الطلبة الفرنسيين :-

« .. ان العنف هو الوسيلة الوحيدة الباقية امام الطلاب الذين لم يتحولوا بعد الى شريحة من النظام الاجتماعي الذى اقامه آباؤهم للاحتجاج على هذا النظام . ففي مجتمعنا الغربية المترهلة صار الطلاب قوة النضال اليسارية الوحيدة . وما العنف اليسارى نفسه الا ردا على العنف الدائم الذى يمارسه المجتمع الراسمالي ضد كل افرادة . واذا ما حكمنا - بناء على اكثر التقارير الصحفية حيادا - نجد ان شرطة التمتع الفرنسية تصرفت بشكل غريب من الوحشية عند محاولة احتواء ثورة الطلبة في مايو ١٩٦٨ . ولم يكن ذلك العنف الا نموذجا لما يمكن ان تكون عليه الحرب الطبقيّة في فرنسا من عنف وفظاعة ... » .



وفي نفس الوقت تقريبا نشر ماركوزه دراسته عما اسماء ب « التسامح القمعي » في المجتمعات الغربية ، وفي تلك الدراسة كشف عن اعجابه بالطابع الجمالي للحركات الطلابية التي اسمها « لغة الروح » ووجد فيها « موقفا جديدا معقولا مقترقا عن مفهوم وثقافة السوق » .

والى نتيجة مشابهة توصل الاستاذ لويس فيور Lewis Feuer في كتابه الموسوم « صراع الاجيال Conflict of Generations » عام ١٩٦٩ . فقد تبين للاستاذ فيور من خلال سلسلة الدراسات التي نظمها حول تمرد الطلبة « ان هناك ميلا ثابتا في سلوك الشباب الى الرغبة في تحطيم هيمنة الآباء على الابناء والتحرر منها ، وذلك من خلال الثورة على القيم الثقافية القائمة على التسليم بهذه الهيمنة اخلاقيا وفعليا . وهم حينما يقومون بالثورة على الوضع الاجتماعي القائم ، وعندما يحاولون تحطيم قيمه ومؤسساته فكأنهم يقولون لانفسهم ... حسنا . هذه كلها من صنع آباءنا واجدادنا وهى قيودهم التي يمسكوننا بها ويفرضون ارادتهم من خلالها علينا . . ونحن لا نستطيع ان نتحداهم او نثور عليهم مباشرة ، ولا ان نقلت من قبضتهم عنوة فلا اقل من ان نحطم ما بنوه من قيم ومؤسسات ، ونسفه ما التزموا به من مثل وانماط في العيش وبهذا لن يبقى لهم شيئا يسيطرون به علينا . » (٢٤)

حتى الجامعات العربية في تقاليد التحرر العقلى لم تجد في حركات الرفض الطلابية « نذيرا بمرحلة انهيار جامعى في العالم . وانما وجدت فيها شيئا يستحق الدرس والفهم . بمعنى آخر هى وجدت في هذه الحركات بابا من ابواب الحقيقة . الجامعة التي لا تبخل بالاموال وطاقات العلماء توفرها للدراسة الاميبا او الدودة الصغيرة ليست اكثر مسؤولية نحو دراسة الانسان وفهم مشكلته . لقد جاءت ثورة الطلاب مقترفة بفراغ الجامعة من الظفر بالاعتراف لها بحقها المطلق في طلب الحقيقة المادية مع بقاء الحقيقة الاجتماعية معلقة غير محسوسة . واذا كان للبشرية اجوبة حاسمة حول اسباب مرض السل وعلاجه مثلا فهى لا تملك مثل هذا الجواب عن قضايا الظلم والعدل ، والحرب والسلام والفقر والغنى ، الانتاج والتوزيع ، التمييز والمساواة . ان هذا كله جزء من الحقيقة التي التزمت الجامعة بالبحث عنها وفيها ، ولن يقلل من قيمته ان الطلاب هم الذين يشرونه . ولن يقلل من قيمته ان الطلاب قد يخطئون الوسيلة الى اثاره . ان اخطاهم لا تهون ولا تستطيع ان تهون من حقيقة ان الحرب على الحرب في فيتنام بدأت في حرم الجامعات الامريكية ، وان الزكاة لها كان الدم المطلوب في كلية ولاية كنت Kent State College . . .

لقد كان اول من اخترق الجدار المضروب بين الشعبين الصيني والاميركى فرق من طلبة الجامعات الامريكية من لامبى كره المنضدة . كما ان اقوى الاصوات المرتفعة ضد التمييز العنصرى في الغرب هو صوت الطلاب سودا كانوا ام بيضا . وعلى الرغم مما اتهمته به الحركة الطلابية العالمية من طغيان النزعة اللاعقلية Anti Intellectualism عليها فان سلوك الطلاب عموما يتميز باهتمامات اخلاقية من نوع معين ، اهتمامات اخلاقية تقوم على رفض التاريخ الذى لم تجد فيه دليلا امينا

الى حل المشاكل التي ترتطم بها ، بل وللمهاجرين مسؤولية عنها . ان الاهتمامات الاخلاقية عند الشباب الجامعي المعاصر هي من دون ادنى ريب خير مطلق . وعلى الرغم مما يراه منتقso هذه الحركات الطلابية فان هذا الانشغال الاخلاقي بقضايا الحرب والسلام ، التمييز والمساواة ، الفقر والفنى ، الحرمان والبلخ ، الجهل والتعليم هو خير من الالمبالاة بها التي ربما كانت البديل المحتمل لهذا الانشغال الاخلاقي . كما ان انشغال الشباب الجامعيين بخفايا الاوضاع السياسية يفضل - يقينا - استغراقهم بالازياء والالعاب الرياضية والذائد الاخرى . وعلى الرغم مما تنهم به الحركة الطلابية المعاصرة من تميز بشعور عظيم بالمباشر immediacy ، المباشرة الزمانية على وجه التحديد وان اهتمامهم لا يتجاوز الحاضر المباشر ، ولذا فان التاريخ لا يحمل لهم حكمة معينة تمكنهم من رؤية الحاضر في اطار واسع من العلاقات ذات المعنى بالنسبة لهذا الحاضر ، على الرغم من هذا فان الحركة الطلابية لم تغفل العوامل التاريخية التي قادت الى قيام الحاضر المرفوض . حتى لو كانت هذه التهمة صحيحة - وهي قد تصح - فان المؤسسات التعليمية التي تولت تربية هؤلاء تحمل مسؤولية هذا التقصير ، فلو كانت قد عمقت من رؤيتهم في حركة التاريخ لما ابتلوا بهذه المباشرة في الرؤية الاجتماعية (٢٥) .

ان الاشارة الى تقصير المؤسسات التربوية في تعميق الرؤية الاجتماعية عند الشباب تقود بالضرورة الى الدور السلبي الذي لعبته هذه المؤسسات في تربية الناشئة اجتماعيا . ذلك ان المدرسة كانت في الغالب اداة بيد المهيمنين اجتماعيا يستعملونها لتثبيت الاوضاع التي تعزز مصالحهم وامتيازاتهم ، ولذا فان ثورة الطلبة تعني في بعض مآثره الثورة على المؤسسة التربوية نفسها التي احسوا - حين صدمهم الواقع - وكأنها قد خلعتهم عن انفسهم وعن هذا الواقع في وقت معا . لقد اكتشف الفرنسيون مثلا ان سببا رئيسيا من اسباب هزيمتهم في الحرب العالمية كان وضع التربية الفرنسية في اهداف الطبقة الاجتماعية الفرنسية و« ان الهزيمة والظلم ما كانا ليحلا بالامة الفرنسية لولا ضعف الايمان واخطاء وخيانة الفئات المسيطرة في البحر والجيش .. في السياسة والاقتصاد .. وفي الصناعة والتجارة .. اولئك الذين كانت دعواهم انهم خريجو احسن معاهدنا العلمية وقمة نظامنا التربوي .. اولئك الذين كان جبنهم فاضحا جدا .. » (٢٦)

واذا كان « تقرير الجزائر » اشار اشارة عابرة الى دور التربية الفرنسية في الهزيمة القومية فان « تقرير لجنة لانجفان » Langevin ( ١٩٤٧ ) كان اكثر صراحة في تحميل التربية الفرنسية كفلا كبيرا من مسؤولية الهزيمة القومية لانها وضعت نفسها في خدمات الاحتياجات الثقافية للطبقة البورجوازية واهدافها وقيمتها الفكرية على حساب احتياجات الاكثرية المطلقة من الشعب الفرنسي ، فانظمت بالاحتكارية من جهة ، وبالتخلف الفكري والتقني من جهة اخرى ، حتى اذا جاءت الحرب لم تكن جماهير الشعب معبأة تمهية كافية لمواجهة الغزو النازي . وليست التربية الفرنسية في ظروف ما قبل الحرب الكونية الثانية وما اخفاتها الا مثلا نموذجيا للتربية

( ٢٥ ) من محاضرة الدكتور محمد جواد رضا بعنوان « الجامعة في مركز الانعصار » القيت في جامعة الكويت مساء ١٩٧١/١٢/٥ .

( ٢٦ ) تقرير الجزائر ، الصادر من « اللجنة التربوية لاصلاح التعليم » ١٩٤٤ .

عندما لا تكون في خدمة الاكثرية الصامتة من ابناء الشعوب . من هنا جاء انفصال الشباب عن العالم ، الذى صنعتهم لهم وفرضته عليهم النظم الاجتماعية المحتضرة وادواتها التربوية . ومن هنا ايضا جاء رحيلهم الى الاعماق .. اعماقهم هم .. ضمائرهم وعوالمهم الداخلية التى تنبها الى وجوب حمايتها من العدوان الخارجى عليها كما صورده ماركوزه . واذا كان الانفصال عن العالم يعنى رفض نظام قيمي عقيم ، فان الرحيل الى الاعماق لم يكن هو الآخر محض هرب من قيم مرفوضة وحسب ، وانما كان جهدا ايجابيا موفقا في البحث عن نظام قيمي بديل ملائم لوعي الانسان الجديد ، لنفسه وقيمتها المكتشفة ، على انه راس المال الحقيقى في هذا الكون ، او انه هو القيمة الواقعية العليا على هذه الارض .



### السوح التاسع

#### التربية العربية المعاصرة وتطلعات الشباب العربى

لا تختلف تطلعات الشباب العربى في هذه المرحلة من تاريخ الامة العربية عن تطلعات اترابهم وازمانهم في اتحاء العالم الاخرى ، اللهم الا في افعال الاء هذه التطلعات والازمات ما هي اهل له من عناية السلوكيين العرب ، وهم - اى الشباب - ما يزالون قارة مدراء لم ينزل على شواطئها مستكشف حتى الآن ، واقيانوس لم يحاول احد سبر افواره ولا دراسة عواصفه واعاصيره الا نادرا ، (٢٧) ولذا فان احتمالات اتهامه بالروق من العرف او الدين او التقاليد هي اسهل ما تجابه تطلعاته به وهى اغلب ما تقابل معاناته به ايضا . من يدري ؟ فربما كان الاحساس الطبقي لدى بعض الاكاديميين العرب ازاء الشبيبة العربية مسؤولا عن هذه الغربة الضاربة بينهم وبين من يفترض انهم يتحملون مسؤولية تربيتهم وقيادتهم الروحية والاخلاقية .

يضاعف من تعقيد هذا الموقف المعتقد ان المؤسسات التربوية العربية - مدرسة كانت ام جامعة - ما تزال اداة مطواما في يد القوى المهيمنة في المجتمعات العربية ، وهى في الغالب قوى محافظة على قدر ما تكون المحافظة درعا ودريئة لامتيازاتها الاجتماعية ، وهى مهية لقبول التقدم والتطور اذا ما اطمانت الى ان التقدم والتطور لن يضرها تلك الامتيازات بشيء ، وهى تستعمل المؤسسة التربوية لخدمة هذا الوضع استعمالا واقميا وذكيا ولكن من دون ان تحسب حسابا لافرازاته المستقبلية غير القابلة للتنبؤ .

لقد فرض هذا الوضع على المؤسسة التربوية العربية المعاصرة واجبا ازدواجيا على درجة عالية من التناقض والتعقيد . ففي الوقت الذى يطالب فيه المجتمع مؤسساته التربوية ان تحفظ له موارثه الثقافية وقيمته المنحدرة اليه من ماضيه والتي يعتبرها هويته الخاصة ، والاجوبة الجيدة والصحيحة على كل المشاكل التي تواجهه ، في هذا الوقت بالذات هو يطالب

( ٢٧ ) راجع كتاب ( فلسفة التربية وآثارها في تفكير معلمى المستقبل - دراسة تجريبية ) جامعة الكويت ، ١٩٧٢ .

هذه المؤسسات التربوية أن تيسر له سبل التقدم من مواقعها التاريخية الموروثة ، وان تعينه على قبول العصر الذي يعيش فيه ومن تقبل روحه العلمانية على وجه التخصيص . بعبارة أخرى انه يريد من مؤسساته التربوية أن تكون أدوات محافظة وتبديل في وقت واحد ، وهذا مالا تستطيع مؤسسة اجتماعية الوفاء به ما لم تكن مؤسسة منافقة استرضائية .

لقد كتب هذا الدور الازدواجي على التربية العربية المعاصرة ان تسقط في حلقة مفرغة ينظر فيها الى الطلاب على أنهم - مادة - تربوية من حق النظم التعليمية ان تصوغهم على هواها وحسب اجتهداها ، ومن واجبهم ان يتكيفوا - للقالب المعدة لصيغهم فيها . فيما وراء النهج والكتاب كان الطلاب كما مهملا . لقد ضرب هذا الموقف العقلي بين الطلاب وبين نظمهم التعليمية اكثر من سد ، ودفعهم الى التماس التعبير عن انفسهم في الحركات الاجتماعية خارج معاهد العلم ، ولم تعد المدارس ولا الجامعات عندهم الا اماكن تلتبس فيها الشهادة . ولقد كان لهذا معنى واحد هو ان مؤسساتنا التربوية فقدت القدرة على القيادة الاخلاقية لروادها ... (٢٨) .

لقد حمل هذا التنازل معه البرر الاخلاقي للشباب العربي لآخذ مهمة صناعة مستقبلية في يديه ، والبحث عن او الكفاح من اجل دور متميز له في هذه المرحلة الحرجة من تاريخ امته مع كل ما يصاحب ذلك او يستتبعه من تهم المروق والزندقة الاجتماعية .

لقد كان من واجب الاكاديميين العرب ، والسلوكيين منهم بوجه خاص ، ان يوجهوا فكرهم ويحثهم العلمى الى دراسة هذا القدر الجديد الذى كتب على الشباب العربي ، غير ان شيئا جوهريا لم يحدث في هذا الصدد ، وظلت ادبيات الحركة الطلابية العربية مهمة اعمالا تاما رغم ما فيها من صدق العفوية وسطوع البراءة ووضوح الالتزام الوطني والقومي . اننا نشك كثيرا ان تكون هذه الادبيات قد حظيت بشيء من القراءة لناقدة اصلا .

احب ان اقف هنا عند نماذج مختارة من ادبيات الحركة الطلابية العربية ، وان احاول النفاذ من خلالها الى بعض تطلعات شبابنا ، وان اوجه عناية السلوكيين والاجتماعيين وعلماء السياسة والاقتصاد العرب الى ما فيها من محتوى انساني وقومي غني من جهة ، والى ضرورة تركيز اهتمام حقيقي بهذه الظاهرة الاجتماعية العربية الجديدة التي لن ينفعنا في شيء ان ندير لها ظهورنا ونكتفي بالنظر اليها من عل على انها لون من المحاولات الطلابية القاصرة ، فقد تكتشف في وقت متأخر جدا ان القصور كان حيث كنا نظن الكمال ونفترضه .

١ - جاء في نشرة معنونة « دراسات » صادرة عن المكتب الطلابي القومي في بغداد ما يلي :

« ان الفكر البورجوازي الذى تسيره الدوائر الامبريالية لتحقيق مصالحها يؤكد على مفهوم العلم للعلم ويدفع بالكثير من العلماء لان يعتبروا الوصول الى انجاز اختراعاتهم هدفا بخد ذاته . ان مهمة الانجاز العلمي هي هدف العالم ، اما استعمال هذا الانجاز في اى مجال فهو من

اختصاصات السلطة البوجوازية وحدها . وهكذا تصبح غاية الفنى والمهندس والعالم وسيلة للنظام ، وبالطريقة نفسها يخدر الفكر البورجوازي ضمير العالم بالتفسيرات الدائبة والشروح الفردية . فعندما تصبح الحرية الفردية لا حدود لها على شرط ان لا تصطدم بالمصالح البورجوازية ، وعندما يسمح المجتمع البورجوازي للأفراد ان يتحركوا ضمن اختصاصاتهم الفردية على شرط ان يتروكوا امر استعمال انجازاتهم في يد السلطة يحدث دائما ان يستعمل العلم وانجازاته في كثير من الاحيان كسلاح لتهديد الانسانية ... » .

٢ - جاء في كلمة « الاتحاد الوطنى العام لطلبة اليمن » التي القيت في « الندوة الطلابية العالية المنعقدة في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية من ٢٣ - ٢٧ مارس ١٩٧٤ ما يلي :

اننا كاتحاد وطنى عام لطلبة اليمن ، كحركة طلابية يمنية ديموقراطية وتقدمية تؤمن بان نضالات الطلبة من أجل ديموقراطية التعليم يجب ان ترتبط بنضالات اوسع الجماهير الشعبية والكادحة في بلادهم من اجل التحولات الاجتماعية والاقتصادية التقدمية ، من اجل التحرر الوطنى والتقدم الاجتماعى لتحقيق غد الاشتراكية الخالى من استغلال الانسان لاخيه الانسان . وما لم ترتبط نضالات الطلاب من اجل تعليم ديموقراطى بنضالات اوسع الجماهير الشعبية الكادحة من اجل صنع غدها الانسانى المتطور والمزدهر فان الفشل الدريع سيكون حليفها دوماً وابدأ ، وستصطدم في النهاية بصخرة الواقع التي لا ترحم .. ولن تستطيع الاحلام والاماني ان تتجاوز تعقيدات الواقع وتكيفها ... » .

٣ - جاء في التقرير العام الذى قدمه « الاتحاد الوطنى العام لطلبة اليمن » عن الاوضاع التربوية في اليمن في الندوة المذكورة ما يلي :

« تحتل المناهج اهمية خاصة فائقة في العملية التعليمية . فمن خلالها يتحدد محتوى التعليم العام . ان التطور التعليمي في اى بلد كان لا يقاس بتوسعة الكمية فحسب ، ذلك ان الهدف ليس عدد من يتخرجون من مؤسسات التعليم وانما المسألة المركزية هي نوعية هؤلاء . لقد عانت بلادنا من المناهج الدراسية الاستعمارية التي كانت تهدف الى خلق جيل يعنى مغرب عن وطنه . لذا فقد احتلت مسألة تغيير المناهج الدراسية اهتمام الثورة في بلادنا منذ الايام الاولى لاستلام السلطة . وكانت أولى المحاولات لتغييرها هي استبدال المناهج القديمة الاستعمارية بالمناهج المصرية والعراقية وبعض مناهج الدول العربية الوطنية الاخرى . كما بذلت محاولات في ١٩٦٩ من وزارة التربية والتعليم لايجاد منهج وطنى . الا ان تلك المحاولة لم تكن لتخرج عن اطارالباس الواب يعنى على مناهج الدول العربية الشقيقة » .

بمد ذلك يحاول الاتحاد ان يطرح تصور من المساق الذى يجب ان تسير فيه التربية اليمنية الديموقراطية الشعبية في رسم لها الاهداف التالية :

١ - ان تحقق المناهج ربطا بين العلوم الانسانية والطبيعية وافكار الطبقة العاملة ، اى استخدام المنهج الجدلى في تفسير الظواهر الطبيعية والاجتماعية .

٢ - ان تحقق المناهج بناء جيل يعنى متزود بمعارف عن تطور وطنه وشمولية تاريخه ، فعلى المناهج الجديدة ان تركز على ما يتعلق بالوطن اليمني سواء في تاريخه او جغرافيته او ثرواته الطبيعية ، وكذا علاقة تلك بالدول المختلفة في العالم .

٣ - على ان يركز محتوى المناهج عند معالجتها للدراسات اليمنية على الجوانب التقدمية . ففي التاريخ مثلا ينبغي التأكيد على دور الشعب في صنع التاريخ مغايرة لمناهجنا القديمة المرتكزة على اساس دور الافراد في صنع التاريخ . وفي دراسة الجغرافيا ينبغي التركيز على قدرة الشعب بفضل نظامه التقدمي على استغلال الثروات الوطنية . وفي جانب الادب اليمنى ينبغي التركيز على الجانب التقدمي في تطور الادب اليمني .

٤ - تحقيقا لمبدأ ربط المدرسة بالمجتمع والنظرية بالتطبيق فان المناهج الجديدة ستحوى منهاجا للبوليتيكنيك .. » .

هذه نماذج قليلة من ادبيات الحركة الطلابية العربية الشابة . وهى ولا ريب تنضج بالثابة والقطعية والنهائية في الاحكام مما قد لا يتفق حتى مع المنطق الجدلى في تفسير حركة التاريخ . وهى قد تكون بصورة من الصور ممثلة لمجمل هذه الحركة . وليس هناك من يدعو الى تقبل مقولاتها تقبلا عفويا ولا الى شرائها من باعها المتحمسين . في تقديرنا ان هذا ربما اضر بالحركة اصلا . ولكن الشيء الخطير هو ان تترك هذه الحركة من دون حقول بها ، ومن دون دراستها دراسة منهجية ، ومن دون تحليل متواصل لتطلعاتها ومقولاتها . وهناك خطر اكبر في اشعارها بانها لا تعنى شيئا للحلقات الاكاديمية العربية ، وايسر ما سينجم من هذا الاغفال او التغافل هو جهل الحركة والغتراب عن مفاهيمها الاساسية . ومن هنا تاتي القيمة التي لا تحتمل المبافضة لتكريس اهتمام فعلى بافراقات هذه الحركة فكريا وسلوكيا وجرها الى دائرة الجذب الاكاديمية المتزمنة بمنطق البحث العلمى وتقييمها تقويما موضوعيا . فلقد يتاح لنا ان نشد ان ندعى اننا قد وفينا لورثتنا في النقد القريب او البعيد بعض ما كان لهم في ذممننا من دين ، واننا استطعنا ان نزيد من وضوح الرؤية امامهم ، وان نقتل من احتمالات سقوطهم في الاجتهادات البتراء .

## مراجع البحث

### أولا - في اللغة العربية

- ١ - محمد جواد رضا - فلسفة التربية وأثرها في التفكير العلمي المستقبل ، جامعة الكويت ، ١٩٧٢ .
- ٢ - محمد جواد رضا - الجامعة في مركز الانعصار ، محاضرة ألقى في جامعة الكويت بتاريخ ١٩٧١/١٢/٥ .
- ٣ - اللجنة التربوية الفرنسية لاصلاح التعليم - تقرير الجزائر - ١٩٤٤ .

### ثانياً - في اللغة الإنجليزية

1. Arnold, W., Counselling Activities in Modern Society, Proceedings, IRT Conferenec, Würsburg, 1976.
2. Beckett, S., Murphy, 1938.
3. Cantril, H., Tensions that Cause Wars, University of Illinois Press, Chicago, 1950.
4. Davy, B. W., The Source and Prevention of Mental Ill Health in University Students. Proceedings of the Royal Society of Medicine, England, April 22, 1960.
5. Ducasse, C. J., Art, The Critics and you, Oscar Priest, New York, 1944.
6. English Pearson, Emotional Problems of Living, Norton Company, 1960.
7. Feuer, L., Conflict of Generations, Basic Books, New York, 1971.
8. Fraser, M., Children in Conflict, Penguin Books, London, 1974.
9. Malleeson, N. B., A Handbook of British Student Health Services, London, Pitman, 1966.
10. Marcuse, H., One Dimensional Man, Sphere Books, London, 1972.
11. Miller & Miller, Student Problems, Remedies and Satisfactions, British Psychiatry, September 1973.
12. Parker, D. H., Human Values, Harper & Brothers, New York, 1944.
13. Perry, R. B., General Theory of Value, Longman's Green and Company, New York, 1926.
14. Ryle, A., Student Casualties, Pelican Books, 1970, London.
15. Rusell, B., History of Western Philosophy, Unwin University Press, 1969.
16. Sinclair, F., Belfast Telegraph. Sept. 16, 1971.
17. Toynbee A., Experiences, Oxford University Press, 1969.
18. Wright, Wm. K., History of Modern Philosophy, Macmillan Book Company, New York, 1965.

عبد الرحمن عيسوي \*

## النمو الروحي والخلقي والتنشئة الاجتماعية في مرحلتى الطفولة والمراهقة

في بحثنا في النمو الروحي وعملية التنشئة الاجتماعية في مرحلة الطفولة ينبغي ان نؤكد ان الدين لا تقتصر آثاره ووظائفه على مرحلة واحدة من مراحل العمر ، وانما يشمل اثره كافة مراحل النمو الانساني ، وان كان هذا التأثير يختلف من مرحلة الى اخرى .

وعلى الرغم من ان القيم الدينية والسلوك الدينى يؤثران بصورة او باخرى في كل جوانب حياة الفرد الا ان تأثيرهما اكبر في حياة الفرد الانفعالية The Individual's Emotional Life وللدين اهمية كبرى في مرحلتى الطفولة والمراهقة حيث يمر الطفل بمرحلة تكوين الشخصية وصلها وحيث تلعب العوامل الانفعالية دورا هاما في حياته .

---

(\*) استاذ علم النفس المساعد بجامعة الاسكندرية وجامعة بيروت العربية .



والمعروف ان مرحلة المراهقة ، كما يزعم بعض علماء النفس ، مرحلة شك ونسـد rejection للقيم والمعايير الدينية التي سبق ان تلقاها الطفل عن الكبار ، وقبلها عن طبيب خاطر .

وعندما يصل الطفل الى درجة من النضج العقلى تسمح له باعادة النظر فى هذه القيم والمعايير فانه يتناولها بالتقـدوالفحص والتمحيص ، وتنتهى عملية النقد هذه اما بقبول هذه القيم او رفضها او تعديلها .

ومن الاهمية بمكان ان تجسرى الدراسات والبحوث التي تكشف عن الآثار التي يتركها قبول الدين او نبذ على صحة الطفل النفسية وثباته الانفعالي ، بعبارة اخرى هل يضيف الدين الى التكيف او الى سوء التكيف النفسى ، هل يسهم الدين فى تحقيق الصحة النفسية والثبات الانفعالي ام يؤدى الى مزيد من الشعور بالذنب والى تنمية ضمير حاد وخاز يؤنب صاحبه ويلومه على كل كبيرة وصغيرة ؟

#### تفسير ظاهرة التدين فى الطفولة والمراهقة

وفى تفسيرنا لظاهرة التدين نستعرض آراء كل من ف . مري و ر . مري F. Merry and R. Merry حيث يفترض ان ظاهرة التدين ظاهرة غريزية بمعنى وجود غريزة دينية لدى الفرد (١) a religious instinct . فتبعاً لهذه النظرية يعتبر الطفل طبيعياً متديناً ، واذا اعطى الفرص المناسبة فانه يكون المفاهيم الدينية الملائمة ذات المعنى والدلالة . ويعتقدان ان الطفل منذ سن مبكرة يعي بطريقة غريزية وجود قوة عليا يلجأ اليها للحماية ، ولديه تجاهها اتجاه غريزى فطرى نحو الاحترام والعبادة (١) .

ويتعارض هذا الرأى مع رأى آخر يزعم ان الطفل شرير بطبعه او بالفطرة ، لانه ورث الخطيئة الاصلية التي ارتكبها آدم فى جنة عدن . ولذا كان لابد من ان نستخدم اكثر الاساليب صرامة فى تاديب الطفل وقمع هذه الطبيعة الشريرة وجذبه الى حظيرة الدين والصواب . ولكن كثيراً من علماء الدين المحدثين يرفضون الزعم بان طبيعة الطفل طبيعة شريرة بالوراثة ويعتقدون ان الاطفال يولدون وهم لا يطيون ولا اشرار ، ولكن يولدون باستعدادات او امكانيات عامة هي التي يوجهها المجتمع فيما بعد اما الى القنوات الصالحة او الشريرة .

ويؤيد سكنر C. Skinner هذا الرأى بالقول بان الكائن البشرى يولد بحالة حيادية حيال الدين . فالرضيع مثلاً ليس متديناً ولا هو ضد الدين بل انه يمتلك الاستعدادات Potentialities للتكيف ، والتي تجعل النمو ممكناً نحو التدين او نحو معارضة الدين .

(١) لم يعد يستخدم اصطلاح الغريزة فى علم النفس واصبحت هناك اصطلاحات اخرى كالدافع والباحث والحاظر وكلها تجرعات نظمية عقلية للملاحظة على بعض انماط السلوك علماً بان السلوك وحده هو الذى تلاحظه .

(١) Merry, F. and Merry, R., The First two decades of life, Harpers and Brothers, N.Y. 1950. P. 482.

متى يبدأ الشعور الدينى لدى الطفل ؟

وإذا ما تساءلنا عن السن التى يبدأ فيها الطفل فى الشعور بالخبرة الدينية فإنا لا نجد (٢) اتفاقاً كاملاً بين الباحثين حول هذه السن، فمنهم من يرى بعض المظاهر الدينية فى سلوك الأطفال الصغار، ومنهم من يرى أن الطفل لا يقوى على إدراك المفاهيم الدينية إلا بعد الوصول إلى مرحلة متقدمة من النضج العقلى .

فطبقاً لراى **الحج F. Ilg** يستطيع الطفل التمييز بين الصواب والخطأ ، وبين الردىء والحسن فى سن السابعة ، أما فيما قبل سن الرابعة فهو غير قادر على فهم الآراء الدينية ، وعندما يبلغ الطفل سن الأربع سنوات يبدأ فى توجيه مثل هذه الأسئلة ذات الطابع الدينى والفلسفى :

- ١ - من الذى صنعك ؟
- ٢ - من الذى صنع هذه الاشجار ؟
- ٣ - من هو الله ؟
- ٤ - ما الذى يشبهه ؟
- ٥ - هل الله رجل طيب ظريف ؟
- ٦ - هل هو يحب الحلوى ؟
- ٧ - هل يشبه الله أبى ؟
- ٨ - اين يقيم الله ؟
- ٩ - وهل يرانا الان ؟
- ١٠ - هل يرتدى جلباباً فضفاضاً ؟

ولذلك فلا عجب أن نجد طفلة صغيرة (سن أربع سنوات ) كانت تسير فى يوم مطير وكانت تمشى مع أمها فنظرت إلى أعلى السماء وقالت : ( شكراً لك يا الهى لجعل الطريق جافاً فى بعض الأماكن أنك ترى أننى ارتدى حذاءى الجديد) (٣)

وخلافاً لهذا الراى يذهب **فالتين Valentine** إلى القول أن الطفل لا يستطيع أن يدرك معانى المصطلحات **The abstract terms** كمعنى الشفقة والله والعدالة والاحسان ... الخ ، قبل سن الثالثة أو الرابعة عشرة . (٤)

( ٢ ) Skinner, C., Child Psychology, the Macmillan Co. N.Y. 1949, P. 276.

( ٣ ) Ilg, F., Child Behaviour, Hamish Hamilton, London, 1955, P. 292-303.

( ٤ ) Valentine, C., The Normal child and some of his abnormalities, A Pelican Book, 1962 P. 271—275.

ومهما يكن فإن الاطفال ولاشك لديهم بعض الافكار الدينية التى توصف بأنها أفكار مشخصة ومجسدة وشخصية وحسية .

ومنذ وقت مبكر ( ١٨٨٠ ) طلب ستانلى هول G. Stanely Hall من مجموعة من الاطفال الصغار ان يصفوا تصوراتهم عن الله ، وفيما يلى بعضا من استجاباتهم ؟

( الله رجل كبير ربعا لونه ازرق يرى غالباجدا فى السماء أو فى السحب أو فى الكنيسة بل حتى فى الشارع . انه يصعب اللعبات والاطفال والكلاب والاشجار والنقود .. الخ ، ويعمل الملائكة لحسابه ... الخ .

وعندما يموت الناس انهم فقط يذهبون أو يوضعون فى حجر أو فى صندوق أو فى عربة نقل سوداء ، ويذهبون الى الجنة أو يصعدون الى السماء أو يفرقون أو يعلقون فى السماء حيث يسك الله بهم ... وعندما يذهب الاطفال الى الجنة تقدم لهم الحلوى والبنادق واللعب وكل ما يوجد فى محلات لعب الاطفال ، والكتب المصورة وأوراق اللعب ، وتقدم لهم الملابس الانيقة والساعات الذهبية والملحجات ، ولا توجد هناك مدارس ويلعبون البلى والورق .

وفى دراسة أخرى على مجموعة من اطفال المدرسة الابتدائية اظهروا خلطا بين مفهوم الله ومفهوم « السيد المسيح » وعبروا عن مفاهيم وصفات مشخصة عن الذات الالهية ، وغيرها من المفاهيم الدينية ، فهم يصغون الجنة بأنها تشبه الدخان أو الماء أو الهواء ، ويعتبرون السيد المسيح كحامى حمى الناس ، فهو يأخذك الى الجنة اذا كنت طيبا ، ويشفيك اذا كنت مريضا . ويدرك طفل فى سن ٦ سنوات وظيفة الله بالقول بأن « الله شخص ما فى السماء أو فى الجنة يعتنى بكل شيء ويرعاه ويعالج كل شيء حتى لا يعتري الناس أى مشاعر رديئة أو تسود بينهم » ، ولكن اطفال هذا السن يمانون من خلط ازاء فكرة ( ان الله خلق كل شيء من لا شيء ) ويرجع سوء الفهم هذا الى نزع الاطفال لارجاع كل الافكار المعنوية الى معان مشخصة مجسمة تقع فى اطار خبراتهم .

وتقد عبر عدد كبير من الاطفال الصغار ( ٦٤٠ طفلا ) من اطفال الصف الرابع الابتدائى فى المجتمع الأمريكى عن فكرة يوم الحساب The Judgment Day حيث وافقت نسبة ٣١٪ من مجموعهم على القضية الآتية :

يحتفظ الله بسجل كبير يسجل فيه أفعالنا السيئة .

بينما أقر ٤٣٪ منهم أنه تعالى لا يفعل ذلك و ٢١٪ كانوا فى حالة شك وتردد ، بينما وافق نحو ٥٠٪ منهم « بأننا اذا صلينا بجدية كافية من أجل سطوع الشمس أو هطول الامطار فإن الله سوف يغير الطقس من أجلا » (٥)

• • •

### خصائص الفكر والشعور الديني في الطفولة والمراهقة

يعبر الأطفال في الغالب عن خيال حر وغير تقليدي في أفكارهم عن الدين. ولقد حلل هارمس Harms سنة ١٩٤٤ بضمّة آلاف من رسوم الأطفال الصغار من (٣ - ٦ سنوات) التي تمثل أفكارهم عن الله ، ووجد أن معظم الصور المرسومة تعبر عن الله كنوع من شخصية الاساطير ، يرتدى الملابس الفضفاضة (٦) ولقد افترض هارمس ثلاثة مراحل للنمو الديني في الطفولة هي :

١ - مرحلة الصورة الاسطورية The Fairy Tail tage حيث تسود الافكار والمعتقدات الخيالية او الوهمية .

٢ - المرحلة الواقعية realistic stage وفيها يرفض الأطفال خيالاتهم السابقة ، ويعتقدون التأويلات القائمة على أساس الظواهر الطبيعية .

٣ - المرحلة الفردية The individualistic stage وفيها يبدأ الطفل في اختيار العناصر التي ترضي حاجاته وبواعثه من الدين ، أي ينتقى العناصر الدينية التي تشبع حاجاته الفردية . (٧)

وعلى الرغم من اختلاف تصورات أو مفاهيم الأطفال عن الله وعن النار وعن الجنة ، وما أشبه ذلك عن المفاهيم الثيولوجية التقليدية ، إلا أن ذلك لا يعنى أن الأطفال لا يشعرون بالرهبة والتقديس والاحترام نحو الذات الالهية ، وأن كان كثير من هذه الآثار يتوقف على الطريقة التي يتعلم بها الأطفال المبادئ الدينية .

يقول مري ومري « وهناك أدلة كثيرة على أن التعاليم الدينية المبكرة من قبل المنزل والكنيسة هي العامل الأساسي في تحديد الاتجاهات الدينية اللاحقة . أن المنهج المستخدم في تقديم المفاهيم الدينية للأطفال له أهمية عظيمة » . (٨)

ولا شك أن مفاهيم الطفل عن الدين تختلف اختلافا كبيرا عن أفكار الكبار وعن خبراتهم ومشاعرهم ، ولذلك فالجوانب الدينية في حياة الطفل أقل خضوعا لفهمنا عن جوانب شخصيته الأخرى ، فالنضج العقلي Mental maturity يساعد الطفل على أن يستبدل مفاهيم الطفولة الساذجة والمشخصة بمفاهيم أكثر عمومية وأكثر تجريدا ، فكلما تقدم الطفل في السن أصبحت علاقته بالله أكثر شمولاً وأقل تشخيصاً ، وتصبح اتجاهات الطفل الدينية أقل تركزاً حول ذاته self-centered وأقل انانية ، ويصبح أقل اهتماماً بالحياة الأخرى . ومعنى هذا أن الدين لا يصبح له دور فعال في حياة الطفل إلا إذا تناول تصورات ومفاهيم تدور حول حياة الطفل الدنيوية

(٦) Argyle, N., (cited in) the religious behaviour, Routledge and Kegan Paul, London, 1958.

(٧) Cole, L. and Hall, I., Psychology of Adolescence, Holt, Rinehart and Winston, N.Y. 1960

(٨) Merry F. and Merry, R., op. cit. P. 490.

المباشرة ولم يقتصر على الحياة الأخرى ، وإذا ما ساءلنا عما يحدث في فكر الطفل الدينى عندما يصل الى مرحلة المراهقة لوجدنا أن هناك عملية انتقال أو تحول من تلك الاستجابات التى تثيرها الضرورة الخارجية الى تلك الاستجابات التى تثيرها الضرورة الداخلية، أى من الدوافع الانانية الى الدوافع غير الانانية ، ولكن هذا لا يعنى أن نستنتج أن الشعور الشخصى بالواجب والمسئولية والاحساس بالمثل العليا والسلوك الفيرى ليست معروفة قبل هذه السن ، وأنها تظهر فجأة عند البلوغ Puberty ، وهناك كثير من الأدلة التجريبية التى تؤكد حدوث النمو التدريجى وليس النمو أو الانتقال الفجائى من مرحلة الى أخرى .

وتبدو القدرة على التجريد بتقدم الطفل فى السن ، ولقد وجدت نسبة مئوية كبيرة من الاطفال الصغار الذين وافقوا على القضية الآتية « أن الله عبارة عن شخص ما يراقبك ليرى أنك تتصرف تصرفا حسنا وهو الذى يعاقبك اذا لم تكن طيبا » . بينما كانت هناك نسبة اكبر من الاطفال المتقدمين فى السن ( ١٨ سنة ) الذين ابدوا موافقاتهم للقضية الآتية : « أن الله قوة غريبة تعمل من أجل الخير اكثر من كونه شخصا » .

وبالتقدم فى السن تبدو نزعة التسامح نحو آراء الديانات الاخرى لدى المراهقين . (٩)

ولقد وجد أن الاطفال الكبار فى السن اكثر استعدادا للموافقة على القضايا مثل : « أن الكاثوليك واليهود والبروتستانت متساوون فى الطيبة ، او ليس من الضرورى أن تذهب الى الكنيسة لتكون مسيحيا ، والمراهقون المتقدمون فى السن ( ١٨ سنة ) كانوا اقل اصرارا على أن « الناس الطيبون يؤدون الصلاة بانتظام » .

وفى احدى الدراسات التى تناولت عينة من الشباب من ( ١٦ الى ٢٤ سنة ) تبين أن ارتياد الكنيسة تنخفض بالتقدم فى السن .

**أما فكرة الطفل عن الدين** فإنها فكرة محسوسة ملموسة وينطبق هذا على صورة الملائكة والشياطين ، أما العبادات كالصلاة فإنها وسيلة الطفل الصغير فى الحصول على مطالبه . ولكن يتقدم الطفل فى العمر يدرك أن دعواته لا تجاب كلها ، فلا بد أن يؤمن بقيمة العمل حتى تجاب مطالبه .

أما المفاهيم الدينية فإن الطفل الصغير لا يفهم معناها لأن قدرته العقلية لا تقوى على ادراك المعنويات المجردة كالخير والشر والصلاح والتقوى ، ولكنه يدرك فقط الأمور الحسية الملموسة التى يستطيع أن يشاهدها ، وأن يحس بوجودها . وعندما يصل الطفل الى مرحلة الطفولة المتأخرة يستطيع أن يناقش الأمور الدينية . وبأخذ الطفل فى الاتيان ببعض الأسئلة التى تدور حول الخلق والموت والحياة والبعث وأصل العالم .. وهكذا . وفى أول الأمر يقبل ما يلقى عليه من اجابات ثم يتقدمه فى العمر يعيد النظر فيه .

(٩) Kahlen, R., The Psychology of Adolescence, Harpers and Brothers, N.T. 1952, P. 439

وفي بداية مرحلة المراهقة ميل المراهق إلى الشك في القيم الدينية التي تعلمها في مرحلة الطفولة، ويعجز عن فهم المعاني الدينية والفلسفية العميقة، ويظل يشك في هذه القيم حتى أواخر مرحلة المراهقة. وعندما يبلغ المراهق حوالي سن السادسة عشرة فإنه يتحول نحو الدين مرة أخرى، ولذلك تُعرّف هذه الفترة بفترة اليقظة الدينية.

تدل مناقشات المراهق وجدله العنيف على وجود اليقظة الدينية، حيث يميل إلى مناقشة أمور مثل الثواب والعقاب، أو الجنة والنار والبعث والخلود والقضاء والقدر والجبر والاختيار. وقد تزداد وطأة الشك الديني عندما يموت أحد أبناء أو أصدقاء المراهق المقربين. وعندما يقترب الفرد من مرحلة الرشد يتحول من الشك إلى اليقين، فيفكر تفكيراً هادئاً في الأمور الدينية؛ ويظهر عندئذ الشعور بالتسامح نحو أصحاب الديانات الأخرى (١٠).

وبالرغم من أن كثيراً من علماء النفس يزعمون أن فترة المراهقة تمر بحالة ارتباك خلقي وتطرف سياسي، وتفرق في القيم، وقبول القيم الدينية أو رفضها، ولكن هذا لا يحدث إلا بالنسبة لقلّة بسيطة من المراهقين، أما الأغلبية الساحقة فإنها تظل محتفظة بالاتجاهات الدينية التي يعتنقها الوالدان، ويعتقدون مبادئ تشبه مبادئ الوالدين في الفلسفات السياسية والأخلاق والجنس وما أشبه ذلك.

ففي إحدى الدراسات وجد أن: ٨٤٪ من المراهقين أعضاء في الكنيسة، وأن ٥٠٪ يرتادون الكنيسة بانتظام. وأن ١٠٪ لم يذهبوا للكنيسة. وأن ٧٥٪ يعتقدون اعتقاداً راسخاً في وجود الله (١١).

ويتقدم الطفل في العمر ينمو عنده الشعور بالتسامح الديني، وبالحرية الدينية religious liberalization ويحدث التحرر الديني فيما بين سن ١٢ و ١٥ سنة وعلى ذلك تزداد نسبة عدد المراهقين في هذه السن الذين يوافقون على عبارات مثل:

(١) ليس من الضروري أن تذهب للكنيسة لكي تبقى مسيحياً.

(٢) الكاثوليك والبروتستانت واليهود كلهم متساوون في الطيبة. بينما تقل نسبة الموافقة على عبارات مثل:

١ - كل لفظة في الإنجيل صادقة.

٢ - الله يراقبنا ويعاقب فاعل الشر.

• • •

(١٠) د. هؤاد البهي السيد، الأسس النفسية للنمو من الطفولة إلى الشيخوخة، دار الفكر العربي سنة ١٩٦٨.

(١١) Mussen, P.H., The psychological development of the child, Prentice-Hall, U.S.A. 1963.

### آثر الخبرة الدينية في عملية التطبع الاجتماعي أو التنشئة الاجتماعية :

هناك عوامل متعددة تلعب دورا هاما في عملية التطبع الاجتماعي أو التنشئة الاجتماعية Socialization \* من ذلك جماعة الانداداؤ والزلاء والاسرة والمدرسة والراديو والتلفزيون والصحف والمجلات والاندية والمسكرات والمؤسسات الدينية وثقافة المجتمع ككل .

منذ اهتمام استانلي هول وتلميذه دانييل Daniels ( ١٨٩٣ ) واستاربوك Starbuck ( ١٨٩٩ ) الذين كانوا يعتقدون أن التحول الديني جزء هام من خبرة المراهق منذ ذلك التاريخ ، اهتم علماء النفس بأثر الدين على النمو . حقيقة لا نعرف الا القليل عن التأثير المباشر للدين على السلوك لأن وضع محكات تعتبر مسألة صعبة . فكيف يمكن فصل الشخص المتدين عن غير المتدين لتحديد انهما يختلفان في السلوك والقيم ؟

من بين المعايير المستخدمة عبارات الفردنفسه ، هل يزعم هو انتمائه الديني او عدم انتمائه ؟

ولقد أسفرت الدراسات التي تناولت مئات الجانحين انهم يقررون في المقابلات وعلى الاختبارات النفسية أن لديهم بعض الارتباطات الدينية ، ولكن استخدام مزيد من الأسئلة يوضح أن معظم هؤلاء الجانحين لا يدخلون الكنيسة ولو مرة واحدة في السنة . وهكذا فان انتمائهم الديني Their religious affiliation هو « انتماء لفظي وليس سلوكيا » ، وعلى ذلك فيلزم محك آخر غير محك الانتماء . بل ان ارتياد الكنيسة Church attendance كما استعمل في كثير من الدراسات لا يصلح كمؤشر حقيقي لتدين الفرد الاصيل ، فهناك بعض الأشخاص الذين يرتادون الكنيسة لأسباب غير دينية كالذهاب نتيجة لضغوط الآباء أو لمجرد العادة ، أو حبا في الظهور أو الطموح الاجتماعي ، أو للشعور بالسمو أو للتمتع بالصحة الاجتماعية ، أو لمجرد قضاء وقت الفراغ أو التخلص من الشعور بالوحدة والعزلة . وهناك دراسات استخدمت اختبارات لقياس المعرفة الدينية كما فعل **مالديول** ، ولكن حتى هذا النهج لا يكشف عن الاعتقاد الديني الحقيقي ، وعلى ذلك فان النتائج التي نحصل عليها من هذه الأبحاث يجب أن تؤخذ بكثير من التحفظ ، فمعظم المعلومات تعطى معلومات من بعض الجوانب « الصورة » من الدين أو الرسمية ومن السلوك كالعلاقة بين ارتياد الكنيسة والسلوك ، ولا تعطى صورة عن الرابطة بين الانغماس العميق في الدين وفي السلوك . اننا نتوقع أن الخبرة الدينية تؤدي إلى تغيير كل الاتجاهات الاجتماعية المريضة كالاعتقاد في الإخاء بين بني الإنسان ، وتغير السلوك النوعي المحدد كما يقاس على الاختبار للفش مثلا . ( ١٢ )

(\*) تشير هذه العملية الى امتصاص الطفل لقيم المجتمع ومعاييره واكتساب أنماط السلوك المقبولة .

### اليقظة الدينية في مرحلة المراهقة :

ومن الظواهر الدينية البارزة في مرحلة المراهقة ظاهرة التحول الديني The religious conversion ولقد افترض استاربوك Starbuck منذ وقت مبكر ( ١٨٩٩ ) أن هناك علاقة وثيقة بين بداية المراهقة وبين التحول الديني. (١٣) ولكن الدراسات الحديثة لا تؤيد وجود بقطة دينية فجائية في المراهقة، وتؤكد مثل هذه الدراسات أن نمو الأفكار الدينية عملية تدريجية مستمرة تحدث بدون طفرة تصاحبس البلوغ ، أو تدفق أو انفجار فجائي يصاحب مرحلة البلوغ . وينتشر الاتجاه الديني في المراهقة بما تلقاه الطفل في المراحل السابقة من تعاليم دينية ، فكلما كانت هذه التعاليم أكثر ضيقاً أو أكثر رسمية أو صورية كان المراهق أكثر ميلاً للابتعاد عن حظيرة الدين .

وليس هناك أدلة لتأييد الفرض القائل بأن التغييرات البيولوجية في البلوغ تؤدي إلى حدوث أزمة انفعالية تؤدي بدورها إلى اليقظة الدينية religious awakening .

وتكشف الدراسات المبكرة التي أجريت في حوالى سنة ١٩٠٠م كدراسة استاربوك أن التحول الديني يحدث في السن ما بين خمسة وعشرين عاماً ، إلا أن الدراسات المتأخرة نسبياً (١٤) كدراسة **كلارك** E.T. Clark سنة ١٩٢٨م حول سيكولوجية اليقظة الدينية أوضحت أن متوسط سن حدوث هذه اليقظة هو ١٢ سنة، وهي سن مبكرة قليلاً عن بداية البلوغ ، والأكثر احتمالاً أن حدوث أى تكثيف intensification في الميول الدينية أو الخبرة الدينية يرجع إلى النضج العقلي intellectual maturation أكثر من البلوغ في حد ذاته . فلتجد **هولنجورث** L.S. Hollingworth سنة ١٩٣٣م أن تكثيف الميول الدينية يحدث في الأطفال الموهوبين عقلياً في سن الثمانى سنوات لأولئك الذين يصل عمرهم العقلي إلى اثني عشر عاماً .

إن استعراض التراث السيكلوجى يعكس وجهات نظر متباينة حيال مسألة زيادة أو نقص الشعور الديني في مرحلة المراهقة ، فتبعاً لوجهة نظر **جارسون** K. Garrison يؤدي نمو دائرة معرفة المراهق ، ونمو عادات أفضل في التفكير إلى تساؤل المراهق وتشككه في كثير من الأشياء أو الأفكار التي قبلها سابقاً دون نقد أو تمحيص .

إن شك المراهق ينشأ عن طريق بعض المبادئ والمعلومات العلمية ، وعن طريق رغبته (١٥) في اكتشاف نفسه بنفسه ومحاولته ربط العالم مع خطة الحياة العامة وذلك بتفكيره الخاص . ويؤيد **جيرسيل** هذه الفكرة بالقول بأن الأطفال يصبحون قادرين على التفكير في الأفكار المجردة عندما يصلون إلى المراهقة . أنهم يكتسبون فهماً أكثر عمقاً عن معنى دينهم ، وسوف تزداد قدرة المراهق

( ١٣ ) Carmichael, L., Manual of child psychology, J. Wiley, N.Y. 1954, P. 699.

( ١٤ ) Ausubel, D. Theory and Problems of adolescent development Grune and Stratton, N.Y., 1954, P. 270.

( ١٥ ) Garrison, K., Psychology of adolescence, Prentice-Hall, 1955 P. 162.



على اختيار وفحص معاني الأفكار والمقائيد والمبادئ والقيم التي سبق له ان قبلها عن طيب خاطر بلا نقد او تمحيص ، قبلها من الآباء والأكابر او المعلمين .

وخلافا لهذا الرأي يقول 'كول' Cole (سنة ١٩٦٤) ان الطفل يبدأ في التشكك في كل مظاهر السلطة ورموزها authority figures عند بلوغه مرحلة المراهقة وربما يعتمد عن دور العبادة ، ويثور على سلطات الأسرة والمدرسة ، وان كان هناك عدد كبير من المراهقين ما يزال يعتبر الدين مصدرا مكمنا للرضا والاثارة النفسية والانفعالية والعقلية ، ففى نظره يأخذ كثير من الاطفال بعد سن الخامسة عشرة في التفكير النقدي في المسائل الدينية ، وعند وصول مرحلة الرشد يستقر بهم الحال الى وضع غير مبال نسبيا ، وان كان اتجاههم (١٦) هو اتجاه تسامح نحو الديانات الأخرى وأربابها (١٧) . أما 'أوزابل' B. Ausubel فيرى ان التناقض الديني تثيره الاكتشافات العلمية في ذهن المراهق ، وهو تناقض سطحي ، ولا يؤثر في جوهر الإيمان الديني religious faith ولقد درس 'فورستر' F. Forrester الاتجاهات الدينية لدى مجموعة من المراهقين تتراوح أعمارهم من ١٣ الى ١٧ سنة . ووجد أنهم يرغبون في أن يصبح الدين علما ، وأنه من الأفضل ان نسلك سلوكا صحيحا عن امتلاك المقائيد الدينية الصحيحة ، وان الخدمات الاجتماعية أكثر أهمية من العبادة ، ووجد ان العناصر الصوفية في الدين mystical elements ليس لها الا جذبية قليلة بالنسبة للمراهقين .

ويمر النمو الديني في الفرد بمراحل مختلفة تختلف باختلاف عمر الفرد ، لان فكرة الطفل عن الدين تختلف عن فكرة الراشد الكبير . ففكرة الطفل الصغير عن الله فكرة مادية مجسمة مشخصة . وعندما سئل عدد من الأطفال الصغار عن فكرتهم عن الله قالوا : « انه رجل عجوز له لحية بيضاء ، ويلبس ملابس بيضاء فضفاضة » . أما التفكير الديني في مرحلة المراهقة فيمتاز بأنه تفكير نقدي ، حيث يلجأ المراهق الى نقد الأفكار التي تلقاها من الآباء والمدرسين والأكابر في مرحلة الطفولة ، وكان قد قبلها عن طيب خاطر . وللدين أهمية خاصة في مرحلة المراهقة ، حيث يلجأ المراهق للدين لكي يجد فيه مخرجا من مشكلاته ، ولكي يجد فيه السند الذي يحقق له الشعور بالأمن الذي فقدته بسبب الصراعات التي تدور في نفسه .

ويفترض بعض علماء النفس أن مرحلة المراهقة مرحلة كفر والحاد ، ولكن يبدو أن التفكير النقدي هو الذي يدفع المراهق لإعادة النظر في العقائد التي سبق له ان تلقاها ، ويساعده على ذلك زيادة نضجه العقلي وتحججه الفكري . ولقد أجرى جيلاند Gilliland بحثا على الشباب في سن المراهقة ، وتناول بالأسئلة موضوعات مثل وجود الله والخلود والمعجزات التي قام بها الأنبياء والحياة الأخرى ، والاعتقاد في وجود الجنة والنار وفي وجود الشياطين ، وتبين له ان غالبية الشباب

Cole, L. and Holl, IK, Op. Cit. P. 477.

( ١٦ )

Ausubel D., OP. Cit. P. 270.

( ١٧ )

(\*) يعتبر الدين بالنسبة لكثير من الكتاب والعلماء والفنانين مثرا عظيما لمقبرياتهم وابدانهم ونبوغهم الفني .

يعتقدون (١٨) في صحة هذه المبادئ الدينية ، ولكن هناك نسبة قليلة لا تعتقد ، ونسبة أكثر منها في حالة تردد وعدم يقين .

وهناك من المفكرين من يعتقد أن فترة المراهقة ليست فترة اضطراب خلقى أو دينى . « وعلى النقيض من الفكرة التى كانت تشيع سابقا نجد المراهقين لا يمرون بفترة من ثورة الاضطراب الاخلاقى والدينى ، ولكن المراهقين بالطبع على درجة كافية من الفهم والحكمة بحيث انهم يرون ذلك التناقض الذى يقوم بين المعتقدات المتزمتة من ناحية ، والجانب العقلى من ناحية أخرى ، وهم يتلمسون للحياة معنى وقيمة . وقد تملأ نفوسهم في بعض الأحيان تحمسا وشوقا زائدين الى اعادة تنظيم الكون . ولكن هذه المثل العليا لا تتعارض أو تتصارع مع الواقع تصارعا يؤدى الى الارتداد عن الدين أو الاضطراب الخلقى . ان النزعات الخلقية والدينية اذا ارسيت قواعدها في الطفولة تستمر الى المراهقة ثم في مرحلة الرشد عند غالبية الشبان (١٩)

• • •

### النمو الخلقى في مرحلتى الطفولة والمراهقة

#### مفهوم الأخلاق :

ينبنى تحديد المقصود باصطلاح «الاخلاق» Morality فهل الاخلاق هي ما يقرره المجتمع حتى ولو كان خطأ ؟ أم ان الاخلاق هي ما يعتبره الفرد عدلا Justice وشفقة Kindness واشارا Altruism وما الى ذلك من القيم الخلقية المطلقة ؟

لا شك ان مفهوم الاخلاق كمفهوم نابع عن المجتمع هو مفهوم دينامى في طبيعته ، بمعنى انه يتغير من جيل الى جيل ، ومن مجتمع الى آخر ، وينمو ويتطور أو يتعدل .

ويعرف هادفيلد J. Hadfield الاخلاق بالقول :

« هناك معنيان عريضان لمصطلح «الاخلاق» احدهما بمعنى الامتثال Conformity لمعايير المجتمع norms or mores وعاداته ، والمعنى الآخر هو اتباع الغايات والاهداف الصحيحة » (٢٠) النوع الاول : يجعلنا آليا نتبع العادات ونمثل السلوك الجماعى ، ونرضى بالتقاليد

Gilliland, A.R., „Changes in religious beliefs of college students " in J. ( ١٨ ) Soci. psychi, P. 37.

(١٩) جلن مايرزيلير ، ستيوارت جونز ترجمة د. احمد عبد العزيز سلامة ، د. فياه الدين ابو الحب ، سيكلوجية المراهقة للمربين ، دار النهضة العربية - القاهرة .

Hadfield, J., Child hood and adolescence, Penguin Books, 1964 P. 141. ( ٢٠ )

الاجتماعية . وطبقا للمعنى الثانى فان الفياض الصحيحة كالكرم والولاء والامانة تعدخيرة في ذاتها وينبغى اتباعها بصرف النظر عن عادات المجتمع ومعاييره . (٢١)

والاخلاق بمعنى الامثال لقيم المجتمع وانماط سلوكه تختلف من مجتمع الى آخر .

ويستخدم احيانا اصطلاح الخلق character ليعنى السلوك الخلقى moral behaviour ولكن اصطلاح الخلق يشير الى درجة التنظيم الخلقى الفعال لكل قوى الفرد . ويشير الى الاستعداد « النفسيفيزقى » الدائم الذى يقع البواض تبعاً لبلداً تنظيمى معين . ومعنى هذا الاشارة الى الاخلاق morality كخلق داخلى يكمن فى داخل الفرد نفسه . وهكذا نرى ان اصطلاح الخلق يشير الى سمات الشخصية اكثر من اشارته الى الاخلاق التى تتضمن قوة ارادية كافية لتوجيه السلوك نحو نوع ما من القيم . وتهتم الاخلاق بنوع خاص بقوى الفرد الارادية واهداف كفاحه واتجاهاته . (٢٢)

ويقصد بكلمة الاخلاق Morality من الناحية السلوكية العادات والتقاليد والآداب والمثل المرعية في مجتمع ما ، وعلى ذلك فالقيم الخلقية تختلف من مجتمع الى آخر ، كما تختلف في نفس المجتمع من عصر الى آخر ، وتختلف في نفس المجتمع وفي نفس العصر باختلاف الطبقات الاجتماعية . فالبادئ التى تصلح للمجتمع الاشتراكي لا تصلح للمجتمع الراسمالى ، كذلك اخلاقيات المجتمع الديموقراطى تختلف عن اخلاقيات المجتمع الديكتاتورى ، فالفرد الذى يعيش متكيفاً في مجتمع راسمالى يصبح غير متكيف اذا ما نقل الى مجتمع شيوعى مثلاً . وطبقاً لوجهة النظر « الامتثالية » ما على الفرد الا ان يقبل قيم الجماعة التى ينتمى اليها حتى يعيش في سلام ووثام معها، ولكن رغم وجود هذه الفروق الثقافية في مفهوم الاخلاق الا ان هناك بعض المبادئ الخلقية « المطلقة » العامة التى تصدق في كل مكان وزمان ، ومنها الصدق والامانة والولاء ... الخ .

ويعرف الخلق بأنه تكامل العادات والاتجاهات والعواطف والمثل العليا بصورة تميل الى الاستقرار والثبات ، وتصلح للتنبؤ بالسلوك المقبل . (٢٣) فالنمو الخلقى لدى الطفل يسير من مجرد الرغبة في تحقيق اللذة والسعادة الى التقيد بالمبادئ الخلقية والاجتماعية السائدة في المجتمع الذى يعيش فيه الطفل .

ويتقدم الطفل في العمر تتحول القوى الراضعة من كونها قوى خارجية اى صادرة من الخارج ، من الآباء والأمهات والمدرسين ، الى ان تصبح قوى ذاتية داخلية هي ضمير الطفل ، ويتكون هذا الضمير عن طريق امتصاص قيم الآباء واكتسابها، وبذلك تصبح معايير الطفل نفسه .

(٢١) راجع كتاب « علم النفس ومشكلات الفرد » للكايب ، منشأة المعارف بالاسكندرية ، لمعرفة الاتجاهات المختلفة في تحديد السواء والانحراف .

(٢٢) يختلف معنى الاخلاق بالمعنى السلوكى كمادات فردية وجماعية من الاخلاق بالمعنى الفلسفى ethics او كعلم الاخلاق .

(٢٣) دكتور فؤاد البهي السيد ، الاسس النفسية للنمو من الطفولة الى الشيخوخة ، دار الفكر العربى بالقاهرة / ١٩٦٨ .

### ويقودنا هذا الموضوع الى التساؤل ايهما تصبح له القيمة العليا والمطلقة : الفرد أم المجتمع؟

في ضوء الخبرات المستمدة من المجتمعات الديمقراطية والدكتاتورية يتضح ان الامل الوحيد في الإصلاح والتقدم يكمن في النشاط الحر لأعضاء المجتمع . وليس هناك ضرورة لاتخاذ موقف دون آخر في ايهما تكون له السيادة : الفرد أم المجتمع ، اذ الواقع انهما يعتمدان على بعضهما البعض ، وهناك علاقة تفاعل قوية بين الفرد والمجتمع . فصلاح المجتمع من صلاح افراده وصلاح الافراد يؤدي الى صلاح المجتمع برمته .

ومن الناحية السيكلوجية فان مفتاح الاخلاق هو شعور الفرد بالواجبات والالزام في كل من الفكر والعمل .

وعلى ذلك فان السلوك الذي يقوم به الفرد خوفا من عقاب المجتمع ليس خلقيا بالمعنى السيكلوجي ، ويصبح خلقيا عندما يصدر عن شعور الفرد بالواجب أو بالولاء أو العطف أو الشفقة أو الرحمة أو الحب أو الشرف وغيره من الانفعالات المشابهة . ولكن هذه الانفعالات ليس من الضروري ان تكون صحيحة اجتماعيا ، ذلك لانها قد تنشأ اصلا من الاخطاء التي يرتكبها المجتمع ضد افراده .

ولا يمكن قبول الافتراض ان الانسان خير محض أو شر محض ، انما تسود آراء الكثيرة من العلماء بان في الانسان الشر والخير معا ، وتفتح هذه الفكرة الافاق واسعة امام المجتمع ومنظماة التربية لتنمية الجوانب الخيرية في الانسان وسيطرتها على جوانب الشر فيه . وتلعب الاساليب التربوية دورا هاما في توضيح مفاهيم الخطأ والصواب ، وخاصة لدى أولئك الذين يعتبرهم الخلط وعدم القدرة على التمييز بينهما . فكثر من الناس ، وخاصة الشباب ، يقفون موقف الحيرة ازاء الوعظ والارشاد من قبل الكبار من ناحية وسلوكهم الفعلي المعلى من ناحية اخرى . على ان مجرد المعرفة النظرية بالخير أو الشر لا تتضمن بالضرورة عمل الخير . المهم هو الارادة التي تفعل الخير وتتجنب الشر الى جانب ضرورة توافر الامكانيات البيئية والانفعالية والجسمية لممارسة الخير . فلقد وجد ان قوة الارادة تتأثر بتعاطي الفرد بعض العقاقير . (٢٤)

### الانماط الظلية :

يصنف الناس احيانا الى انماط خلقية مختلفة تبعا لنوع الاخلاق الذي يتبعونه :

١ - النمط النفمي The expedient type وفيه يسلك الفرد فقط سلوكا خلقيا للحصول على اغراضه الذاتية .

٢ - النمط الامتثالي conforming type وهو النمط الذي يفعل صاحبه ما يفعله الآخرون ، وما يقولون أنه ينبغي عليه أن يفعله .

(٢٤) Johnes, V., Character development in children : an objective approach, in Manual of child psychology, ed. by, Carmichael, L., P. 821.

٣ - النمط العقلي أو النمط ذو الضمير الحي The rational or conscientious type  
وله معايير الخاصة الداخلية في الصواب والخطأ

وتبعاً لهذه المعايير يحكم على تصرفاته . وهو نمط إثاري altruistic ويمثل على مستويات الأخلاق . وله مجموعة من المبادئ الخلقية الثابتة المستقرة والتي توجهه . أنه عقلاني وواقعي Realistic في تقويمه لما هو خير له ولغيره من الناس (٢٥) . وهو غير مضطر لعمل كثير من التفسيرات والتأويلات الخلقية لأنه يتبع «حرفية» القانون الخلقى ، أما الشخص النسبى في مذهبه الخلقى relativist فإنه يأخذ في الحساب النوايا والدوافع والإصرار أو التعمد والنتائج العملية لعمله ، وكما يقول فروم E. Fromm في ضوء الأخلاق السلطوية تضع السلطة \* ما هو خير للإنسان ، وتضع القوانين والمعايير للسلوك ، أما في الأخلاق الإنسانية فالإنسان نفسه هو موضوع المعايير وهو الذى يضع هذه المعايير ، أنه مصدر المعايير والمسئول والمنظم ، وهو أيضاً الموضوع الذى تنطبق عليه هذه المعايير . (٢٦)

#### خصائص الفكر والسلوك الخلقى في الطفولة والمراهقة :

يضاف الى المشاكل السابقة مشكلة عمومية المبادئ الخلقية أو خصوصيتها ، بمعنى هل يكون الطفل الأمين في البيت آميناً في المدرسة وفي النادي وفي العمل وفي الامتحان وفي اللعب وفي جميع المواقف والأماكن أم ان الأمانة تتوقف على الموقف الذى يوجد فيه الفرد ومقدار حاجاته الى «الفش» مثلاً ؟ وعلى دوافع الفرد وحاجاته ؟ لقد دلت دراسة هارتشورن وماى (١٩٢٨) Hartshorne and May على عدم وجود ارتباط ذى دلالة بين الفش في المدرسة والفش في المنزل Cheating at home and at school ، ولكننا اذا أخذنا الأخلاق بمعنى الشعور بالذنب لتجنبنا الصعاب الناتجة من الاتجاه الامتنالى السلوكى ، اذ من الممكن ان يخضع الفرد للأغراء Temptation ومع ذلك يشعر بالذنب نتيجة لامتلاكه معياراً داخلياً .

يسير الطفل في بدء حياته بمنطق « اللذة » أى أنه يميل الى تكرار السلوك الذى يجلب له اللذة المباشرة ويجنبه الألم . ويتكون ضمير الطفل من طريق مجموعة الأوامر والنواهى التى يتلقاها من الوالدين اللذين يقومان بوظيفة الضمير في بدء حياة الطفل . فالطفل الصغير لا يسرق لأن «ماما» تقول لا تسرق ، ولأن السرقة تفضب « ماما » .

Jersild, A., The Psychology of adolescence, P. 368.

( ٢٥ )

Fromm, E., Man for himself : an inquiry for the psychology of ethries,

( ٢٦ )

Rinehart, N.Y 1947.

(\*) داجع أنواع القيادة وأثر كل منها على السلوك والشخصية في كتاب المؤلف « علم النفس الاجتماعى » دار النهضة العربية - بيروت .

### وهنا ينبغي أن نتساءل عن العوامل التى تؤثر فى مجرى النمو الخلقى فى حياة الطفل ؟

#### العوامل المؤثرة فى النمو الخلقى :

لقد تساءل كثير من الكتاب : هل يرجع السلوك الخلقى الى الوراثة أم الى البيئة والاكتساب ؟ يحتوى التراث السيكولوجى على كلا الاتجاهين أى الاتجاه الوراثى والاتجاه الاكتسابى . ومن بين الدراسات العديدة التى تؤيد العوامل الفطرية فى الأخلاق The innate factors دراسة الأسر التى انتشر الجنوح والأجرام بين أعضائها بكثرة كبيرة عبر الأجيال المتعاقبة (٢٧) . ولقد افترض قديما بعض العلماء وجود حس خلقى داخل الإنسان، ولكن إذا كان للأخلاق حس مستقل فإين يقع هذا الحس من الجسم ؟ وفى غضون القرن الثامن عشر سادت حركة طبية ففترض أنه نتيجة لصابة الفرد بمرض ما فإنه يفقد حسه الخلقى ، بينما تبقى قواه العقلية سليمة ، واطلق على هذه الحالة المرضية اصطلاح الجنون الخلقى moral insanity (٢٨) ويفترض هنسرى مودسلاى Henry Maydsley أن معظم المجرمين الصغار ضعاف اخلاقيا فى القوة الخاصة بتكوين الحدس الخلقى ، وكان يعتقد أن الطفل قد يكون ماهرا عقليا ولكنه أعمى خلقيا ، وأن هذا الضعف الخلقى الموروث يبدو أنه ينتشر فى أسر معينة عبر الأجيال المتعاقبة . ومن ناحية بناء الشخصية وجد أن كثيرا من الاعراض السيكوباتية والعصابية ترتبط بالجنوح (٢٩) وكان لمجوروزو Cesare Lombroso يعتقد بوراثية الاجرام . ويعتقد بعض الناس بأن الطفل يولد مزودا بضمير معين يساعده على التمييز بين الصواب والخطأ ، بل يزعم البعض أن الطفل يرث بعض السمات الخلقية المحددة كالامانة والصدق ، ولكن هذه الفكرة تخلص الآباء والمعلمين من مسؤولياتهم ازاء تربية الطفل تربية خلقية سليمة حيث لا يعزون السلوك غير المرغوب الى فشلهم وانما الى نقض وراثى أو فطرى لا يمكنهم التغلب عليه .

ولكن الضمير فى واقع الامر يتكون خلال الشعور بالالتزام او بالواجبات الاجتماعية ، تلك العمليات التى تحول الضبط الخارجى الى ضبط داخلى (٣٠) . يقول وليام مكدونجل McDougall مؤيدا لاتجاه الوراثى للعقل البشرى : ان هناك نزعات فطرية او مورثة هي المنابع الاساسية او القوى الدافعة لكل من الفكر والسلوك ، وهي الاساس الذى تنمو عليه خلق وإرادة الافراد والامم بالتدرج تحت توجيه الملكات العقلية (٣١) .

(٢٧) Kanner, L., Child Psychology, Charles C., Thoms, U.S.A. 1957, P. 679.

(٢٨) Burt, C., The Young delinquent, univ. of London, Press, 1957 P. 34—40.

(٢٩) Ibid.

(٣٠) Hawkes, G.R., Behaviour and development from 5-12 Harpers and Brothers, N.Y. 1962, PP. 122.

(٣١) لم تعد فكرة الملكات متبولة فى الفكر السيكولوجى الحديث واصبح ينظر للعقل البشرى على انه وحدة .

اما فرويد Freud فيرى ان غريزتي الجنس والحفاظ على الذات هما العنصران الاساسيان في الدافعية الانسانية human motivation وتتضمن غريزة المحافظة على الذات ، من بين ما تتضمن حماية معايير الفرد الخلقية والاجتماعية ويفترض Adler وجود نوعين مسئولتين عن ارتباط الانسان باخيه الانسان ، وهما :

١ - الرغبة في القوة الشخصية والسمو .

٢ - الشعور الاجتماعي .

ولكن مثل هذه الاتجاهات التي تختزل الدافعية الانسانية في شكل عامل او عاملين بالغ في تبسيط التنظيم الدافعي في الانسان .

وتدلنا الدراسات الانثروبولوجية التي تناولت بعض المجتمعات البدائية على ان القيسم الخلقية ليست عالمية ، ومن ثم ليست موروثية ، وعلى سبيل المثال فان مجتمع الارابيش Arapash ليس في حاجة الى كثير من الوسائل التربوية التي تروضه على ممارسة السلوك الخلقي ، وانما يظهر هذا المجتمع كثيرا من مظاهر الايثار والتضحية (٣٢) لتقائيا .

وفي مجال تأييد وجهة النظر الوراثية في نمو القيم الخلقية ربما نشر الى الفروق الملاحظة بين الذكور والاناث في الاخلاق . فلقد وجد ان الاناث اكثر تأثرا بالنداء الانفعالي في الحياة الدينية ، بينما الذكور اكثر جذباً بالشرف والعقاب الخلقي والنشاط الاجتماعي . وبالنسبة للعدوان فلقد اعطى بايز وماريكارد Bize and Maricard ( ١٩٣٧ ) حقنا من الهرمون المنشط للذكور لعدد من الصبيان الصغار ووجد زيادة واضحة في العدوانية في كل العلاقات الاجتماعية . كذلك اعطى كلارك وبرش Clark & Birch هرمونات ذكورة وانوثة لقرود ذكر ، ووجد ان الهرمون الذكري يؤدي الى زيادة السيطرة الاجتماعية عند الحيوان ، وان الهرمون الانثوي يؤدي الى خضوع الحيوان ، ويؤكد هذا فكرة زيادة النزعات العدوانية في الذكور عنها في الاناث . وفي مجال الفروق الجنسية في الاخلاق ايضا هناك ما كشفت عنه دراسة تيودور - هات Tudor-Hart حيث وجد ان الاناث يلقين اكثر من الذكور كثيرا من الاكاذيب التقليدية مثل : امي ليست في المنزل (٣٣)

انا سعيدة لرؤيتك .

لقد قضيت وقتا ممتعا في حفلتكم ؟

مثل هذه الاكاذيب اعتبرتها نسبة اكبر من البنات عن البنين « ضرورية » كذلك اعتبرت نسبة اكبر من البنات الاكاذيب الاجتماعية « ضرورية » ( نسبة ٣٢ في مقابل ١٨ ٪ من الذكور ) ومن

(٣٢) Mead, M., Sex and temperament in three primitive societies, Routledge and Kegan Paul, 1948, P. 137.

Jones, V., OP. cit.

أمثلة الأكاذيب الاجتماعية « الكذب للاحتفاظ بالأسرار » و « الكذب لحماية من الغرامة » وما إلى ذلك . وفي دراسة شيلي Sheelly (١٩٤٨) التي تناولت ٨٠٠ طفل تتراوح أعمارهم من ٩ إلى ١٦ سنة وجد الذكور أكثر عدوانا وسيطرة وأقل خوفا وأكثر تفاخرا عن الإناث اللاتي كن أكثر شكا وخيالا ، وأكثر خضوعا وطاعة للضوابط الاجتماعية ، ولقد وجدت نسبة الذكور إلى الإناث في الأحداث الجانحين الأمريكيين تساوى ٦ - ١ .

ولكننا يجب أن نلاحظ أن هناك فروقا كبيرة في نوع الجرائم التي يرتكبها أفراد كل جنس ، كذلك هناك فرق في المستويات الخلقية التي يضعها المجتمع على أفراد كل جنس . فالمعروف أن الأسرة أكثر تسامحا في قبول المخالفات التي يرتكبها الولد الذكر . كذلك فإنه يفترض أن الأب - أكثر من الأم - هو الذي يمثل السلطة الخلقية الرئيسية في الأسرة ، وأنه أيضا الموضوع الخلقى الذي يتقمصه الولد والبنات على حد سواء . أن الأب أكثر تمثيلا للمعايير الاجتماعية ، وهو أكثر قدرة على القيام بعملية الضبط والربط في الأسرة .

وفي هذا الصدد افترض فرويد أن الذات العليا أو الضمير في النساء أضعف منها في الرجال . ويرجع السبب في ذلك إلى بقاء البنات مدة أطول من البنين في مرحلة جمود عقدة الكترا Electra\* .

وخلافا لوجهة نظر فرويد هذه يعتبر تيرمان وتيلور أن البنات يمثلن أكثر من البنين لقواعد الآباء والسلطة . كذلك تعاني البنات من مشاكل مدرسية ومنزلية أقل من البنين ، وإن نسبة جنوح الأحداث بينهن أقل من مثيلتها عند البنين . وفي دراسة ثرستون وكيف Thurstone and Chave عن الاتجاه نحو الكنيسة وجد أن النساء أكثر استعدادا للذهاب للكنيسة من الرجال . (٣٤)

ويرى فرويد Freud أن الإحساس بالعدل وغيره من القيم الخلقية أقل في النساء منه في الرجال ، ويرجع ذلك في نظره إلى طرق تكوين الذات العليا عندهن ويقول فرويد : « إن السمات الخلقية التي أثارها النقاد في كل الأزمنة ضد النساء - أي أن إحساسهن بالعدل أقل من إحساس الرجال ، وأنهن أقل استعدادا للخضوع لضرورات الحياة الهامة ، وأنهن أكثر تأثرا في أحكامهن بمشاعر الحب والعداوة - كل هذا يفسر بالرجوع إلى التعديلات التي تحدث في تكوين ذواتهن العليا » .

ويبدو أن تعاطف الإناث ينتج من جوانب شخصية أكثر من المبادئ والقيم المجردة . وفي هذا الصدد يقال أن النساء يتأثرن في الأحكام الخلقية والجمالية بالأسلوب والشعور أكثر من التأثير بالعقل .

(٣٤) Thrustone, L. and Chave. E., The measurement of attitudes. The University of Chicago Press, 1951.

(\*) تشير هذه الحالة إلى ارتباط الفتاة بأبيها مع كراهية الأم والشعور بالفرة نحوها ، وتقال عقدة أوديب في الطفل الذكر التي تشير إلى ارتباط الطفل جنسيا بأمه والفرة من الأب وما يصحب ذلك من شعور بالذنب والصراع الإنفعالي لدى الطفل .



ولقد وجهت انتقادات عديدة لفكرة وراثية الأخلاق ، فعلى سبيل المثال ، وجد هارتشون ومائ أن الامانة تختلف باختلاف المواقف . فالطفل قد يكون آمينا في المدرسة خائنا في المنزل . ويؤكد الاتجاه البيئي في نمو الاخلاق دور الاسرة والمدرسة والمسجد والكنيسة أو الجماعات البشرية ، كجماعة الاصدقاء والزملاء والحركة الاجتماعية ووسائل الاعلام والاتصال الجماهيري كالراديو والتلفزيون والسينما والمسرح والصحف والمجلات معا يؤكد اثر المنزل على الاخلاق ، ما وجد في اجدى الدراسات من أن ٨٧٪ من الاناث الجانحات اتين من بيوت محطمة ، حيث يقل تأثير المنزل ، وتقل فرص تدريب الطفل على السلوك الخلقى .

وفي دراسة اخرى وجد ان ضعف التدريب والتأديب كان سببا في ٩٠ ٪ من الانحرافات السلوكية . ولا شك أن الطفل يبنى مفهومه عن الصواب والخطأ من الأمثلة التي يتلقاها من الكبار الراشدين . ولقد وجدت معاملات ارتباط كبيرة نسبيا بين فكرة الأطفال عن الصواب والخطأ وبين افكار الكبار المحيطين بهم وكانت معاملات الارتباط كما يلي :

#### معامل الارتباط

الأطفال والآباء	٠.٥٥
الأطفال والاصدقاء	٠.٣٥
الأطفال ومعلمو الأندية	٠.١٤
الأطفال والمدرسون	٠.٠٦
الأطفال ومعلمو مدارس الاحاد	٠.٠٢

ويبدو أن الآباء لهم أكبر قدر من التأثير في تكوين مفهوم الطفل عن الخطأ والصواب . ولقد تبين انه كلما زاد اتصال الطفل بالتصاقا بالكبار زاد تأثيرهم عليه وعلى سلوكه ، وتلعب علاقات الحب والعطف والحنان والدناء دورا هاما في تنمية الضمير القوي في الأطفال .

فأسلوب التربية القائم على أساس الصبر الذى يؤدى الى تنمية الضمير . اما الحماية الزائدة أو الخضوع لرغبات الطفل المبالغ فيها فانها يؤدى الى زيادة نزعات الطفل نحو العصيان والطغيان والمبالغة في المطالب . اما الأطفال الذين خضعوا لسيطرة الأمهات والتحكم الزائد والتأنيب المبالغ فيه والذين كانوا يمنحون المكافأة لخضوعهم التام ، أصبحوا منسحبين وخجولين . (٣٥)

ويعتبر المنزل من اقوى المؤسسات الاجتماعية في نقل ثقافة المجتمع للطفل ، انه يكمل وظائف المؤسسات الاجتماعية الاخرى كالحكومة والمدرسة والمسجد . بل انه يبدأ في « عمله هذا » قبل أن يبدأ الطفل في الاحساس بدور هذه المؤسسات . كذلك تلعب المدرسة دورا هاما في

نمو السلوك والقيم الخلقية في الطفل ، فلقد لوحظ أن السلوك الخلقي للأطفال يتدهور عندما تضعف الإدارة المدرسية .

ولكي يمارس الطفل السلوك الصواب لابد من معرفة الصواب والخطأ والتمييز بينهما ، وليس هذا التمييز أمرا سهلا ، إذ يختلف الأفراد في تقدير الصواب والخطأ . ففي إحدى الدراسات قررت ٩٠ ٪ من مجموعة من الأطفال الصفار أن ٩ مواقف من مجموع ٦٤ موقفا مدرسيا هي مواقف صحيحة أو صواب ، وعندما حكم المدرسون على هذه المواقف قرروا أن ١٢ موقفا صحيحة فقط ، وقرر هذه النتيجة ٩٠ ٪ من المدرسين ، وعلى الرغم من أن المعرفة النظرية بالصواب والخطأ لا تضمن بحد ذاتها ممارسة الصواب وتجنب الخطأ إلا أن المعرفة مهمة ، لأن الفرد لا يختار الصواب في موقف لا يعرفه ، اللهم بمحض الصدفة البحتة . (٣٦)

ومن العوامل المؤثرة في السلوك الخلقي ارتياد أماكن العبادة ، فلقد وجد أن للخبرة الدينية أثرا كبيرا على النمط القيمي للأطفال وللشباب . ولقد وجد « هارتشون وماي » أن مقدار الفش يقل بارتياح الكنيسة . كذلك وجد أن الأطفال الذين يرتادون الكنيسة يحصلون على درجات أعلى في اختيار « مساعدة الغير » أو النزعة نحو مساعدة الآخرين .

وبالنسبة لأثر المجتمع أو الحياة الاجتماعية ككل يقول عالم الاجتماع الفرنسي دوركايم Durkheim « أن الحركة الاجتماعية العظيمة هي التي تخلق الجريمة . ففي الماضي كان الناس يرتبطون بروابط وثيقة بأسرهم التي كانت توحد وتضبط سلوكهم . » (٣٧)

ولقد أدى النمو الاجتماعي إلى النزوح للمدن الكبرى وتحطيم الروابط الأسرية القديمة ، وأصبحت الوظيفة أو المهنة تمارس بعيدا عن دائرة الأسرة ، ولقد تحلت القيم القديمة دون أن يبتكر غيرها ، فأصبح هناك فراغ قيمي يحتوى الفرد المعاصر . لقد أصبح أبناء المجتمع الحديث أكثر عزلة وانسحابا ومن ثم ضعف التأثير الاجتماعي عليهم .

كذلك تؤثر الطبقة الاجتماعية على نوعية الأخلاق التي تنمو في الطفل ، فلقد وجد أن أطفال الطبقات الاجتماعية والاقتصادية الدنيا أكثر تسلطا في اتجاهاتهم ، فقد طالبوا بانزال العقاب ، كملاص لعمل الخطأ أكثر من أطفال الطبقات العليا . ولقد وجد أن أطفال الطبقات الدنيا ينظرون للسلوك في ضوء الصبح والخطأ ، بينما يحكم أطفال الطبقات العليا على السلوك طبقا لنتائج العملية . كذلك وجد أن أطفال الطبقات الاجتماعية الدنيا كانوا أكثر قبولا وتسامحا أزاء الأفعال الخاطئة ، وذلك بالمقارنة بأطفال الطبقات العليا ، وعلى سبيل المثال عندما سئلوا عما إذا كان « السكر » خطأ ، كانت هناك النسب المثوبة الآتية التي اقترت أن السكر خطأ :

٥ ٪

أطفال الأحياء الشعبية القدرة

Ibid	(٣٦)
Ibid	(٣٧)

١١٪	اطفال مناطق نصف قدرة
٢٠٪	اطفال الطبقة الاجتماعية المتوسطة
٣٤٪	اطفال الطبقة الاجتماعية العليا

ولقد فسر هذا بأن أبناء المناطق الشعبية المتدنية المستوى أكثر الغلة مع السكر من زملائهم من أبناء الطبقات العليا .

ويقترح بريكنريدج Breckenridge العوامل الآتية كأساس للنمو الأخلاقي الجيد :

١ - صحة جسمية جيدة لمقاومة الاغراء ، وللتحرر من الشعور بالمرارة أو النقص ، ومن وجود دوافع الانتقام .

٢ - الأمان الانفعالي لامكان الشعور بالحب تجاه الآخرين .

٣ - توفر وظيفة مناسبة ومنافذ للتعبير أو التصريف .

٤ - تدريب مستمر في التحكم والضبط الذاتي للمساعدة في التخلص من البواعث الطفلية .

٥ - وجود افق اجتماعي مستمر الاتساع لتنمية القدرة على اكتساب المعارف ، وعلى التسامح وعلى التعاطف ، وعلى الفهم وتنمية الرغبة الاصلية لتقدير حقوق وواجبات الناس الآخرين .

٦ - الطموح نحو الرغبة القسوية في عمل الصواب ، بحيث يجد الفرد الشعور بالرضا والسعادة نتيجة لعمل الصواب . وفي النصاب ما ينمو هذا الطموح نتيجة للتعاليم الدينية . (٣٨)

**ولا يمكن تخيل حدوث النمو الخلقى بمحض الصدفة ، بل انه يحتاج الى جهود واساليب مدروسة ، ويتطلب تخطيطا دقيقا للمواقف التي تضمن التعاون والضبط الذاتي ، ونمو روح الجماعة .** كذلك ينبغي تشجيع الطفل على تعميم المبادئ الخلقية ، ويمكن اشراك التلاميذ في مشروعات خدمة البيئة لتنمية الشعور بتحمل المسؤولية وتقدير الصالح العام وحمايته . وإلى جانب المؤثرات الخارجية ففي مرحلة المراهقة توجد دوافع داخلية نحو التعاون ونحو تقدير العدالة ونمو الشعور بالولاء للجماعة والقواعدهم وغير ذلك من المبادئ السلوكية المثالية . ففي المراهقة تنمو النزعات المثالية والنزعة نحو اصلاح العالم ونحو البذل والتضحية الذاتية ، وينبغي توجيه هذه المثالية نحو السلوك الخارجى الحقيقى كما ينبغي اشعار المراهقين بانهم مرغوبون ومطلوبون كما ينبغي ان يجدوا المنافذ الإيجابية البناءة لتصريف طاقاتهم الزائدة . وأخيرا فاننا في معرض الجدل بين تأثير البيئة والوراثة ، ينبغي انؤكد بان الانسان يتأثر بكل من البيئة والوراثة معا ،

وان العلاقة بين البيئة والوراثة هي علاقة تفاعل، أى تأثير متبادل قوى ، ولكننا ينبغي ان نضع مزيدا من الاهمية للعوامل البيئية، لأن ذلك سوف يوسع من قدرتنا على مساعدة الاطفال نحو النمو الجيد ، والإيمان بإمكان اصلاح الاعوجاج . ان ارجاع السلوك الانساني الى العوامل الوراثية وحدها يضيق من امكانية تعديل السلوك المنحرف وتوجيهه نحو الصواب . ولاشك أن ما يولد به الطفل من استعدادات وامكانيات يمكن صقلها وتشكيلها وتوجيهها وحسن استغلالها عن طريق الخبرات التى يمر بها الطفل ، والفرص التى تتاح له ، والإشراف الذى يلقاه .

### المثال والقذوة :

#### كيف يختار الطفل الصغير مثاله الأعلى الذى يقتدى به ؟

نتيجة لالتصاق الاطفال الصغار بأبائهم فانه يختارون منهم مثالهم الأعلى . وفى احدى الدراسات وجهت للأطفال الاسئلة الآتية :

- ١ - من هو الشخص الذى تعجب به أشد الإعجاب ؟
- ٢ - من هو الشخص الذى ترغب أن تشبهه من هؤلاء الناس الذين تعرفهم أو سمعت أو قرأت عنهم ؟

ولقد اختار الاطفال الصغار ( سن ٦ - ٧ سنوات ) مثالهم الأعلى من بين أفراد الدائرة الضيقة لمعارفهم كالآباء والأمهات . وعلى حد قول فالتين : « بازدياد السن تنسع خبرات الطفل، وبذلك يصبح الأشخاص الذين يختارهم الطفل مثالا أعلى من بين الأشخاص الذين قرأ عنهم فى التاريخ أو فى الأدب أو فى الإنجيل ، أو من بين الشخصيات العامة الشهيرة . (٣٩)

على كل حال وجد أنه بعد سن الثالثة عشرة يعود الطفل للاختيار من دائرة المعارف المقربين . ومن المعروف أنه بالتقدم فى السن ينمو اتجاه التسامح نحو المذاهب الدينية المختلفة وأربابها ، كما تنمو نزعات الشك والنقد تجاه العقائد الدينية التى تعلمها الطفل من قبل .

ولقد وجد معامل ارتباط سالب بين عامل العمر الزمنى وبين قبول المعتقدات الدينية .

كذلك كلما تقدم المراهق فى السن زاد قدرة على التفكير فى الأمور المجردة ، وكلما قلت نزعته نحو « الأخلاق الموضوعية » أو الواقعية أو المطلقة حلت محلها الأخلاق النسبية ونمت نزعات التحرر والمرونة فى وجهات النظر .



### مراحل النمو الخلقي :

على الرغم من أننا نستطيع أن نحدد مراحل معينة للنمو الخلقي ، إلا أن النمو الخلقي ، كغيره من مظاهر النمو الأخرى ، يحدث تدريجياً فجائياً ، وليس هناك انتقال فجائي أو طفرى من مرحلة إلى أخرى ، فالطفل لا يتحول من الطفولة إلى المراهقة بين عشية وضحاها ، بل إنه من الممكن أن يحدث نوع من النكوص regression أو الارتداد من مراحل متقدمة إلى مراحل سابقة عندما يتعرض الفرد لصعوبات نفسية حادة ، فالنمو لا يسير باستمرار في خطوط مضطردة . كذلك هناك فروق فردية واسعة individual differences في الوصول إلى أى من هذه المراحل ، ولا توجد فواصل حاسمة فاصلة وقاطعة بين هذه المراحل ، ولكنها تتداخل فيما بينهما (٤٠) .  
جيرسيلد Jersild حركة الانتقال من مراحل أقل نضوجاً إلى المراحل الأكثر نضوجاً في النمو الخلقي بما يلي :

- ١ - المفهوم العام لما هو صواب ولما هو خطأ يحل محل القواعد النوعية المحددة .
- ٢ - المعايير الداخلية تحل تدريجياً محل الطاعة للأوامر والنواهي الخارجية .
- ٣ - زيادة فهم ( قواعد المباراة ) نتيجة الاحترام المتبادل والموافقة أكثر من كونه نتيجة لطاعة الأوامر التمسكية .
- ٤ - نمو قدرة متزايدة واستعداد أكبر لاختلاف الظروف المحيطة بالسلوك الخاطئ في الاعتبار بدلاً من الحكم الآلى على العمل الخلقي .
- وبالنسبة للسلوك الانساني ككل يمكن النظر إليه على أنه يسير تبعاً لمستويات أربع يمكن أن نتخذ دليلاً على النمو الخلقي للطفل ، هذه المستويات هي :
- ١ - السلوك غير المتعلم أو السلوك الغريزي يتعدل بالنتائج الطبيعية للسلوك ، ومن أمثلة ذلك تعلم الطفل تلقائياً ألا يصدم رأسه ضد الأشياء الحادة أو الساخنة .
- ٢ - الثواب والعقاب كما يمارسهما الآباء والمعلمون وغيرهم من الكبار ، أى الضوابط الخارجية .
- ٣ - القبول وعدم القبول الاجتماعي وخاصة من قبل الجماعة التي ينتمى إليها الطفل .
- ٤ - الإيثار حيث تحرك الفرد وتسيره الرغبة في عمل الخير العام ، ويمثل هذا أعلى المستويات الخلقية .

(٤٠) د. عبد الرحمن عيسوى ، معالم علم النفس ، دار المطبوعات الجامعية - الإسكندرية .

وفي الطفولة المبكرة يكون سلوك الطفل ليس خلقيا أو لا اخلاقيا ، ان حاجات الطفل الرضيع تشبه حاجات الحيوان ، بمعنى انها فيزيقية حسية ومباشرة ، فيحاول ان يحصل على الاشباع المباشر لحاجاته وان يتجنب الألم . وفي محاولاته لاشباع حاجاته يكون الطفل الصغير انانيا متسلطا ومن خلال شعوره بالدفع والبرد والامتلاء والفراغ يحصل الطفل الصغير على الشعور بالخبرات الجيدة والخبرات (٤١) الرديئة .

ولقد ميز **بياجية Piaget** بين نوعين من الاخلاق :

١ - النوع الأول الذي يظهر مبكرا ، او هو ما اطلق عليه اصطلاح ( الأخلاق الموضوعية ) **objective morality** وهنا تكمن الصحة والخطأ في بعض مظاهر السلوك ، ويمكن ادراكهما موضوعيا ، وهما بينان او واضحان لهما ، فالطفل الصغير يعتقد ان أى شخص يستطيع ان يدرك خطأ اخذ أى شيء يخص الغير او يخصص شخصا آخر ، وتبعاً لراى **بياجية** فان الاطفال في سن الثماني سنوات يحكمون على أى سلوك تبعاً لنتائجه بصرف النظر عن الدوافع او النوايا . التى تكمن وراء السلوك . وعلى ذلك فالطفل الذى كسر ، عرضاً او مصادفة او قضاء وقدر ، عشرة أطباق هو أكثر « شقاوة » او خطأ او مشاغبة من ذلك الطفل الذى كسر عامدا متعمدا كوبا واحدا . ويعرود الزمن يصبح الطفل قادرا على استيعاب الافكار المجردة حول الخير والشر بوجه عام .

ويعتقد **بياجية** ان هناك انتقالا من الضبط الخارجى ومن الواقعية الخلقية الى النسبية الخلقية .

حيث يصبح حكم الطفل الخلقى نسبيا وليس حرفيا . يبدأ الطفل في تكوين فكرته عن الصواب والخطأ عن طريق اكتشافه ان اشباع حاجته في الحب والدفع لا يتأتى الا عن طريق ارضاء امه ، وعن طريق الحصول على موافقتها ، وهذا يضع الأسس الأولى نحو التعامل مع الناس ، فموافقة او رفض الآباء تمثل الجدور الأولى للمعايير الخلقية . وفي دراسة هارتشون وماى وجد ان الاطفال من سن تسع سنوات يعملون طبقا للخير العام ويتعاونون فيما بينهم وتثيرهم دوافع الاحسان .

ويقرر **الج Ilg** ان الطفل عند سن ثمانى سنوات يستطيع ان يميز بين الخطأ والصواب والخير والشر ، وفي الفترة ما بين ٥ ، ٧ سنوات تحدث زيادة في السلوك التعاونى وفي ادراك الحقوق الآخرين .

وعلى الرغم من أن الجنوح يزداد انتشاره في مرحلة المراهقة ، الا ان جلوده الأولى ترجع الى الطفولة المبكرة ، ولاشك ان النمو الداخلى الخلقى عامل اساسى محدد في ازالة السلوك

الجائع . في الطفولة المبكرة لا يدرك الطفل الصراع \* بين الأمانة والولاء للاصدقاء . وكلما تقدم الطفل في السن كان أكثر وعياً وإدراكاً لهذا الصراع ، وكلما تقدم الطفل في السن أيضاً كان أكثر قدرة على إدراك المطالب الثقافية والتوقعات الاجتماعية .

أما عن تطور الحكم الخلقى عند الطفل ، ففي مرحلة الطفولة المبكرة يسير الطفل حسب ما أسماه بياجيه « الخلقية الموضوعية » ومعنى ذلك أن العالم عبارة عما نشاهده فقط ، وليس هناك وجهات نظر متعددة ، وليس هناك نسبة ، فالأشياء إما بيضاء أو سوداء ، صواب أو خطأ ، فعلى قدر فهم الطفل فإن الآباء في نظره يعرفون كل شيء ، فإذا قالوا أن هذا خطأ فإنه خطأ ، فكل ما يقوله الآباء أو يفكرون فيه فهو صواب .

فالاطفال يحكمون على الأشياء حكمًا موضوعياً ، أي دون أخذ الدوافع في الاعتبار ، تلك الدوافع التي دفعت الطفل نحو هذا السلوك ودون اعتبار للظروف المحيطة والملايسات ، بل يتبعون « حرفة النص الخلقى » أو حرفية القاعدة في العايمهم . فالعقاب يتناسب مع حجم الخسارة المادية التي أحدثها الطفل ، وليس وفقاً لدوافع الطفل أو نواياه أو « سبق الإصرار والترصد » .

وعلى كل حال طبقاً لمنطق بياجيه فإن الطفل بالتدريج يتعلم أن القواعد الأخلاقية التي يضعها الكبار ليست مطلقة ، وبذلك يمكن تعديلها لكي تناسب الظروف المحيطة بموقف معين .

في المراحل المتقدمة تظهر المرونة في الأحكام الخلقية ، وعندئذ يدرك الطفل أن القاعدة الخلقية يجب أن تتعدل طبقاً للظروف ، بحيث تحقق الصالح العام والخير الأكثر ، فالطفل الذي تأمره الأسرة بالعودة فوراً بعد الخروج من المدرسة والذي ينفذ ذلك في حالة تعطل المواصلات العامة « بالشعبطة » في إحدى سيارات النقل ، وبذلك يعرض حياته لخطر الموت في سبيل تنفيذ تعليمات الأسرة بلقى عقاباً غير مفهوم بالنسبة له ، ففي هذه المراحل المتأخرة يدرك الطفل أن الحكمة في طاعة القوانين والقواعد الخلقية تكمن في تنفيذ روح القانون أكثر من حرفة القانون . (٤٢)

#### علاقة الذكاء بالإخلاقي :

في بعض الدراسات وجد أن نسبة ذكاء مجموعة من الأطفال الأحداث الجانحين هي ٩٢.٥ بينما كانت نسبة ذكاء مجموعة مماثلة من غير الأحداث الجانحين ١٠١.٨ ، إلا أن انخفاض الذكاء ليس عاملاً أساسياً في حدوث معظم حالات الأحداث (٤٣) الجانحين .

(\*) يشير الصراع لحالة نفسية فيها تجاذب الفرد بين هدفين أو مشرتين قد يكون أحدهما مشيراً جيداً والآخر شاملاً ، أو كلاهما شاملاً أو كلاهما غير كصراع الفرد بين الرغبة في الثراء والخوف من العقاب أو تاليتب الفسيف . وهناك صراع الأقبال - الاحجام ، وصراع الأقبال - الإقبال ، وصراع الاحجام - الاحجام .

(٤٢) Breckenridge, M.E. and Vincent, E.E. Child development physical and Psychological growth through the school years, W.B. Saunders Co., London, 1949.

(٤٣) Brooks, A., Child psychology, Methuen and Co., London, 1951, P. 409.

لقد أجرى عدد كبير من الدراسات لتحديدكم وكيف العلاقة بين الذكاء والأخلاق . وفي مثل هذه الدراسات يقارن الاطفال أصحاب الذكاء المرتفع بالاطفال متوسطى أو ضعيفى الذكاء ، يقارنون فى مستوياتهم الخلقية . ففى إحدى الدراسات التى أجراها تيرمان Terman على ٥٣٢ طفلاً ذكياً تزيد نسبة ذكائهم عن ١٣٠ وجد أنهم يتفوقون فى السلوك الخلقى على المجموعة الضابطة من الاطفال من ارباب الذكاء المتوسط . ولقد استنتج تيرمان ان الاطفال المتفوقين عقلياً يتفوقون من الاطفال متوسطى الذكاء على اختبارات الامانة والصدق والسعات الخلقية المشابهة . وهنا يجب ان نتحفظ فى تفسير هذه الفروق وارجاعها الى الذكاء وحده ، ذلك لأن احداً لا يستطيع ان ينكر تأثير البيئة المنزلية وغيرها من العوامل الاجتماعية على الانحراف وعلى النمو الخلقى . لقد درس تأثير الذكاء على المستوى الخلقى عن طريق مقارنة نسبة الاطفال ضعاف العقول بين جماعات الاحداث الجانحين . وعلى سبيل المثال وجد بيرت Burr ٨ ٪ فقط من الاطفال ضعاف العقول بين الاحداث الجانحين ( نسبة ذكاء اقل من ٧٠ ٪ ) ولقد وجد كل من هيلى وبرونر فى دراساتهم عن الاحداث فى شيكاغو ويستون ١٣ ٪ من ضعاف العقول ، اما هذه النسبة فى المجتمع العام فلا تتجاوز ١١/٤ ٪ . (٤٤)

وفى نفس الوقت وجدت نسبة الجنوح الى الصعبة السيئة عند ٦٢ ٪ من الحالات . كذلك وجد هارتشون وماى معامل ارتباط قدره ( ٠.٥٠ ) بين الذكاء والغش ؛ بمعنى انه كلما زاد الذكاء قل الغش ، وكلما قل الذكاء زاد الغش . ويبدو ان تأثير الذكاء على الاخلاق نوعياً اكثر من كونه تأثيراً عاماً ، فالاطفال الأكثر ذكاء كانوا اكثر تعاوناً من الاطفال الاغبياء والمتوسطين ، ولكن العلاقة بين الكرم والذكاء كانت ضعيفة ، أما العلاقة بين الامانة والذكاء فكانت عالية (٥٥) .

وفى إحدى الدراسات وجد ان طفل التسع سنوات الموهوب عقلياً يصل الى مستوى نمو خلقى يعادل طفل الرابعة عشرة من الاطفال غير المتفوقين . ولكن الذكاء يساعد فى سرعة حدوث النمو مهما كان الاتجاه الذى يتخذه هذا النمو ، فاما : اخلاق حسنة او « جرائم خطيرة » . كذلك فلقد وجد ان الاطفال الأكثر ذكاء اقل غشاً فى امتحاناتهم ، ولكن ليس ذلك بالضرورة لانهم اكثر خلقاً ؛ بل ربما لانهم اكثر قدرة على حل أسئلة الامتحان بدون اللجوء الى الغش . ويبدو منطقياً ان نقول ان الطفل الذكى والطفل الغبى يختلفان فى قدرتهما على التنبؤ بنتائج اعمالهما ، كما يختلفان فى قدرتهما على الرؤية البعيدة للمزايا البعيدة فى الاهداف الرقبة ، وتفصيل ذلك على الاشباع المباشر لحاجاتهم الراهنة .

---

\* من المعروف ان نسب الذكاء ١٠٠ تشير الى الطفل متوسط الذكاء وهو الطفل الذى يساوى عمره العقلي عمره الزمني .

Jones, V., Op. Cit. P. 793.

( ٤٤ )

( ٥ ) : راجع كتاب المؤلف « القياس والتجريب فى علم النفس والتربية » دار النهضة العربية - بيروت لتحديد معنى الارتباط والعلمية والفرق بينهما .



وكلما زاد ذكاء الفرد كان اقدر على اختيار العناصر الصالحة من بيئته وعلى تشكيلها وتسخيرها بما يخدم اغراضه . كذلك لا يتعلم الذكى والقوى بالتساوى حتى من نفس الموقف، او من نفس البيئة ، والمفروض ان يساعد الذكاء الفرد على الاستفادة من بيئته الى اقصى حد ، وعلى تعديلها اذا كانت غير مواتية ، وعلى تكيف نفسه للمواقف الجديدة . ولقد دلت دراسة تيرمان ان الاطفال الموهوبين يتفوقون على الاطفال المتوسطين في السمات والقيم الموجبة نحو النجاح الذاتى اكثر من السمات والقيم الموجبة نحو المسؤوليات والخدمات الاجتماعية، فاللاحظ ايضا ان الاذكاء يرتفع عندهم مستوى الطموح، وتغوت المجموعة الموهوبة على المجموعة المتوسطة تفوقا اكثر دلالة في الابداء والمثابرة ، وتغوت اقل في المشاركة الوجدانية والرقه ، كذلك وجد هارتشون ومائى معاملات ارتباط قدره ١٦.٠ بين الذكاء ومساعدة الآخرين ، ومعامل ارتباط قدره ٠.٩ ر. بين الذكاء وروح التعاون .

ولكن لا ينبغي الاعتقاد بان الضعف العقلى أو البغاء يؤديان بحد ذاتهما الى الجنوح ، هناك دائما عوامل متوسطة كثيرة ، فانخفاض الذكاء مثلا قد يقود الى الفشل والاحباط ، كما يقود الى كثير من الصعوبات في التحصيل المدرسي . كذلك فان مستوى طموح الفرد ينخفض في حالة الضعف العقلى .

#### كيف ينمو ضمير الطفل :

يظهر الضمير أو الذات العليا في اصطلاحات التحليل النفسى ، في سلوك الطفل تدريجيا . ففي بداية حياة الطفل يرغب في الاشباع المباشر لدوافعه أو لحاجاته بصرف النظر عن الاعتبارات الاخلاقية أو العملية ، فهو يطلب الطعام ويطلبه الآن وفي هذا المكان .

وبالتقدم في العمر يتعدى السلوك الاندفاعى خلال الخبرة ، فيتعلم الطفل ان بعض استجاباته سوف يثاب عليها ، وان بعضها الاخر سوف يجلب له العقاب ، وان بعض مطالبه لا يمكن تلبيتها في الحال ، وان بعضها الاخر لا يمكن تحقيقه مطلقا . ويمرون الوقت يصبح تجنب بعض مظاهر السلوك الذى كان يحدث نتيجة لقوة خارجية يحدث الآن نتيجة « للسلطة الداخلية » فيكيف الطفل من الاتيان بالسلوك الخاطيء حتى في غياب الكبار ممثلى السلطة الخارجية في الطفل . وهنا يشعر الفرد بالذنب عندما يفشل في مقاومة الاغراء .

وتبعا لنظرية فرويد هناك في كل شخص منطقة من الدوافع غير المستأنسة تشبه الحيوان في طبيعتها ، وعند الميلاد تحتوى هذه المنطقة على مجموعة من البواث العامة « الغريزية » ، رهى ما أطلق عليه اسم **الذات الدنيا** Id في هذا الدافع توجد قوتان مختلفتان هما :

١ - الدافع نحو الحياة ونحو الخلق والحب ، وهو الذى يسميه فرويد رغبة الحياة أو غريزة الحياة .

٢ - والدافع العدوانى الهدام وهو ما أطلق عليه رغبة الموت او غريزة الموت . وتبعا لوجهة نظر فرويد فان الطفل تحكم « الانا الدنيا » حياته . فهو بلا قيود او شعور بالاسف يسمى لتحقيق لذاته ، ويعبر عن دوافعه « الهدامة » نحو موضوعات العالم الخارجى .

وتشير الانا الدنيا في اصطلاحات فرويد الى الطبيعة البدائية وغير المفكرة واللامعقولة ، والتي تستهدف اشباع الفرائز مباشرة اشباعا كليا وعلنيا . ولكن بمرور الوقت ينمو تحكم الطفل ، ففي البداية يكون الطفل غير خلقى وغير اجتماعى ولا يتوقف عن السلوك غير المقبول الا في حضور الكبار اصحاب السلطة في العقاب .

اما **العنصر الثانى** في الشخصية الانسانية في الفكر الفرويدى فهى الذات الوسطى Ego وهى عبارة عن القدرة على التعامل عقليا بمعقولة مع الواقع ، وتنمو الذات الوسطى من الذات الدنيا، وتنمى مع مبدأ الواقع ، وتمثل العالم الخارجى وقيوده وتكاليفه وفروضه ومستلزماته . وهى القوة التى تدرك الحدود او الفواصل الواقعية التى تمنع من حدوث الاشباع المباشر لدوافع « الذات الدنيا » فتبعا لمنطق الذات الوسطى هذه فان تأجيل الاشباع يضمن لنا اشباعا اكثر كمالا في المستقبل . وتحتوى الذات الوسطى على اجزاء شعورية واخرى لا شعورية . وهى التى تتصل دائما بالعالم الخارجى ، وتهتم بما يجرى في بيئة الفرد ، وعليها ان تفى بمطالب الواقع ، ومن ثم فانها تنادى الطفل الصغير قائلا : انك ينبغي ان تطيع امك ، لانها سوف تصفحك ان لم تفعل ذلك .

وعليها ان تشبع المطالب الداخلية للذات العليا وتقاوم ضغوط الذات الدنيا التى تدعو للانطلاق . وعلى ذلك فللذات الوسطى ثلاثة اسياذ هى :-

١ - البيئة او الحياة الخارجية او المجتمع .

٢ - الضمير

٣ - الذات الدنيا

وعلى ذلك فكلما نجحت الذات الوسطى في التعامل مع هذا المثلث تعاملنا حسنا وتحسن توازن الشخصية او اتزانها النفسى .

اما **العنصر الثالث** في تكوين الشخصية فهو تبعا لنظرية فرويد الضمير او الذات العليا ، وهنا نتساءل كيف يتكون او ينمو ضمير الطفل الصغير ؟

كلما نما الطفل نمت المعايير الداخلية ، تلك المعايير التى نسميها صوت الضمير الذى يرشد الفرد في سلوكه وفي احكامه الخلقية .

ويمثل الضمير معايير الفرد وقيمه ومبادئه ومثله العليا . انه السلطة الضابطة العليا في الانسان ، فاذا لم يستجب الفرد لندائه فانه سوف يعاقب عن طريق قوة داخلية من خلال الشعور بالذنب وكراهية الذات ونبذها . ويعطى فرويد اهمية كبرى لنمو الضمير في نضج الفرد،

فالفرد يظل غير ناضج حتى يعطى الاحترام الملائم لقوانين المجتمع الذى يعيش فيه ، وحتى يصبح لديه ذوق جيد ، ويطيع القانون ، يحترم حقوق الآخرين ، ويشعر بالواجب .

ويلعب الضمير دور الاب ، او الامر والمراقب او الملاحظ او الشرطي على كل حال من الذات الدنيا والذات الوسطى . انه يعمل كقاضى للاخلاق يحكم تبعا للمبادئ « المثالية » أكثر من المبادئ الواقعية ، انه يعمل من اجل الوصول بتصرفاتنا نحو الكمال المثالى . ويقال انه يحدد السلوك ، يثبته او يمنعه ، ويتحكم فى ضبطه ، وعلى الرغم من طبيعة الضمير الخلقية الا انه اذا اصبح حاداً او قاسياً اكثر من اللازم فانه يظل يخز ويؤنب صاحبه على كل كبيرة وصغيرة ، بل حتى على مجرد الافكار السيئة ، حتى تلك الافكار التى ينبج الفرد فى اخفائها عن الناس لا تنجو من عقاب الضمير عليها . وتؤدى حدة الضمير الى تكوين شخصية هياية مترددة . فاذا زادت سيطرة الضمير فى الشخصية يصبح الفرد عبداً لمجموعة من العادات والتقاليد ، وعبداً لمشاعر الذنب والتائب القاسية . يقول فرويد ان الحياة الشخصية تشبه جبل الثلج العائم iceberg يفوق معظمه تحت سطح الماء . وعلى ذلك فالصراعات التى تحدث بين الذات الوسطى والذات العليا هى على المستوى اللاشعورى غير المرئى . وللحفاظ على توازن الفرد ينبغي ان تكون العلاقة بين الذات الدنيا والوسطى والعليا علاقة وثام وانسجام وتوازن . ولا ينبغي ان يكون الضمير قاسياً او حاداً جداً ، لان ضعفه اكثر من اللازم يؤدى الى نشأة الانحراف السيكوباتي .

واخيراً فاننا ينبغي ان نشير الى انه رغم تقسيم فرويد العقل الانسانى الى هذه العناصر الثلاثة الا ان العقل الانسانى فى الواقع وحدة دينامية متكاملة متفاعلة ، بل ان الانسان نفسه وحدة جسمية نفسية واجتماعية متكاملة متفاعلة ، وان هذه العناصر ليست الا تجريدات عقلية لوصف انماط معينة من السلوك ، وليس العقل البشرى مقسماً الى موجودات مستقلة بعضها عن البعض (٤٦) . فلا ينبغي ان نتصور ان الذات الدنيا والوسطى والعليا كائنات صغيرة تكمن داخل الانسان ، وانما هى مجرد تجريدات يضعها الباحث الملاحظ لوصف انماط معينة من السلوك .

ولا شك ان فهم الضمير عملية اساسية فى فهم سلوك الانسان كله ، وهنا نتساءل عن العوامل المؤثرة فى نمو الضمير ، وعلى الفور تبرز امان ثلاثة عناصر اساسية هى :

١ - قيم الثقافة او معاييرها التى تكون جزءاً اساسياً من الشرعية التى تنتقل للطفل عبر الآباء والامهات ، وتختلف تلك القيم من ثقافة الى اخرى ، فعلى حين نجد ان العدوان سلوك غير مرغوب فيه فى اطار بعض الثقافات نجد ان توكيد الذات تؤكد وتثجعه ثقافة اخرى ، بينما تشجع ثقافة ثالثة الاعتراف بالشخص .

٢ - نمو الطفل العقلى ، فالطفل الاكبر سنا والاكثر نضوجا من الناحية العقلية اكثر قدرة على ادراك وفهم ما نتوقه منه ، انه يستطيع ان يفهم اسباب بعض القيود والمعايير ، كما انه يستطيع ان يفهم بعض المبادئ ، وان يطبقها على العديد من المواقف . كذلك فانه يستطيع اكثر من زميله الصغير ، ان يدرك المفاهيم المجردة التى تكمن وراء المسائل الاجتماعية مثل الايثار او المساواة او العدل او الحق او الخير او الصدق او الشفقة .

٣ - علاقة الطفل بابويه . هنالك بحوث كثيرة استهدفت معرفة التأثير الوالدى على نمو ضمير الطفل . فى دراسات « التنميط » التى اجراها كل من سيز وماكوبى وليفين Sears, Maccoby and Livin, 1957. طلب من امهات الاطفال ان يحددن علامات نمو الضمير فى سلوك اطفالهن . واتخذ لذلك معيارين هما :

١ - نزعة الطفل لى يمثل الدور الابوى ، اى بمحاولاته تعليم اخواته واخوته واصدقائه معاير الآباء .

ب - سلوك الطفل الذى يعقب عمل الخطا ، اى محاولاته الاعتراف بهذا الخطا او الاعتذار عنه او باصلاح ما افسده . وحدد مقدار نمو ضمير الطفل على هذا المقياس المكون من خمس نقاط هى :

١ - لا دليل على النمو اطلاقا : حيث ينكر الطفل ، ولا يبدو عليه عدم السعادة عندما يكون « شقيا » .

٢ - ادلة بسيطة على وجود الضمير .

٣ - نمو متوسط للضمير : بما لا يعترف بالخطا مباشرة ، ولكنه يبدو خجولا أو جبانا ونادرا ما ينكر اخطائه .

٤ - ضمير لا يستهان به ونام بدرجة كبيرة .

٥ - ضمير قوى : حيث يشعر الطفل بالتماسة عندما يكون « شقيا » ودائما يعترف ولا ينكر ابدا ، ولديه حاجة قوية للعفو والحصول على تسامح الآخرين .

وتتم عملية امتصاص الطفل لمعايير الكبار عن طريق عملية التقمص او التوحد . فالتقمص القوى لشخصية الآباء يساعد على نمو ضمير الطفل . فلقد وجد ( تبعاً لدراسات ميسون ودستلر ١٩٦٠ ) Mussen and Distler ان صبيان سن الحضانة الذين كانوا اكثر ذكورة ، وبما يسبب تقمصهم لشخصية آباءهم كانوا ايضا متقدمين فى نمو الضمير . كذلك وجد ( فى دراسة ستين ) بعض الادلة التجريبية ان الاطفال فى مواقف الاغراء يقلدون النموذج الذى يخضع للاغراء ، ويوحى هذا ان الآباء يعملون كنموذج لابنائهم فيما يختص بالسلوك الخلقى ، فقد اهتم البحث العلمى بعاملين اساسيين فيما يتعلق بنمو الضمير .

## ١ - نوع التأديب الأبوى .

ب - دفء علاقة الاب - الطفل ، فيما يتعلق بالنشاط التأديبى فى المنزل . كشفت دراسة التنميط ان الاسلوب السيكولوجى اى الاتجاه الموجه بالحب ، ذلك الذى يتمثل بالمدح والغزل ، وسحب الحب ، ساعد فى نمو الضمير أكثر من الاسلوب المادى الفيزيقي المتمثل فى المكافأة المحسوسة والحرمان والعقاب الفيزيقي.

وفى دراسة **مالك كونون** Mackinon على طلاب الجامعة وجد ان الذين تجاوزوا المنوعات كانوا أولئك الاطفال الذين كان آباؤهم يتبعون نظاما فيزيقيا فى التأديب أكثر منه نظاما سيكوجيا .

ولكن هناك دراسة حديثة نسبيا ( ١٩٦١ ) أجراها كل من **بارتون وماكوبى والينسميث** Burton, Maccoby and Alinsmith على اطفال سن الاربع سنوات عن مقاومة الاغراء فى الفشل لم تؤيده هذه النتائج ، ففى هذه الدراسة الاخيرة كان العقاب البدنى مرتبطا بمقاومة الاغراء أكثر من العقاب السيكولوجى او استخدام العقل . ويدوان الاسلوب الفيزيقي والمباشر يؤثر فى الطفل الصغير ، ولكن محل الاساليب السيكولوجية التى تشجع التقصص مع الآباء يتقدم الطفل فى السن ويحصل مزيد من النمو المعرفى cognitive development ويشبه التميز بين مناهج التأديب الفيزيقيّة والنفسية التميز بين اسلوب الاستقراء واسلوب الاحساس induction and sensitizaion

وقد قام بهذه المحاولة ارنو فريد سنة ١٩٦١ Arnofreed . من بين الاساليب الاستقرائية استخدام الاستدلال مع الطفل او اعماله او نبذه او استخدام الشرح والتفسير ، وتثير مثل هذه الاساليب فى الطفل ردود فعله لتجاوزاته ، وربما تصبح ردود الفعل هذه مستقلة عن المصادر الاصلية للعقاب . وعلى سبيل المثال فان الاستدلال مع الطفل الصغير يشرح النتائج والمرتبات لفعل ما ، سوف تشجعه على فحص واختيار تصرفات ، وعلى قبول المسؤولية عن هذه الافعال .

وعلاوة على ذلك فان هذا المنهج ينمى قدرة الطفل على التعاطف او وضع نفسه فى مكان الغير والاندماج ذهنيا فى موقف الشخص الاخر عن طريق تحديد الآثار الضارة لسلوكه بالنسبة لوالديه وللآخرين .

اما اسلوب الاحساس او الحساسية فيتقصر العقاب البدنى والزرع والتعنيف والتوبيخ . هذا الاسلوب يجعل الطفل شديد التأثير للخوف من العقاب الخارجى الذى يعقب تجاوزاته او اخطائه ، كما يعطى أهمية كبرى لمطالب الآخرين وتوقعاتهم . ومن طريق استخدام منهج « استكمال القصص » مع اطفال الصف السادس فى احدى المدارس الامريكية وجدت علاقة بين نوع الاستجابة الخلقية للطفل واسلوب امه فى التأديب ، فالاطفال الذين استخدمت اماتهم الاساليب الاستقرائية كانوا أكثر ميلا لاستخدام أفكار عن الإصلاح او الترضية

وفكرة القبول في قصصهم ، بينما الاطفال الذين استخدمت امهاتهم الاسلوب الحسى عبروا عن نتائج خارجية لنجاحاتهم في قصصهم .

ويصدد اسلوب الآباء التأديبى ايضا ميز « هوفمان » Hoffman ( ١٩٦٣ ) بين التأديب التوكيدى القوى والتأديب غير التوكيدى وغير القوى ، النوع التوكيدى ، يتضمن العقاب البدنى والحرمان المادى ويؤدى هذا الاسلوب الى توجيه خلقى خارجى قائم على اساس الخوف من العقاب من الاكتشاف .

اما النوع الثانى فيتضمن سحب الحب ، وانماطا من التأديب الاستقرائى ، ويؤدى الى تكوين اتجاه خلقى داخلى يتميز بشعور قوى بالذنب . ولقد وجد « هوفمان » تأييدا لفكرته بان المنهج الاستقرائى يؤدى الى ضمير اكثر قوة من منهج سحب الحب نظرا لفشل هذا الاسلوب الاخير في توجيه تفكير الطفل الى الامم التى يشعر بها الآخرون نتيجة لاختلاله . ان الادراك او الوعى بمشاعر الآخرين والتحقق من ان الطفل هو المتسبب في عدم راحة الآخرين ينبغي ان يعمل على تنمية ضوابط واخلية قوية (٤٧) .

ولقد وجد ان الاساليب الموجهة بالحب تنتشر بين امهات الطبقة الاجتماعية الوسطى ، اما الانماط الفيزيقية من التأديب فمنتشرة بين امهات الطبقات الاجتماعية الدنيا . وفي دراسة « آرنو فريد » اختارت امهات الطبقة الوسطى « الاستقراء » ، بينما اختارت « الاحساس » امهات الطبقة الدنيا . ان الاسلوب الفيزيقي المنتشر في بيوت الطبقة الدنيا لا يشجع التقصص ولا يؤدى الى تقوية الضوابط الداخلية The inner controls ولم تسفر الجهود التى بذلت لربط الضمير بممارسات محددة نوعية لتربية الطفل عن نتائج واضحة ، ربما لان الجو السيكلوجى العام في المنزل هو الاكثر اهمية عن اى اسلوب نوعى محدد في تربية الطفل .

فلقد وجد ان التهديد بالنسحاب الحب ، وهو منهج سيكلوجى ، ليس له تأثير كبير اذا كانت الام « باردة نفسيا » او كانت نابلة لطفلها اصلا .

وعلى العكس من ذلك فان هذا المنهج اثبت فاعلية كبيرة عندما كانت علاقة الطفل بامه علاقة قبول ودفاء . ان الطفل غير المقبول ليس لديه ما يخسره بممارسة العمل غير القبول .

لقد وجد ١٨٪ فقط من الاطفال المنبوذين هم الذين حكم عليهم بان لديهم ضمير قوى بالمقارنة مع ٣١٪ من المجموعة المقبولة .

كذلك وجد ان الاطفال الذين يقلبهم آباؤهم كان لديهم ضمير اقوى من الاطفال الذين ينبلهم الآباء .

ولقد وجد ان هناك سمتين في الاسرة ترتبطان بنمو الضمير أو الذات العليا في الاطفال،  
أى بوجود ضمير فعال يوجه السلوك ويرشده ، وهاتان الصفتان هما :

١ - الثبات أو الديمومة consistency

٢ - اتحاد بين الثقة المتبادلة والقبول .

فالنمط الثابت للضبط الابوى وللتوقعات يعطى مواقف واضحة جلية لنمو السلوك  
الايجابى ، وعلاوة على ذلك فان جو الثقة المتبادلة يساعد الطفل لامتناس قيم الآباء ومعاييرهم  
فيقبلها الطفل على أنها معاييرهم .

ان نمو الضمير ينبغى ان يفهم لكى يفهم نمو الشخصية برمتها ، ذلك لان الطريقة التى  
يحل بها الفرد صراعاته الخلقية هى جانب ثابت من جوانب شخصيته .

وليس هناك أقوى من توفير جو من الحب والدناء والحنان في العلاقة بين الآباء والاطفال  
في نمو الضمير وامتلاك الضوابط الداخلية وتبنى قيم الآباء ومبادئهم ، تلك التى تمكس بدورها قيم  
المجتمع ومعاييرهم .

وفي بداية المراهقة تلعب الثقة المتبادلة والقبول والثبات المتحد مع الدفاء ، تلعب دورا  
هاما في نمو الضمير القوي (٤٨) .

والآن لنتناول عملية التنشئة الاجتماعية بالعرض والتحليل لبيان الصلة الوثيقة بين النمو  
الخلقى والروحى في هذه العملية .

• • •

#### تعريف عملية التطبع الاجتماعى وأهميتها :

ان تحديد النمو الاجتماعى مسألة صعبة ، وذلك نظرا لتعدد الدراسات التى تناولت  
موضوعات يمكن أن تندرج تحت هذا العنوان ، فدراسة الانفعالات والطموح والقيم والمبادئ  
السلوكية والعلاقات الاجتماعية واللغة ، ودراسة موضوعات مثل الغضب والعداون والغيرة والامان  
والسعادة والضحك والتعاطف والسلوك الجنسى كلها تتصل بالنمو الاجتماعى ، كذلك هناك  
دراسات متعددة تتناول موضوعات النمو الاجتماعى دون ان تحمل هذا العنوان ، ومن امثلة ذلك  
دراسة جنوح الاحداث ونمو الاخلاق .

اما السلوك الاجتماعى فيقصد به السلوك الذى يتأثر بوجود الآخرين وبسلوكهم ، أو ذلك  
السلوك الذى ينظمه المجتمع ، أو السلوك الذى يقصد به التأثير في الآخرين كالقيادة \* مثلا فهو

سلوكه يقصد به التأثير فى اتجاهات الآخرين وفى سلوكهم . أما النمو الاجتماعى Social growth  
فيقصد به نمو الفرد فى السمات التى تسهل التفاعل الاجتماعى Social interaction  
أى الإخذ والعطاء والتأثير والتأثر بالجماعة .

أما التطبيع الاجتماعى أو التنشئة الاجتماعية socialization فيقصد بها العملية التى  
يكتسب الطفل بموجبها الحساسية للمثيرات الاجتماعية ، كالضغوط الناتجة من حياة الجماعة  
والتزاماتها، وتعلم الطفل كيفية التعامل والتفاهم مع الآخرين ، وأن يسلك مثلهم ، فهى العملية  
التي يصبح الطفل بموجبها كائنا اجتماعيا ، وتتضمن هذه العملية تعليم العادات الاجتماعية  
والاستجابة للمثيرات الرمزية ، كما تعرف بأنها العملية التى تساعد الفرد على التكيف والتلاؤم  
مع بيئته الاجتماعية ، ويتم اعتراف الجماعة به ويصبح متعاوناً معها وعضواً كفوفاً فيها .

أما التوافق الاجتماعى فيقصد به تلاؤم الفرد وسلوكه لظروف المجتمع ومتطلباته ،  
وبذلك يصبح التكيف الاجتماعى social adjustment حالة تلاؤم للمجتمع الذى يعيش فيه  
أو البيئة الاجتماعية والوفاء بظروفه وشروطه ومتطلباته .

التأثير الاجتماعى social influence يتضمن نوعية الأشخاص الذين يعرفهم آباء  
الطفل والذين يتبادلون وإياهم الزيارة - ويقدر الطفل آباءه ، وخاصة طفل الطبقة الاجتماعية  
الوسطى ، لمن يعرفونهم من أشخاص ، ولما يدونه من حكمة ومعرفة . يقول الطفل : بابا ليس ضخما  
أو قوى الجسم ، ولكنه يعرف الكثير والناس المهمون يدعونه لبيوتهم ، ويحضر أسبوعيا مבלغا  
ضخما من المال ( ٤٩ ) .

وربما يرجع لهذا السبب خضوع أطفال الطبقات الوسطى للضبط الأبوى ، ويبدو أن  
التعليم الاجتماعى عموما يتقدم أسرع عندما تفوق نسبة التعزيزات الإيجابية ، أى الكافآت ، نسبة  
العقاب .

كذلك وجد أن الثبات والديمومة فى المعاملة تساعد فى تعلم الطفل ، حيث يتعرف على تعديل  
سلوكه بحيث يحصل على ما يريد ويتحاشى ما يرغب فى تحاشيه .

### أهمية عملية التطبيع الاجتماعى :

لاشك أن عملية التطبيع الاجتماعى هى أكبر إنجازات الفرد ، حيث يؤدى الفشل فيها الى  
أن يعيش الناس حياة بالسة تمسة ، ويعانون من سوء التكيف Maladjustment كما يخلقون  
البؤس لغيرهم من الناس . بل إن الحروب ليست النتيجة للفشل الدريع لعملية التنشئة الاجتماعية  
فى الجماعات ، وتحدث الصعوبات والأزمات نتيجة للفشل فى عملية التنشئة الاجتماعية :

١ - الذهان العقلى أى المرض العقلى أو الجنون Psychosis



- ٢ - الجنوح أو الانحراف السلوكي Deilnquency  
 ٣ - ادمان الكحول Alcohol addiction  
 ٤ - السيكوباتية والجريمة Psychopathy  
 ٥ - الجنسية المثلية Homosexuality  
 ٦ - بعض أنواع الضعف العقلي Mental deficiency  
 ٧ - العصاب النفسى أو المرض النفسى Neurosis

ولسوء الحظ فإن أكثر المجتمعات تقدما من ناحية العلوم الطبيعية والانتاج التكنولوجى مازال يفتقر الى علم صحيح للتنشئة الاجتماعية ، كما يحدث فى المجتمع الأمريكى الذى تنتشر فيه مثل هذه الاضطرابات والجرائم أكثر من غيره على الرغم مما حققه من تقدم علمى وتقنى . اننا فى حاجة الى علم يحدد معالم عملية التنشئة الاجتماعية ، ولذلك نجد من يقول ان كل علم النفس « هو عبارة عن علم نفس اجتماعى » . ومن اكبر الفروض التى ينبغي اعتناقها ان عملية التطبع الاجتماعى عملية تعلم فى الحل الاول ، فليس الخير أو الشر فطريا فى الإنسان ، ويحدث هذا التعلم نتيجة لتوجيهات الآباء ، ونتيجة للخبرة الشخصية للطفل ونتيجة للنضج الجسمى والعقلى والنفسى والاجتماعى . ويحدث التعلم على المستويين الشعوى واللاشعورى .

ومن المبادئ الهامة فى عملية التطبع ان هناك فروقا فردية واسعة فى مدى تطبع الافراد او خضوعهم لعملية التطبع . ولقد سقطت فكرة « البذرة السيئة » التى كانت توحى بالانتقال الورائى لسمات الشخصية الاجرامية والسيكوباتية . بل اننا لم نحصل على صلات واضحة بين الحالة الوراثية ومعظم الامراض العقلية والنفسية بل حتى الضعف العقلى . ولكن هناك تفاعل قوى وفعال بين الجيلة والاستعدادية وبين البيئة الاجتماعية والمادية . هذا التفاعل قد يجعل من السهل او الصعب على طفل ما ان ينمو راشدا سويا منتظما عاقلا .

ولقد لاحظ بعض الباحثين تأثير حالة الحمل والولادة على شخصية الطفل . فقد لاحظ سوتناج ( ٥٠ ) ( ١٩٤١ ) ان الاطفال الذين مروا بحمل صعب كانوا أكثر نشاطا او اندفاعا وتهيجا ، كذلك كشفت الدراسات الطولية للنمو longitudinal studies ان التفاعل بين البيئة المادية والاجتماعية من ناحية والتكوين الجسمى physique وكذلك وقت الوصول الى النضج الجسمى ومستوى النشاط يؤدي الى تأثيرات مختلفة على الشخصية .

وتلعب العوامل الآتية دورا هاما فى عملية التطبع الاجتماعى :

- ١ - مركز الطفل او تربيته فى وسط اخوته ، فالطفل الوحيد غير الطفل الاخير غير الوسيط ،

( ٥٠ ) راجع « بحث حقلى للمؤلف عن « سيكولوجية المرأة العربية الحامل » ، الهيئة العامة للكتاب . مصر ( تحت الطبع )

والطفل المرفوب فيه غير المنبوذ ، والوحيد على عدد من البنات غير الموجود مع عدد كاف من البنات غير الموجود مع عدد كاف من الذكور... الخ .

٢ - سن الآباء ، فطفل الآباء المتعلمين في السن غير طفل الآباء الشباب .

٣ - البيئة المادية والاجتماعية المحيطة بالطفل .

٤ - الذكاء ، فالطفل ضعيف الذكاء اقل حساسية للمؤثرات التي تؤثر في التنشئة الاجتماعية .

٥ - التكوين الجسمي للطفل ، فالطفل القوي البنية غير الطفل الضعيف .

٦ - العلاقة بين الآباء والاطفال ونمط معاملة الطفل .

٧ - المستوى الاجتماعي والاقتصادي للأسرة .

٨ - انتماء الأسرة الى جماعات الاكثرية او الاقلية في المجتمع .

تتبع الدوافع الاجتماعية من المواقف التي يمتص منها الفرد المؤثرات الاجتماعية . هذه المؤثرات تكون في اول الامر خارجية بالنسبة للفرد . ان عملية نمو وتعلم التفاعل الاجتماعي والتي ينتج عنها ان يمتص الفرد Intrnalization المؤثرات الاجتماعية وبذلك تصبح مثيراته هو شخصيا ، وذوقه ورغبته ، هو ، هذه العملية هي عملية التطبع الاجتماعي (٥١) .

ان النتيجة النهائية لتنشئة الفرد الاجتماعية تظهر في اتجاهاته الاجتماعية social attitudes وافعاله واقواله في التعبير عن هذه الاتجاهات . كما تظهر في تعامله اليومي مع غيره من الناس وتفاعله مع الجماعات الاخرى ، ومسح نواحي ثقافته ، ويؤدي مثل هذا الاحتكاك الى نشأة اتجاهات محددة نحو هذه الانشاء . فالانسان لا يولد راسماليا او شيوعيا او جمهوريا او ديموقراطيا ... الخ وانما هو يتعلم ان يكون ايا من هؤلاء بالخبرة والتجربة . ( ٥٢ )

#### مراحل النمو الاجتماعي :

يذهب إيركسون Erikson ( ١٩٥٦ ) الى القول بان عملية التطبع الاجتماعي تمر بثمانين مراحل او اطوار ، وهو في ذلك متاثر بمفاهيم فرويد في هذه المراحل ، ولقد افترض هذه المراحل ، ليس بناء على أعمال تجريبية ، ولكن من خلال عمله المطول بالعلاج النفسي ، وخاصة مع الاطفال والمراهقين ، من ابناء الطبقات الاجتماعية الدنيا والوسطى والعليا . وهذه المراحل مرتبطة اقل بالنظام العضوي منها عند فرويد ، ولكنها اكثر ارتباطا بالتعلم الذي يحدث في المراحل المختلفة . ويعتبر إيركسون ان كل مرحلة عبارة عن ازمة نفسية تتطلب الحل قبل الوصول الى

( ٥١ ) Sherif, M. and Sherif, G. An outline of social psychology Harper and Row, N.Y. 1956.

( ٥٢ ) راجع باب الاتجاهات في كتاب المؤلف « علم النفس الاجتماعي » دار النهضة العربية - بيروت

المرحلة اللاحقة . ويعتبر هذه المراحل كالتطابق المعمارية: فالتعليم المرضى وحل كل مشكلة ضروري اذا كان للطفل ان يمر بالمراحل اللاحقة بنجاح ، بالمثل فان اساس المنزل يعد ضروريا بالنسبة للطابق الاول منه ، الذى ينبغى ان يكون قويا بدوره لتعصيد الطابق الثانى ... وهكذا .

### وهذه المراحل الثماني هي : -

١ - تعلم الثقة في مقابل عدم الثقة mistrust-trust  
وتقابل هذه المراحل مرحلة الرضاعة ، وتشمل العام الاول او الثانى اذا تناولنا الطفل تناولا حسنا وتمت تفديته وجبه ، فانه ينمى في نفسه الشعور بالثقة والامان ، والشعور الاساسى بالتفاؤل . واذا عومل معاملة سيئة فانه يفقد الثقة والامان . وجدير بالذكر ان فرويد اطلق على هذه المرحلة اسم المرحلة القمعية :

٢ - تعلم الدائية او الاستقلالية في مقابل الشعور بالعار . ويعتقد اريكسون ان الازمة النفسية الثانية تحدث في الطفولة المبكرة ( من ٢ - ٤ سنوات ) وتقابل المرحلة الشرجية عند فرويد ، وهي المرحلة التى يحدث فيها أكثر مظاهر التعليم وضوحا وضيقا ، ونعنى التدريب على عادات الاخراج ، ويخرج الطفل الذى يلقي معاملة والده حسنة من هذه المرحلة متأكدا من ذاته ، سعيدا مبتسما يتمكن من الضبط الجديد القوي ، ويشعر بالفخر أكثر من شعوره بالعار .

٣ - تعلم المبادرة learning initiative في مقابل الشعور بالذنب .

ويعتقد اريكسون ان هذه الازمة تحدث في سن اللعب او سنوات ما قبل المدرسة ، وتبدأ تقريبا من سن ٣ ١/٢ سنة ، وفي اثنائها يتعلم الطفل ، الذى ينمو نموا صحيا ، ان يتخيل وان يوسع مهاراته من خلال اللعب النشط من كل الانواع بما في ذلك اللعب الخيالى ، كما يتعلم التعاون مع الغير وان يقود غيره بالمثل كما يتبع أو ينقاد للغير . اما اذا اعاقه الشعور بالذنب فانه يصبح خائفا يقف دائما على هامش الجماعات ، ويستمر في الاعتماد على الكبار بدون حاجة فعلية الى ذلك ويقاق نموه في مهارات اللعب play skills وفي الخيال . وتقابل هذه المرحلة تقريبا المرحلة القضيبية وعقدة أوديب في الفكر الفرويدى A Phellio and Oedipal Stages .

٤ - تعلم الاجتهاد industry في مقابل الشعور بالنقص inferiority .

وتحدث في سنوات المدرسة الابتدائية وقد تمتد لتشمل بعض سنوات المدرسة الإعدادية ، وهنا يتعلم الطفل اثنان المهارات الأكثر رسمية اللازمة للحياة ، كالتعامل مع الجماعة تبعاً للقواعد والتقدم من الألعاب الحرة الى اللعب المنظم عمدا او المشكل طبقاً للقواعد ، وقد يتطلب تربية للعب ، وكذلك اثنان الدراسات الاجتماعية والقراءة والحساب . وهنا يشعر الطفل ان عمل

الواجبات المنزلية أصبح ضروريا ، وأن التأديب الذاتي يزداد تدريجيا . وهنا يصبح الطفل ، الذي فقد الثقة ، شكاكاً في المستقبل ، والطفل الذي يشعر بالذنب من المراحل السابقة يشعر الآن بالهزيمة والنقص .

وتقابل هذه المرحلة مرحلة الكمون عند فرويد .

٥ - تعلم الهوية identity في مقابل اضطرابات الهوية ، وتحدث هذه الازمة النفسية في نظره في سن المراهقة ، من حوالي ١٣ - ٢٠ سنة . فقد أصبح الطفل الآن مراهقا ، يستطيع ان يجيب اجابة مرضية سعيدة للتساؤل : من اكون انا ؟

ولكن احسن المراهقين تكيفا يعانون من بعض الاضطراب في الهوية identity diffusion وخاصة الذكور ، حيث يعانون من جنوح بسيط يظهر في شكل عصيان أو تمرد rebellion والخجل والشك الذاتي ، وهنا تنمو نظرة المراهق للمؤمن - ويكتسب اليقين الذاتي في مقابل الشك الذاتي والحساسية الذاتية . فيقوم بأدوار إيجابية في الغالب بدلا من اعتناق الهوية السلبية ( كالجنوح ) فيحاول المراهق الناجح أن يحصل على بعض الانجازات بدلا من الشلل من جراء مشاعر النقص . وفي المراهقة المتأخرة يكتسب المراهق الرجولة ويكتسب المراهقة الانثى صفة النسائية ، وأحيانا يسعى للقيادة وبالتدريج ينمى نمطا من المثل المرغوبة ، وفي الغالب ما يلعب المراهق عدة أدوار حتى يجد أكثرها ملاءمة له .

٦ - تعلم الصداقة الحميمة intimacy في مقابل العزلة . لأول مرة يشعر المراهق الناجح بالصداقة الحميمة والحقبة . . التي يمكن أن يقوم على أساسها الزواج الناجح أو الصداقة المستدامة .

٧ - تعلم الانتاجية generativity في مقابل الاستغراق في الذات self-absorption في مرحلة الشباب المبكرة يتطلب النمو النفسي تعلم الانتاج سواء في الزواج أو الابوة وفي العمل وفي الإبداع أو الابتكار .

٨ - تعلم التكامل integrity في مقابل اليأس despair اذا مرت الأزمات السبع الماضية بنجاح فإن الشباب الناضج يصل الى قمة التكيف أي التكامل .

فهو الآن يثق في نفسه ويشعر بالاستقلال ، ويعمل بجدية ، ويجد لنفسه دورا محددا في الحياة وينمى في نفسه مفهوما من الذات self-concept ويكون سعيدا بهذا المفهوم . يصبح ودودا دون توتر أو ذنب أو أسف أو بعد عن الواقعية ، ويصبح فخورا بما يبتكر أو ينتج من أولاد وبعمله أو هواياته . أما اذا فشل في حل أي من الازمات السابقة فإنه يشعر باليأس والاضمئزاز .

هذه المراحل ليست الا وصفا لغويا لكيفية نمو الشخصية . ذلك لان المهم هو تحديد الظروف البيئية التي تساعد الطفل على نمو هذه الصفات الإيجابية وغيرها .

ان التطبيع الاجتماعى هو عملية تعلم تحييل الكائن البشرى من جالة الطفولة او الرضاعة ومن حالة الضعف والانانية الى حالة الراشد المثالى الذى يدين بالامتثال المعقول sensible conformity مع وجود سمات الاستقلال والابتكار ( ٥٣ ) والخلق والابداع .

• • •

### التنشئة الاجتماعية في الطفولة المبكرة :

تستخدم المجتمعات طرقا مختلفة في العناية بالطفل ، بل انه في داخل المجتمع الواحد تختلف هذه الطرق من طبقة اجتماعية الى اخرى . ان المؤثرات الثقافية تبدأ في التأثير في شخصية الطفل في اليوم الاول من ميلاده ... وتؤثر الام في الطفل عن طريق اسلوب معاملتها اياه في التغذية وطرق اطعامه . والمعروف ان الام تسعى لتحقيق هدفين من وراء تغذيته هما :

١ - تغذيته

ب - تدريبه على تناول الطعام بطريقة صحيحة .

التغذية مسألة فسيولوجية وان كان هناك بعض الثقافات التى تفضل الاطفال السمان ، بينما هناك ثقافات اخرى تفضل الاطفال الناحلين . وتستهدف « ام » الطبقة المتوسطة ان يتدرب طفلها على تناول طعامه بدون ضوضاء او احداث اصوات ، وبدون ان يسكب على نفسه ، وان ياكل كل الطعام من طبقه ، وان يستخدم ملعقة وشوكة وسكين بطريقة سليمة . بل ان نظام تغذية الاطفال يتغير داخل المجتمع الواحد بمرور الوقت ، فقد تغيرت هذه العادات في المجتمع الامريكى منذ عام ١٩٢٠ حتى يومنا هذا عدة مرات على القليل فيما يختص بعدد الوجبات وموعد كل وجبة . ففي العشرينات كان اطباء الاطفال يوصون باتباع نظام منظم في تغذية الاطفال مكون من ٣ وجبات يوميا . اما المستشفيات فكانت تتبع نظام تقديم اربع وجبات يوميا هي كالآتي :

١ - الساعة ٦ صباحا

٢ - الساعة ١٠ صباحا

٣ - الساعة ٢ بعد الظهر

٤ - الساعة ٦ مساء

٥ - الساعة ١٠ مساء

٦ - الساعة ٢ صباحا .

اما الآباء فكانوا يرغبون في اتباع نظام يشبه نظام الكبار في الطعام ، ولذلك حذفوا وجبة الساعة الثانية صباحا ، ولكن الثقافة ينبغي ان تجعد نمو الطفل من طريق وضع أنظمة صارمة في تغذيته ، وبالطبع لم يكن نظام الاربع وجبات هذا ملائما لكل الاطفال وكان على الآباء ان يتحملوا بعضا من صراخ الطفل قبل الوجبات .

وفي الأربعينات بدأ يتحول الاتجاه نحو نظام الطلب الذاتي Self-demand schedule وبموجب هذا النظام يقدم الطعام للطفل كلما يكي طلبا له . والتقيد الوحيد الذى وضع فى احدى الدراسات كان ضرورة انقضاء ساعة كاملة بين أى وجبة والاستجابة لطلب الطفل للطعام . ولقد تبين ان معظم الاطفال كانوا يطلبون الطعام بعد ثلاث ساعات، ونادرا ما كانت تصل هذه المدة الى اربع ساعات وخاصة فى الاسبوع الاول من الميلاد . وكانت هذه المدة اطول اثناء الليل عنها اثناء النهار ( ٣.٦ فى مقابل ٢.٩ ساعة ) وبالطبع يتغير النظام المرغوب بتقديم الرضيع فى السن . واستمر هذا الانجاء فى التزايد حتى اصبح هناك حاجة الى الاستفادة من نظام الانتظام فى الوجبات . ومزايا الطلب الذاتى أى الايمان بنظام معين دون ان تكون عيبا لهذا النظام ، مع مراعاة فردية كل طفل . والمقصود من خضوع الطفل لنظام الوجبات الثلاث او الاربع، هو خضوعه للمعايير الحضارية فيما بعد ، ويؤثر الغذاء تأثيرا اكثر عمقا فى شخصية الطفل اذا لاقى صعوبات فيما يختص بالغذاء حيث يشعر بعدم الامان ولا يحتاج الطفل فقط لتفريغ زجاجات الطعام فى جوفه بطريقة آلية بل انه فى حاجة الى المص . ولقد وجد الطفل فى حاجة الى الامتناس لمدة ساعتين يوميا والا اضطر الى مص إصبعه او ملابسه او لعبه او أشياء أخرى . كذلك لعملية الفطام اثر نفسى قوى اذا تمت بطريقة فجائية او قاسية تؤدي الى صعوبات انفعالية يعانى منها الطفل . ( ٥٤ )



#### المؤسسات التي تسهم فى عملية التطبع الاجتماعي:

تتساءل عن المؤسسات التي تسهم فى عملية التطبع الاجتماعى هذه ، ومن اول هذه المؤسسات التي تؤثر فى نمو الطفل الأسرة ؟

#### دور الآباء :

ان عملية التطبع الاجتماعى لا تعتمد على الطفل وحسب بل على الآباء ايضا ، لانها على التقليل بمفهوم الضبط الاجتماعى ، لا تحدث الا اذا كان الآباء يعززون سلوك الطفل او يكانونونه عليه ، فاذا لم يتم الآباء بدور تقديم التعزيزات والمكافآت للطفل فان عملية التطبع الاجتماعى سوف تتأخر او تعاق . ويتحقق تعزيز سلوك الطفل من طريقة عناية الآباء بجسمه ودنشه ومأكله ومشربه ، على شرط ان يتم ذلك كله بطريقة رقيقة فى اثناء تغذيته وتنظيفه

واستحمامه وتغيير ملابسه ووضع في الفراش على شرط ألا يتم ذلك ببرود أو بطريقة آلية ميكانيكية ، وإنما يصاحبه تقبيل الطفل « الدندنة » أو التودد إليه والتربيت عليه ولمس جسمه وتدليكها والفناء له حتى ينام .

ولقد وجد رينجولد ( ١٩٥٦ ) Rheingold أن حاجات الطفل المصحوب بالمشيرات الاجتماعية بما في ذلك الاتصال الجسدي به ، يؤدي إلى خلق طفل أكثر استجابة من الناحية الاجتماعية من قضاء مثل هذه الحاجات بطريقة فائرة باردة وبكفاءة ولكن دون علاقات شخصية ولكن مثل هؤلاء الأطفال يسرعون في النمو الاجتماعي عندما يتغير نمط معاملة الآباء معهم ، ويشعرونهم بالرعاية والرفقة والحب ، كذلك وجد أن الرضيع يصبح قادراً على الاستجابة الاجتماعية وتزداد عنده عندما يستجيب الكبار بطريقة اجتماعية لاستجابات الطفل الصوتية المعبرة Vocal responses وينبغي تدريب الطفل على الاستجابة الاجتماعية أو توجيهها إلى القنوات الصحيحة عندما يبدأ في اظهار مثل هذه الاستجابات ، وذلك حتى تصبح مقبولة لدى الآباء والأخوان والأخوات ، ثم المجتمع ككل ، بحيث يظهر الطفل الاستجابات الملائمة في السن الملائم ، فاستجابات الفناء وإشارات « باي باي » مناسبة لسن عام واحد ، ولكنها غير ملائمة لسن مدرسة الحضانة ، كذلك تبلييل الفراش مقبول في سن عام واحد ، ولكنه غير مقبول في سن الأربع سنوات . وبالمثل البكاء من أجل الطعام مناسب في سن ٩ شهور ، ولكنه غير ملائم في سن ٩ سنوات مثلاً . فهناك حاجة إلى مزيد من الضبط والتوجيه لسلوك الطفل منذ الوقت الذي يبدأ فيه في عمل الاستجابات الاجتماعية حتى يصبح مدنياً أو متحضراً خاضعاً للقانون ، ونسبياً راشداً كبيراً ، وغريماً أو غير إنساني .

وتبدأ عملية الضبط الاجتماعي والتكيف أو التلاؤم مع تفاعل الطفل مع الآباء ثم مع أسرته ، ثم تستمر مع زملاء اللعب والأقارب والمدرسين ، وينبغي على أي مؤسسة تعمل لتحقيق التطبيع الاجتماعي أن تقدم نمطاً من الآتي :

١ - المكافآت

٢ - القبول

٣ - السماح

٤ - العقاب

بحيث يكسب الطفل الاتجاه نحو طاعة القانون واللياقة الاجتماعية في سن الرشد ، وبحيث يصبح سعيداً وهادئاً قادراً على القيام بدور الذكر أو الأنثى المطلوب ممن هم في مثل سنه ، وقادراً مهتياً على كسب عيشه .

#### نمط الآباء في التنميط :

لا شك أنه ، للمروء في مراحل النمو المبكرة ، هناك حاجة ماسة إلى توجيه الطفل ومن البدوي أن يكون المنزل هو المصدر الأول لتقديم مثل هذا التوجيه ، ويمكن تمييز منهجين في مثل هذا التوجيه هما : -

١ - اتجاه سيكولوجي قائم على الحب والمكافآت غير المادية . هنا يسحب الحب أو يهدد بسحبه ، كما لا تعطى للطفل زجاجة الطعام في نفس اللحظة التي يطلبها فيها . وإذا أصبح « شتيا » ينزعزل عن الآباء وهو يشنق الى النشاط واللعب، ولكن ينبغي أن يبقى لبعض الوقت داخل عرسته أو حجرته . يرى الطفل مثل هذه النماذج من الحرمان كتهديد بانسحاب الحب ، ولذلك فإنه يعمل ، فيما بعد ، على تعديل سلوكه لكي لا يفقد هذا الحب . وهناك أشكال أكثر تعقيدا من التهديد بسحب الحب كالحرمان من الملاطفة أو العناق أو التربيت أو الابتسامة أو كلمة المديح التي يتوق إليها الطفل .

٢ - يعتمد المنهج الثاني على الأشياء المادية، ويتراوح ما بين انزال العقاب البدني الى حرمان الطفل من الطعام لتحويله الى السلوك الطيب . في حالة منهج الحب تعمل على توضيح أن المعنويات تلتفت انظار الآخرين وانتباههم، لها أهمية خاصة . ويعلمه الآباء الضبط الذاتي خوفا من فقدان الحب .

أما المنهج السوء فإنه يعلم الطفل الخوف من الأشياء المحسوسة المادية ، وهنا يقول الطفل لنفسه لابد أن تكون حسن السلوك حتى لا ينكشف أمره وتنال العقاب ، فالضبط هنا من خلال الشعور بالعار . أما في منهج الحب فالضبط من خلال الشعور بالذنب ، ولكن إذا كان الشعور بالذنب قاسيا جدا فإنه يشل حركة الطفل ونشاطه . أما الشعور بالعار فيعتمد على توقع رجل الشرطة في كل مكان يترصد الطفل للأخطاء .

ولقد اتضح أن منهج الحب أكثر فاعلية من الناحية الاجتماعية بحيث يتجنب الطفل الخطأ في غيبة الكبار أو ممثلي السلطة ، ويمكن تمييز نوعين من التعزيز في معاملة الآباء للطفل :

١ - تعزيز إيجابي reinforcement ويتمثل في عبارة الأم « ماما تحبك لأنك عملت كذا وكذا .. أو ماما سوف تعطيك كذا وكذا إذا عملت كذا ... »

٢ - تعزيز سلبي ، ويتمثل في قول الأم لطفلها « ماما لن تحبك إذا عملت كذا وكذا .. أو ماما سوف تصفك إذا عملت كذا وكذا ... »

وواضح أن التعزيز الإيجابي يمنع المكافآت، أما السلبي فيعطى العقاب ، وهنا تسأل ، إيهما أكثر فاعلية في تعليم الطفل الثواب أم العقاب ؟ هناك أدلة تجريبية مؤداها أن الطفل يتعلم أسرع إذا تلقى كلا من الثواب والعقاب في التعزيز ، فالتعزيز الإيجابي لتعليمه ما ينبغي أن يعمل ، والتعزيز السلبي يعلمه ألا ينبغي عمله . وعلى ذلك فإذا تلقى الطفل تعزيزات من النوعين فإنه يحاط علما بصورة أكثر شعولا عما لو تلقى تعزيزات من نوع واحد .

وتتضح هذه الفكرة من أبحاث كل من هارتوب وموز وسيجار Martup, Moore and Sager الذين وجدوا ( ١٩٦٣ ) أن الأطفال الذكور الصغار يتعلمون الأدوار الجنسية الملائمة إذا منحت لهم المكافآت على السلوك بطريقة فيهادكورة ، ويبحثون عن اللعب الذكورية ، ويعاقبون عندما يعملون أعمالا بنائية أو أنثوية أو يبحثون عن لعب ودمى البنات ، وبالنسبة للإناث ، على



العكس من ذلك ، فكانت تعطى لهن المكافآت عندما يبحثن عن الأشياء « البنائية » بما في ذلك اللعب ، وكن يهملن عندما يتصرفن بطريقة « صبيانية » أو يسعين للحصول على لعب الصبيان ، بل إن فاعلية التعزيزات تتوقف على الطريقة أو الأسلوب الذي يمنح به التعزيز . فلقد وجد أن التعزيز ، سواء كان إيجابيا أم سلبيا ، عندما يمنح مباشرة وبثبات أو ديمومة واستمرارية وبسخاء أو بكرم فإن التعلم يتم بسرعة أكثر منه عندما يكون مؤجلا ، أو بدون ثبات أو ضعيف أو هزيل أو قليل ، ولكن هذا الفرض يحتاج الى كثير من الدراسات ، لأن كمية التعزيزات تبعا لهذا الفرض ، تغير كمية التغيير في السلوك ، ومعنى هذا أننا إذا أردنا أن نضاعف من السلوك الحسن في سلوك طفل ما فإننا نضاعف من مقدار ما تعطيه له من مكافآت . كذلك فإن التعزيز الجزئي يحصل الطفل تواقا الى المزيد من التعزيز ، فيواصل العمل الجيد ، أما اذا حصل على كل التعزيز فإنه يفقد الاهتمام بمزيد من تحسين السلوك .

#### أثر وجود الأب في الأسرة :

ما هو التأثير الذي يتركه وجود الأب في الأسرة على شخصية الطفل لقد أجريت دراسات كثيرة منها دراسة سيرز Sears ( ١٩٥١ ) ووجدان الصبيان الذين نشأوا في بيوت مع الآباء كانوا أكثر عدوانا على القليل في خيالاتهم عن زملائهم الذين غاب الأب عن منزلهم .

كما كانوا أكثر ثقة ، وكانوا أكثر استعدادا لتأجيل الحصول على مكافأة صغيرة في سبيل الحصول على مكافأة أكبر ، ولكنها مؤجلة . كذلك وجد أن الاطفال الأكبر سنا والأكثر ذكاء كانوا أكثر استعدادا لتأجيل الإشباع المباشر . كذلك وجد مولتون Moulton ( ١٩٦٦ ) أن الآباء الأكثر قوة وجبا هم أكثر قدرة على انتاج أطفال يضبطون أنفسهم بواسطة ضمايرهم ، وأن الاطفال الذكور الذين يمتاز أبائهم بالقوة والحب كانوا أكثر ذكورة عنهم عندما تكون الأم هي الشخصية القوية والمحبة . كذلك وجد جروسيك Grusec ( ١٩٦٦ ) أن الكبار الذين يكافئون كثيرا يجعلون الطفل أكثر استعدادا لنقد نفسه ( أكثر عما يلوم الآخرين مثلا ) وذلك بالمقارنة بالآباء الذين لا يكافئون أطفالهم سواء كانت المكافأة بالعطاء أو العقاب .



#### مصادر القوة في عملية التنشئة الاجتماعية :

يحدد ولوتز Wolowitz ( ١٩٦٥ ) مصادر القوة التي يتم خلالها تقديم التعزيزات بأنها : -  
١ - القوة الفيزيائية ، ويدركها الطفل مبكرا ، ويعتقد أن والده يمتلكها أكثر من والدته .

٢ - القوة الجنسية ، ولا يدركها الطفل إلا متأخرا نسبيا حيث يدرك أن والدته يمثلان قوة جنسية ، وإذا كانت العلاقات الجنسية مجرد علاقات شهوانية أو بهيمية بحتة فإن فكرة الطفل عن الجنس تنمو سيئة .

٣ - الحكمة ، وللأسف فإن الحكمة في المجتمع الحاضر لاتبدو محترمة كما ينبغي .

٤ - التأثير الاجتماعى ، ويتضمن نوعية الاشخاص الذين يعرفهم آباء الطفل والذين يتبادلون اياهم الزيارة ، ويقدر الطفل آباءه وخاصة طفل الطبقة الاجتماعية الوسطى ، لمن يعرفهم من اشخاص ، ولما يبدو منه من حكمة ومعرفة ، يقول الطفل . . « بابا ليس ضخما او قوى الجسم ، ولكنه يعرف الكثير ، والناس المهمون يعزونه لبيوتهم ، ويحضر للبيت اسبوعيا مبلغا ضخما من المال (٥٥) » .

وربما يرجع لهذا السبب خضوع اطفال الطبقات الوسطى للضبط ، ويبدو ان التعليم الاجتماعى عموما يتقدم اسرع عندما تفوق نسبة التعزيزات الايجابية اى المكافآت نسبة العقاب .

كذلك وجد ان الثبات او الديمومة فى المعاملة تساعد فى تعلم الطفل ، حيث يتعرف على تعديل سلوكه بحيث يحصل على ما يريد ويتحاشى ما يرغب فى تحاشيه .

### تفسير عملية التطبيع الاجتماعى :

هناك نظريات كثيرة لتفسير عملية التطبيع الاجتماعى . ان نمو الفرد يتوقف على مدى رؤيته وردة فعله لقوى التطبيع الاجتماعى التى يستخدمها المجتمع معه . يضع المجتمع الصورة التى يرغب ان يكون عليها نساؤه ورجاله . ويضع عدة قواعد لارشاد الآباء والمعلمين فى ذلك ، ولكن كيف يرى الطفل هذه العملية ؟ وما هى المفاهيم والقوى التى تكمن فى داخل الطفل والتى تحدد نوع استجابته لهذه المؤثرات الاجتماعية ؟

هناك اتجاهان نظريان فى عملية التطبيع الاجتماعى هما :

**أولاً :** نظرية التحليل النفسى ونظرية التعلم الاجتماعى ، فكلاهما يرى ان الراشد الكبير هو المحصلة النهائية لعملية تعلم الاسرة والبيئة كما يراها الطفل ، وكما تؤثر فيه ، اى تعاليم الاسرة والبيئة . فاذا كانت هذه القوى معتدلة كان الطفل سعيدا ، واذا كانت مؤذية او ضارة كان الطفل تفسا . فالكائن الحى تصقله وتشكله خبراته ، فيصبح جيدا او سيئا تبعا لجودة او سوء مثل هذه الخبرات .

تصنع النظرية التحليلية توكيدا اكثر من نظرية التعلم الاجتماعى ، على بعض مراحل النمو التى تؤثر فيها الخبرات اكثر من غيرها من المراحل . وهذه السن تبدأ من الميلاد حتى سن السابعة . اما نظرية التعلم الاجتماعى فترى ان الطفل كائن قابل للتعديل والتغيير فى اى سن كانت .

**ثانياً :** الاتجاه الثانى يذهب الى الزعم بان قوى النمو فى داخل الكائن البشرى هى فى الاساس خلاقة ، فاذا كان الطفل مقبولا ، واذا لم توصله الابواب امام اشباع حاجاته ، فانه ينمو شخصا سعيدا خلقيا واجتماعيا . مثل هذه النظرية لا تقلل من اثر التعلم . وانما هى فقط تدعى انه اذا اعطى الطفل ظروفنا بناء فانه سوف يوجه نفسه نحو القنوات البناءة . وينحو

التعلم النشط دورا أقل في هذه النظرية عنه عند فرويد وفي نظرية التعلم الاجتماعي. والعنصر الاساسى في بيئة الطفل هو القبول ، وكان جان جاك روسو هو اول من قال بمثل هذه النظرية في كتابه « اميل » وما زال يعتنقها كثير من علماء النفس من أمثال كارل روجرز و Maslow وجيرول Gesell وان كانوا يختلفون عنه في بعض التفاصيل .

ويمكن تشبيه هاتين النظريتين بحالات من مجال البستنة فالنظرية الاولى ينطبق عليها المبدأ القائل : كما ينشئ الجذع تنمو الشجرة على غراه .

وعلى ذلك يوصى بتوفير البيئة الجيدة ذات التربة الصالحة والضوء والماء والتخصيب الضرورى ، ولكن التعليم او التشذيب الفعال والتشكيل والتطعيم والتسميد لابد من ممارستها. والنظرية الثانية ايضا تطالب ببيئة ذات تربة ملائمة وضوء وماء وربما ايضا سماد ، ولكنها تميل الى الاعتقاد بان الطبيعة لديها افضل معرفة من كيف تنمو الشجرة .

فالتعليم والتطعيم والتشكيل والتسميد والتلقيح التهجيني تترك كلها للمجرى الطبيعى للاحداث وللطبيعة الفطرية للكائن. النظرية الاولى تنادى بمزيد من التعلم النشط كعمل مرغوب ، والثانية تنادى بقليل من هذا التعلم . وطبقا للنظرية الاولى فان الطفل سوف يصبح اجتماعيا وغريبا واثناريا وواقعا من نفسه للحد الذى يلزمه لى يكيف نفسه مع الآخرين ولكن يشبع حاجاته . وتتوقف سهولة هذه العملية على مدى كفاءة المعلم ومهاراته ، وعلى مدى ملائمة وكفاءة وفاعلية عملية التدريس . وطبقا للنظرية الثانية فان بذور عملية التنشئة الاجتماعية تكمن فى الناس ، وسوف تصل الى اقصى درجات النضج فى بيئة تمتاز بالقبول واللفظ ، ولكنها بيئة سلبية . وربما يضع جيزل كثيرا من الاهمية للاستعدادية الموروثة للوراثة اكثر من كارل روجرز ، فجيرل لا يقبل القول بان اعطاء الفرد البيئة المناسبة سوف يؤدى الى نموه النمو الملائم .

والواقع اننا لا نعرف الصحيح من هاتين النظريتين ، بل ربما لا نعرف اذا كان كلاهما صحيح ام خطأ ، فكلهما يضع وزنا كبيرا على جوانب البيئة فى التنشئة الاجتماعية . فالنظرية الاولى يمكن وصفها بانها نظرية تعليمية ، بينما النظرية الثانية ارتقائية . ويمكن اعتبار فرويد ممثلا للنظرية الاولى وجيزل ممثلا للثانية . النظرية الفرويدية تؤكد دائما النزعة الاجتماعية الفطرية فى الانسان ، بمعنى ان الطفل الصغير الانانى يجب ان يتحول الى شخص راشد كبير ايشارى قادر على تأجيل لذاته .

**ونظرية التعلم الاجتماعى لا تضع افتراضات ازاء هذه المسألة ، ولكنها تفترض ان الاثنار وتأجيل اشباع اللذات يتم تعلمهما اكثر من كونهما فطريتين ، ويضع جيرل كما يضع فرويد تأكيدا كبيرا على توابع ونوائج النمو ، ولكن فرويد لا يضع كل الاهمية - كما يفعل جيرل - للوراثة كعامل محدد للفروق الفردية بين الناس .»**

## الشَيْخوخة في المجتمع الانساني المتغير \*

أحمد أبو زيد

اعتبر ذلك ايلدانا ببدء الاهتمام بميدان جديد من ميادين البحث الاجتماعي ، كان مهملًا الى حد كبير حتى ذلك الوقت ، وأخذ اهتمام السوسولوجيين والانثربولوجيين يزداد

حين اصدر عالم الاجتماع البريطاني المعاصر بيتر تاونسند Peter Townsend كتابه المتع عن « الحياة العائلية لدى كبار السن The Family Life of Old People (١)

( ١ ) سبق ان اصدرت المجلة عددا خاصا بالشيوخوخة ، ونظرا لأهمية الموضوع توالت المجلة نشر بعض الدراسات الاخرى من حين لآخر - التحرير .

( ١ ) اعتمد تاونسند في تأليف كتابه على دراسة عميقة أجراها في السنة ١٩٥٤ ، ١٩٥٧ في حي Bethnal Green في لندن ودرس انماها مائتي حالة لشيوخ متقاعد من العمل . وكان السبب الرئيسي وراء هذه الدراسة هو الازدياد الشهور بالتق في بريطانيا على المسنين الذين كانوا يتزايدون في العدد بسرعة عالية والذين كانوا يعانون من الوحدة والعزلة والافتقار نتيجة لشعورهم بالاغمال من اولادهم والارباب ومن الدولة على السواء . وليس أدل على ذلك من أن ١٤٪ من سكان المنطقة كانوا محالين على المعاشرة متقاعدين عام ١٩٥١ ، وهي نسبة عالية ، وكان هناك احساس بان هذه النسبة في ارتفاع مستمر . وقد غصت عينة الدراسة حالات من الجنسين وكانت كل مقابلة تستغرق حوالي مساعتين كانت تستخدم فيها الاستمارة والمقابلة المفتوحة ، وكثيرا ما كانت زيارة المؤلف تكرر لنفس الاشخاص مرتين وثلاث مرات واحيانا اربع مرات لاستكمال المعلومات ، ولكن الباحث كان يعتمد بالإضافة الى ذلك على بعض المصادر الاخرى التي تلتى مزيدا من القسود على وضع الشيوخ والمسنين بصفة عامة .

خاصة أساسية في دورة الحياة بأكملها ، وكانوا بالتالي يميلون الى فهمها على أنها جزء له مفزاه في عملية الحياة ، بينما كان الأطباء يهتمون بالشيخوخة نظرا لما يلعبه الطب في علاج أمراض الشيخوخة ومحاولة اطالة الحياة عن طريق التغلب على المرض والعجز (٢) . وكان قد سبق ذلك كله مرحلة كان الاهتمام فيها بدراسة الشيخوخة يعتمد على التأمل النظري البحث في الأغلب ، وان كانت هناك الى جانب ذلك بعض المحاولات الجادة للقيام بالبحوث الامبيريقية او حتى التجريبية التي لادعى للخوض فيها هنا . ولكن على الرغم من هذا كله فان دراسة تاونسند تعتبر أحد المعالم الرئيسية في البحوث الاجتماعية العلمية الدقيقة، بحيث يمكن القول انها ارسيت قواعد الدراسة السوسبيولوجية في هذا المجال الهام ، وبحيث نجد عددا من تلاميذ تاونسند يكرسون جهودهم للدراسة الشيخوخة من زواياها المختلفة ، ويصدرون في ذلك عددا من الكتابات والدراسات التي شجعت على القيام بدراسات مماثلة خارج بريطانيا ، مما ادى الى آخر الامر الى ان اصبح علم الشيخوخة علما اجتماعيا بقدر ماهو علم بيولوجي ، بل لقد اخذ علماء الاجتماع والانثروبولوجيا في السنوات الأخيرة يسيطرون سيطرة كبيرة على دراسات الشيخوخة ، ويسلطون كثيرا من الاضواء على النواحي والمظاهر الاجتماعية لمشكلة الشيخوخة ، وهي المظاهر التي لا يعطيها الأطباء وعلماء البيولوجيا ما تستحقه من عناية وذلك بحكم تخصصهم الدقيق . ولكن المهم هنا هو ان الاهتمام بدراسة الشيخوخة من الناحية الاجتماعية اهتمام حديث نسبيا رغم ما احرزه من نجاح وتقدم . وان معظم المحاولات التي يابدئنا تدرس المشكلة في جماعات وفئات معينة بالذات ، او في مجتمعات محلية محددة

بدراسة الشيخوخة كظاهرة اجتماعية ، وبحياة كبار السن والشيخوخة في المجتمع العربي المتقدم ، والعلاقات الاجتماعية التي تقوم بين مختلف الاجيال ، والدور الذي يلعبه الشيخوخة في حياة المجتمع المعاصر والمشكلات التي يعانون منها ، ونظرة المجتمع والدولة اليهم والخدمات التي تقدم لهم ، ويقارنون هذا كله بما يحدث في المجتمعات التقليدية والمتخلفة او النامية والجماعات « البدائية » التي لم تصل بعد الى مرحلة التصنيع ، والتي لا يزال نظامها الاقتصادي يعتمد على اشكال أكثر بساطة ، مثل الجمع والالتقاط او صيد السمك او قنص الحيوان او الرعي او الزراعة البسيطة .

وليس معنى هذا ان دراسة تاونسند كانت اول دراسة على الاطلاق يطبق فيها المنهج العلمي وتم بطريقة علمية منظمة ودقيقة . بل الواقع انه هو نفسه كان قد تأثر بعدد من الدراسات التي ظهرت من قبل ، والتي عالجت مشكلة الشيخوخة في بعض المجتمعات المحلية في بريطانيا ، كما انه يبدو ان عددا من الدراسات حول الموضوع ذاته كانت قد اجريت في بعض الدول الأوروبية ، وبخاصة في فرنسا ، حيث نجد بالذات سلسلة طويلة من مشروعات البحوث الكبرى عن سيكولوجية الشيخوخة تتم تحت اشراف سوزان بيكو Suzanne Becaud التي كانت تهتم في المحل الاول بتغيرات السن والرها في الذاكرة ، وفي الوظائف العقلية والسيكوحركية ، وكذلك تأثير التعليم على تراجع هذه الوظائف عند المسنين . كذلك كانت هناك دراسات كثيرة تعالج الشيخوخة من الناحيتين البيولوجية والطبية ، خاصة وان علماء البيولوجيا في دراساتهم للكائنات العضوية الدنيا ذات دورة الحياة القصيرة كانوا يعتبرون الشيخوخة

(٢) انظر في ذلك John E. Anderson, "Research on Ageing" in Burgess, E. W. (ed.) ; Ageing in Western Societies, A comparative Survey, Chicago University Press, 1960, 1969.

المعلومات المتعلقة بالشيخوخة والشيخوخة في هذه المجتمعات الأخيرة بوجه خاص . والواقع ان كثيرا من النظم الاجتماعية لدى القبائل الافريقية والاسترالية وقبائل الهنود الحمر وغيرها يصعب فهمها ان لم يؤخذ في الاعتبار موقف تلك المجتمعات من الشيخوخة والمكانة الاجتماعية التي يتمتعون بها هناك ، والأدوار التي يقومون بها ، والوظائف التي يؤديها في تماسك الجماعة .

فالمجتمعات القبلية التي توصف عادة في الكتابات الانثروبولوجية بأنها مجتمعات بدائية أو « متخلفة » تختلف في نظرتها الى الشيخوخة والشيخوخة اختلافا كبيرا عن المجتمعات الحديثة المتقدمة ، وبخاصة المجتمعات الصناعية . وربما كان السبب الرئيسي في تلك الاختلافات هو ان الظروف والأحوال العامة في المجتمع « البدائي » أو البسيط أو المتخلف لا تسمح الا لنسبة ضئيلة جدا من السكان بأن تعيش حتى مرحلة الشيخوخة المتقدمة ، وذلك نظرا لانخفاض مستوى العناية الطبية والتربية الصحية أو التثقيف الصحي هناك ، وتفشي الأمراض والأوبئة والمجاعات التي تقضى على نسبة كبيرة من السكان في مرحلة الطفولة أو الشباب . ولذا فان الشيخوخة كعملية بيولوجية تكاد لا تكون مفهومة تماما عند هؤلاء « البدائيين » حيث يموت الناس في العادة في سن صغيرة نسبيا وهم لا يزالون قادرين على العمل وعلى المشاركة في الحياة . ومن هنا فان عدد الأشخاص الذين يحتاجون فعلا الى الإعالة في الجماعات القبلية قليل نسبيا ويكاد لا يعتبر عبئا على الجماعة الا في الحالات التي يتعرض فيها المجتمع ككل الى المجاعات الشديدة . وعلى ذلك فان الشيخوخة من حيث هي مشكلة تحتاج الى حل ليست قائمة هناك بنفس المعنى الذي نلجده في المجتمع الصناعي الحديث الذي تؤلف فيه الشيخوخة مشكلة ضخمة تحتاج الى تكوين مؤسسات تتولى امر

لتحقيق أكبر قدر ممكن من الدقة العلمية ، ولماكان التعمق في التحليل . وعلى الرغم من تزايد الدراسات والبحوث الاجتماعية والانثروبولوجية والسيكولوجية في هذا المجال، فان هذه الدراسات والبحوث لا تزال قليلة اذا هي قورنت بما حققه الأطباء وعلماء البيولوجيا الذين كان لهم بغير شك فضل السبق في دراسة ظاهرة الشيخوخة عند الانسان .

وعلى أية حال فان علماء الاجتماع والانثروبولوجيا في دراساتهم للشيخوخة يأخذونها على انها أكثر من مجرد تغيرات بيولوجية وفسولوجية وفيزيكية تطرا على الجسم البشري نتيجة للتقدم في السن ، ويعتبرونها ظاهرة اجتماعية تتمثل في موقف معين يلقفه المجتمع من الفرد ويفرض عليه بمقتضاه قيودا وحدودا وقواعد سلوكية يلتزم بها ، كما تتمثل من الناحية الأخرى في موقف معين أيضا يلقفه الفرد نفسه من نفسه ومن الآخرين ، ويتمثل في التزامه بتلك القواعد والقيود والمبادئ التي يضعها له المجتمع ، كما يتمتع عن كثير من الأمور التي كان يبيحها لنفسه قبل ان يصل الى تلك السن . ويقول آخر ان علماء الاجتماع والانثروبولوجيا يعتبرون الشيخوخة احدي المراحل التي يمر بها الفرد خلال دورة الحياة وتلايسها مظاهر سلوكية وقيم اجتماعية معينة ، كما انها في الوقت ذاته منزلة اجتماعية يحتلها الفرد بحكم السن التي وصل اليها ، ودور اجتماعي يلتزم بالقيام به وادائه ... وربما كان هذا أوضح في المجتمع البدائي والتقليدي منه في المجتمع الصناعي الحديث .

### ( ١ )

لقد اهتم علماء الانثروبولوجيا بالذات بدراسة هذا الموضوع وتتبع ظاهرة الشيخوخة في الأساطير والتراث القديم وفي المجتمعات القبلية « البدائية » ولدينا ذخيرة هائلة من

الاقتصادي ، اذ انهم يسطلمون بدور حيوي له اهميته في عملية الانتاج ، ونعني به الشعائر والطقوس السحرية والدينية التي تعتبر عنصرا اساسيا لضمان نجاح اية عملية انتاجية ، ويستوى في ذلك صيد السمك او قنص الحيوان او تغليح الارض او بلر او حصص المحصول او غير ذلك . فهذه كلها انواع من النشاط الاقتصادي لا يمكن البدء فيها ان لم تسبقها شعائر وطقوس معينة يقوم بها الشيوخ ، وتعتبر مهدة لذلك النشاط ومتممة له . ومن هنا فان علماء الانثروبولوجيا الذين اتاحت لهم فرصة دراسة الدور الذي تلعبه هذه الممارسات السحرية والدينية في الحياة الاقتصادية يعتبرونها بالعلل جزءا من عملية الانتاج ، مما يعني بالتالي ان الشيوخ يسهمون بالعلل ايضا في الانتاج ، وان كان المجهود الفيزيقي الذي يبذلونه في ذلك عديم الاثر ، او على الاقل غير واضح تماما .

والامثلة كثيرة على ذلك :

فبعض علماء الانثروبولوجيا من امثال مالينوفسكي Malinowski وايفانز بريتشارد Evans-Pritchard وفيرث Firth يميزون بين « انواع » السحر المختلفة حسب وظائفها ، ويذكرون ضمن هذه الانواع السحر الانتاجي Productive الذي يهدف الى تحسين الانتاج ووسائله وتنظيم العمل ، والتحكم في عوامل الطبيعة التي تساعد على ذلك مثل المطر . ومالينوفسكي بالذات يعطى لهذا السحر جانبا كبيرا من اهتمامه ، وهو يدرس عناصر الانتاج في المجتمع البدائي وبخاصة مجتمع التروبرياند Trobriand الذي درسه ، ويشير بوجه خاص الى ما يسميه بسحر الحدائق Garden Magic ، وهو السحر الذي يمارسه الناس هناك بقصد تحقيق محصول وافر من نبات اليام Yam الذي يعتبر الغذاء الرئيسي عندهم ، وبدون ممارسة هذا السحر لن تغلح

الشيوخ والعناية بهم ، ووضع القوانين والقواعد والتنظيمات التي تنظم حياة هؤلاء الشيوخ وتهم بتوفير مستوى اقتصادي واجتماعي معين لهم بعد ان استغنى المجتمع عن خدماتهم . وليس ثمة شك في ان التكافل الاجتماعي القائم على اساس الروابط القرابية في المجتمعات البسيطة والتقليدية ، والذي يقضى على اعضاء الجماعة القرابية الاهتمام والعناية بامر افراد الجماعة من الشيوخ والمتقدمين في السن ، يساعد مساعدة فعالة على حل مشكلات الشيوخ في تلك المجتمعات . وما يخفف من وطأة الشيوخ على الشيوخ انفسهم وعلى بقية افراد الجماعة في وقت واحد ان تلك المجتمعات البسيطة وبخاصة « البدائية » منها تحاول بقدر الامكان الافادة من هؤلاء الشيوخ ومن خبراتهم العميقة في شئون الحياة ، ومن هنا فانها تحدد لهم مركزا معيناً ودورا يتعين عليهم اداؤه ، وانواعا محددة من النشاط الاجتماعي - او حتى الاقتصادي - تتناسب مع ضعفهم الفيزيقي النسبي بحيث لا يشعر المجتمع بأنه يتحمل نحوهم مسؤوليات ثقيلة او انهم يشكلون عبئا يصعب حمله ماداموا يؤدون لهذا المجتمع وظيفه لها اهميتها بالنسبة اليه على ما ذكرنا من قبل .

والواقع ان الشيوخ في المجتمع « البدائي » والتقليدي تعتبر في حد ذاتها انجازا له اهميته ومكانة متميزة ، وتجلب لصاحبها الاحترام الذي يتناسب مع المركز الاجتماعي السامي الذي يحتله في الحياة الاجتماعية . فاهمية الفرد في المجتمع البدائي لا ترتبط بالضرورة بقدرته على الانتاج الاقتصادي ، او على الاصح بالمجهود الفيزيقي الذي يبذل في عملية الانتاج . اذ ليس من شك في ان العمل الشاق الذي يتطلب لياقة بدنية عالية وقدرة فيزيقية كبيرة انما يسطلح به الشبان . ولكن هذا لا يعنى اطلاقاً عدم مشاركة الشيوخ في النشاط

على العموم باسم « صانعي المطر » . ومهمة « صانع المطر rain-maker » هي القيام بالصلوات والأدعية الخاصة بالاستسقاء واستنزول المطر في سنوات الجذب ، ولذا كانت وظيفته من أهم الوظائف المكملة للحياة الاقتصادية في تلك الشعوب . (٤)

ومن التسليم بأن أفرادا قليلًا فقط هم الذين يمارسون هذه المراسيم والطقوس في تلك المجتمعات نتيجة لخبرتهم ودرابنتهم بفنون السحر ، فإن القيام بهذه الممارسات يعتبر وقفا على الشيخوخة والمتقدمين في السن ممن يحذقون هذه الفنون ، بل أنه ليس من المفروض أن يقوم بإدائه دور « شيخ الأرض » أو « صانع المطر » أو أن يمارس سحر الحقائق وغيره من أنواع السحر الانتاجي الأخرى إلا من يكون قد بلغ مرحلة معينة من العمر هي مرحلة الشيخوخة ، أي أن هذه الأدوار تعتبر بالضرورة من أدوات الشيخوخة ومن أوجه النشاط التي ترتبط بالضرورة بتلك المرحلة . وربما كان هذا أوضح في المجتمعات القبلية التي تقوم تنظيمها الاجتماعي على ما يعرف باسم نظام أو نسق طبقات العمر age-set system.



الزراعة ولن تحقق محصولا وفيرا ، ويقوم الشيخوخ بإداء تلك الممارسات والطقوس ، ويعتبر ذلك هو الاسهام الذي يسهمون به في النشاط الاقتصادي ، على الأقل في ميدان الزراعة (٥) كذلك نجد عند كثير من القبائل الأفريقية تدخل العناصر الغيبية المتعلقة بالألهة والأرواح والطواطم في النشاط الاقتصادي ، وهي عناصر يشرف عليها الشيخوخ وكبار السن في تلك الجماعات . فالشعوب النيلية مثلا تعرف ما يسمى بنظام « شيخ الأرض » ، وهو من الرؤساء الدينبيين الذين يتمتعون بقوة روحية خارقة ، وبمكانة دينية عالية، ويشرف على توزيع الأرض في كل موسم زراعى بين العائلات المختلفة التي يحق لها زراعة تلك الأرض ، كما أنه يقوم بالصلوات والأدعية والطقوس قبل الشروع في زراعة الأرض حتى يضمن نجاح المحصول وإبعاد الإفات عن الزراعة . وتعتقد هذه الشعوب أن زراعة الأرض بدون الرجوع إلى هذا « الشيخ » وبدون القيام بهذه المراسم والطقوس ، سوف يودى بالزرع والمحصول . وهذا نفسه يصدق على بعض الزعماء الروحيين والدينبيين في تلك المجتمعات القبلية ذاتها ، وفي بعض المجتمعات النيلية الحامية في شرق أفريقيا والذين يعرفون

(٢) انظر بوجه خاص كتاب مالينوفسكى عن حدائق الرجان وسحر الحقائق وهو بعنوان :

Malinowski, B., Coral Gardens and Their Magic.

ذلك راجع ما ذكرناه في ذلك الصدد في الجزء الثاني من كتابنا : البناء الاجتماعي (الانسان) ، صفحة ١٢٨ حاشية ٢ حيث نقول ان الاستاذ مالينوفسكى يذكر في كتابه Argonauts of the Western Pacific كثيرا من الطقوس التي يمارسها سكان جزر التروبريد قبل الخروج الى رحلات التبادل العرفية باسم الكولا ، وانهم يمارسون سحر الحقائق أو « سحر الزراعة » حتى يضمنوا ليس فقط نجاح المحصول ، بل ولكي يحصلوا أيضا على لموات كبيرة من نبات الياق الذي يهتمون بزراعته . « فساكن هذه الجزر يتنافسون فيما بينهم على الحصول على أدوات كبيرة الحجم يتخذون منها مصعدا للتلفاخر فيما بينهم . ولكنهم يصلون الى ذلك ليس فقط بفضل الجهود الكبيرة التي يبذلونها فلا في الزراعة والعناية بالحقول ، بل وإيضاحا طريق ممارسة نوعين من السحر ، احدهما يهدف الى نجاح لزراعة الشسطنى وكبر حجم العزرات التي تنبت في ارضه ، والاخر يهدف الى افساد زراعة لير من الزراع الذين يتنافسون معه . وكان من نتيجة ذلك ظهور نوع ثالث من السحر يحاول كل منهم ان يظل به بفعل السحر الذي يوجه خصومه الى زراعته وهكذا » . وليس من شك في ان الشيخوخ وكبار السن هم الذين يقومون بهذه الممارسات السحرية التي تؤثر تأثيرا مباشرا في الحياة الاقتصادية .

Seligman, C. G. and Brenda Z., Pagan Tribes of the Nilotic Sudan, (٤) Routledge 1932, pp. 195-200 ; 326-34 and 398-404.



المنزلة . وعلى هذا الأساس فإن ( طبقة العمر ) تختلف تماما عن ( مرحلة العمر ) التي تطلق عادة على تلك الأقسام المعروفة التي تنقسم إليها حياة الفرد من حيث هو فرد من الطفولة إلى الشيخوخة ، وذلك بعكس الحال بالنسبة لطبقة العمر التي لها معنى اجتماعي وجماعي ، ولا ينظر للفرد فيها إلا باعتباره عضواً في تلك الجماعة أو ( الطبقة العمرية ) .

**فكانه يمكن حصر الفوارق الأساسية بين هذين النوعين من التقسيم ، أي طبقات العمر ومراحلها ، في نقطتين :** الأولى هي أن الرجل الفرد لا يستطيع بحال أن يغير طبقة العمر التي ينتمي إليها . فولادة الفرد أو تكريسه في طبقة عمر معينة يعنى انتماءه إلى تلك الطبقة طيلة حياته . بينما هو ينتقل بالطبع وبحسب نموه من مرحلة عمر معينة إلى المراحل التالية بمرور الزمن وبفعل تقدمه في السن . والنقطة الثانية هي أن فكرة التماسك والتمايز التي تعتبر ركنا جوهريا في ( طبقة العمر ) لا تظهر على الإطلاق في ( مرحلة العمر ) . فطبقة العمر هي جماعة من الناس تتميز باتحادها وتضامنها في أداء واجبات وأعمال معينة مرسومة ، كما تتمتع كوحدة بحقوق وامتيازات محددة ، وتؤدي - كوحدة أيضا - وظائف معينة في الحياة الاجتماعية بشكل لا يتوفر في مرحلة العمر . وهذا هو ماسبق أن المحنا إليه حين ذكرنا أن طبقة العمر لها معنى اجتماعي بينما يصطبغ مفهوم مرحلة العمر بصبغة فسيولوجية غالبية . ومع ذلك ، فهناك علاقة وثيقة بين الاثنين ، إذ لا يمكن فهم نظام طبقات العمر إلا بدراسة هذه الطبقات في ضوء علاقتها بالمراحل العمرية التي يمر بها الإنسان في حياته ، وذلك على أساس أن احتلال الطبقة

ويظهر نظام « طبقات العمر » في عدد من المجتمعات « البدائية » التي يقوم التفاضل الاجتماعي فيها على أساس السن أو العمر وليس على أساس الثروة مثلا كما هو الحال بالنسبة للثاللية العظمى من المجتمعات . وليس المقصود من ( العمر ) هنا السن الفسيولوجية أو المراحل العمرية التي يمر بها الفرد في حياته من الطفولة إلى المراهقة والشباب إلى الرجولة الكاملة ، إنما المقصود هو تقسيم أعضاء المجتمع - وبخاصة الذكور منهم - إلى جماعات وفئات طبقية بحيث تشمل كل جماعة منها جميع الأفراد الذين ينتمون إلى سن معينة ، مما يؤدي في آخر الأمر إلى ترتيب السكان جميعا في طبقات تعلو أحداها الأخرى ، ويقف كل منها موقفا معينا من بقية الطبقات التي تعلوها أو تأتي دونها في السلم الاجتماعي ، كما تعمل الطبقة الواحدة وتتصرف في كل شؤون الحياة الاجتماعية ككل أو كوحدة متماسكة . (٥)

**فكان طبقة العمر هي جماعة محددة منظمة تضم جميع الأشخاص الذين ينتمون إلى سن واحدة ، وغالبا ما تتألف من الذكور وحدهم .**

وتتكون طبقة العمر في العادة من الأشخاص الذين يكرسون معا في وقت واحد . وبمجرد التحاق الشخص بطبقة عمر معينة نتيجة تكريسه فيها فإنه يظل معتبرا عضواً في تلك الطبقة طيلة حياته . ويطلق على كل طبقة عمر في كثير من الأحيان اسم واحد يعرف به أفراد الطبقة جميعا ويشتركون في حملته ، كما أنهم يشغلون جميعا نفس المركز الاجتماعي ويتبعون نفس أنماط سلوكه في معاملتهم بعضهم بعضا ، ويتخذون موقفا واحدا إزاء غيرهم من الناس ممن ينتمون إلى طبقة العمر التي تعلو طبقته أو التي تكون أدنى منها في

( ٥ ) يوجد هذا النمط من التمايز الاجتماعي في مجتمعات معينة بالذات في أفريقيا وأمريكا وبعض جزر المحيط الهندي وبعض قبائل استراليا ، ولكنه لا يمثل بوضوح وفوق في أي منها كما يشمل في شرق إفريقيا عند مجموعة الشعوب المعروفة باسم المشعوب نصف الحامية Half-Hamites وبخاصة عند القبائل النيلية الحامية أو النيلو حامية Nilo-Hamites وهي كلها مجتمعات تفرّد بتقسيم سياسي معين .

بوظيفة المحاربين الا بعد تقاعد الطبقة التي تقوم بالفعل بهذه الوظيفة وتنازلها عن السلطات المخولة لها لتلك الطبقة الجديدة الناشئة . ويتم هذا في معظم المجتمعات التي تعرف هذا النظام كل خمس عشرة سنة ، وبمقتضى ذلك تحدث نقلة الى أعلى في كل مكونات البناء الاجتماعى مع احتفاظ البناء ذاته بشكله وبالنسب القائمة بين تلك المكونات . أى ان الطبقات كلها تنتقل من مرتبة الى أخرى أعلى منها في ترتيب تصاعدى كلما تكونت طبقة جديدة ، ولكن العلاقات النسبية بين الطبقات التي تشغل مختلف المراتب تظل كما هى بدون تغير . واختلاف الطبقات يستتبع بالضرورة اختلاف المرتبة والمركز . والطبقة تعتبر في أدنى مستويات التمايز الطبقي بعد تكوينها مباشرة وتصل الى أعلى تلك المستويات حين تقترب نهايتها ، أى حين يموت معظم افرادها بفعل السن وتكاد تختفي من الوجود .

**ويختلف عدد المراتب الاجتماعية التي تمر بها طبقة العمر الواحدة من مجتمع لآخر وان كان ثمة ميل عام الى التمييز بين ثلاث مراتب اساسية هي البطولة والرجولة الكاملة والشيخوخة .** وقليل من هذه المجتمعات يعتبر الطفولة مرتبة تشغلها الطبقة لفترة معلومة من الزمن . ولكل مرتبة من هذه المراتب وظيفة خاصة بها . **فالبطولة** وظيفتها الحرب كما سبق أن ذكرنا ولكن هذه الوظيفة تتضمن بالضرورة وظيفة أخرى هامة هي الوظيفة الاقتصادية ، لأن الحرب في كثير من الأحيان يكون الغرض منها شن الغارات على معسكرات الاعداء لسرقة الماشية ( الإبقار ) التي تلعب دورا هاما جدا في الحياة الاجتماعية كلها علاوة على قيمتها الاقتصادية ، وذلك على اعتبار ان الماشية هي أداة دفع المهر ودفع الدية وتقديم القرابين والاضحيات الى الآلهة في تلك المجتمعات الوثنية وهكذا . وتربط مرتبة **الرجولة الكاملة** بالاستئغال بامور الحياة المدنية

مركزا اجتماعيا معينا ، وانتقالها من مستوى اجتماعى الى مستوى آخر أعلى منه يرتبط بالانتقال التدريجي بين مراحل العمر المختلفة، كما ان الطبقات التي ينقسم اليها سكان المجتمع تتوزع في العادة بين مختلف المراحل العمرية ( انظر في ذلك مقالنا عن : « نظام طبقات العمر - دراسة في الانثروبولوجيا المقارنة » - مجلة الآداب جامعة الاسكندرية ، ١٩٦٣ ) .

وليس هنا مجال تفصيل القول في الشعائر التي تمارس لتكوين طبقة جديدة او للاحاق الشبان المراهقين بهذه الطبقة الجديدة ، وهي الشعائر التي تعرف عادة باسم شعائر التكريس initiation ceremonies ويكفى ان نقول ان هذه الشعائر هي التي تحدد تكوين الطبقة والاشخاص الذين ينتمون الى الطبقة الواحدة ، وانها قد تستغرق عدة سنوات حتى يسمح لعدد كبير من الشبان بالدخول فيها لتكوين طبقة واحدة قوية ومتماسكة ومتعاونة، وذلك قبل أن يفلق موسم التكريس وتمر سنوات أخرى طويلة تتراوح بين سبع سنوات وخمس عشرة سنة قبل أن يبدأ موسم جديد للتكريس لتكوين طبقة جديدة وهكذا .

وتعرف الطبقة الجديدة دائما باسم طبقة الإبطال المحاربين لانهم يتولون الوظيفة الحربية، أى الدفاع عن أرض القبيلة او الهجوم على القبائل الأخرى المعادية . وتظل هذه الطبقات تمارس هذه الوظيفة حتى يتم تكوين طبقة عمرية أخرى تزيح طبقة المحاربين من وظيفتها وتمتل مكانها ، بينما ينتقل المحاربون القدامى الى مرتبة اجتماعية أعلى هي مرتبة شيوخ العشيرة ، وهذا يؤدي بالضرورة الى زحزحة جميع الطبقات الأخرى الموجودة بالفعل ونقلها الى مراكز أعلى من تلك التي كانت تشغلها قبل تكوين الطبقة الجديدة ، أى ان الطبقة الناشئة لتمرارس حقها في القيام

طبقات الشيوخ كلها في هذه المهمة التربوية الحيوية بالنسبة للمجتمع والمحافظة على كيانه واستمرار تقاليده وقيمه الاجتماعية والثقافية . بل ان الحرب الهجومية ذاتها او الاغارات التي هي وظيفة طبقة الأبطال المحاربين لا يمكن ان تبدأ الا بعد استئذان شيوخ العشيرة وتلقى بركاتهم ودعواتهم التي تعتبر عنصرا أساسيا هاما لنجاح الاشارة او الحملة . والواقع ان الانتصار في الحرب ونجاح الحملة او فشنها هو مسؤولية الرؤساء الشعائريين أو السحرة ورجال الدين قبل كل شيء ، لأنهم هم الذين يعينون الوقت الملائم للحرب الناجحة ، وهم الذين يضمنون بذلك نجاح الحملة وانتصارها .

فواضح اذن من هذا كله ان الشيوخ في هذه المجتمعات يتعدون في وظائفهم المجال الاقتصادي البحث ، ويعملون دورا أكبر وأوسع وأشمل بحيث يتغلغلون في كثير من نواحي الحياة الاجتماعية بطريق مباشر أو غير مباشر ، ويؤثرون في كل مجالات الحياة . وهذا معناه في آخر الامر ان لهم في تلك المجتمعات التي يطلق عليها اسم المجتمعات البدائية دورا ايجابيا واضحا يساعد على تشكيل الحياة الاجتماعية واستمرارها . وقد تختلف تفاصيل هذا الدور من مجتمع لآخر وإنما المهم هو ان الشيوخ في كل هذه المجتمعات يشاركون مشاركة فعلية وفعالة في حياة المجتمع ، وأنهم يشعرون بذلك ، كما ان المجتمع ذاته يشعرهم طيلة الوقت بحاجته اليهم . وهذه كلها مواقف تكاد لتأجد لها مثيلا في المجتمعات الصناعية المتقدمة والمجتمع الحديث على العموم .

## (٢)

هذا الوضع يعتبر في حقيقة الامر هو الوضع المنطقي في كل المجتمعات الانسانية التي تلعب الروابط العائلية والقروية فيها دورا هاما في الحياة اليومية، وبالذات في الحياة الاقتصادية، بحيث نجد ان أعضاء الجماعة القروية يعتبرون

والاقتصادية والسياسية ، وأفراد الطبقة التي تشغل هذه المرتبة يدخلون في تأليف مجالس الوحدات الاقليمية والقبلية التي تنظر في المنازعات الداخلية بين أفراد القبيلة وتحاول انهاء الصراع ، أي ان وظيفتهم في الأغلب وظيفة سياسية . وأما مرتبة الشيوخ فأنها ترتبط بوجه خاص بالوظيفة الدينية . فطبقات الشيوخ هي التي تشرف على أمور الدين وعلى الطقوس والشعائر باعتبارهم أكبر الأحياء سنا في المجتمع وأقربهم بذلك الى الموت وإلى العالم الآخر وأدناهم بالتالي الى الآلهة ، ولذا يلجأ الناس اليهم في الكمات والأزمات ، كما يطلون اليهم التحكيم فيما قد ينشب بينهم من خلافات ويقبلون آراءهم ويخضعون لشورتهم ونصائحهم نظرا لمكانتهم الدينية الممتازة .

ولسنا هنا بصدد الحديث عن نظام طبقات العمر في ذاته وإنما الذي يهمنا هو تبين دور الشيوخ في بعض المجتمعات ( البدائية ) والوظيفة التي يقومون بها في تلك المجتمعات وهي وظيفة أساسية وهامة ، ثم تحديدها لهم حسب نظام محكم دقيق في جملة ، وبأخذ في الاعتبار القدرات الجسمية والكفاءة الذهنية وما يكتسبونه من خبرة وتجربة نتيجة لتقدمهم في السن . ومما له دلالة هنا ان تكوين الطبقة الجديدة التي سوف تحتل مرتبة البطولة لا يتم الا بموافقة الشيوخ أو أعلى طبقة من طبقات الشيوخ في حالة تعدد هذه الطبقات في المجتمع ، وان الفتيان انفسهم هم الذين يلجأون الى شيوخ العشيرة طالبين اليهم الاذن بالتكريس . ويخضع الفتيان أثناء شعائر التكريس ذاتها وفي خلال المدة التي تستغرقها تلك الشعائر والتي قد تمتد الى عدد من السنين لنوع من الاشراف من طبقة الشيوخ ، كما انهم يتلقون كثيرا من التعاليم والتوجيهات والدروس التي تتعلق بنوع السلوك المنتظر منهم بعد التكريس ، وتعاون

والتماسك بين افراد الطبقة وفي الامتناع عن التزاوج فيما بينهم او من بين اولاد بعضهم بعضا على اعتبار ان العلاقات الجنسية بين الاخوة والاخوات وذريتهم علاقة محرمة . بل ان طبقة العمر الواحدة تنظر الى الطبقات التي تعلوها على انها طبقات آباء واجداد اجتماعيين تقع عليهم كل المسؤوليات التي يجب ان يضطلع بها الآباء والاجداد الحقيقيون ، كما انها تنتظر من الطبقات التي تصفها ان تلتزم ازاءها بنفس الالتزامات التي يلتزم بها الأبناء الحقيقيون . فكان نظام طبقات العمر - بشكل ما ومن زاوية معينة - نوع من التنظيم القرابي الاجتماعي او التمثيل الذي يلجأ اليه المجتمع القبلي لكي يحافظ به على كيانه واستمراره وعلى تماسكه ، على اعتبار ان اقوى اشكال التماسك في المجتمع البسيط هو ذلك الذي يقوم على اساس القرابة .

والمجتمعات البسيطة اساليبها الخاصة في تشكيل نظمها الاجتماعية بحيث تتخذ في آخر الامر شكل التنظيم القرابي او على الاقل تقوم على اساس العلاقات القرابية والعائلية الحقيقية او الاجتماعية ( التمثيلية ) وبذلك يركز التكاثر الاجتماعي في هذه المجتمعات على قاعدة قرابية وليس على مجرد المصالح الاقتصادية او السياسية . وليس ادل على ذلك من النظام المعروف باسم النظام الطوطمي Totemism الذي يشيع في كثير من

الشيوخ والمسنين عاملا من عوامل قوة الجماعة واستمرار وجودها وبقائها . وبصل الامر في بعض الاحيان وفي بعض المجتمعات الى حد ان نجد الشخص يبيع المرتبة الاجتماعية التي يحتلها بحكم السن ، الى من هم اصغر منه سنا لكي يشتري مرتبة اجتماعية اعلى تربط بدرجة اعلى من الشيخوخة . وهذا هو ما كنا نقصده حين ذكرنا ان الشيخوخة تعتبر في ذاتها نوعا من الانجاز في مثل تلك المجتمعات . وليس ادل على ذلك من ان المجتمعات البسيطة تترجم تنظيماتها الاجتماعية المختلفة في حدود والفاظ وعلاقات قرابية وعائلية على اعتبار ان هذه العلاقات هي الاساس القوي الذي يمكن ان تقوم عليه حياة المجتمع وتماسكه وتضامنه واستمراره . ونظام طبقات العمر ذاته الذي اشرنا اليه في الفقرة السابقة لا يخرج عن ذلك في آخر الامر . ذلك ان الانتماء الى اى طبقة عمرية انما يتم بعد ممارسة شعائر التكريس التي بمقتضاها يصبح جميع افراد الطبقة اخوة واخوات على ما ذكرنا . (٦) وهذه اخوة اجتماعية او اخوة تمثيلية او متوهمة fictitious كما يجب بعض علماء الانثروبولوجيا ان يصفوها ، وليست اخوة بيولوجية او حقيقية ، ولكنها تخضع مع ذلك لجميع القواعد والالتزامات والحقوق والواجبات والمسؤوليات التي تخضع لها الاخوة الحقيقية . ويمثل ذلك في التعاون

( ٦ ) تتكسب طبقة العمر وجودها التمايز وكيانها التماسك بعد ان يتم بالفعل تكريس كل الافراد الذين تالف منهم ، اى انها لا تظهر كوحدة وظيفية الا بعد التكريس . وتقام معظم حفلات التكريس على المستوى الجماعي ، ويعتبر الفئتان اهم عنصر فيها ، كما يتعرض الفئتان الانماه لكثير من التدبير والتمايز التي تختلف في الشدة والقسوة من مجتمع لآخر ، مثل خلق بعض الاسنان ، او تشليخ الجبهة والرأس ، او الوخز بالاسنود والشجيرات ، او الجلد بالسياف ، وهذه كلها عمليات تهدف الى اختيار قوة احتمالات الشبان على ملاقات الصماب كما انها تعدم للقيام بدور الاطفال الحاديين على ما ذكرنا . وليس من شك في ان الانتماء الى طبقة واحدة والورود بفترة التكريس والظهور لتلك الشعائر القاسية العظيمة التي قد تتضمن احيانا عزلة افراد الطبقة لفترة معينة من بقية المجتمع تطلق بينهم نوعا من ( الاخوة ) الاجتماعية التي لا تعتمد على روابط الدم ، وذلك على اساس ان افراد الطبقة ينتسبون في العادة الى عشائر مختلفة داخل القبيلة الواحدة ، ويساعد على خلق علاقة ( الاخوة ) الاجتماعية نفس عملية الفئتان او التشليخ الجماعية حيث يمارسها على جميع افراد الطبقة شخص واحد في وقت واحد ، مستخدما في ذلك سلاحا واحدا لا يتم بتنظيمه بعد كل عملية فتختلط الدماء بما لذلك مما يوجد نوعا من الرابطة بينهم - انظر في ذلك كتابنا : « البناء الاجتماعي » ، الجزء الثاني - الانسان . ص ٣٠٠ .

ومتأسكة . وبهذه الطريقة يتمكن المجتمع البسيط أو البدائي أن يقضى على المشاكل التي تعاني منها المجتمعات الأخرى نتيجة لشيخوخة بعض أعضائها وتقدمهم في السن .



ويمكن أن نجد مثيلاً لذلك في المجتمعات التقليدية التي لا يزال يغلب عليها طابع الحياة الريفية ، بل وأيضاً في المناطق الريفية في الدول المتقدمة . وليس من شك في أن الثورة الصناعية وما ترتب عليها من آثار في بناء العائلة هي المسئول الأول عن ظهور مشكلة الشيخوخة بالحجم الذي نراها عليه في المجتمع الحديث ، وهذه مسألة سوف نعرض لها بالتفصيل فيما بعد ، ولكن الذي يهمنا الآن هو أنه قبل هذه الثورة الصناعية في أوروبا كان الشيوخ وكبار السن يجسدون أشباعهم في اهتمامهم العائلي ، حيث كان النقط السائد للعائلة هو العائلة الممتدة *extended family* التي يجد فيها الفرد - بصرف النظر عن سنه - الأمان والإطمئنان والاستجابة والاعتراف بالكيان ، وحيث كان الشيوخ يؤدون وظيفة وظيفة اجتماعية حيوية تتمثل - في أبسط صورها - في تقديم خبرتهم ونصيحهم وإرشادهم لأولادهم الكبار البالغين على ما يقول بيرجس Burgess (٧) .

والمعروف أن العائلة الممتدة تركز أساساً على مبدأ استمرار الأجيال المنحدرة من صلب رجل واحد في العيشة معا بحيث يؤلفون وحدة اجتماعية واقتصادية متعاونة ، بمعنى أن الرجل لا ينفصل حين يكبر ويتزوج عنه ( بيت ) العائلة بل يظل محتفظاً بعضوئيه وانتمائه إليه ، وبذلك فقد تضم العائلة الممتدة أفراداً ينتمون إلى ثلاثة أجيال أو أربعة ،

المجتمعات الإفريقية القبلية وفي استراليا وغيرها ، والذي يؤدي في آخر الأمر إلى إيجاد روابط قرابية اجتماعية بين أشخاص لا يرتبطون في حقيقة الأمر بأية روابط قرابية فيزيقية أو دموية . فاعضاء الجماعة الطوطمية يعتبرون أنفسهم متحدرين من سلالة ذلك الطوطم ( وهو حيوان أو نبات أو قوة طبيعية تلعب دوراً هاماً في حياة الجماعة ) ويحملون اسمه ، وبذلك يعتبرون أنفسهم أخوة وأخوات ، ويحرم عليهم بالتالي الزواج فيما بينهم . ومع أن أفراد الجماعة الطوطمية قد يكونون مبشرين كل التبشر وتكاد لا توجد بينهم روابط قرابية حقيقية فإن هذا لا يقلل بحال من قوة الروابط القربية الاجتماعية . والذي يهمنا هنا بصفة خاصة هو المسؤوليات التي تلقى على أعضاء الجماعة الطوطمية ، بصرف النظر عن وجود أو عدم وجود علاقات قرابية حقيقية ، وهذه المسؤوليات والالتزامات لها إلى جانب مغزاها القرابي دلالات اجتماعية واقتصادية تمثل في التعاون المتبادل الذي يعتد إلى رعاية الشيوخ والمسنين من أعضاء الجماعة .

وهكذا نرى أن المجتمعات البسيطة أو البدائية « تستطيع بأساليبها وإجراءاتها الخاصة في خلق روابط قرابية اجتماعية أو متخيلة حتى بين الأفراد إنما لنهيه لنفسها نوعاً من ( الضمان الاجتماعي ) ضد الأزمات التي تمر بها من ناحية ، بحيث يصلح هذا الضمان الاجتماعي لتأمين حياة أعضاء الجماعة تحت الظروف القاسية التي تسود في تلك المجتمعات . ويعتمد هذا الضمان الاجتماعي بحيث يشمل بطبيعة الحال الشيوخ وكبار السن باعتبارهم أعضاء في الجماعة ( القرابية ) أو باعتبارهم أقارب وعلى أساس أن الوحدة القرابية هي بالضرورة وحدة متعاونة

أخذ في الاعتبار المركز الاجتماعي لتلك العائلات بصرف النظر عن الميول الشخصية . ولا تزال بقايا هذا النظام موجودة الآن في بعض مناطق الريف الأوروبي . وكل هذا من شأنه توفير قدر من الطمأنينة والاستقرار والاحترام للأجيال السابقة وكبار السن الذين يتدخلون في معظم الأمور التي تعتبرها أمورا خاصة وشخصية مثل مسألة اختيار الزوجة .

وهذه كلها أمور مؤلفة لدينا ، ونحن نعرفها من خبراتنا ومن حياتنا اليومية حيث انها تسود في المجتمعات الريفية الشرقية ، ولكن هناك كثيرا من الشواهد التي تشير الى ان هذا هو الوضع في بعض المجتمعات الريفية في أوروبا وأمريكا ، حيث لا تزال الروابط العائلية تتميز بدرجة عالية من القوة والتماسك ، وحيث لا تزال أنماط العلاقات القربانية تكشف عن مدى الاحترام الذي يتمتع به الشيوخ الذين يلعبون دورا فعالا في حياة العائلة . (٨) وقد يحسن بنا ان نشير هنا الى بعض ما يسجله علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع بهذا الصدد في المجتمع الريفي في الغرب ونكتفي بمثال واحد

يتعاونون معا في الحياة اليومية ، ويقوم بينهم نوع من التكافل الاجتماعي الذي ينبع من شعور كل فرد بالمسؤولية نحو الآخرين اجتماعيا واقتصاديا . ونظرا لان هذه العائلة تستمد قوتها الى حد كبير من الاجيال السابقة ومن كبار السن والشيوخ الذين يوجهون كل شئونها ويتحكمون الى حد كبير في تصرفات الاعضاء الاصغر منهم سنا فانهم يحظون لذلك بكثير من المهابة والاحترام . ولقد كان هذا النمط من التنظيم العائلي يسود كثيرا من المناطق الريفية حتى في أوروبا ذاتها ، كما انه كان يوجد لطبيعة الحال في المجتمعات الأكثر بساطة والمجتمعات التاريخية ذات الحضارات القديمة ، ولا يزال هو النظام السائد في المجتمعات الشرقية على ما ذكرنا . واستمرار هذا النمط من التنظيم العائلي يدل على تماسك الاجيال والتمسك بالتقاليد كنتيجة حتمية لاستمرار بقاء الأبناء وزوجاتهم وأولادهم داخل نطاق العائلة ، وذلك فضلا عن ارتباط العائلات المختلفة ببعض عن طريق الزواج والمصاهرة فالعائلة الممتدة هي التي تحدد في الأغلب لأعضائها العائلات التي يمكن لهم الزواج منها

(٨) الواقع ان بعض علماء الاجتماع البريطانيين الذين درسوا التجمعات العائلية في بعض المناطق المتخلفة في المدن الصناعية بالجنوب والبلدات في لندن قد سجلوا وجود بعض بقايا العائلة الممتدة في الاحياء الصناعية التي يسكنها العمال والتي يعملون فيها في الوقت ذاته ، أي الاحياء التي تعتبر مناطق عمل وسكني وجامعة معا وبذلك تكون مناطق مملقة الى حد كبير اذ تتم كل انواع النشاط الاجتماعي التي يقوم بها السكان داخل حدود تلك المناطق ، كما ان الرجل حين يتزوج فإنه يميل الى الإقامة بجوار أسرته وبخاصة أسرة امدان كانت تعيش في المنطقة ذاتها . ومن هنا فان شكل العائلة الممتدة هو الشكل الأمومي ، وان نواة هذه العائلة الامومية الممتدة تتألف من الجدة ( ام الام ) وبناتها وحفيداتها وهذه مسألة قد تبدو غريبة ان لم يدرك هذا الموضوع ، كما انها تختلف اختلافا كبيرا عن الاعتقاد السائد من ان نواة العائلة العائلية في المجتمعات القربية الصناعية هي الروابط العائلية الأبوية التي تعتمد على الذكور لا الاناث . وقد اشار الى هذه الظاهرة كل من تاونسند ، الذي سبقنا الإشارة اليه ، وبنوج وويلموت Young and Willmott اللذين اشتركا معا في دراسة بعض الاحياء المتخلفة في لندن ، واللذين تعتبر دراستهما تمهيدا للدراسات التي قام بها تاونسند فيما بعد . ومن الغريب ان نجد ان هؤلاء العلماء الثلاثة يجمعون على ان النساء في تلك المناطق الصناعية المتخلفة اكثر ارتباطا بأهلهن وأخواتهن ، وغير هؤلاء الاقارب النساء من ارتباط الرجل بأقاربه من كلا الجنسين حيث يفصل الرجل في العادة ان يقيم علاقته الاجتماعية مع اصدقاء وليس مع اقارب . وقد اشارت إليزابيث بوت Elizabeth Bott الى ذلك في دراستها القيمة عن Family and Social Network حين ذكرت ان أحد الرجال الذين كانت تعتمد عليهم في بحثها قال لها ان « الرجال لهم اصدقاء ، اما النساء فان لهن قريات وانه ليس للنساء صديقات وانما لهن امهات فقط » . ويبدو ذلك واضحا بشكل قوي من التعاون المتبادل بين القربيات وقت الحاجة والشدة . وهذه كلها مظاهر سائدة في المجتمعات البسيطة والتقليدية المتخلفة .

والتوبيخ والمقاطعة والنبذ وغير ذلك . ولا  
يعنى هذا اطلاقا ان الشباب لا يختلفون مع  
الشيوخ ، او انهم يقولون دائما وجهة نظرهم  
وأراءهم ومواقفهم ، اذ كثيرا ما يعبرون عن  
معارضتهم للشيوخ وانتقادهم لأرائهم وأفكارهم  
التقليدية القديمة ، ولكن هذا يتم في حدود  
معينة مرسومة ، وان كان الشباب فيما بينهم  
كثيرا ما يسخرون منهم دون ان ينسوا مع  
ذلك نسق القيم الذى يمثل الشيوخ فيه  
الحلقة الرئيسية التى تربط افراد العائلة  
بعضهم ببعض ، والذى يتمتعون فيه باكثر  
قدر من الاحترام والمهابة والتبجيل . ومع ان  
الشباب يريدون دائما بطبيعة الحال ان يكون  
لهم كيانهم المستقل المتميز عن الشيوخ فانهم  
لا يجراون في كثير من الاحيان على الافصاح  
عما يدور في اذهانهم . وينعكس احترام المجتمع  
لكبار السن والشيوخ في كثير جدا من التصرفات  
العادية في الحياة اليومية ، وهى تصرفات قد  
تبدو عديمة الاهمية لاول وهلة ولكن لها دلالتها  
المعينة . فالشيوخ يجلسون دائما في صدر  
المكان على المقاعد المجاورة للنار للتدفئة ،  
بينما يجلس صغار السن في مؤخرة الحجرة .  
والشيوخ هم الذين يتكلمون بينما ينصت  
صغار السن والشباب ، وحتى حين يكون  
الكلام موجها الى احد هؤلاء الشباب فكثيرا  
ما يجيب كبار السن عنه ، بل وقد يصل الحال  
بالشاب بان يتحز من الكلام الا حين يؤذن له  
بذلك . ومن الطريف ما يلاحظه المؤلفان من ان  
« افضل فنان شائى ، واكبر قطعة خبز ،  
والبيضتان بدلا من البيضه الواحدة ، وما الى  
ذلك تقدم كلها للشيوخ » دليلا على الاحترام  
والاعزاز والرعاية ، وهما يريان انه بدون هذه  
الصفات الصغيرة تفقد حياة الجماعة الريفية  
طعمها ومعناها ، كما يصعب على الباحث  
ان يفهم العلاقات الاجتماعية بل وبناء المجتمع  
كله ان لم يأخذ هذه الامور في الاعتبار . (٩)

لذلك ، مستمد من الدراسة القيمة التى قام  
بها اثنان من العلماء هما آرنسبرج وكيمبول  
على المجتمع الريفي في ايرلندا ، وعن المنزلة  
الاجتماعية العالية التى يتمتع بها الشيوخ  
هناك ، والدور الاجتماعي الذى يقومون به في  
حياة المجتمع كنتيجة طبيعية لقوة الروابط  
العائلية وتماسك الوحدات القرابية هناك .

ولقد لاحظ الباحثان ان الفلاح ايرلندى  
يعيش في العادة الى سن متقدمة ، ومع انه من  
الصعب رد طول العمر في المجتمع الريفي  
ايرلندى الى اسباب معينة بالذات مثل الطعام  
والمناخ او العوامل السلبية او العناية الطبية التى  
يحظى بها الرجل الاوروبى عموما ، الا انه ليس  
ثمة شك في ان الفلاحين ايرلنديين - كما  
يقول الباحثان - يعيشون طويلا ويتغلبون  
على الامراض ، لان لديهم ما يعيشون من اجله ،  
وهو كثير . ذلك انهم في مجال حياتهم الخاصة  
يحظون بكثير من الاحترام ويتمتعون بكثير من  
القوة والسلطة والتفوذ . وسلوك الفلاح  
العادي هناك وعواطفه ومواقفه واتجاهاته  
وحديثه في الحياة اليومية تشير كلها الى ذلك  
الاحترام الذى يتمتع به الشيوخ والمنسوق في  
المجتمع ، وان هذا الاحترام وتلك المراجعة  
للسن وللشيخوخة يعتبران جزءا من اخلاق  
المجتمع الريفي وقيمه ، وان الطفل يتعلم منذ  
صغره كيف ينبغي عليه ان يسلك ويتصرف  
مع الذين يكبرونه في السن ، وبخاصة  
الشيوخ ، ليس فقط داخل عائلته وانما  
في نطاق المجتمع ككل ، وهذا في حد ذاته يساعد  
مساعدة فعالة واكيدة على تحديد المراكز  
الاجتماعية والراتب التى يحتلها افراد المجتمع  
بحسب تقدمهم في السن ، كما يحدد انماط  
السلوك التى يجب اتباعها ، لدرجة ان المجتمع  
يفرض الجزاءات والعقوبات على كل من  
يخرج على قواعد السلوك التى يجب مراعاتها  
نحو الشيوخ ، وهى جزاءات تتراوح بين اللوم

والتي كان الشيخوخ يؤدون دورهم الواضح الحيوى فيها طالما كانوا قادرين على الحركة وعلى ابداء الراى فى شئون الجماعة التي ينتمون اليها . ولقد تغير هذا كله تغيرا جذريا بدخول التصنيع الى المجتمع وظهور مراكز صناعية متقدمة كانت تعتبر - ولا تزال - مراكز جذب للسكان ولابدئ العاملة ، نظرا لما تتيحه من فرص جديدة للكسب والعمل لا تتوفر في المجتمع الريفي الذي يعتمد على الزراعة وغيرها من اشكال النشاط الاقتصادي الاكثر بساطة . ولقد ترتب على ذلك الحراك السكانى من اجل الالتحاق بالمصانع كثير من التغيرات الهامة التي تتمثل في انفصال الافراد عن عائلاتهم الكبيرة الممتدة ، وتكوينهم عائلات صغيرة او عائلات نووية - حسب التعبير الشائع في الكتابات السوسيولوجية والانثربولوجية - تتألف من جيلين اثنين ( جيل الوالدين وجيل الاولاد ) بدلا من الاجيال الثلاثة او الاربعة التي تتكون منها العائلة الممتدة ، وضعف الروابط العائلية والعلاقات القرابية نتيجة لذلك ، والفصل بين مناطق السكنى والاقامة ومناطق العمل ، بعد ان اصبح الشخص يعمل في المصانع الكبيرة التي تقام في اماكن معينة بعيدة عن الساكن ، بعد ان كان يعمل مع اعضاء عائلته في نفس موطن اقامته الاصلى ، وازدياد الاتجاه الى الفردية نتيجة لاستقلال الفرد اقتصاديا عن عائلته الممتدة ، وتبعثر اعضاء العائلة الواحدة بين مختلف مناطق العمل والصناعة ، والتحاقهم باعمال مختلفة بحيث ان الزوجين كثيرا ما يعملان في مهن وامان مختلفة ومتباعدة بعد ان كانت وحدة العمل والنشاط الاقتصادي تجمع بينهما ، بل وبين كل اعضاء الوحدة القرابية ، وظهور التخصص الدقيق وبخاصة في مجال الصناعة مما ادى الى تباعد اعضاء العائلة الواحدة في عمليات الانتاج الاقتصادي بعد ان كانت وحدة الانتاج قبل الثورة

وهذه كلها كما ذكرنا من قبل امور مألوفة وشائعة في مجتمعاتنا العربية التي يقوم تنظيمها الاجتماعى على اساس روابط القرابة والدم والمصاهرة ، وحيث لا تزال العائلة الممتدة هي النمط الغالب ليس فقط في المناطق الريفية بل وايضا في المراكز الحضرية والمدن . والمهم هنا هو ان هذه الروابط القرابية القوية هي التي تساعد الشيخوخ على الاستمرار في اداء الدور الذي يتلاءم مع سنهم ، كما تساعد المجتمع على الاعتراف بهذا الدور وتقبله ، وبالتالي على تقبل الشيخوخ واحاطتهم بالرعاية والاحساس طيلة الوقت بالحاجة الى وجودهم الذي يعتبر ( بركة ) في اغلب الاحيان . ومن هنا تعتبر الشيخوخة ليس مجرد انجاز كما قلنا ، بل انها تعتبر قيمة يحافظ المجتمع عليها ويسترشد بتعاليمها .

### ( ٣ )

هذا الالتزام بمساعدة المتقدمين في السن والشيخوخ والذي يرتبط بالعائلة الممتدة وبالروابط القرابية القوية لم يلبث ان طرا عليه كثير من الضعف والوهن بتقديم المجتمع الانسانى ، وتحول الكثير من المجتمعات من الحياة الزراعية البسيطة الى التنظيم الصناعى الاكثر تعقدا ، والذي ادى الى ظهور انماط جديدة من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والقيم الاخلاقية التي لم تكن معروفة من قبل . ذلك انه قبل الثورة الصناعية التي بدأت بواورها الاولى في اواخر القرن الثامن عشر ، ثم وضحت معالمها في القرن التاسع عشر ، كان النمط العام للحياة الاجتماعية في المجتمعات القريبة هو نفس النمط الريفي الذي لا يزال يسود في المجتمعات التقليدية البسيطة ، والذي كانت الروابط العائلية والقرابية تلعب فيه دورا اساسيا فعلا في كل مجالات الحياة،



العمل سوى روابط المصلحة المشتركة .  
فصاحب العمل يحتفظ بالعمال طالما كانوا على  
درجة معينة من الكفاءة والمهارة واللياقة  
البدنية التي تؤهلهم للقيام بالعمل الذي يوكل  
اليهم على الوجه الاكمل ، والا استغنى عنهم  
بحجة عدم حاجة العمل اليهم او عدم امكانهم  
تحقيق المستويات المطلوبة في الانتاج . ويتضح  
ذلك بأجلى صورة في استغناء العمل عن العاملين  
حين يصلون الى سن معينة تقل عندها قدراتهم  
وكفاءتهم ومهارتهم . وهي امور غير مالوفة في  
المجتمعات التقليدية البسيطة او اساليب  
الانتاج الاقتصادي التقليدي . ومن هنا كان  
الرأى الذى يذهب اليه الكثيرون من علماء  
الاجتماع والانثروبولوجيا من ان مشكلة  
الشيخوخة والاحساس بها كمشكلة اجتماعية  
تحتاج الى حل ، انما هي وليدة الثورة  
الصناعية وما ادخلته من تغيرات على اساليب  
العمل والانتاج ، وما ترتب على ذلك من تغيرات

الصناعية هي الوحدة القربية الممتدة على ما  
سبق ان ذكرنا (١٠) . ولقد كانت النتيجة  
الحتمية لهذا كله هي ان اصبح الشيوخ يمثلون  
عبئا على العائلة . فالعائلة الصغيرة او النواة لم  
تعد - بحكم تكوينها وبحكم الظروف التي تعيش  
فيها - تحتفل او تستطيع اعالة الشيوخ او  
استيعابهم او العناية بهم . بل ان الشيوخ  
لم يعودوا يؤلفون جزءا في تكوين هذا النمط  
من العائلة نظرا لان الرجل ينفصل عن عائلته  
بمجرد ان يكبر ويتزوج ان لم ينفصل عنها قبل  
ذلك ويرحل للمصل في مكان بعيد . (١١)  
ومن ناحية اخرى فان التغيرات التي طرأت  
على طبيعة العمل وطبيعة العملية الانتاجية  
ادت الى ان تصبح الوحدة الانتاجية تقوم على  
اساس المصالح الاقتصادية بعد ان كانت تقوم  
على اساس روابط الدم والقرابة . فالعمال  
الذين يعملون في صناعة من الصناعات وفي  
مصنع من المصانع لا تربطهم ببعض ولا بصاحب

( ١٠ ) تربط فكرة التخصص وتقسيم العمل بالمعنى الدقيق للكلمة بالمجتمعات الأكثر تطوراً ، وبخاصة المجتمعات  
الصناعية ، لدرجة ان أصبح نظاما لازما للصناعة الحديثة تربط بها ارتباطا قويا في الإلهام ، وبعيد نجد ان الكثيرين  
من الكتاب يتكرون على الشعوب ( البدائية ) والبسيطة اية معرفة بالتخصص . والمقصود بالتخصص وما يرتبط به من  
تقسيم للعمل هو توزيع الادوار المختلفة على اشخاص مختلفين بطريقة تكفل في آخر الامر تطبيق هدف واحد متكامل ومحدد  
بحيث يقوم الافراد باداء انواع معينة وانجازها . والنسق الصناعي بالذات يعتمد أكثر من غيره من الانساق الاجتماعية  
والاقتصادية على الدقة التناعية في التخصص وفي تقسيم العمل والتمييز بين الانوار المختلفة التي تؤلف كلها في الوقت ذاته  
وحدة متعاضدة متكاملة . وذهب الكثير من الكتاب أيضا الى ان التناقض في التخصص يؤدي في آخر الامر الى كفاءة المصنع  
وكفاءة العملية الانتاجية وبسيط العمل ، وذلك نظرا لان العمال يصبحون أكثر كفاءة ومهارة في انجاز اعمالهم . والاتجاه  
العام على اى حال في الانتاج الصناعي يميل الى المبالغة في التخصص وتقسيم العمل بحيث أصبحت الناحية الفنية التي  
يتضمنها الدور الذي يقوم به اى عامل من العمال مجهولة تماما للعمال الآخرين الذين يشتغلون في نفس الصناعة  
الواحدة ، ولكنهم يؤدون فيها ادوارا مختلفة ، وان بعض هذه الادوار يكاد لا يعرف معناها الا الذين يمارسونها  
بالعمل ، والاكثر من ذلك انه في بعض الأحيان قد يجعل العامل نفسه احمية العمل الجزئي الذي يقوم به بالتنسيق للعملية  
الانتاجية ككل . ويذكر عالم الاجتماع الامريكي ماكيفر Mac Iver في هذا الصدد ان أكبر مسؤولى التخصص  
وتقسيم العمل هي انهم يجعلون الناس بمثابة اجزاء في الترواحنة كبيرة . فبعضهم يصمم بمشابة ( الكباس ) وهكذا ،  
وبذلك يصنع العامل وعمله مجرد اجزاء صغيرة لا قيمة لها في ذاتها وبذاتها ، انظر الى ذلك :

Mac Iver, R. M. ; Community : A Sociological Study, Macmillan, London 1936,  
pp. 359-62.

Clark Tibbitts, " Retirement Problems in American Society ", in  
Eisenstadt (ed.)

Comparative Social Problems, Free Press, N. Y. 1964, p. 195.

زيادة انتاج العامل وتضاعفه من ناحية ، وعدم حاجة الصناعة في كثير من الاحيان الى كل الايدي العاملة الناحية ، واحلال الآلة محل الانسان وبخاصة حين تتقدم السن بهؤلاء العمال ، كل ذلك ساعد على تضخم مشكلة الشيخوخة بحيث أصبحت تحتاج الى تضافر كثير من القوى لدراستها وإيجاد الحلول المناسبة لها وذلك بعد ان فقدت العائلة الممتدة وظيفتها ومبررات وجودها .

ولقد شغلت الأذهان مشكلة السن التي يمكن عندها أن يتقاعد المرء عن أداء عمله المألوف المعتاد ، أو التي ينبغي على المجتمع أن يجبره عندها على التخلي عن عمله والكف عن ممارسته ، وإن كان يبدو أن معظم الدول في الوقت الحالي ترى أن السن المناسبة لذلك هي الفترة بين سن الستين والسبعين ، وإن كان هذا التحديد لا يخلو من التصسف . ذلك أن مثل هذا التحديد ، وإن كان يرتكز بغير شك على كثير من الاعتبارات الاجتماعية والعملية بفعل الفوارق والاختلافات الفردية ، مثل القدرة الفيزيكية الفعلية على العمل والأداء ، والحالة الصحية عند مختلف الأفراد ، والوضع المالي للفرد وحاجته الى العمل وإلى المحافظة على مركزه الاجتماعي ومكانته في العائلة والمجتمع ، وقدرته على الاحتفاظ بعمله وممارسته على مستوى معقول ومقبول . ونعمة شواهد وأدلة كثيرة تشير الى أن معظم الذين يحالون الى المعاش لبلوغهم سن التقاعد التي ترتبط بمرحلة الشيخوخة من وجهة نظر المجتمع انما يعملون الى الاستمرار في أداء عملهم ، أو على الأقل القيام بعمل ما يستطيعون أن يكسبوا منه بعض الدخل من ناحية ، وإن يرتبطوا عن طريقه من ناحية أخرى بالحياة الاجتماعية وبالمجتمع مما يشعرهم بأنهم لا يزالون قادرين على أن يؤديوا أعمالاً يحتاج

في العلاقات داخل الوحدة الانتاجية وبين المشتركين في العمل الواحد . (١٢) واحد المظاهر الهامة لهذه الشيخوخة وما يترتب عليها من تغير العلاقات داخل العمل هو ظاهرة التقاعد عن العمل أو الإحالة الى المعاش حين يبلغ العامل سناً معينة يفترض عندها أنه لم يعد قادراً على العمل والانتاج حسب المستويات المطلوبة على ما أشرنا اليه .

ويعتبر التقاعد عن العمل — من حيث هو نظام اجتماعي له قواعده المحددة — ظاهرة حديثة نسبياً حتى في المجتمع الأوروبي والأمريكي ، كما أنه يشكل نوعاً من التحدي لنمط جديد من الحياة يختلف كل الاختلاف عن النمط المألوف الذي اعتاده المرء أثناء حياته العاملة النشيطة . ففي المجتمعات الرفيعة وقبل الصناعية ، أو المجتمعات التقليدية والبسيطة عموماً وكذلك في العصور السابقة على الثورة الصناعية نجد أن نسبة ضئيلة جداً من السكان هي التي كانت تعيش حتى سن متقدمة وتصل الى مرحلة الشيخوخة الفيزيكية ، أي أن عدد الشيخوخ في هذه المجتمعات قليل نسبياً بحيث لا يؤلفون مشكلة اجتماعية خاصة ، وإن العائلة الممتدة كانت تتحمل مسؤولية العناية بهم وبليل الرعاية الضرورية لهم ، فضلاً عن أن الشيخوخ انفسهم كانوا يسهمون في مختلف أوجه النشاط الاجتماعي والاقتصادي بما يتناسب مع حالتهم الفيزيكية والذهنية . إلا أن تقدم الخدمات والرعاية الصحية وتقدم الطب وما ترتب عليه من اطالة فترة الحياة وبالتالي ازدياد عدد الشيخوخ في المجتمعات الأكثر تقدماً ، وكذلك الانجازات العلمية والتكنولوجية التي أمكن تحقيقها وما ترتب عليها من ظهور اختراعات كثيرة ، واستخدام القوى الميكانيكية والآلية في الانتاج بدلا من القوى العضلية ، معنا أدى الى

اليها غيرهم من الناس ، وان لهم بالتالى وظيفة يقومون بها في المجتمع الذي ينتمون اليه . ولكن الوضع يختلف بطبيعة الحال بالنسبة لصاحب العمل الذي يرى ان العنصر الاساسي الحاسم في ذلك هو مدى كفاءة العامل او الموظف وقدرته على الانتاج ، فضلا عن الرغبة المشروعة في استخدام ثلث اصغر سنا لقدرتهم ليس فقط على العمل بل وايضا على التكيف مع الاوضاع الجديدة المتغيرة وعلى استيعاب التجديدات ، بل والقدرة على الابتكار وعلى الخلق والتجديد . (١٢)

واذا كان التقاعد يعنى بداية مرحلة جديدة بالنسبة للشيوخ فانها مرحلة لا تخلو من متاعب ومشكلات وصعوبات ، وربما كان اصعب هذه المشكلات التى تواجه الانسان بعد تقاعده هى مشكلة التكيف مع الاوضاع الجديدة التى يجد نفسه فيها . وقد اجريت بعض الدراسات فى الخارج حول هذا الموضوع لمعرفة مدى قدرة الاشخاص الذين ينتمون الى مهن وأعمال وطبقات اجتماعية ومستويات ثقافية مختلفة على التكيف مع هذه الاوضاع الجديدة التى تحيط بهم ، ويبدو من تلك الدراسات أن المشكلات الرئيسية التى يحس هؤلاء الشيوخ المتقاعدون بضرورة ايجاد حل لها هى مشكلة ضمان توفير دخل يكفى لاشباع حاجاتهم ومتطلباتهم ، بحيث يتوفر لهم مستوى معين من الحياة الكريمة الصحية التى لا تخلو من ممارسة بعض النشاط والشاركة في حياة المجتمع ، ثم ايجاد فرص كافية للاتصال بالآخرين وخلق علاقات اجتماعية وصداقات جديدة ، ثم الرغبة الشديدة في الاحساس

بالمحبة والعطف ، اعنى حب الآخرين وعطفهم وحنوهم ورعايتهم لهم . ومع أن معظم هذه الدراسات تبين ان غالبية الشيوخ المتقاعدين يتكيفون بشكل او بآخر مع ظروفهم الجديدة ، فثمة اعداد كبيرة منهم تشعر بالضيق والحرية والعدم الهدف وخلو الحياة من معنى ، وان كان ذلك لا يمنعهم من أن يبذلوا الجهد للتشبث بادوارهم القديمة التى كانوا يقومون بادائها ، او بالبحث عن دور جديد مفيد وفعال ، وتوفير درجة معقولة من الأمن والطمأنينة . ومع ذلك فان ثمة اتفاقات في كل هذه الدراسات والبحوث على ان الشيوخ المتقاعدين في المجتمعات الصناعية الحديثة يعانون من انخفاض واضح في مستويات الحياة سواء في السكن او في نوع الطعام او في الحالة الصحية ، وذلك فضلا عن الانسحاب الجزئى او الكامل من الحياة الاجتماعية ، او على الاقل القدرة على المشاركة بطريقة فعالة في النشاط الاجتماعية المنظمة . ولكن لعل اشد ما يثير في نفوسهم الالم هو الشعور بأنهم يمثلون عبئا على اولادهم . ويزيد من حدة هذا الشعور انصراف الاجيال الشابة عن اعطاء هؤلاء الشيوخ ما يحتاجون اليه من رعاية وعطف وعناية نتيجة لانشغالهم هم انفسهم باعباء الحياة المتزايدة في القسوة (١٣) .

وكان لابد لهؤلاء الشيوخ من أن يعثروا على بديل يعوضهم عن المصادر السابقة التى يستمدون منها العطف والمحبة والاعزاز ، والتى تزودهم بشبكة العلاقات الاجتماعية التى كانوا يدخلون طرفا فيها . قاستغلال الابناء اقتصاديا وانتقالهم من موطن الإقامة

Tibbitts, op. cit., p. 196.

(١٣)

(١٤) من الدراسات الهامة التى عرضت لهذه المشكلات :

Susan H. Kubie and Gertrude Landau, Group Work with the aged, International Universities Press, N.Y. 1953 ; Retirement Policies and the Railroad Retirement System, Washington D.C. : Government Printing Office, 1953 ; Heron, A., Preparation for Retirement ; Solving New Problems, National Council of Social Service, London 1963.

وتقوم بوظائفها فيما يتعلق بالعناية بهؤلاء الشيخوخ ، وذلك رغم الفجوة الواسعة الهائلة التي تفصل بين الحكومة والفرد . والملاحظ انه على الرغم من تزايد عدد الشيخوخ والمسنين في كل المجتمعات الإنسانية بدون استثناء ، نتيجة لتقدم الرعاية الصحية والخدمات الطبية بالذات ، ان الشيخوخ لا يؤلفون قوة ضاغطة على الحكومات في أي من تلك المجتمعات ، حتى المجتمعات الصناعية المتقدمة ، بحيث يضطرونها الى الاستجابة لمطالبهم . أي ان الشيخوخ - من حيث هم فئة متميزة عن بقية فئات المجتمع - يفتقرون الى التنظيم القوي الفعال المؤثر ، وان كانت النقابات والاتحادات العمالية والمهنية المختلفة قد استطاعت ان تحقق الكثير من المزايا لعضائها الذين يصلون الى سن التقاعد ، بحيث توفر لهم في شيخوختهم درجة معينة من الحياة الكريمة المريحة . ولكن الشيخوخ - كشيخوخ ، او كفئة بصرف النظر عن اعمالهم او مهنتهم او تخصصاتهم الاصلية وغير ذلك من عوامل التفاوت والتفاضل - ينقصهم ذلك التنظيم الذي يمكن ان يضمهم جميعا ويتكلم باسمهم كفئة ، ويطالب بحقوقهم كما هو الحال مثلا في تنظييمات الشباب . وليس من شك في ان الحكومات تعطي في الوقت الحالي اهتماما متزايدا لمشكلات الشيخوخ والشيخوخة وتضع القوانين والتشريعات التي تكفل ضمان حقوقهم . ولكن مهما يكن من امر هذه الجهود فان الحكومات بكل تنظيماها ومؤسساتها واجهزتها التي تسخرها للسهر على رعاية الشيخوخ لا يمكن ان تكون بديلا حقيقيا يحل محل العائلة الممتدة القديمة رغم قصور الامكانيات المادية للعائلة . فكل هذه المؤسسات والجهزة لا تستطيع ان تعطي الشيخوخ ما يحتاجون اليه حقاً من دفة الصداقة والرفقة الحقيقية التي يشعر بها المرء بين افراد عائلته وبخاصة حين

الاصلى وليعثرهم للبحث عن عمل يعتبر بغير شك خسارة عاطفية هائلة للاباء الشيخوخ يصعب عليهم تعويضها ، كما انه يفرض على هؤلاء الشيخوخ حياة الوحدة والحرمان من العلاقات القرابية والعائلية التي كانت تؤلف جزءا كبيرا من نشاطهم واهتماماتهم اليومية . ويزيد ذلك الشعور بالوحدة والعزلة عن حياة المجتمع حين يفقد المرء وزجه او اصدقاءه مما يضع كثيرا من القيود والتحديدات على عالمه الاجتماعي وعلى نطاق علاقاته الشخصية بافراد المجتمع الذي يعيش فيه . وهذا الانسحاب من المجتمع والحياة الاجتماعية يتم تدريجيا بحيث لا يكاد المجتمع او حتى الفرد نفسه يشعر به في اول الامر الى ان يسلم الفرد في النهاية الى نوع من العزلة تكاد تكون تامة ، وبحيث يقع الفرد نفسه في ظل النسيان ممن يعيشون حوله كما بينت دراسة تاونسند ، وان كان الكثيرون من الشيخوخ ، وبخاصة الذين قاموا بادوار هامة اثناء حياتهم العاملة والنشيطة ، كثيرا ما يقاومون هذا الميل الى التراجع والانسحاب من الحياة العامة ، ويحاولون الاستمرار بقدر الامكان في ممارسة نشاطهم بشكل او باخر ، لانهم يجدون من الصعب عليهم النزول عن المكانة التي كانوا يتمتعون بها او التفریط في حقوقهم وسلطتهم . ولكن النتيجة النهائية على أي حال والطابع العام السائد الذي يطبع حياة الشيخوخ هو ازدياد الشعور بالوحدة والانزوال والانعزال داخل دائرة من العلاقات الاجتماعية التي تضيق بالتدريج (١٥) .

وهذا كله من شأنه ان يلقي مسئولية رعاية هؤلاء الشيخوخ والمسنين على عاتق المجتمع ككل ، او على عاتق الدولة التي يتعين عليها ازاء هذه التغيرات العميقة في العلاقات القرابية والعائلية التقليدية ان تحل محل العائلة الممتدة

الى الشيخوخة الفيزيكية . ولذا فان المهم عند اصحاب هذا الاتجاه هو الكشف عن مصادر القوة الكامنة في الفرد ، وعن القومات الاساسية في شخصيته وتكوينه لاني تساعد على الاحتفاظ باستقلاله وكيانه المتميز ، وانه لا بد للمرء من ان ينتبه في مرحلة مبكرة من حياته الى مرحلة الشيخوخة التي سوف يصل اليها في وقت من الاوقات ، ان طالت به الحياة وطال به العمر ، وان يستعد لهذه المرحلة ليس فقط بتوفير ما قد يحتاج اليه حينئذ من مال او ممتلكات ، بل وايضا عن طريق تنمية اهتمامات جديدة يمكن ان تملأ عليه حياة الوحدة والوحشة والفراغ . وهذا كله كفيل في آخر الامر بان يجلب الشخص المسن الى حياة المجتمع من جديد ، بحيث يشارك في حياته وحياة الجماعة ويقوم بدور ايجابي فعال في حياة ذلك المجتمع .

**وأما الاتجاه الثاني** فانه على العكس من ذلك تماما يأخذ في الاعتبار سلبية الفرد وبخاصة حين يصل الى مرحلة الشيخوخة . فالشيخوخة بحكم واقعهم وضعفهم وتدهور قواهم الفيزيكية والذهنية لا يستطيعون ان يهتموا بانفسهم او ان يعطوها ما تستحقه من عناية ورعاية . كما ان الفرد بطبيعته قلما ينتبه اثناء شبابه الى ما سوف يؤول اليه امره بعضى السنين . وبذلك فانه قلما يأخذ عدته للمستقبل ، وان يعمل مقدما على توفير ماسوف يحتاج اليه حين يصل الى الشيخوخة . ولقد وصلت الحياة الحديثة الى درجة من التعقيد يعجز معها الشيوخ عن ان يواجهوها وحدهم وبدون عون من الدولة ذاتها ، ومن هنا كان اصحاب ذلك الاتجاه يرون ان من أهم مايجب على الدولة ان تضطلع به هو ان توفر للشيوخ والمسنين والعجائز من اعضاء المجتمع الضمانات المادية والاجتماعية التي تسمح لهم بان يمضوا الفترة الباقية من حياتهم دون ان يشغلوا انفسهم بأمور العيش

تتقدم به السن . ولذا فانه رغم كل الجهود التي قد تبذلها بعض الحكومات والهيئات لتهيئة اعداد بيوت للشيوخ والعجائز وتزويدها بمختلف وسائل التسلية والثقيف ، ومحاولة شغل اوقات هؤلاء الشيوخ فان الشعور والانزعاج والتمركز حول الذات يظل مسيطرا عليهم . ويكشف هذا الشعور عن نفسه في كثرة الشكوى والتدلسر التي تميز حياة الشيوخ ، وهي شكوى تمتد في كثير من الاحيان الى كل الاوضاع العامة السائدة في المجتمع ، وتتخذ شكل المقارنة بما كان يحدث في العهود السابقة ، وان كانت هذه الشكوى تصل الى ذروتها فيما يتعلق بانصراف الابناء والاقارب عن الاهتمام بهم واعطائهم ما يستحقونه من رعاية ، وما هم بحاجة اليه من عطف .

وعلى أية حال فاللاحظ هو ان الحكومات في محاولتها رسم سياساتها الخاصة برعاية الشيخوخة تتخذ بوجه عام احد اتجاهين متعارضين تماما .

**فاما الاتجاه الاول** فانه يقوم اساسا على الايمان باستقلال الفرد في اتخاذ قراراته ورسم حياته بنفسه دون تدخل من السلطات ، وان ذلك يجيبان يكون الحال فيما يتعلق بالشيوخ . ولذا يرسم اصحاب هذا الاتجاه سياستهم على اساس ضمان تحقيق استقلال هؤلاء الشيوخ والمسنين والعجزة وتوفير حرية الحركة والعمل لهم بحيث يستطيع كل منهم ان يأخذ زمام المبادرة بنفسه مثلما كان يفعل خلال مراحل حياته السابقة قبل ان يصل الى مرحلة الشيخوخة . وهذا معناه ان رعاية الدولة للشيوخ يجب ان تأخذ في الاعتبار اماكن توفير الظروف التي تساعد الفرد على ان يختار بنفسه أسلوب حياته اثناء الشيخوخة ، وهذا الاتجاه يسخر من الاعتقاد السائد عن كثير من الناس من ان المرء يقعد استقلاله وقدرته على اتخاذ القرارات حين تتقدم به السن ويصل

الشيخوخة والعجائز في المجتمع العربي المعاصر ، كما أن الجامعات العربية لم تول هذا الموضوع ما يستحقه من عناية واهتمام ، على الرغم من أن العالم العربي مقبل الآن على تغيرات سريعة وعميقة نتيجة للاتجاه نحو التصنيع والتحديث ، وما سوف يترتب عليهما من تغيرات في البناء الاجتماعي والنظم الاجتماعية وأنساق القيم والثقافة التقليدية والعلاقات بين الناس وبخاصة داخل نطاق العائلة . وإذا كان

الشيخوخة في مجتمعاتنا لا يزالون يجدون الكثير من الرعاية والاحترام والمراعاة ، ولا يزالون يلعبون دورا في الحياة الاجتماعية ، وإن كان يختلف من مجتمع لآخر ، فإن ذلك يرجع في المحل الأول إلى روح التكافل الاجتماعي الذي يتركز كما رأينا من قبل على الروابط القرابية والعائلية التي تستمد قوتها من القيم التقليدية المتوارثة ، وهذا كله سوف يتعرض للتغير بغير شك نتيجة للاتجاه نحو الحياة الحديثة ، وبذلك فإن مكانة الشيخوخة والنظرة اليهم وإلى الشيخوخة سوف تتغير بدورها . وقبل أن تظهر المشكلة بنفس الحجم الذي نجده في المجتمعات الأوروبية الحديثة قد يكون من الخير أن نعد لها العدة من الآن عن طريق الدراسة والبحث ، ليس لكي نمنع وقوع المشكلات والصعوبات المتعلقة بالشيخوخة ولكن لكي نخفف من وقعها ومن آثارها بقدر الامكان . وسوف يتطلب ذلك بالضرورة اتخاذ خطوات ايجابية مبرمجة لتحديد موقف المجتمع من الشيخوخة واعادتهم لمواجهة الظروف الجديدة التي سوف يجدون أنفسهم حيالها .

والذي يبدو للمرء من دراسة الأوضاع في المجتمعات الصناعية الحديثة هو أنه مع التسليم بكل ما فعلته المدينة الغربية الحديثة في مجال إطالة فترة الحياة بالنسبة للعالية

أو الخوف من المرض . ويقول آخر فإن ما يحتاج اليه الفرد حين تتقدم به السن ويصل إلى مرحلة الشيخوخة هو مختلف الخدمات الاجتماعية والصحية والترفيهية دون أن يحمل هو نفسه ما لا يطيق من أجل البحث عنها ، أو من أجل أن يثبت لنفسه وللآخرين أنه لا يزال قادرا على المشاركة في حياة المجتمع والقيام بدور ايجابي يعود بالخير على الآخرين . (١٦)



وإيا ما يكون موقف الحكومات والمؤسسات من الشيخوخة والشيخوخة ، فالشيء الواضح الآن هو أن الشيخوخة تعتبر من أهم المشكلات الرئيسية التي تواجه المجتمعات الحديثة والتي تشغل بال الكثيرين من العلماء من مختلف التخصصات . ولقد كان معظم اهتمام العلماء في الماضي موجها إلى النواحي الطبية والبيولوجية كما ذكرنا ، وفي هذين المجالين بالذات تمثل أهم الإسهامات في بحوث الشيخوخة ، ولا تزال هذه النواحي تحظى حتى الآن بكثير من العناية ، بينما قليل جدا من البحوث تعرضت للجوانب الانسانية والاجتماعية للمشكلة رغم أنها تتصل في المحل الأول بالفرد من حيث هو انسان وعضو في مجتمع . ولقد جاءت هذه الإسهامات متأخرة نسبيا ولكنها حققت كثيرا من النجاح وكشفت عن ميادين كثيرة غنية وعميقة ، وإن تكن هناك ميادين أخرى أوسع وأرحب وأعمق لا تزال مجهولة وتحتاج إلى كثير من البحوث والدراسات الميدانية الجادة في مختلف المجتمعات والثقافات . ومما يؤسف له أننا هنا لم نكد ننسب إلى هذا الموضوع الحيوي ، ولم تقم حتى الآن أية دراسات جدية حول المشكلات الاجتماعية الواقعية التي يواجهها

الحياة ، وتميزه تماما عن مرحلة النضج والرجولة الكاملة فان الباحثين عموما يميلون الى أن يعتبروا الشيخوخة مجرد امتداد بالنسبة وتعيش لمرحلة النضج والرجولة ، وانها بذلك تمثل نوعا من التراجع والتدهور والاضمحلال والهبوط عن المستويات والمعايير التي يحققها الانسان الناضج المكتمل الرجولة حين يبلغ اواسط العمر ، وذلك بدلا من أن ينظروا الى الشيخوخة على انها تمثل نوعا من التحدي لنمط من الحياة له آفاق مختلفة وجديدة تماما في تجربة الحياة . والواقع أن هناك من الأسباب والمبررات ما يدعو لأن ننظر الى الانتقال لمرحلة الشيخوخة وما يصاحبه من تغيرات هامة وحيوية في شخصية ونفسية وعلاقات الشخص بالاجتمع بنفس النظرة التي ننظر بها الى الانتقال من المراهقة الى النضج ، والى أن نعطي لمرحلة الشيخوخة نفس العناية التي حظيت بها مرحلة المراهقة . بل أن مجالات البحث في مرحلة الشيخوخة باعتبارها تجربة فريدة ومتميزة في حياة الانسان ، وما قد يمر به المرء من تجارب ويتعرض له من اساليب وأنماط سلوكية جديدة قد تجعل البحث في الشيخوخة أكثر إثارة من البحوث التي أجريت على مرحلة الشباب مثلا .

ثم هناك نقطة أخيرة يوجه النظر اليها كثير من العلماء وهي أن الباحثين حين يتكلمون عن الشيخوخة يركزون كلامهم في الأغلب على « المشكلات » ويكادون لا يتكلمون عن انجازات الشيخوخة أو امكاناتها أو عن الفرص المتاحة للشيخوخة في حياتهم الجديدة أو التي يجب العمل على استغلالها والافادة منها . فهم يصورون الشيخوخة كما لو كانت « لعنة » - كما يقول سيمونز - بدلا من أن يعتبرونها مرحلة عادية وطبيعية من مراحل العمر التي

العظمى من السكان في تلك المجتمعات نتيجة لتقدم الطب بالذات فان هذه المدينة الحديثة ذاتها اساءت اساءة بالغة لكثير من الاساليب القديمة التي كان الشيوخ يعتمدون عليها في تفكيهم مع واقع الحياة ومع الظروف الجديدة التي يواجهونها بحكم شيخوختهم . بل أنه يمكن القول أن اساليب المدينة الحديثة في حل مشكلات الشيخوخة تكشف عن كثير من نواحي النفس والقصور اذا هي قورنت بالاساليب والارشاع التقليدية القديمة التي كانت تسهم اسهاما كبيرا في أن يمضي الشيوخ الفترة الأخيرة من حياتهم وهم ينعمون بغير قليل من الطمأنينة والسعادة وراحة البال ، وهي العناصر التي تؤلف ما يحب بعض الكتاب أن يسموه « الشيخوخة الناجحة » ، ايا كان المقصود من هذه التسمية . وربما كان الدرس الذي يمكن استخلاصه من كل البحوث والدراسات التي أجريت حتى الآن عن الشيخوخة في مختلف الشعوب والمجتمعات هو - كما يقول سيمونز Simmons (١٧) - أن القومات الاساسية للشيخوخة الناجحة - بالإضافة الى الراحة النفسية التي اشترنا اليها - تتركز بعد كل شيء على قدرة الأفراد أنفسهم على التلاؤم بنجاح مع الإطار الاجتماعي السائد في العصر الذي يعيش فيه هؤلاء الأفراد ، وقدرتهم على توكيد حقوقهم في اطالة فترة اسهامهم في الحياة الاجتماعية ، وإجبار المجتمع على الاعتراف بهم لاطول فترة ممكنة ، ثم قدرتهم على أن يدركوا متى ينبغي عليهم أن يتوقفوا عن ذلك كله .

ولعل مما يلتفت النظر حقا في موضوع الشيخوخة أننا نجد أنه في الوقت الذي اهتم فيه العلماء والباحثون من مختلف التخصصات بدراسة المراهقة كمرحلة فريدة في تجربة

( ١٧ ) Simmons, Leow. ; " Social Participation of the Aged in Different cultures ", The Annals of the American Academy of Political Science, Vol. 279, p. 50.

قدرات وكفاءات ومهارات وخبرات يستطيعون ان يقدموها للمجتمع وأن يفيدوا بها غيرهم .  
 ان علينا أن نكشف عن القدرات والامكانيات الكامنة عند الشيخوخ ، وان نعمل على تنمية هذه القدرات والامكانيات وتطويرها الظروف الاجتماعية القائمة . وهذا كله سوف يتطلب في آخر الامر أن نراجع موقفنا ونظرتنا الى الشيخوخة ، وان نعيد تقييمنا لاساليب البحث والدراسة والموضوعات والجوانب التي يمكن ان نهتم بها في دراستنا للشيخوخة وحياة الشيخوخ .

سوف نصل اليها جميعا ، ان لم يكن هناك من الاسباب ما يمنع دون ذلك ، وان لم تحدث الوفاة في سن أصغر لسبب من الاسباب ، والتي يجب لذلك ان نهىء أنفسنا لها باعتبارها تجربة تستحق ان يخوضها الانسان بكل قوة وعمق . ومن الملاحظ ايضا ان معظم الدراسات التي اجريت على الشيخوخة تميل الى توكيد وإبراز ما يقدمه - أو ما يجب أن يقدمه المجتمع للشيخوخة والمسنين والعجائز بدلا من أن تحاول البحث عما يمكن لهؤلاء الشيخوخ والمسنين والعجائز ان يكتشفوه في أنفسهم من





\_\_\_\_\_

- Birren, J. E. ; (ed.) Handbook of aging and the Individual, Chicago 1959.
- Bromley, D. B. ; The Psychology of Human Ageing, Penguin, London, 1966.
- Burgess, E. W. ; (ed.) Ageing in Western Societies, Chicago 1969.
- Clark, F. Le Gros ; Growing Old in a Mechanized World, Nuffield Foundation, London 1960.
- Comfort, A., ; The Process of Ageing, Signet, N.Y. 1964.
- Eisenstddt, S. N. ; Comparative Social Problems, Free Press, N.Y., 1964.
- Felstein, I. ; Later Life : Geriatrics Today and Tomorrow, Penguin, London 1969.
- Gilbert, Jenne G. ; Understanding Old Age, Ronald Press, N.Y. 1952.
- Havighurst, R. J. and Albrecht Ruth ; Older People, Longmans, N.Y. 1953.
- Lehman, H. C. ; Age and Achievement, Princeton U.P. 1953.
- Munn, N.L.; Evolution and Growth of Human Behaviour ; Houghton Muffin, Boston 1955.
- Rosset, E. ; Ageing Process of Population, Pergamon Press, Oxford 1964.
- Sheldon, J. H. ; The Social Medicine of Old Age, O.U.P. 1948.
- Towns end, P., The Family Life of Old People, Penguin, London 1963.
- and Wedderburn, Dorothy ; The Aged in the Welfare State, Bell  
London 1965.
- Zubek, J. P. and Solberg, P. A. ; Human Development, McGraw-Hill, London, 1954.



## ميكلائنجلو

(بمناسبة ذكرى مرور خمسمائة عام على مولده)

### د. ثروت عكاشة

عام واحد للاتحاق بمدرسة النحت في حداائق آل مديتشى حيث عاش بين تماثيل العصر الكلاسيكى التى تضمها مجموعة لورنزو العظيم . وهناك ينحت رأس تمثال لجنى صغير ( فون ) يراها الأمير لورنزو حاكم دوقية فلورنسا فتبهره مواهب الصبى ميكلائنجلو ، ويدعموه للإقامة في قصره وسط مجموعة الفلاسفة والادباء والشعراء الذين صاغوا فلسفة المذهب الانسانى خلال مناقشات طويلة ، كان ميكلائنجلو ينشرها وتسلل الى اعماق نفسه ، فاذا بها تشكل خلفيته الفكرية التى تظل متوثبة في وجدانه طوال عمره .

منذ خمسمائة عام على وجه التحديد وشمس النهضة الايطالية تتوهج ، ولد طفل انفصل من ايامه الاولى عن ابيه القاضى المتقاعد وعن امه ليعيش في كنف زوجة عامل في محاجر الرخام ، فاذا الطفل يرضع مع لبن حاضنته جب الرخام ونحته وتشكيله ، واذا بامه تموت بعد ستة اموام وهو بعيد عنها فحرم من حنانها الى الابد .

وما يكاد يبلغ الثالثة عشرة من عمره حتى ينضم الى مرسوم الاخوة « جيرلا ندايو » ليتدرب على اناج رسوم الفريسك الجدارية، لكن هواية النحت تجتذبه الى ترك المرسوم بعد

هدفاً : الكسب للعمال ، والطموح للمحاربين ، والهيام بالحقيقة المطلقة للفلاسفة ، كما قسم التعليم الى مراحل ثلاث : الجهل والراى والمعرفة . وجعل للنفس الانسانية ثلاث ملكات : الشهوانية والوجدانية والعقلانية ، وزعها على ثلاثة مواضع : المعدة والصدر والراس . وجعل للملكة العقلية اسماً الميام وهى نشدان الخلود ، فالانسان يحكم ذكائه « كالشجرة لا تضرب بجذورها فى الارض بل تشب بفصوصها الى السماء » . ومن ثم كان العنصر العقلانى فى النفس هو الذى يرتفع بنا من الارض « الى اشباهنا القابعة فى السماء » . وهو ما سوف نرى تطبيقه العملى المذهل فى تصوير ميكلائنجلو بسقف مصلى سيستينا .

كما تصور أفلاطون صعود الانسان من ادنى مراتبه حتى بلوغ أصله الالهى . وفى هذه العودة الى العالم الالهى ، تدرك النفس الاله ، وهى مازالت فى اسار سجنها البدنى تصارع من أجل ذلك ، وتبذل الجهد والعناية فتنتقل من المحدود التناهى الى الانلامحدود اللانهائى ، حتى تنفصل من الاسر المادى الى الحرية الروحية والخلود .

ولذلك كان أفلاطون يكن للحياة النيبوية احتقاراً عميقاً ، فهو يعدها عبثاً قليلًا وعقوبة للانسان على نسيانه لاصله الالهى وانجذابه الى عالم الحس ، مخلفاً وراءه عالم التامل العقلى الذى سقط منه فى الاصل ، على ما سوف نرى فى تمثيله للأسرى .

ويسمعا أفلاطون فى « المأدبة » صوت أريستوفانس شاعر الملهاء يتحدث عن الحب قائلاً : « سمعت على لسان الكاهنة ديوتيميا ان الكائنات كانت مركبة : اما من جنس مذكر خالص أو جنس مؤنث خالص ، أو من الجنسين معا . وعندما تماثلت هذه الكائنات على الأنه

كان دماء المذهب الانسانى قد اكتشفوا فى الحضارة اليونانية القديمة انماطاً فكرية وفنية أكثر ثراءً وخصوبة ، فناقوا الى التوفيق بين الافكار والاشكال الوثنية وبين الاعراف المسيحية ، وراوا فى الافلاطونية مثلاًهم الأعلى ، فهموا بتطبيقها فى سلوكهم ومنجزاتهم .

على أن تأثر ميكلائنجلو بأفلاطون كان مرتبطاً على عدة نقاط فى فكره ستكون نبراساً نستهدى به فى اعمال ميكلائنجلو الفنية . كانت محاورة أفلاطون « تيمائوس » عن الخلق والتكوين ، وكذلك محاورة « المأدبة » ( سمبوزيوم ) عن الحب والجمال أكثر ما شدد ميكلائنجلو الى أفلاطون ، ولم يلبثا أن صارا السلف الفلسفى لجميع اعمال ميكلائنجلو الفنية .

شده الى أفلاطون نظريته الفلسفية الى المثلث والدائرة والربع بوصفها الاشكال الخالدة التى تهى مفتاحاً لطبيعة الكون الحقبة حتى قال فى محاورة فيليبوس : ( ليس ما أعنيه بجمال الاشكال ما يراه الناس عادة جميلًا أو يحسونه كذلك وراء ما برونه من كائنات أو صور لهذه الكائنات ، وإنما الجميل عندى قد يكون حزمة من الخطوط المستقيمة وما ينتج عنها من مسطحات وكتل شكلها الفرجار والمثقة والمثلث ، لكنها فريدة فى ذاتها ، ينطلق جمالها من نبع روحها ، يعيش لاصقاً بها الى الأبد » .

وأغراه التثليث الأفلاطونى الذى قسم الوجود الى مستويات ثلاثة هى عالم الوهم والخيالات ، وعالم الصيرورة المادى المتغير ، والعالم العقلى ، والتى على اساسها قسم المجتمع البشرى الى طبقات ثلاث أيضاً : المنتجون من العمال والزرايع ، والمحاربون ، والفلاسفة والحكام ، ورمز لهم على التوالي بالنحاس والفضة والذهب ، وحدد لكل طبقة

والتصوير والممارسة والشعر . وإذا كانت عظمة الإنسان تكمن في استهائته بالمعربات المادية وشجده لقدراته العقلية والروحية ، فلا بد من أن نجد ظهور ميكلانجلو أحد الأحداث العظمى في تاريخ الإنسانية .

**ولما كان العمل الفني بالنسبة لميكلانجلو هو أن يشارك على الدوام في عالم الأفكار ، جاءت كل إنجازاته الفنية فلسفية كما هي جمالية ، وثنية كما هي متدينة ، وأفلاطونية كما هي مسيحية .**

ففى عالم النحت حمل تمثال (باكخوس) اله الخمر المبكر ( لوحة ١ ) بصمات وثنيتة الدفينة بحيث لا تكاد تفرق بينه وبين تماثيل العصر الكلاسيكى ، ومابث تماثله التالى « العذراء الآسية ( بيتيا ) » أن كشف عن إيمانه الدينى الصادق ( لوحة ٢ ) .

وفى عالم التصوير جمعت رسوم سقف مصلى سيستينا العرافات الوثنيات (لوحة٣) جنبا الى جنب مع الانبياء العبريين (لوحة٤) كما أفسحت المكان للنظرية الافلاطونية عن العودة الى العالم الالهى ، الى جانب نظرية الخلاص المسيحية .

وتجىء لوحة يوم الحساب فى عنفها وضراوتها الشبيهة بسفر الرؤيا فى الروعة والترهيب لتتجاوز الشخصيات الأسطورية مثل شخصية خارون حارس العالم السفلى لدى الاغريق مع شخصيات العهدين القديم والجديد .

وتمثل سنوات حياته الأخيرة مرحلة من التبتل والورع المسيحي لم تنطق معها شعلة الافلاطونية فى اعماقه . ففى الوقت الذى كان يمنح جهده كله لخدمة العقيدة المسيحية كان

عاقبتها بأن شطرتها الى انصاف . ومن هنا جاء نزوع الإنسان اما الى مثيله او الى الجنس الآخر وفق الكائن الذى انحدر عنه .

**كذلك كانت تلح على ميكلانجلو نظرة افلاطون بأن الإنسان قد عب مرة من مياه نهس النسيان فأنسى أصله الالهى ، حتى اذا رأى امرأة جميلة ذكرته بأصله الالهى . ولكن لا يلبث الاغراء الجسدى والجمال الزاوى أن يشده الى جمال الحقيقة الأبدى ... ثم فى النهاية الى تأمل حقيقة الحق والخير الخالدة .**

**وأخيرا رأى ميكلانجلو فى التل الافلاطونية روحانية مطلقة ، وعشق الجمال بوصفه مثالا مطلقا أزليا أبديا ، تحفظ الروح الإنسانية بذكرى مبهمة لمعايشته فى ماض بعيد سابق على الحياة فوق الأرض ، فلا تنفك - الروح - تعشق ذلك الجمال وتصبو اليه وتبحث عنه .**

**لقد آمن ميكلانجلو أن على العاشق أن يسمو من الحب الجسدى الى الحب الروحى، الى حب الجمال المثالى الذى هو جزء من القداسة والخير . وذلك هو المجال الذى يشتاقه العبارة والفلاسفة ويطمحون اليه .**

**كان ميكلانجلو ثنائيا شكلته الفلسفة ، شأنه شأن الفنان فيدياس الذى عاش خلال العصر الذهبى الكلاسيكى ، غير أن صوت سافوفا رولا الراهب المسيحي الثائر كان يطارد ميكلانجلو ، بينما كان ذهنه مؤهلا لتمثل التجريدات الافلاطونية . فكان قادره أن يظل عقله المعاصف نهيا لهاتين الفلسفتين المتصارعتين خلال اعماقه حتى آخر حياته، مترجما رؤاه فى اشكال درامية مرئية ، فأبدع لنا روائع خالدة فى عالم النحت**

داخله من صراع . كان ايمانه التقليدي بالشكل قد وثق روابطه بالنحت أكثر من التصوير مع أنه كان عقربا في كليهما ، كما شدة هذا الايمان التقليدي بالشكل الى الجسد الانساني في الوقت الذي استهان فيه بمشاهد الطبيعة . غير أنه لم يكن راضيا عن التقديس الممنوح للشكل في عصره ، فاطلق في مقابل الشكل نقيضه ، وهو الطاقة الكامنة فيه ، التي تطمح الى التحرر من سجن الشكل ، لكنها لا تملك الا التمرد وتمزيق بعض القيود ، التي لا تتيح لها الا ان تطل برأسها فحسب ، بينما يبقى الجسد كله سجيناً .

وقد تجلى كفاحه ضد قواعد الشكل المألوفة في عصره في افتتاحه بموضوع الارقاء والأسرى المفلولين ، الذي يعد صياغة جديدة لموضوع هيلنستي قديم ، هو صراع لاوكون وكاهن أبولو الطروادى ضد الأفاعى الضارية التي أرسلتها الآلهة المناصرة للاغريق ففتكت به هو وبنيه . فنشهد في تماثيله التوكيد على العضلات المتوترة ، بصفتها باعثة الحركة المهددة بتفجير اغلال الشكل ، والمعبرة عن تيرم الارقاء الساخطين باغلالهم التي تقيد اطرافهم ، بينما يتجلى الانفعال محتدما في اجسادهم وهي تصارع لتحرر نفسها من قالب الصخر الذي يحاصرها ويطوق حركتها والذي توقف ازميل المثال قبل انفلات الارقاء من ربقتهم .

لقد تجسدت أزمة الشكل في أوج عصر النهضة في منحوتات ميكلائجلو حيث يبدو الشكل وكأنه يصارع ضد ضغط خافق في التماثيل التي تتجلى قوتها المعبرة في كونها لم تكتمل .

ومن بين تماثيل الارقاء اثنان بمتحف اللوفر ، يعد تمثال العبد المفلول اقربها الى الاكتمال ( لوحة ٧ ) ،

ينظم شعرا يفيض بالوهج الافلاطوني الذي تجلى من قبل :

— في تماثيل العذراء حين عبر عن اتحاد الجمال الجسدى بالجمال الأبدى .

— وفي تمثال موسى حين ربط بين قوى :انسان المادية والمعنوية وبين الخير الأبدى .

— وفي وقوعه تحت سيطرة الاشكال الافلاطونية الخالدة التي تهيم مفتاحا لطبيعة التكون والتي تلمسها في سقف مصلى سيستينا ( لوحة ٥ ) .

— وحتى في اشكاله المعمارية المجردة نجده يقيم الأعمدة وكأنها الأسرى ، تشدها انقيود فلا تستطيع فككا من ثقل الحمل المادى الذى لا مفر من حمله ( لوحة ٦ ثم ٩ ، ١٠ على حين تحوم القبة الشامخة عاليا في الكمال الهندسى للشكل الدائرى ، الرامز للسמות التي هبط منها الانسان والتي يجب ان يتلمس طريقه نحوها من جديد .

**اننا نقف اليوم في خشوع وذهول ونحن نتأمل هذه المبصرة الفلدة التي برزت في مجالات فنون أربعة هي النحت والتصوير والمعمارة والشعر .**

• • •

وقد ظن فنانون عصر النهضة أنهم توصلوا الى القواعد الجمالية النهائية المحددة للشكل . وما ينبغي أن ينطوى عليه من توافق، خلال فترة التطور التي أعقبت جوفو ومقراتشيو وبلغت ذروتها بـ **رافائيل** ، وإذا بميكلائجلو يقرب عرض الحائط بهذه القواعد في مستهل القرن السادس عشر . وكانوا يبعثون بما يوحى في وجدانه من قلق وما يمتلئ في

بويولي بفلورنسا . ويكاد الصخر أن يمثل سجنًا قاسيًا في هذين التمثالين ، إذ يبدو الأسيران محتجزين بين ثنابا كتلة الصخر دون سبيل إلى الخلاص منها ، رغم كل ما يبذلانه من جهود . ويشي شكلهما الذي لم يكتمل بأن أسلوب ميكلانجلو فيهما كان قريب الشبه بلوحات فن النقش الشديد البروز .

وما أجمل ما تحدث به ميكلانجلو إلى صديقته وهادته **فيتوريا كولونا** عن النحت حين قال في إحدى قصائده :

« ليس فن النحت يأسديتي هو تشكيل قطعة صخر صلبة ، ولكنه تحرير للشكل من سجن الصخر ، بإزالة الزوائد عن الصورة المخيلة في ذهن الشكل الكامن في الصخرة » .

هكذا كان التمثال لميكلانجلو شكلًا كامنًا في كتلة رخام ، ينتظر يد أستاذ النحت البارع كي يولد على يديه ، وكأنه يعبر من خلال تعاقبه عن فكرة افلاطون بأن نفس الإنسان ما تزال سجنية في جسده حتى ترقى إلى الكمال بواسطة قوة خلاقة تفوقها سموا ورفعته .

وفي تمثال العذراء الآسية « بيتا » لوحة ١١٢٢ ) يكتشف جمال التنفيذ ودقة التفاصيل وإثارة المشاعر عن أن ميكلانجلو كان ما يزال واقفا تحت تأثير طراز النهضة الفلورنسية .

غير أنا نلح أن ميكلانجلو قد بدأ بالفعل يدخل بعض التعديلات على النمط الهرمي الشائع وقتذاك ، إذ جعل ثنابا ثوب العذراء العديدة قاعدة للهرم ورأس العذراء قمة له ، وشكل جسد المسيح على غرار آلهة الإغريق ، بينما احتفظت العذراء رغم شجنتها بالوضعية الكلاسيكية ، فبدت بحق ، الأم راعية الإحزان

ويبدو كأنه يمثل فتى نائما يقض مضجعه حلم مرعب ، أكثر مما يمثل أسيرًا يحتضر كما يحلو لبعض مؤرخي الفن تسميته . فبينما نجد القيود مجرد شرائط رقيقة تعجز عن أن تكون وثاقا ، تتجلى الروح الحبيسة التي تعذبها ذكرى أصولها الإلهية ، وكأنما وجدت راحتها في النوم بعد عذاب نفسى مزق .

وبصورت التمثال الآخر المعروف باسم **العبد التمرد ( لوحة ٨ )** عنف صراع كائن مغتول العضلات كتب عليه أن يضيع كفاحه هباء .

وفي كلا التمثالين نشهد نفس الصراع اليائس مع القدر . أنها مأساة الإنسان الذي يجد الزمن من امكاناته ، ويعيبه إدراك سر الوجود ، ويتطلع رغم فئائه إلى الخلود ، ولا تعوقه قيود الجسد عن أن يحلم بحرية بلا حدود .

ولا شك في أن أشكال أرقاء ميكلانجلو ذات وشائج قديمة مع نقوش أفواس النصر والأضرحة والتوابيت الرومانية ، فإن نماذج الأرقاء المغلولين يمكن اقتفاء أثرها في المنحوتات الهيلنستية التي تصور ماركسياس التمس وإبوللو يسلخه حيا لتجاسره وتحديه له في مباراة موسيقية . كما أن الشبه بين هذا العبد المغلول وذاك المتمرد ، وبين الإبن الأصغر في مجموعة تمثال الكاهن لاوكون في غير حاجة إلى تعليق جديد .

ونلمس نفس الأثر في تمثال الأسيرين المعروفين باسم أسيرى بويولي ( لوحة ٩ ) ، والمعروف أنهما قد صمما كتتمثالى كاربائيد بطرفى قاعدة ضريح البابا يوليوس الثانى عام ١٥٣٢ ، غير أنهما استبعدا ، فاهدهما ميكلانجلو إلى الدوق كوزيمو دى ميدتشى الذى احتفظ بهما في كهف بحدائق

شخصية مثالية للبابا يوليوس الذي كان مشيعا للقوانين شأن موسى العبري ( لوحة ١٣ أ ، ب ) . ويبدو موسى وكأنه تجسيد لقوى الطبيعة ، أو بركان بشري موشك على ثورة غاضبة على عصيان البشر . ففي سكونه نذير عاصفة ساخطة ، وتكاد قسماته تنطق بالوصايا العشر ، وتحكى لنا قصة صعوده جبل سيناء وحديثه مع ربه . وتكاد نحس انه قد اتخذ جلسته هذه ليحاسب البشرية من فوق منصة القضاء . ومنذ عهد قريب ابدى المثال الفرنسى اوجست رودان ملاحظة وجيهة بأنه يمكن دحرجة التمثال من فوق جبل دون أن يتشم منه أى جزء أساسى .

ويكشف هذا التماسك عن قدرة ميكلائنجلو على تطويع الرخام الى الحد الذى يحتشد فيه بالقوى التعبيرية والجيشان المستكن في ثنايا الاطواء والكاسر وعضلات التراعين المفتولة ، والعقلانية المسيطرة على ملامح الوجه ، والتراج النارى اللتهب .



وفي تماثيل ضريح مدينتى تتجلى من جديد روعة النحت التى تجلت في تمثال موسى وتتكون كل مجموعة من مجموعتى النحت الشهيرتين من شخصية جالسة في ثياب الحرب المدرعة داخل كوة ، مع شخصية رمزية راقدة على كل جانب من جانبي التابوت . فيعتمر لورنزودى مدينتى ( لوحة ١٤ ) بخوذة مجسدا للرجل المفكر ، على حين يحمل جوليا نودى مدينتى عصا القيادة مجسدا رجل الآثر البطولية ( لوحة ١٥ ) . وهكذا يمثل احدهما حياة التامل والاخر حياة الحركة المفعمة بالنشاط . ولم يفسد ميكلائنجلو على شخصيات آل مدينتى الجانسة أية ملامح ذاتية ، وهو ما اصاب اهل فلورنسا بالدهول امام هذا المفهوم المثالى . وقد طنباهم

الجليلة التى لا تهون من شأنها دموع أو انات . فضلا عن أن ميكلائنجلو قد استباح لنفسه تناول مقاييس اشكال بحرية توجب تأثيرها التعبيري ، وتؤكد التوافق والانسجام في تصميمه ، كما أكثر من الابدئية ليضمن فيضا من الاطواء والخطوط ، وصاغ جسد المسيح اصفر حجما من العذراء ليحقق التوازن في تكوينه ، واقام لمثاله المثلث بلا كوة داخلها أو خلفية معمارية تدعمه ، فكان تمثال العذراء الاسية بمثابة اعلان لاستقلال النحت ، كما ينفرد بأنه العمل الوحيد الذى وقعه ميكلائنجلو .

وعندما طرد اهل فلورنسا اسرة مدينتى واسسوا الجمهورية عام ١٤٩٤ بزعامة الراهب سافونارولا مضوا يجسدون انتصارهم في اعمال فنية ذات صبغة وطنية بطولية كان احدها تمثال عملاق لدواد ( لوحة ١٢ ، أ ، ب ) قاتل الطاغية جالوت . وهو تمثال هرقل الطابع ، هائل الضخامة يبلغ ارتفاعه حوالى ستة امتار ، يقف عاريا ممسكاً بعقلاه منتظرا وصول جالوت عدو شعبه .

ولو اننا وقفنا عند حد تامل جسد داود وحده ، لخيّل لنا بتوتره وجيوشه انه ينتمى الى العهد الكلاسيكي ، والى الطابع الهلينستي على وجه التحديد أكثر مما يحمل طابع القرن السادس عشر . ولكننا ما نكاد نتطلع الى رأسه حتى ندرك القوى الروحية التى لم يعرفها الاقدمون ، وهى تنطلق بازدياد المتع الحسية .

وقد انجز ميكلائنجلو تمثال موسى ليقام في ضريح البابا يوليوس الثانى المعروف باسم البابا الزهيب ، وكان قوى الفكر عامر النفس بخشية الله . واذا كان ميكلائنجلو قد تغيّل موسى على انه تجسيد للارادة القوية فقد اراد له في نفس الوقت أن يكون صورة

المختلفة ، وهو ما ينفرد برنارد بيرنسون بتسميته « القيمة المصية » . كما أنه اختار موضوعا لرسمه الجسد البشري الذي كان موضوع تماثيله ، مؤمنا بأنه ليس مثل الجسد البشري العارى شيء قادر على التعبير عن نفسه ، وعن تنبيه وعينا بكل ما يطرا من تغيرات ، وليس مثله شيء يمكن أن ندرسه نحن ، بمجرد تماثله لنا في الصورة التي يتبدى فيها في الحياة اليومية الواقعية ، وليس مثله شيء يمكن أن يثير احساسنا بأننا جميعا نشترك في تجربة الحياة ، وهو ما جعل ميكلانجلو لا يرى في عالمنا كله شيئا يستحق النحت والتصوير غير الجسد الانساني ، ليس الانسان العادى الذى يدب فوق الارض كما تدب الالاف ، بل جنس انساني خاص يتميز بالجلال ، والطاقة ، والقدرة على التعبير والاثارة ، وقد كان ميكلانجلو نفسه انسانا متميزا ، يحيا وحيدا ، زاهدا في متع الحياة المادية . بل ان المرأة الانثى الناعمة الجمال والدافقة الفتنة لم تجتذبه في حياته الخاصة ، ولم تشده في حياته الفنية الا في عمل فنى واحد لم يلبث ان اهمله وراء ظهره ، ليقدم لنا جنسا من عالم خياله ومثله .

كان حرص ميكلانجلو على العرى في الاجساد البشرية التي يصورها قائما على ايمانه بأن الأردية تمثل عائقا في ترجمة حركة الجسد البشري، وفي إثارة احساس المشاهد بالضغوط التي يقاومها الجسد ، والمقاومة التي يبذلها، والنضج الخفى السجين بأعماقه . وما دامت الأردية تحول بيننا وبين التائر المباشر بالطاقة التي يعيشها الجسد المصور ، كان من الضروري تصوير الجسد عاريا ، حتى يمتلك ناصية القدرة على اثارة حسنا بالحركة المتمثلة في توتر عضلاته ، وارتعاش بشرته واسترخاء وضعته ، وتميز أعضائه من ربعة الكتف الى التواءات التي تطفو فوق جسده كله وكأنها

في سخرية وثقة بالنفس ثبت صدقها فائلا بأن احدا لن يذكر بعد الف عام ما كان عليه شكل الدوقين .

وعند قدمى جوليانو يرقد تماثالا لليل والنهار . وتمثل الليل ( لوحة ١٦ ) انثى تغفو في نعاس ثقيل . ونحن اذا اطلنا النظر في تكوين هذه الانثى التي تنفجر اثاره ، والتي قد تفريينا فيها الالءاء الشبيهة الريانة الممتلئة ، والتي قد تخدمنا سيقانها البضة الفارحة ، فان قدرا اكبر من التامل سيكشف لنا عن اختباء ملامح غلمانية وراء كل هذا .

فان افسحنا لصورة هذه الانثى مكانا في ذاكرتنا دقائق قليلة ، ريشا نلتقى بصور غلمان ميكلانجلو المصورين على سقف سيستينا حيث اخفى وراء فتوة غلمانيتهم سحرا انثويا دفيناً ، سوف نصل في النهاية الى اكتشاف عالم غريب من غلمان ميكلانجلو وفتياته لم يعرفه بعد عالمنا الواقعى .

ويمثل النهار ( لوحة ١٧ ) عملاق هرقلى الطابع مغتول العضلات يلتفت برأسه من فوق كتفه ، غير ان وجهه غائم القسمات .

فاذا انتقلنا الى تابوت لرونزو نرى الجلال مشرقا على جسدى الراقدين بين النوم واليقظة . ويمثل الرجل الغروب ( لوحة ١٨ ) على حين تمثل المرأة الفجر ( لوحة ١٩ ) وهى صنو الانثى الغافية التى تجسد الليل فى ضريح جوليانو .

• • •

دلف ميكلانجلو من عالم النحت الى عالم التصوير مزودا بملكة اعطاء صوره القدرة على إثارة احساس المشاهد ، فيوهمه بأنه يلمس بأصابع كفه وأصابعه الجسد المصور حتى لتدور أنامله مع انثناءاته واستداراته



انبثاقات طاقة دفينية من جسد عملاق ...  
فهذه العلامات كلها توظف في الدهن على الفور  
اسم ميكلائجلو .

وقد أصبحنا الآن قادرين على ان نفهم لماذا  
ينبغي ان يهتم بالعرى كل فن يدور حول  
الجسم البشرى ، ولماذا استحوذ العرى  
على الفن الكلاسيكى في مختلف اطواره ، ليس  
فقط بوصفه افضل وسيلة تبعث الحياة في  
الفن ، بل لكونه كذلك اكثر الموضوعات اهمية  
في العالم الانساني . وكان ميكلائجلو اول  
فنان بعد عصر النحت الاغريقى يدرك تماما  
هوية العرى في فن تصوير الشخص ، فمن  
قبله كان العرى يدرس كوسيلة علمية تعين  
على تصوير الانسان المكسو بالثياب ، ولكنه  
اكتشف اهمية العرى كفاية في نفسه ، وكهدف  
نهائى لفنه ، فالفن والعرى بالنسبة اليه  
متردافان .

ولن نجد في غير اعمال ميكلائجلو - اذا  
ما طرحنا جانباً روائع الفن الاغريقى - اشكالا  
تعزز احساسنا بقوة اثر الصورة علينا ، وتصل  
حركاتها الى وجداننا مباشرة ، فتلهمه بنفس  
القدر من العمق .

واننا لنرى عمق ايمان ميكلائجلو بالجسد  
البشرى العارى كموضوع اساسى للفن  
التشكيلى ، في انه حين كلف في غمرة الحماس  
الذى صاحب قيام الجمهورية بفلورنسا  
برسم لوحة بطولية تزين القاعة الكبرى  
المتخذة لامتعاد مجلس المدينة الجديد ، لم  
يختار ميكلائجلو من معركة كاسكينا التى  
نشبت خلال الحرب بين بيزا وفلورنسا عام  
١٣٦٤ الا لحظة غريبة هى تلك التى كان  
الجنود الفلورنسيون يستحمون اثناءها في نهر  
الآرنو ، بينما كان التحذير ينطلق معلنا هجوم  
العدو .

لقد جاء اختياره لهذه الزاوية من الموضوع  
نتيجة ايمانه بقدرة الجسد البشرى العارى  
على حمل جميع الافكار والمواقف والتعبير  
عن مختلف الانفعالات . ولا شك انه كان اقدر  
على ان يجسد افكاره وانفعالاته في عراة النهر  
اكثر مما يجسدها في حركة الجنود المتطعين  
صهوات الجياد . ومن المؤسف ان المخطط  
المبدئى الكامل لهذه اللوحة بحجمها الاصلى،  
وهو التصميم الذى نسميه « بالكرتون » لم  
يتبقى به الزمن اذ فقد بعد ان تحدث عنه  
بينفينوتو شللينى بانه كان اعظم عمل قدمه  
ميكلائجلو ، وانه يمثل بحق « اكاديمية الرسم  
العالمية » بل انه يفوق في عظمته سقف  
سيستينا الذى سنعرض له الآن . ( لوحة  
٢٠ ) .



ولقد اضاف ميكلائجلو مثلاً اعلى للجمال  
مقرونا بالقوة ، وروياً لانسانية عظيمة كان  
يتوق الى رؤيتها تدب على ارضنا يوما من  
الايام . فنحن لن نلتقى كثيرا بمثل هذه  
الفحولة والعنف وقوة التأثير، وتجسيد حلمنا  
بروح عظيمة تسكن جسدا جميلا ، مثلما  
نلتقى بالاشكال المرسومة على سقف مصلى  
سيستينا. لقد اثم ميكلائجلو ما بدأه ازانثسيو  
وهو ابتداء نمط انسانى مؤهل اى تاهيل ،  
الذى يخضع الارض ويسوسها نحو التآلق  
والحق والخير والجمال .

كان ميكلائجلو مكباً على تشييد الضريح  
الذى اراد يوليوس الثاني تشييده لنفسه ،  
غير ان البابا مالبث ان نحاه عن هذا العمل  
الذى كان قد منحه فكره وقلبه ، وكان على  
وشك ان يمنحه بقية عمره ، فقد كان يتضمن  
نحت اربعين تمثالا يفوق كل منها الحجم  
الطبيعى للانسان ، اكمل منها تمثال موسى  
الذى عرضناه منذ لحظات ، ولو انه ظل

هذا العذاب ليجد وجدانه وقد غاب في هذا العالم السحري . فما بالناس حين نذكر ان ميكلانجلو قد اضطر ، لانجاز هذه الرسوم ، ان يضطجع على ظهره طوال اربعة اعوام . وقد عبر عن هذا العقاب الذى ينوء بحمله البشر في كلمات بالغة البساطة والرفقة باحدى قصائده جاء فيها ما ترجمته :

« الى السماء تشفع لحيتى .

والى الوراء ينثنى فقاى .

مثبتا فوق عمودى الفقرى .

وترقوتى تنتصب عالية كأنها قيثارة .

وعلى وجهى ترسم لوحة ثرية ملونة .

من قطرات الفرشاة الشخينة والدقيقة » .



هجر ميكلانجلو من ناحية المبدأ فكرة زخرفة الاسطح المستوية بتصميمات زخرفية مقتبسة من عالم الاشكال النباتية ، فحيث يتوقع المرء ان يشهد نبتة متحوية يجد مكانها اجسادا بشرية ، ولا شيء غير الاجساد البشرية . ثم ما يلبث ان يدرك الايقاع المتناغم الذى يربط بين هذه الكتل ويفصل بينها .

لقد اختار ميكلانجلو ان يروى قصصه عن طريق الاجساد العارية - كما مر بنا - ونحن ندرك من القاء اول نظرة على هذه الرسوم الفسيحة غياب الابنية ومشاهد الطبيعة الا رموزا موجزة كالشجرة الوحيدة التى تمثل الجنة ، وعشبة هنا واخرى هناك تشير الى خصوبة الارض ، وهكذا استخدم ميكلانجلو وسائل التعبير فى ايجاز بليغ فى هذه التصاوير . وكان المزج بين ايقاع الخطوط

يتابع هذا العمل الخارق رغم كل ما نعلمه عن قدرته المذهلة فى نحت الرخام الذى كان سريع الاستجابة لضربات ازميله الحاسمة ، لأمضى عشرين عاما فى اتمامها .

وقد حقق الكثيرون على البابا الذى اناح مثالا عبقريا عن النحت ، ليفرقه فى تصوير سقف مصلى سيستينا بمبنى الفاتيكان ، الا ان احدا لا يملك الا ان يعترف الآن ان هذا القرار الذى اتخذته البابا كان اقرب ما يكون الى الالهام الاسطورى . ذلك ان هذا العمل قد فجر طاقات ميكلانجلو الخبيثة ، واناخ له التعبير عن رؤيته الباطنية للعلاقات الانسانية والصير البشرية . وقد ترك البابا لميكلانجلو الحرية فى اختيار الموضوع الذى يصوره ، وهو استثناء لم يتمتع به احد فى هذا العصر الذى كان الفنانون يلتزمون فيه بنصوص القصص الدينية وتعليمات القساوسة . وقد استطاع ميكلانجلو ان يعمل خياله فى القصص الدينية وان يصور عملا يبهز مشاهديه . والذين شاهدوا تصاوير هذا السقف من نقاد الفن على مر التاريخ وقفوا مذهولين امام هذا الموضوع الذى لعب فيه خيال ميكلانجلو دورا كبيرا بعد ان استمدته من نصوص سفر التكوين ، فلم يتفقوا على تفسير واحد . غير أنهم احصوا جميعا هذه الوحدة المتوهجة المشبوبة التى ربط بها ميكلانجلو جسد الانسان بعقله وروحه . فاعجبوا بكل ما ينبض به الجسد من القوة العضلية التى كانت طابع تماثيل الكوروس الاغريقية ، كما انههروا بما يشع حوله من القوة المعنوية الدفافة فى صور العرافات والانبياء ، وان كان من الواضح ان ميكلانجلو قد منح الروح اهتماما يفوق مامنحه للجسد .

وليس من شك فى ان متابعة رسوم السقف تسبب عذابا كبيرا للمشاهد حين يضطر الى ثنى عنقه الى الخلف طويلا ليستكمل جوانب هذه الملحة الهائلة ، غير انه سرعان ما ينسى

والإحياء بالعمق وسيلة أعانته على رواية القصص بهذا الإيجاز الفريد .

ولو أنا تأملنا تصميم ميكلانجلو لسقف سيستينا لوجدناه تكويناً عضوياً متماسكاً تسيطر عليه فكرة فلسفة وفنية موحدة ، يمزج في أيقونوغرافيته بين اللاهوت التقليدي العبري المسيحي والفلسفة الأفلاطونية التي تشر بها - كما مر بنا - في صباه أثناء أقامته بقصر لورنوزدي مدينتي ، وهي التي شكلت وجدانه فبقي إلى آخر حياته مسيحياً مؤمناً بالأفلاطونية ، أي مؤمناً بوجود قوة خارقة تملو قوة الإنسان وتوجه حركته ، هي قوة الإلهام .

قسم ميكلانجلو فراغ السقف إلى الأشكال الهندسية الأفلاطونية التي ذكرناها من قبل وهي المثلث والدائرة والمربع . ( لوحة ٥ ) .

ثم عاد ميكلانجلو فقسم التكوين ثانية إلى ثلاث مناطق تلعب فيه كثافة الضوء دورها . تغطي أذناها وأشدّها قتامة البنيقات الثماني المثلثة وبنيقات الأركان الأربعة على شكل المقرنصات . وتشمل الثانية الفراغ المحصور بين البنيقات المثلثة والمنطقة الثالثة العليا المخصصة للوحات التسع الرئيسية .

وتوكلب هذه التقسيمات من الناحية الرمزية مستويات الوجود الأفلاطونية الثلاثة التي سبق ذكرها .

- **عالم الوهم والخيالات** : وقد عبر عنه ميكلانجلو بالإنسان غير الملهم الذي لم يتلق الوحي بعد ، وصوره في أدنى المستويات على البنيقات المثلثة الثماني .

- **وعالم الضرورة المادي المتغير** ، وعبر عنه ميكلانجلو بأنبياء العهد القديم والعرافات الوثنيات الذين يتوسطون بين الإنسان والله

بحكم ملكاتهم العقلية السامية . وصوره في المنطقة المتوسطة بين المثلثات والوحات التسع .

- على حين صور في المساحة العليا **قصة الخلق والإنسان وعلاقته المباشرة بالله** ، والتي تبدو لنا من خلال التقسيم المعماري مشرفة علينا من أعلى مستوى كوني .

وبلغت مساحة السقف التي صورها ميكلانجلو حوالي ثلاثة آلاف وخمسمائة متر مربع ، ويضم التكوين لثلاثمائة شخصية . وقد رسم ميكلانجلو المخطط البدئي (الكروتون) على الورق أولاً ثم قسمه إلى أجزاء يتسع اليوم لتنفيذ أحدها وراء الآخر .

وبدل خروج ميكلانجلو عن رسوم المخطط البدئي على أن عنصر الارتجال قد صاحبه أثناء العمل . وكانت ألوانه محددة بألوان سطح الفريسك ، وكلما تقدم العمل كان يؤثر تدرجات اللون الرمادي الذي كان يسبغ على أشكاله المصورة طابع التماثيل المنحوتة . وقد كان الشائع إياها أن يتولى القيام بهذه الأعمال الكبرى الأستاذ بمساعدة تلامذته ، ولكن الثابت أن ميكلانجلو قد قام بتصوير السقف كله وحده ، واقتصر عمل المساعدين على التجهيزات الأولية فحسب .

وإذا كان ميكلانجلو قد وقع اختياره من سفر التكوين على قصة الخلق من بدايتها حتى انشاء نوح بالخمر . فقد شاء لنا أن نطالع هذه القصص مصورة على سقف المصلى بادئين من النهاية ، لأنه رسمها بطريقة عكسية ، فبدأ بنوح وانتهى بلوحة فصل النور عن الظلمة .

فما تكاد ندلف إلى القاعة حتى يعلنوا نوح بجسده المستلقي ( لوحة ١٢١ ب ) .

من شجرة معرفة الخير والشر التي تنتصب بينهما . لكن ميكلانجلو لا يقتنع بتقليد الاسلاف بل يبتكر تكوينا جديدا ، كما انه لا يصور الفؤاية كما كانت تصور قبله عملية سلبية بل يحيلها الى فعل ايجابي يختاره الانسان بارادته . فيصور حواء في وضعة الاسترخاء المعهودة في التصوير الروماني مولية ظهرها للشجرة ملتغية لعتة عابرة نحو الحية التي لها جلد امرأة ، وتتناول التفاحة متشاقلة ، وصور آدم في الشطر الايسر من الصورة ضخم الجسم اذنى مرتبة من الانسان ، وهو يمد يده الى غصن الشجرة الممتد فوق حواء ، التي يبدو جسدها ناعما شهوانيا ، ويؤكد حركة ذراعها الممدودة غصن مواز ينبت من جذع شجرة في الخلفية .

وكما خلق ميكلانجلو تكوينا جديدا لقصة الفؤاية ، فقد أعرب من خلال جسد حواء عن فكرة جديدة ايضا هي ان الكسل الانثوى المترب يوقف الرذيلة في اعماق الانسان .

ولا تضم جنة عدن سوى اوراق شجر قليلة ، فام يشأ ميكلانجلو ان يجسد المكان بأسلوب مادي . ومع ذلك فهو يحتال كي يوحى بالترب والحركة بواسطة خطوط الارض والابحاء بمق الفراغ . وكلاهما يتباين مع الارض المستوية الجرداء في النصف الايمن من الصورة ، مجسدا شقاء آدم وحواء بعد طردهما من الجنة حين ازاحهما الى طرف الصورة الايمن ، محتفرا فجوة عميقة بينهما وبين الشجرة .

ويفسر بعض المؤرخين الثنائية التي تجمع بين الحية واللاك المنتقم في مشهد الطرد من الجنة باللوحة بانها نطوى على فكرة ان الجريمة والعقاب مثل العلة والاثر ، هما مظهران توائم للشر .

وكما يصور ميكلانجلو نوحا الانسان فريسة لشهواته الجسدية يصوره كادحا من اجل لقمة العيش ، فجعله على يسار اللوحة يحرق التربة القاحلة قوى البدن واهن الروح . كما اوقف ابنائه حوله ، دون ان يبدو عليهم الاسى لشهود عورة ابيهم ، ودون ان يتعجلوا باخفاؤها بالرداء كما جاء في سفر التكوين ، بل جعلهم شهود المصير المساوي للانسان نفسه الذي ينبى له ان يلهب ويكد ويخطو الى الشيخوخة ، وينتهي الى الموت . وتذكرنا وضعة نوح المستلقية بالهة الانهار الرومان ، وقد مالت رأسه في هذه اللوحة على صدره في ارهاصة بلبغة بالنهاية المرتقبة وهي الموت .

ثم تأتى لوحة الطوفان ( لوحة ٢٢ ) ، التي تذكرنا اشكالها بالجنود العراء المستحمين في نهر الارنو خلال معركة كاسيكا . وتكشف لنا عن فكرة ميكلانجلو في تمثل الفراغ اللاحاء بان الشخصوص وافدة صوب المشاهد من وراء الجيل متعاقبة عصية على الاحصاء ، فلا يسع المرء الا التسليم بضخامة الحشد المتدفق . وترمز هذه اللوحة للمازق الذي يسقط فيه الانسان عندما تحاصرهوامل الطبيعة القاسية التي لا يملك معها الا الاستسلام .

وتصور اللوحة الثالثة ( لوحة ٢٣ ) نوحا وابناءه حول المذبح وهم يقدمون القرابين ويجمعون الوقود ويشعلون النار ليتنسب الله رائحة الرضا من ذبايحهم التي يضحون بها شكرا لله على نجاتهم من الطوفان .

وما تكاد المساحة المتاحة لميكلانجلو تنسع حتى تتضاعف قدراته فنراه في لوحة خطيئة آدم وحواء وطردهما من الجنة يسط جناحيه محلقا الى ذرى لم يبلغها احد من قبل او من بعد ( لوحة ٢٤ ) . كان من قبله يصورون خطيئة الانسان بواسطة شخصين واقفين متواجهين يربط بينهما مشهد تناول التفاحة

عملية عقلانية خالصة . ثم نشهد بعد ذلك الموضوع الرئيسى في عملية الخلق وهو خلق آدم ( لوحة ٢٦ ) ، وهو أحد الأعمال النادرة التى تجمع بين العظمة الفائقة والبساطة المعجزة ، حتى بالنسبة لأولئك الذين لا يفعلون فى أسر بالأعمال الفنية . فمعناها واضح ومؤثر من الوهلة الأولى ، ويزيد شغف المرء بها كلما طال تأمله لها ، اذ نرى الجسد الانسانى فى روعة ليس لها مثيل سابق ، مستلقيا على الأرض فى الوضعة التى اعتدنا ان نرى عليها التماثيل اليونانية لآلهة الانهار والخمر، الذين ينتمون الى الأرض ولا يتطلعون الى الفكاك منها .

ويتجه الاله الخالق فى سحابة سماوية تضم زمرة من الملائكة صوب جسد آدم الخادم المتصق بفضجعه الصخرى . ونتمثل الانسان يمد يده حتى تلمس يد الله ، وكان شحنة كهربائية تسرى بين أصابعهما . وعبر هذه الشحنة الدافقة فى هذا النموذج الطبيعى الفذ ، خلق الله النفس الانسانية . فما يكاد الاله يلمس طرف أصبع آدم الممتدة حتى تدب فيه الحياة ، فتنتطلق القوى الكامنة فى جسده ، التى تتجلى - رغم عجزه عن الحركة - فى انثناء ساقه اليسرى ، وبروز جذعه المصور بالواجهة وتوتر عضلات ساقه اليمنى المصورة بالجانبية . ولكن آدم يتقبل الحياة على مضض وهو ما يعبر عن ذلك التشاؤم الذى يشيعه احتقار افلاطون للحياة الدنيوية واعتباره لها عبثا ثقيلا وعقوبة للانسان على نسيانه لاصله الالهى ، وانجذابه الى عالم الحس ، مخلفا وراءه عالم التأمل العقلى . ومن خلف الله وفي ظل عباهته تترامى حواء غامضة مستخفية وكأنها ما تزال كائنة فى اصاصه ترهص بما سوف يكابده آدم على يديها من شقاء .

• • •

ونلاحظ اختلاف تعبير آدم فى مشهد الطرد عنه فى مشهد الفواية ، اذ يبدو مدركا خطيئته وان مضى فى طمأنينة وكبرياء ، محاولا ان يدفع بحركة ذراعيه حد السيف الذى يهدده به الملاك المنتقم . على حين بدت حواء منكشمة محاولة ان تحتجى بظله وهى تسرع الخطى وقد انحنى ظهرها والتفتت بوجهها نحو الجنة آسية وكأنها تسترق نظرة اخيرة .

وهكذا نرى فى الشطر الايسر من الصورة مشهد الفواية والخطيئة حيث تتجلى الرغبة العمياء ، بينما نرى فى الشطر الايمن مشهد الطرد حيث تتجلى المعرفة والتندم .

وتشمل اللوحات الخمس التالية مراحل خلق الله للكون والطبيعة .

ففى لوحة خلق حواء ( لوحة ٢٥ ) يبدو الاله يوه لأول مرة وهو يخلق الانثى باشارة أمرة من يده التى لا تلمس جسد حواء أو ضلع آدم كما اعتاد المصورون من قبل ، وانما يتجلى داخل اطواء عباءته وقد امال التفكير العميق رأسه ، وحواء تنهض بطريقة تعرب بوضوح عن انها طوع امر الله ، وتتسم ابعاء الدهشة والعجب المرتسمه عليها - وكأنها فى صلاة وروعة ضارعة - بجمل لانهاى اودع ميكلانجلو فيه مفهومه من الجمال الجسدى ، بينما يرقد آدم مستندا الى صخرة ، متكوما كانه حشة هامدة ، وقد اندفع كتفه الايسر الى الامام، وقبضت يده برخاوة على جلع خشبى . ويساير الخط المحيط للتل شكل جسم آدم ويحتويه ، على حين يتوازى مع شكل حواء واتجاهها جلع شجرة مثلب الاغصان. لقد احتشد كل شئ فى المساحة المتاحة وشارف الحواف حتى لم يعد مكان للاله الخالق لكى ينتصب فيه . وتكتشف هنا مفهوم ميكلانجلو الافلاطونى عن الخلق ، بأنه

والغريب في هذه اللوحة تكرار صورة الله، حيث يستدير فنراه من الخلف مندفعاً وكأنه أعصار صوب عمق الصورة، غير أن هذا التكرار تقليد فني قديم، فلو أننا فطينا نصف الصورة لتجلى لنا كيف أن تكرار الشكل منفلتاً، هو جزء جوهري من الائن الشامل للحركة المدومة.

ويبين الأيجاز المتتابع في تصوير المخلوقات، أن فكرة ميكلانجلو هي تصوير طبيعة الله الخلاقة أكثر مما هي تصوير الأشياء والكائنات التي يخلقها.

وفي النهاية نصل إلى الدروة مع لوحة فصل النور عن الظلمة ( لوحة ٢٩ ) حيث ينبثق الوضوح من العلماء، وتتعاقد الحكمة المسيحية الداعية إلى معرفة الحقيقة كطريق لتحرر النفس، مع النصيحة الهائلة الإلهية لسقراط. « اعرف نفسك ». أن مفهوم الله قد تطور: من اتخاذ شكل الإنسان في لوحة خلق حواء، إلى التجلي في الروح الكونية في اللوحات التالية، ثم يستحيل في هذه اللوحة تجريداً شائعاً نابضاً في ملكوت الوجود الخالص، بعد أن أصبح الجسد رمزاً للروح واتشحت قسمات الوجه بالضبابية.

لقد تحقق الهدف الأفلاطوني الجديد لاتحاد الروح من الله عن طريق التدرج من قيد البنيقات، إلى البصرة التنبؤية للعرفات، وأخيراً صعود سلم القصص الديني نحو ضوء المعرفة النقي، للوصول إلى نقطة الدوبان والتلاشي في حرية اللانهاية.

ومن بين كافة المحاولات التي قام بها الإنسان الفاني المحدود كي يقدم صورة للطاقة المطلقة بلا حدود، نجد هذه اللوحة أكثرها اقناعاً، وإن لم تكن أشدها واقعية. ولا غرو فإن الصون الفوتوغرافية الحديثة لتكوين رؤوس المذنبات النجمية تعرض نفس هذه الحركة الشبيهة بالدوامة.

وتتوالى مشاهد مراحل الخلق المبكرة في تصاعد دافق بالحركة والحيوية.

ففي لوحة فصل اليابسة عن الماء ( لوحة ٢٧ ) تتفجر قدرة الإله مانع البركة، وهو يندفع من خلفية الصورة باسطاً يديه فوق سطح الماء، فنظن إلى أن ميكلانجلو قد نقل الشعور بالسلام الذي ينطلق من هذا المشهد بإيماءة من الله وكأنه يبارك الكون. كما تعتمد التعبير عن التضاؤل النسبي للذراع اليمنى، وغمر التكوين المساحة التي حدها أطار الصورة تماماً.



ثم نشهد الله بعد ذلك يخلق الشمس والقمر والنجوم ( لوحة ٢٨ ) بإشارات أمرة للإحياء بضرورة إخضاع هذه العناصر النارية الملتبته بالحزم والقوة لا باللين والمباركة.

وهنا يغدو الله تجسيدا « لفكرة الخلق » نفسها شأنه شأن الأجرام السماوية، فينتقل في فلكه ينثر النجوم والكواكب التي تنطلق بدورها في المدار الذي يرسمه لها.

ونلمس في هذه اللوحة بوضوح ازدياد الدينامية في اندفاعه الإله إلى الامام باسطاً ذراعيه إلى أن يوقف مسيرته بحيث ينحني جلده إلى الوراء، كي يتسنى له أن يخلق الشمس والقمر أثناء هذه الوقفة العابرة. ومع أن كلا الذراعين يوثان بحركة الخلق إلا أن الذراع اليمنى تبدو أقوى تأثيراً، ليس فقط لأن الله ينظر في اتجاهها بل لأنه قد لحقها نصيب كبير من التضاؤل النسبي.

كذلك فإن المساحة التي تمثلها صورة الله أكبر من سابقتها، حتى لا تترك موضع قدم لغراغ زائد لا ضرورة له.

حلقة أخرى من الانبياء والشهداء والنساء العبريات والقديسات العذارى والعرفات الوثنيات .

ويشرف من إحدى الكوتين العاليتين جماعة من الملائكة يحملون صليب المسيح ، ومن الكوة الثانية جماعة أخرى يحملون العمود الذي عذب عليه . وتبدو الملائكة بلا أجنحة ، والقديسون بلا هالات في أجساد عملاقة ، تتحرك محتدمة كأوراق الشجر الصحابة في أتون العاصفة .

ويبعج القسم الأوسط بحشود البشر ، بعد الفراغ من الحساب ، حيث يرقى الطائون الى الجنة ، بينما يتهاوى العصاة في الجحيم ( لوحة ٣٢ ) ، ورسل الرب تنفخ في الصور ، بينما يحمل ملاك صفيير كتاب الحسنات الدقيق ، وينوء ملاكان قويان يحمل كتاب السيئات البالغ الثقل والضخامة .

ويحتجز ميكلائجلو القسم الأسفل بصورة الجحيم اليوناني ( لوحة ٣٣ ) كاشفاً بذلك المنبع الثاني لفكر ميكلائجلو الذي شكلته المسيحية الافلاطونية ، حيث يبسط خارون مملكته في العالم السفلي حول نهر ستيكس الى اليمين ، وحيث تحتشد زبائنه وزبائنه .

على حين يتدافع الى اليسار الموتى مبعوثين من قبورهم يوم القيامة والذين يتطلع اليهم المسيح في جلاله لحظة وصولهم الى الجحيم ، شاعرا بده اليمنى في حركة تلقى الرعب وهو يصدر حكمه عليهم بالهلاك ، مشيراً بيمنه الى الطامعين ليشهدوا جرح جنبه الدامي ( لوحة ٣٤ ) .

لقد بعثت هذه اللوحة انتفاضة هائلة في فن التصوير ، وخلفت أسلوباً جديداً مثله الأعلى :

— كونية الفضاء الانهائي .

لقد استطاعت تصاوير سقف مصلى سيستنيا هي والتصاوير الجدارية لرفائيل في غرفة التوقيع بمبنى الفاتيكان أن تنقل من فكر ايطاليا في عصر النهضة أكثر مما نقلته آدابها المكتوبة . كما أنها كشفت عن عمق بصيرة ميكلائجلو وقدرته على التنبؤ بما يوحى للمشاهدين بأنه فنان كل العصور ، وربما بصفة خاصة عصر الرومانسيين ، وهذه هي الصفة التي تميزه عن منافسه العبقري رافائيل .

ونستطيع قبل مغادرة سقف المصلى أن نمهل لحظة أمام تصاوير **الفلمان المرأة** ( لوحة ٣٠ ) لتقارنها بمثال **الإنثى الفسافية** التي ترمز لليل ( لوحة ١٦ ) وذلك التي ترمز للفجر ( لوحة ١٩ ) والتي رجوت استضافتهما في الذاكرة عدة دقائق ، ولنتأمل جيداً هؤلاء الفلمان الذين يمتلكون من السحر والفننة والإثارة ما يستطيعون به منافسة جميلاته الفتيات ، ليس في بشرتهم المسقولة ، ولا في رقة اللامح ، ولا استدارات المناكب ورشاقة السيقان ، ولا في انبثاق الانداء وانسدال الشعور ، بل كذلك في التنشئ والتأود في الوضعة المثيرة واللغة الدامية ، المترددة الحائرة بين الجسارة والحياء .

في أي عالم رأى ميكلائجلو ذلك الجنس البشري الغريب ؟ لا شك أنه جنس ابتدعه هو بخياله . ولعل لوحة يوم الحساب ( لوحة ٣١ ) هي أشهر تصاوير روما الجدارية ، وهي بلا شك أكبرها حجماً ، إذ تغطي مساحة قدرها ستة عشر متراً في اثني عشر متراً . وقد توزعت رسومها على ثلاثة أقسام رفق التثليث الافلاطوني : تسود في أعلاها مملكة السماء يتوسطها المسيح في جلاله على عرش السحب بوصفه قاضياً والعذراء الى جواره . ومن حوله حلقة من الرسل وآباء الجنس البشري المذكورين في التوراة تحيط بهم

مجاله تخطيطية ، أو على خطاب أو ظهر  
فاتورة حساب ، مما يجعلنا نرى بوضوح أنه  
كان يسجل خواطره - أو على الأقل مسودتها  
- على أول ورقة تقع بين يديه .

وتحمل أشعار ميكلانجلو التي تبلغ حوالي  
المائتين وخمسين قصيدة طابع التكثيف  
لانفعالاته ، بلا تكلف أو اسهاب مصطنع أو  
بلاغية لفظية ، فالشعر هو مملكة ميكلانجلو  
الخاصة . ولم يكن يكتب أشعاره للسامية  
بل لنفسه هو ، أو لإنسان بذاته . ومن ثم  
كان ديوانه الشعري أشبه بيوميات لمواطنه ،  
ومرآة لقلبه ، وسيرة ذاتية عاطفية وروحانية .

وفي عصر كان كل عمل فني خاضعا للتقاليد  
أكثر مما هو الحال الآن ، كان على ميكلانجلو  
رغم تفوقه على غيره في التعبير عن نفسه  
الحقيقية ، ورغم أن ممارسته للشعر قد بقيت  
في إطار الهواية بعيدا عن الاحتراف ، أن  
يلتزم بالتقاليد الفنية التي لا يستقيم الشكل  
الشعري من غيرها ، ودون أن يكون مع ذلك  
مؤمنا بها ، وذلك ما هو بصنعة الشعرية عن  
مستوى رفاق فنه .

كان عالم الشعر ملاذ ميكلانجلو ، يفزع  
إلى خلوته كلما أججت انفعالاته عذاب القلق  
في أعماقه . وما أكثر ما كان يهرب إلى الشعر .  
فما كانت حياته إلا قطعة متصلة من العذاب  
الداخلي العاصف الذي يتضائل أمامه كل  
حزن عابر . وكان احتدام مشاعره يشده  
إلى عزلة موحشة ، يرفض داخل أسوارها  
رؤية الأصدقاء ، ويعسر عليه أن يعيش في  
سلام حتى مع نفسه ، لكنها كانت تتيح له  
أشباع حاجته إلى التأمل والتركيز الهائل  
لإنجاز أعماله الإبداعية . ومع ذلك فكم كان  
رقيق المشاعر مع بسطاء الناس ، عطوفا حانيا  
على الفنانين الناشئين ، كلما عرف الانفلات  
لحظات خارج أسوار العزلة .

- والانفلات عن أسار الزمان والمكان .

- وتحريك الوجدان البشري بإثارة الشفقة  
والرثاء .

على أن هذه اللوحة التي أحدثت هذا  
التأثير الهائل على المصورين المعاصرين قد  
اثارت عدااء محمومًا من جانب رجال الدين  
والفكر الذين كانوا يقاومون حركة الإصلاح  
الديني . وهكذا امتدت أيدي التزمت لتفطى  
معظم الأشكال المعارية في لوحة يوم الحساب .



فاذا تركنا عالم القنحت والتصوير والمعاراة  
ودلفنا إلى عالم الشعر وجدنا الباب مفتوحا  
إلى أعماق ميكلانجلو ، فليس غير الشعر  
ساحرا يزيح بصاه الستر .

وكان ميكلانجلو واحدا من أعظم أربعة  
أو خمسة شعراء إيطاليين في عصره ،  
وإذا كان أشدهم صدقا فقد كان أقلهم شائنا  
من ناحية الصنعة الشعرية ، فكان تعبيره  
الشعري من أكثر الأشعار الفنية الإيطالية  
تركيزا وغموضا ، حتى كان بعض ناشري  
شعره يتبعون كل قصيدة بشرح هو في  
حقيقته ترجمة نثرية بالإيطالية الحديثة .

وليس يعني هذا أن لفته نفسها كانت  
عسيرة بالنسبة للقارئ المعاصر ، ولكنه  
الفكر وراءها الذي يبدو ساطعا وخفيا في آن  
معا . والواقع أن شعر ميكلانجلو هو شعر  
ذاتي بحت . وأغلب الظن أنه لم ينظم قط  
قصيدة دون أن يكون واقعا تحت تأثير انفعال  
ما ، فلم يكن ينظم إلا مدفوعا بحاجة قوية ،  
أو ممزقا بعذاب ، أو محاصرا بماطقة وتكشف  
مخطوطاته التي خلفها عن تلقائية الهاماته .  
فقد كانت كثرتها مسجلة على طرف رسم أو



تجعلنى لا أعبأ بالشجر ،  
ولا أخشى الموت .

حتى اذا ما اطلت المرأة على أفق حياته  
أقبلت في ثياب سيدة مترهبة تعيش في دير  
القديس سلفستر بروما تحمل أربعين عاما من  
الثقافة الرفيعة والورع والفضيلة ، وتمنحه  
أهم ما كان في حاجة اليه : حنان الامومة الذى  
لم ينعم به لوفاة والدته في طفولته ، وطمانينة  
النفس التى كان يطاردها شعوره بالاثم  
وخوفه من عذاب النار . بينما كانت **فيتوريا**  
**كولونا** تبشر بعقيدة جديدة تجعل من الإيمان  
وحده مخلصا من كل الآثام .

وهكذا وجد ميكلانجلو أخيرا المرأة الصديق  
والمرأة العزاء ، والمرأة الطمانينة ، والمرأة  
الخلاص .

**وايقظت فيتوريا المسيحية ، في أعماق**  
ميكلانجلو ، فاشتعل بحماس خلاق ، وعكف  
على انجاز اعمال فنية دينية تمثل فكرة  
الخلاص بواسطة السيد المسيح ، كانت قمتها  
لوحة يوم الحساب التى واكب تنفيذها هذه  
العلاقة المتسامية .

وحين ماتت فيتوريا بعد أن أضاعت حياة  
ميكلانجلو عشرة أعوام بكى العملاق كطفل  
رضيع فقد الى الإبداء ، والتفت التشاؤم  
ثانية حول وجدانه ، وصيغ شعره بالأسى  
وتوقع الموت وراح يقول : -

« أثق ان الفناء مقبل

لكننى لا أعلم موعد اقداامه

العمر قصير

لم يبق لى منه سوى القليل

حتى الانشئ لم تعرف طريقها الى خلوته ،  
فعاش دون أن يتخذ زوجة أو خلية مع أن  
صداقته بمساعدته ونماذجه كانت تفوق في  
عنفها وصدها أعق الملاقات البشرية .

**وليس نظرتة للحب بعيدة عن النظرة**  
**الإفلاطونية : فالجمال البشرى يوقظ في النفس**  
أصالتها الالهية ، ويرتقى بها الى عالم الالهة  
أن هى انسلخت من الانجذاب الجسدى  
وهامت بالروح . وهكذا احب ميكلانجلو  
صديق عمره تومازو كافاليرى النموذج الذى  
التقى فيه جمال الروح بجمال الجسد ، فخلد  
صداقتهما في قصائد من شعر اخاذ ، ترجمته  
هو وغيره عن الفرنسية لا الإيطالية :

« بلا روية انطلقت اليك .

ظننتنى على شاطئ جدول نحيل .

أعبره دون أن يبلل مأوه ما فوق قدمى .

لكن .. ها انذا مذ خلفت الشاطئ .

محاصرا وسط خضم محيط هائل .

تسمع امواجه من كل جانب .

آه لو كنت مستطيعا العودة للشط .

لهزلت سريعا .

لكننى مادمت بلفت مكانى .

فلأ صنع من قلبي صخرة .

وأخوض بها اليم .

واسمك في روحى وكيانى .

يملاؤنى ربا وعذوبة .

ثم يخلفنا دون حراك

في نفس الوضع الذي يلقانا فيه » .

● ● ●

ومع احساس ميكلانجلو بأقترب الموت  
دب فيه التخاذل فلم يعد يكمل رسومه او  
تمائيله، واخذ يشوه نسب الجسم التشريحية  
عامداً ، ففتح الابواب على سعتها امام المدرسة  
المتكلفة « مانريزم » ثم لطرز الباروك .

كتب الى فاسارى مؤرخ فنانى عصر  
النهضة عام ١٥٥٩ قبل وفاته بخمسة أعوام:  
« ليس ثمة فكرة في أعماقي لم يتسرب اليها  
الموت » ، واصر على قضاء بقية ايامه في خدمة  
بلاط البابا بروما لعله يظفر بالخلاص .

وانتقل العبقري العملاق الى عالم الخلود،  
وبقيت تماثيل باخوس وداود وموسى والعلامة  
الاسية ، وتصاوير سقف مصلى سيستينا  
ولوحة يوم الحساب لتذكر الاحياء بان رجلا  
فذا قد شارك بازميله وفرشاته في صنع  
عصر كامل هو عصر النهضة الإيطالية ، وفي  
دفع البشرية خطوة حاسمة على طريق التقدم.  
كان اسمه وسبقه ميكلانجلو . . . او الملاك  
ميكايل .

الحياة الدنيا تستهوى حواسي

بينما تستحشني روحى للقاء الموت .

العالم ضريع شرير

يعصف بالاشياء بضربات علوية

النور انطفأ

فولى منه كل امان .

ينتصر الزيف

ويستخفى الحق

وا اسفاه . . وباه ، متى يتحقق امل المؤمن  
بك ؟

وطول الانتظار يقتك بالامال

ويترك الروح فريسة للموت .

ما قيمة النور الفاجر . . الذى تعد به

مادام الموت سيقبل بفتة .

ويتبع المرء امامه بلا حول ولا قوة

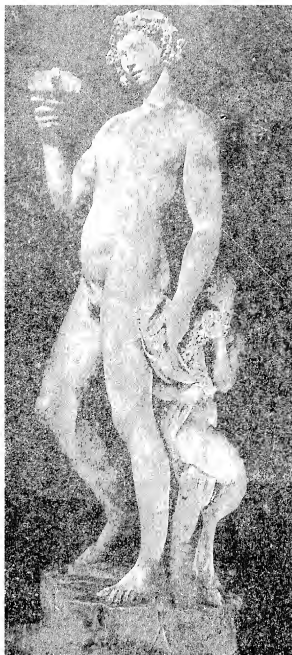
★ ★ ★

### الراجع

- Bottari, Steffano      Michelangel. La Cappella Sistina. Eratelli Fabri — Albert Skire 1968.
- Berenson, Bernard      Italian Painters of the Renaissance vol. 2. Florentino and Central Italian Schools. Phaidon, London. New York, 1968.
- Clar, Keneth      Civilisation, a personal view. British Broadcasting Corporation and John Murray 1969.
- Forlani, Anna      Michelangelo. Fratelli Fabri Editori 1963.
- Fleming, William      Arts and Ideas, Holt, Rinehart and Winston New York 1961.
- Goldscheider, Ludwig      Michelangelo. Complete edition. Phaidon 1959.
- Huygho, René      l'Art et l'Ame. Flammarion 1960.
- Pope Hennesy, J.      Italian High Renaissance and Baroque Sculpture, 1963.
- Revel, Jean - Francois      Michel-Ange: Le Secret d'un coeur révélé par les Sonnets. Collection Génies et Realités. Paris Hachette 1961.
- Redig de Campos D.      Michelangelo ... Cappella Paoline in Vatican. Collezione Silvana Milano 1956.
- Vasari, Giorgio      Life of Michelangelo Buonarroti, The Folio Society. London 1970.
- Wolfflin, Heinrich      Classic Art. An Introduction to the Italian Renaissance, Phaidon. London, New York 1968.

- المعهد القديم من الكتاب القديم .





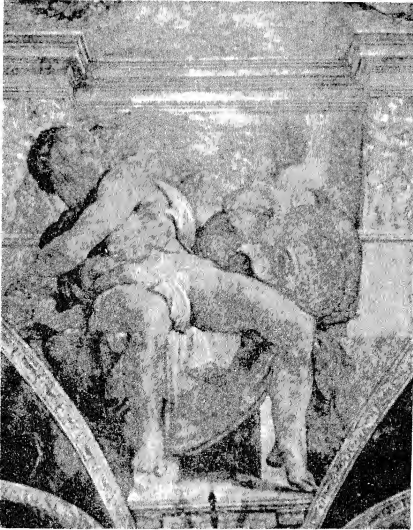
( لوحه ۱ ) باکخوس



( لوحة ٢ ) اللجوء الإسمية ( بيتا ) الفاتيكان



( لوحه ۳ ) سلف مصلی سینینا عرافه کومای

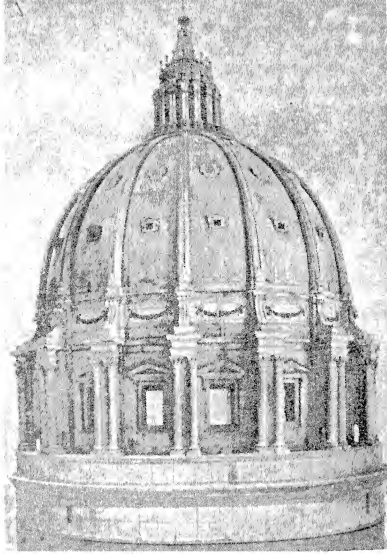


( لوحة ٤ ) سقف مصلى سيستينا النبي يونس والحيوت

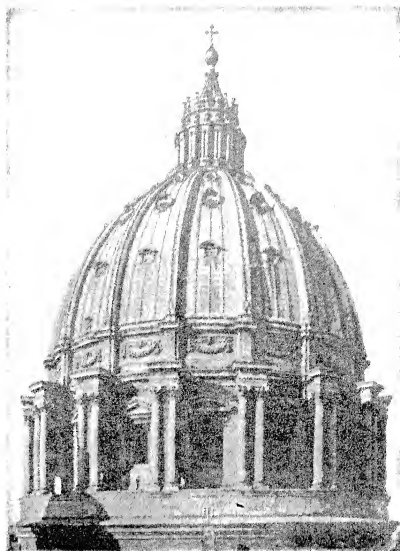


( لوحه ه ) سقف معبد سیستینا





( لوحة ١٦ ) نموذج خشبي لقبة كنيسة القديس بطرس بروما



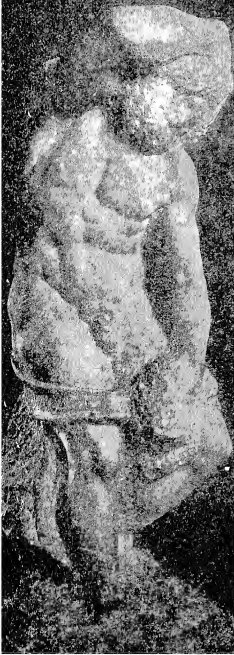
( لوحة ٦ ) قبة كنيسة القديس بطرس بعد الانتهاء منها



( لوحة ٧ ) العبد المفلول - متحف اللوفر



( لوحة ٨ ) العبد المتمرد - متحف اللوفر



( لوحة ١٠ ) أسير بوبولي الملتحي



( لوحة ٩ ) أسير بوبولي



( لوحة ١١ ) الفداء الآسية (التفصيل) وجه المسيح



لوحة ( ١٢ ) داود



( لوحة ١٢ ب ) داود

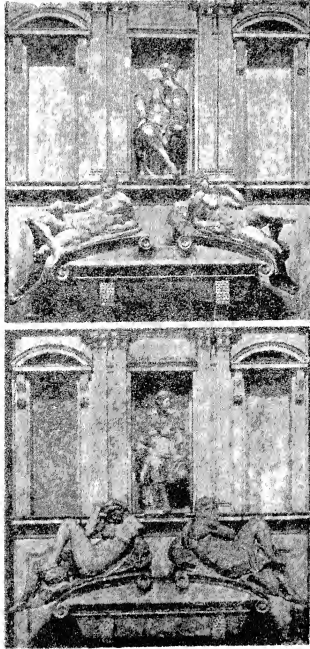




( لوحة ١٢ ) موسى



( لوحة ١٣ ب ) موسى - تفصيل اليد اليمنى واللحية

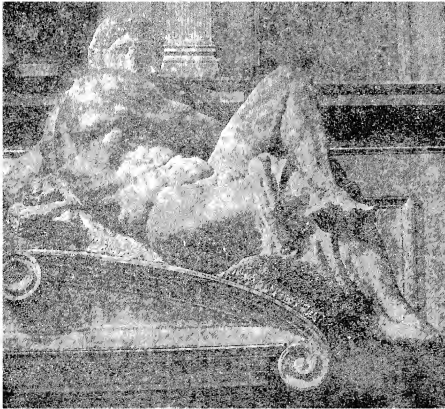


( لوحة ١٤ ) صريح لودنزو

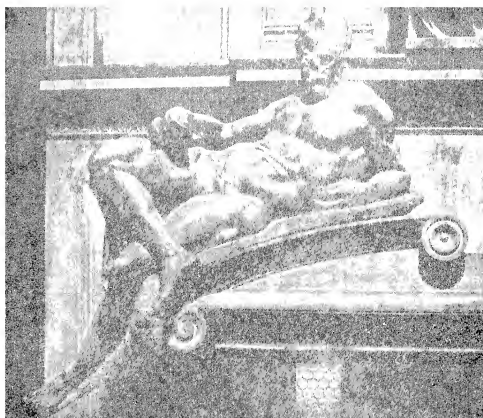
( لوحة ١٥ ) صريح جوليانو



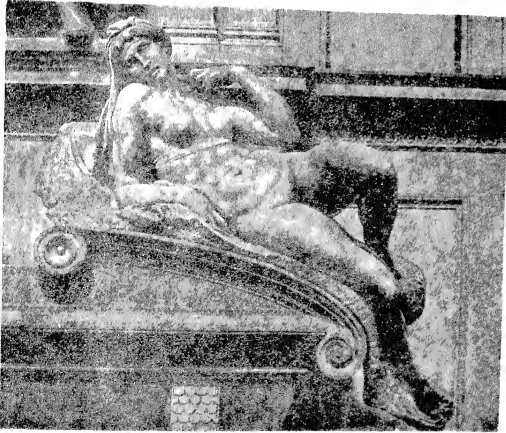
( لوحة ١٦ ) جوليانو - الليل



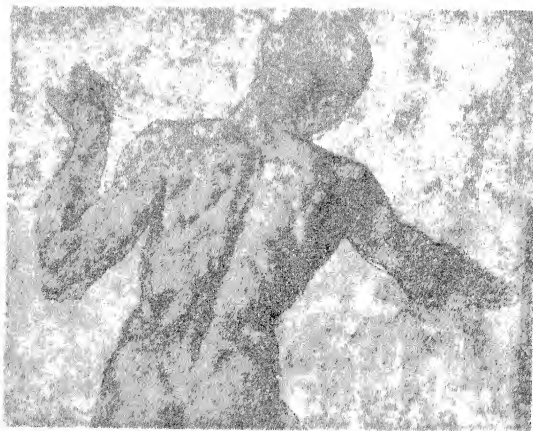
( لوحة ١٧ ) فريش جولييانو - النهار



( لوحة ١٨ ) فرجين أورنود - القلوب



( لوحة ١٩ ) صريح لورينزو - الشجر

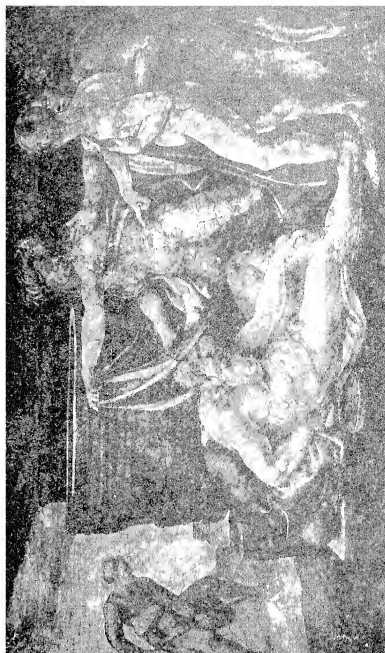


( لوحة ٢٠ ) دراسة لمعركة كاسكينا





( لوحة ٢١ ) سقف مصلى سيستينا - نوح لهلا



( لوحة ۲۱ ) سلف سیمینا - لوح آهلا



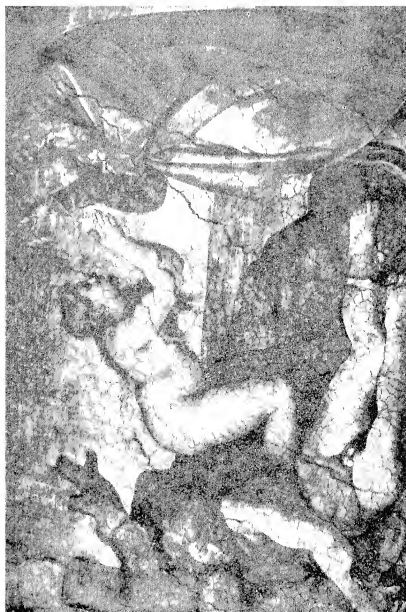
لوحه ( ٢٢ ) سفنهميل يستيتيا - البروفان



( لوحة ٢٢ ) سلف مصفى سيستينا - نوح و ابناؤه يقدمون القرابين



( لوحة ٢٤ ) سلف مصلي سيمونياد - خليفة آدم في اوطارها من الجنة



لوکادە ۲ ( سەندەمەکی سەسەنەنا - خان خەمە



( لوحة ٢١ ) سقف كهف بيسنتينا - جنتي آدم



( لوحة ٢٧ ) سلف مصلى سيدينا فصل البابسة من الله





( لوحة ٢٨ ) سلف ديفلي سيميتينا - خالق الشمس والنجوم



( لوحة ٣٩ ) سقف مصلى سيستينا - مشهد فصل الثور عن الظلمة



( لوحة ٢٠ ) سلف مصلى سيستينا غلام عار (اليهودي)



( لوحة ٢١ ) مصلى سيستينا - لوحة يوم الحساب



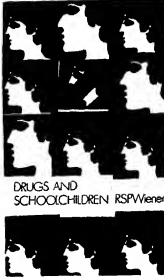
( لوحة ٢٢ ) مصلح سيمبينا - تفصيل من لوحة يوم الحساب - المصفاة  
بناؤون إلى الجحيم



( لوحة ٢٢ ) - على سبيل المثال - تفصيل من لوحة يوم الحساب  
( الجحيم )



( لوحة ٣٤ ) مصلى سيستينا - تفصيل من يوم الحساب - المسيح في  
جلاله بوصفه لافانيا



## المخدرات وطلبة المدارس

تأليف: ر. س. ب. وايسنر

عرض وتحرير الدكتور: عدنان الدوري

في الجامعة المذكورة . أما كتابه هذا فهو حسيطة البحث العلمى الذى تقدم به لنيل درجة الدكتوراه في جامعة لندن .

ينقسم الكتاب الى اقسام ثلاثة خصص القسم الاول كمدخل نظرى لعرض ابعاد مشكلة المخدرات بوجه عام وبيان اهداف الدراسة وإيجاز بعض الدراسات العلمية التي تناولت هذه المشكلة . وقد خصص القسم الثانى لعرض ماهية الدراسة الميدانية حيث تناول طريقة البحث وكيفية اختيار عينات البحث وعمليات الاستبيان وجمع المعلومات المطلوبة . اما القسم الثالث فقد تضمن خلاصة النتائج وبعض التوصيات المتصلة بموضوع المشكلة . كما ذيل الكتاب بملاحق خاصة باستمارات البحث والاستبيان وبعض الرسائل المتداولة لغرض جمع المعلومات المطلوبة .

ان موضوع العقاقير المخدرة يشكل موضوع الساعة في اوليته بين البحوث والدراسات الاجتماعية والنفسية والطبية، والطبية العقلية والقانونية المعاصرة . لقد ظهرت كتب عديدة ودراسات علمية لا حصر لها تناولت هذا الموضوع ، الا ان الجديد في هذا الكتاب انه يعالج جانبا حيويا من هذه المشكلة ، وهي ظاهرة تفشى هذه السموم المخدرة بين فئة طلبة المدارس من المراهقين الذين لا تتجاوز اعمارهم التاسعة عشرة .

مؤلف هذا الكتاب الدكتور براينر من الباحثين العلميين المتخصصين في معالجة المشكلات الاجتماعية الذين يعملون في مدرسة لندن للدراسات الاقتصادية ، كما قد درس علم النفس في جامعة سدني باستراليا ، وعمل فترة ما في المعهد القومى لعلم النفس الصناعى



وعلى الرغم من أن الباحث في كتابه هذا لم يهدف إلى معالجة مشكلة المخدرات بوجه عام ، إلا أنه أفرد ما يزيد على السبعين صفحة من كتابه لمعرض أرضية أكاديمية نظرية لموضوع المخدرات ، وهذا لا شك يعكس اهتمام الباحث بالاطار النظرى العام الذى يشكل المدخل الأكاديمى للدراسة موضوع الكتاب .

وإذا كان الإنسان قد استخدم العقار المخدر منذ آلاف السنين إلا أن هذه العقاقير المخدرة لم تصبح مشكلة ذات أبعاد اجتماعية ونفسية وطبية وقانونية إلا خلال القرنين الماضيين . أما اليوم فقد بلغت مشكلة العقاقير المخدرة أبعاداً خطيرة لدى الكثير من المجتمعات المعاصرة ، وليس أدل على ذلك من بعض الإحصائيات العالية التى تشير إلى أن عدد الأشخاص الذين يتناولون نبات الماروانا يزيد على المائتي مليون شخص فى جميع أنحاء العالم . وهناك إحصائيات عالية لعام ١٩٦٢ تشير إلى أن عدد الذين يتناولون بعض العقاقير المهدئة والمنشطة بصورة غير مشروعة يزيد على العشرة ملايين شخص فى العالم . أما فى الولايات المتحدة الأمريكية فإن مشكلة المخدرات تجاوزت أبعادها التقليدية المألوفة ، حيث يشير المكتب الفدرالى للمخدرات فى إحصائية صدرت فى صمام ١٩٦٥ أن عدد المدمنين على عقار الهيروين وحده بلغ ( ٥٥٨٩٩٠ ) شخصاً ، هذا على الرغم من تلك العقوبات الشديدة التى تضعها القوانين الجزائية الأمريكية لمنع تداول هذا العقار منذ عام ١٩١٤ .

#### ما هو المقصود بالعقاقير المخدرة ؟

هناك تعريف عام ورد بقاموس أكسفورد الانجليزى يعرف العقار بأنه كل مادة طبية جوهريّة عضوية أو غير عضوية تستخدم بصورة نقيّة أو فى تركيب كيميائى خاص . وهذا التعريف لا شك لا ينصرف إلى العقار المخدر الذى يتناوله الشخص بصورة غير مشروعة ، فالعقار لا يصبح مشكلة إذا استخدمه صاحبه

لأغراض طبية علاجية مشروعة أو تحت إشراف طبي . أما العقار المخدر الذى يمنع القانون تداوله فهو كل مادة كيميائية تؤدى إلى تغير محسوس فى مزاج الشخص الذى يتناوله ، وإلى تبدل واضح فى شعوره وفى إدراكه ، وذلك حين يستخدم هذا العقار بصورة غير مشروعة وبأسلوب يخالف معايير المجتمع ونظمه . ولكن ما هى تلك المواد المخدرة التى يمنع القانون تداولها خلافاً للأغراض الطبية المشروعة ؟

أن العقاقير المخدرة التى يشيع استعمالها اليوم بين غالبية الشباب والمراهقين هى الأنواع التالية :

( ١ ) مركبات الأفيون opiates وبوجه خاص مركب الهيروين heroin .

( ٢ ) مركبات نبات القنب cannabis

( ٣ ) عقاقير الهلوسة وبوجه خاص المركب المعروف LSD .

( ٤ ) مركبات الأمفيتامين amphetamines

( ٥ ) مركبات حامض البريتوريك barbiturates .

( ٦ ) المركبات التى تشتعل على الأمفيتامين وحامض البريتوريك معاً .

ولعل من الضروري أن نتناول هذه العقاقير بتعريف موجز لبيان بعض صفاتها المميزة وتأثيراتها المختلفة .

أولاً - مركبات الأفيون : وقد عرف الإنسان الأفيون opium منذ أربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، أما عقار الهيروين heroin وهو من مركبات الأفيون فقد ظهر فى المائيسا منذ عام ١٨٩٨ وهو عقار يجرى تصنيعه من

اما التأثيرات الشائعة لهذه المركبات فهي طلائه اللسان واحلام اليقظة وزوال القلب والمواقف الباطنية لحرية النشاط والشعور بالمرح والتفكير والارتضاء . كما وهناك خطأ شائع يدعو الكثير للاعتقاد بأن لهذه المركبات تأثير معين في زيادة الطاقة الجنسية ، ولكن الثابت علميا انه لا توجد علاقة بين مثل هذه المركبات وبين زيادة الحيوية الجنسية ، ولكن ربما لبعضها تأثير في اطالة العملية الجنسية . اما بعض التأثيرات الضارة لمثل هذه المركبات فهي لازالت موضوع خلاف كبير . فقد يجد البعض ان الاعتياد على هذه المركبات لمدة طويلة يؤدي الى تدهور القدرات الذهنية ويضعف القدرة على مواصلة العمل المنظم ، كما يؤدي الى اضطراب العلاقات الاجتماعية بالآخرين ، وهو في الغالب يقود الى حالة الادمان على المخدرات . الا ان منظمة الصحة العالمية لا تؤيد ظهور حالة الاعتماد البيولوجي نتيجة تناول هذه المركبات ، ولكن مثل هذه المركبات تؤدي الى حالة الاعتماد النفسي . كما يرى البعض الآخر ان هذه المركبات هي اقرب في تأثيرها الى تأثير الكحول ، وهذا يجعلها بعيدة عن مركبات الافيون ، اذ ان استعمال مركبات نبات القنب بصورة معتدلة، كما يراها البعض ، لا تزيد في خطورتها عما يتعرض له الانسان نتيجة اسرافه في تناول الكحول . الا ان هناك من يعتقد بان تناول هذه المركبات يشكل جواز سفر للعبور الى ادمان عقاقير مخدرة اخرى اشد خطورة كالهروين حيث تؤدي غالبية الاحصائيات وجود مثل هذه العلاقة .

ثالثا - عقاقير الهلوسة hallucinogenics  
ومن أبرز انواعها العقار الشائع باسم LSD والعقار DET والعقار DMT . وربما يكون عقار LSD اكثرها شيوعا لسهولة الحصول عليه . وهذه عقاقير في الغالب تؤدي الى تغيرات محسوسة في التفكير وفي الإدراك

عقار المورفين ويطلق عليه علميا مصطلح diacetylmorphine . ولا شك ان مركبات الافيون ومنها عقار الهروين تعتبر من اخطر العقاقير المخدرة ، حيث تقول منظمة الصحة العالمية ان هذا العقار يؤدي الى حالة الادمان addiction حيث تتبلور الرغبة الشديدة لاستمرار تناول العقار بأية وسيلة كانت والرغبة المستمرة لزيادة كميته ، وبالتالي الاعتماد المباشر على العقار يوما بعد يوم . ويرى الكثير من العلماء ان هذا العقار يؤثر على الجهاز العصبي المركزي ، والى هبوط الفعاليات الجشمانية والعقلية واحتقان حدقة العين والامساك المعوي وانقطاع طمث النساء وفنور في الرغبة الجنسية وغير ذلك من الاضرار الاخرى . ولا شك ان ادمان عقار الهروين يفقد المدمن قدرته على مواصلة حياة اجتماعية سوية وتكوين علاقات سليمة بالآخرين ، كما وان المدمن لا يسعى في الواقع الى عقد صداقات جديدة خارج اطار علاقته بالمدمنين من أمثاله ، ولذلك فهو غالبا ما يفضل العزلة على تكوين صداقات جديدة .

رابعا - مركبات نبات القنب cannabis  
وهذه عقاقير عرفها الانسان منذ عام ٢٧٢٧ قبل الميلاد ، وهي تستخرج من اوراق او بذور او قشور نبات يعرف بالقنب cannabis saliva ومن اشهر انواعه الماريوانا marijuana وتستخرج من الازهار المجففة لأنني هذا النبات ، والنوع الثاني هو الحشيش hashish وهو يستخرج من مسحوق النبات المجفف بعد مزجه بالمادة الصمغية التي تكسو قشرة هذا النبات . وهناك اكثر من ثلاثة وتسمين اسما يطلق على مستحضرات نبات القنب ، الا ان الشائع منها الماريوانا والحشيش والكيف والداجا والجانجا .

تشير بعض الاحصائيات الاميركية الصادرة في عام ١٩٦٥ الى ان عدد الوصفات الطبية التى صرفت من قبل الجهات الصحية بصورة مخالفة للقانون تجاوزت ٣٨٠.٠٠٠ وصفة طبية . أما تأثير هذه المركبات فيقول الأطباء المتخصصون انها تزيد من ارتفاع ضغط الدم وارتخاء العضلات واتساع حدقة العين ، وهى فى الغالب تساعد على زوال الارهاق الجسدى والعقلي وتضاعف الحيوية وتزيد الثقة بالنفس . ويؤكد بعض الاطباء ان تناول هذه المركبات بصورة معتدلة وبكميات صغيرة وفى اوقات متفاوتة لا يثير مشكلة ادمان بالمعنى الطبي ، الا ان تناولها بكميات كبيرة وبأوقات متكررة يؤدى الى حدوث تأثيرات سلبية كحدوث زيادة مفرطة فى الحيوية ربما تقود الى بعض النتائج غير المرغوب فيها اجتماعيا ، كما قد تؤدى الى حالة الانهيار او الى ادمان عقاقير مخدرة اخرى .

خامسا - مركبات حامض البريتيوريك Barbiturates وهذه تدخل فى الغالب تحت مركبات الامفتامين الا انها تختلف فى تأثيراتها الكيماوية والنفسية ، فالامفتامين عقار منشط يضاعف حيوية الجهاز العصبي ، بينما تعتبر مركبات حامض البريتيوريك عقاقير مسكنة مهدئة خافضة للحياة . ولعل مركبات حامض البريتيوريك اقل خطورة من مركبات الامفتامين ، وذلك لعدم شيعوها بين الشباب والمراهقين على نطاق واسع .

والدراسة الميدانية او البحث العلمى موضوع هذا الكتاب جاء عرضه فى القسمين الثانى والثالث من الكتاب . ففي القسم الثانى طرح الباحث خطته فى البحث والطرق التى استخدمها فى جمع البيانات المطلوبة ، وكيفية اختيار عينات البحث وتنفيذ خطوات البحث . أما القسم الثالث فقد خصصه الباحث لنتائج البحث وتحليل المعلومات المتحصلة وطرح بعض التوصيات .

وفى المزاج ، ولكنها لا تؤدى الى اضطرابات دائمية فى الشخصية . وقد اكتشف مفار LSD علميا منذ عام ١٩٣٨ ، الا ان الاهتمام بدراسة آثاره تبلور خلال عام ١٩٤٣ . ويمكن ايجاز أبرز الآثار الجسمانية التى تنشأ عن تناول هذا العقار بأنها تشتمل على اتساع حدقة العين وثبات نسبة ضغط الدم ورمشة سريعة وحادة فى الرتبة وزيادة فى النبض وضعف واضح فى النطق . أما الآثار النفسية فيمكن تلخيصها بظهور حالة امتزاج بين الذات والعالم الخارجى وظهور الشعور بالاتحاد مع كل الاشياء او حالة انقسام عن الذات ، او حالة انقسام عن العالم الخارجى . ويقول احد العلماء بأن هناك حالة انتحار واحدة تحدث بين كل ( ٢٥٠٠ ) حالة ممن يتناولون هذا العقار . كما ويتفق غالبية العلماء على ان غالبية الذين يتناولون هذا العقار يعانون من بعض الاضطرابات العاطفية او انهم يعانون من اضطراب واضح فى شخصياتهم .

رابعا - مركبات الامفتامين وهذه تشتمل على مجموعة كبيرة من العقاقير يزيد عددها على العشرين ، ويشيع تسميتها بالحبوب المنشطة للحياة او تلك التى تعرف بـ PEP-PILLS وهى اما ان تكون من مستحضرات الامفتامين بصورة نقية او مختلطة بمركبات حامض البريتيوريك . اما المراهقون فهم يطلون على هذه المركبات تسمياتهم الخاصة مثل مصطلح METH او DEXIES او BENNIES او PURPLE HEARTS . والاصل فى هذه المركبات انها تستعمل لاغراض طبية خاصة عرفها الطب الامريكى منذ عام ١٩٢٧ تحت اسم البنزيرين BENZEDRINE لمعالجة حالات الصداع والتسمم والحالات الكحولية وبعض الاضطرابات النفسية والعصبية الاخرى . الا ان استخدامها لاغراض غير مشروعة جاوز اهدافها المشروعة ، حيث

٢ - لم يجد الباحث اختلافات تتصل بالجنس ، أى بين الذكور والإناث ، ولكن ظهر أن غالبية افراد الجنسين يمثلون سنا متقدمة نسبيا ، وأن غالبيتهم قد اعتادوا على الانقطاع عن الدراسة بصورة متكررة ، كما أن غالبيتهم أيضا لا يلجأون الى آباءهم لحل ما يعترضهم من مشكلات ، وأن هؤلاء الآباء في الغالب يتميزون بلين واضح وعدم اكتراث بضبط سلوك ابنائهم أو الاشراف على تربيتهم .

٣ - لقد ظهر أن نوعية النشاطات التي يمارسها افراد الجماعة التي تستخدم العقاقير المخدرة في اوقات فراغهم هي اقرب الى تلك التي يزاولها البالغون بوجه عام ، كالتردد على المقاصف ودور الرقص ودور التسلية ، وأن هذه الطائفة تنفق الكثير من المال على التدخين وعلى المشروبات الكحولية وعلى العناية بالملبس وتيسير العقاقير المخدرة ، ويميل افراد هذه الطائفة الى الاختلاط بمن يكبرهم سنا ولا يجدون حرجا في تقليد الانماط السلوكية الخاصة بالبالغين ، ولذلك فان افراد هذه المجموعة يسلكون سلوكا يفوق سلوك الاطفال الذين هم في سنهم .

٤ - ويتميز افراد عينة البحث بأنهم أقل احتراما وأكثر اندفاعا في سلوكهم ، وهم يعلمون الكثير عن المخدرات واستعمالها ومزاياها .

٥ - وقد ظهر أن افراد عينة البحث يعتقدون بأن تناول العقاقير المخدرة يزيد من جاذبيتهم الجنسية لدى الجنس الآخر .

أما القسم الثالث فقد تضمن توصيات الباحث بهدف تقرير سياسة تربوية تعليمية تتعلق بموضوع مشكلة المخدرات بين طلبة المدارس . ويعتقد الباحث بآدى ذى بدء بان مشكلة تعاطي المخدرات بين طلبة المدارس

ويقوم البحث على خطة اختيار مجموعتين من الاطفال احدهما مجموعة بحث ضمت ( ١٠٣٩ ) طالبا من طلبة المدارس ممن تتراوح اعمارهم بين الرابعة عشرة والتاسعة عشرة ، وقد اختارهم الباحث كعينة للطلاب الاطفال الذين يعتقد أنهم تناولوا بعض العقاقير المخدرة في فترة من فترات حياتهم ، وهم يمثلون اربع مناطق جغرافية مختلفة من منطقة مدينة لندن . أما المجموعة الثانية فهي مجموعة ضابطة تمثل عددا مماثلا من الاطفال الذين اتركوا استعمالهم للعقاقير المخدرة بشكل من الاشكال طيلة حياتهم .

وعلى الرغم من أن الباحث شعربصعوبة التأكد من صحة استعمال الاطفال للعقاقير المخدرة ، وذلك بمجرد الاعتماد على ادعائهم المجرد ، فقد قام بتجربة تحضيرية أولية تناولت مجموعة صغيرة من الاطفال لمعرفة مدى امكانية الاعتماد على مجرد الادعاء باستخدام العقار المخدر ، وقد دلت نتائج هذه التجربة الأولية على امكانية الحصول على مثل هذه الاعترافات الى حد ما .

ويظهر ان البحث كان يقوم على فرضية أولية وهي امكانية تشخيص بعض الاختلافات بين طائفة الذين يستعملون العقاقير المخدرة وبين أولئك الذين لم يستعملوها ، وقد أمكن اختبار هذه الفرضية بطرح استبيان مفصل على الطائفتين لتحقيق هذا الغرض . ويمكن تلخيص أبرز النتائج التى توصل اليها الباحث بما يلي :

١ - ظهر أن نصف افراد مجموعة البحث قد اعتادوا على استعمال عقاقير مخدرة بصورة فعلية وأن ٧٥٪ منهم قد تناولوها بصورة غير منتظمة ، كما تأيد أن بعضهم تناولها عن جهل لتأثيرها بينما تناول البعض نوعا واحدا أو نوعين أو ثلاثة أنواع من هذه المخدرات .

ان الدراسات العلمية المتيسرة في هذا المجال لم تؤيد بالرأى القاطع ايجابية مثل هذه الافلام التعليمية ، ولذلك فان الباحث يعتقد بإمكانية القيام بحملات اعلامية بين الاطفال ، ولكن على اسس محددة واهداف مدروسة ، وبناء على دراسات ميدانية لتحديد نطاق هذه الحملات ونوعية المعلومات التي تقدم للاطفال وكيفية تقديمها والاشخاص الذين يقومون بعمليات التوعية المطلوبة ، الى غير ذلك من المتطلبات الاخرى .

وعلى العموم فان مثل هذه الدراسة الرائدة ان لم تأت بالشئ الكثير الجديد في ميدان واسع كبير فهي بلا شك قد ألقت الضوء على زاوية حيوية من هذا الموضوع حيث اظهرت نوعية الاطفال الذين يستخدمون العقاقير المخدرة ، ولكن ينبغي أن لا يقف البحث عند تشخيص الافراد الذين يستعملون هذه العقاقير المخدرة ، بل بمتابعة وملاحظة حياتهم لمعرفة من يعتاد منهم على هذه العقاقير في مستقبل حياته ومن ينقطع عن استخدامها لكثر من سبب ، وبالتالي معالجة أولئك الذين تصبح العقاقير المخدرة مشكلة كبيرة في حياتهم ومشكلة اكبر بالنسبة لمجتمعاتهم .

لم تبلغ بعد مرحلة خطيرة من حيث انتشارها او شيوعها . ففي تقدير الباحث ان اقل من ١٠ ٪ من طلبة المدارس ربما تناولوا بعض العقاقير المخدرة في فترة من فترات حياتهم تحت دوافع التقليد او لغرض الظهور على الاقران .

ويرى الباحث ان القيام بحملة اعلامية اصلاحية بهدف تبصير الاطفال بخطر المخدرات وآثارها السيئة قد تكون في جدواها اقرب الى تلك الحملات الاعلامية العقيمة التي تقوم بها بعض الجهات الصحية من وقت لآخر لتبصير أطفال المدارس بأضرار التدخين ومساوئه . ويفسر الباحث عدم جدوى هذه الحملات الاعلامية الواسعة بأنها قد تزيد من وعي الاطفال بوجود مثل هذه المخدرات التي يجهلون موضوعها جهلا تاما ، ولذلك فان مثل هذه الحملات تعرف الاطفال بوجود مشكلة المخدرات ، الامر الذي يدفعهم الى تجربتها بدافع الفضول ويوصفها عادة شائعة غير ضارة بدليل انها شائعة بين عدد كبير من الاطفال في كل مكان .

وربما يكون لبعض الافلام الخاصة بموضوع المخدرات فائدة ارشادية في هذا الباب ، الا



## ستانلي المستكشف المغامر

عرض وتحليل . الدكتور عبد الرحمن الرزوقي

عقولهم ، لاتزال جذوته متقدة حتى الان .  
فرحلات ستانلي التاريخية ظلت وستظل من  
اعظم ماسجلته قصص الرحلات اثاره في تاريخ  
كشف افريقيا .

لقد قام ستانلي بأربع رحلات ناجحة الى  
اواسط هذه القارة . كانت رحلته الاولى خلال  
عامي ١٨٧١ و ١٨٧٢ ، وكانت الغاية منها  
البحث عن الدكتور لفنجستون الذي سافر  
الى القارة في مهمة كشف بتكليف من الجمعية  
الجغرافية الملكية البريطانية ، ولكن بعد ان  
اعتلت صحته وانقطعت اخباره ، كان لابدم  
البحث عنه ، وتقصى اخباره ، فكان ان سافر  
ستانلي موفدا من قبل الجريدة الامريكية التي  
كان يعمل بها آنذاك وهي جريدة النيويورك  
هيرالد .

صدر هذا الكتاب في عام ١٩٧٤ ، اى بعد  
مائة عام تماما على بدء ستانلي رحلته الشهيرة  
الى افريقيا ، حيث كشف مصب نهر الكنفو  
الحقيقي . الف هذا الكتاب الصحفي «ريتشارد  
هول» و أصدرته دار جوليترز للنشر في لندن  
ويبدو ان موضوع هذا الكتاب لم يكن ليشغل  
بال مؤلفه لولا ان اتاحت له الفرصة كصحفي  
- لكي يعيش في قلب القارة الافريقية لعدة  
سنوات ، استطاع فيها ان يغطي بقلمه احداث  
الثورة الكونغولية في بداية الستينات ، بنفس  
القدر الذي استطاع فيه ان يغطي بقدمه كل  
المناطق التي بلغها ستانلي في النصف الثاني  
من القرن التاسع عشر ، ان لم يكن قد زاد  
عليها .

من هنا نستطيع القول بأن بريق تلك القارة  
وسحرها ، الذي طالما سلب الاوروبيين

الجهد الذي بذله ستانلي بين مستنقعات افريقيا وغاباتها ورطوبتها وامراضها ومواطنها وسوف يدرك القارئ مباشرة ان الجهد الذي بذله المؤلف في رحلته لكي يستفيد منها في كتابة مؤلفه الذي بين ايدينا عن ستانلي، لم تحقق شيئا ولم تات بجديد . الامر الذي بدفعنا للتصور بأن المؤلف تمت لديه فكرة الكتابة عن ستانلي، بعد عودته كمراسل صحفي من القارة الافريقية .

لقد اصطحب « هول » معه الى افريقيا كتاب ستانلي : « كيف وجدت دكتور لفينجستون »، ومن ثم اصطبغ في رحلة « هول » خيال ستانلي مع مواقع اقامته ووقتها ، فبذلت رحلة ستانلي كما لو كانت قد تراءت تماما امام اعين ريتشارد هول ، الذي تحركت مشاعره نحو ستانلي ، فتحول من ناقد عليه - كشان الكثيرين ممن يعرفون حقيقته - الى متعاطف معه .

ها هو ذا كتاب « ستانلي » يقسمه المؤلف الى ثلاثة اقسام لتضم سبعة وعشرين فصلا قصيرا . القسم الاول يتناول فيه رحلة ستانلي الرئيسية ( ١٨٧٤ - ١٨٧٧ ) ، والقسم الثاني ينقلنا الى شخصية ستانلي وطفولته ونشأته وحيه ، بالاضافة الى عودته من جديد الى الاستطراء في سرد ظروف كشفه ورحلاته وعلاقاته في افريقيا . ثم ينتهي بالقسم الاخير ليحكى قصة المعاناة التي تميزت بها حياة ستانلي ، حتى عد ان نجح في تحقيق الكثير من آماله وتطلعاته ، حتى مات في العاشر من مايو عام ١٩٠٤ .

زودنا ريتشارد هول في كتابه باثنين واربعين رسما وصورة ولاشك كان خلفها جهد كبير بذله المؤلف لكي يحصل عليها من مصادرها المتباعدة ، وربما ساعده على ذلك

**اما الرحلة الثانية ،** فكانت في الفترة من ١٨٧٤ الى ١٨٧٧ . وكانت غايتها كشف المنطقة من زنبار شرقا حتى مصب نهر الكونغو على المحيط الاطلسي غربا ، وكان بعد نجاحه فيها اول رجل ابيض يكتشف مجرى هذا النهر العظيم .

ولم تخرج **رحلته الثالثة** ( ١٨٧٩ - ١٨٨٤ ) عن كونها رحلة تقليدية كما يحلو للبعض ان يطلق عليها ، الا انها كانت الرحلة التي مهدت لحكم الملك ليوبولد وسيطرته على الكونغو بواسطة ستانلي وأعاون آخرين .

امارحلته **الرابعة والاخيرة** ( ١٨٨٦ - ١٨٨٩ ) فقد جاءت تلبية للعوة من بريطانيا لانقاذ **امين باشا** الذي تخرج موقفة وانقطعت اخباره بعد الثورة المهدية ، وحقق فيها عبورا شبيها بعبوره في رحلته الثانية .

هذه كانت رحلات « هنري مورتون ستانلي » التي سجلها في مؤلفته الخاصين :

Th:DarkContinent How I found Livingstone وفيها كل الاثارة ، وكل القموض ، وكل المبالغة . الامر الذي جعل العالم ينظر الى هذا الرجل - ستانلي - كمعجزة عصره وبطل زمانه .

وحينما يقوم المرء في قراءته لهذا الكتاب ، سوف تعود به الذاكرة الى راحة التاريخ الذي ميز القرن التاسع عشر وتاريخ الكشوف الجغرافية فيه كشف منابع النيل ، كشف بحيرات وسط افريقيا ، وكشف مصب ومجرى نهر الكونغو .. لاشك ان هذا الاطار التاريخي في حد ذاته ينبغي الا يجعل من ريتشارد هول بطلا حينما يغطي نفس الاجزاء التي جابهها ستانلي واكثر ، فالأولف حينما يعلن عن ذلك صراحة ، انما يعترف ضمنا بمقدار

« اليك بك » وفشل في ذلك الحب اثر ؟ ترى .. هل كان لبحثه من رجل يتبناه في نيو اورلينز مهما كانت شخصيته ، وبأى أسلوب ممكن (حتى تحقق له ما أراد على كبر ) اثر في غموضه وحزنه ؟ ام لانه كان يتصف بالشذوذ الجنسي كما قال بعض علماء النفس عنه وبعض اصدقائه المقربين ؟ بالها من تساؤلات مزعجة تحييط به حقا ويكفي ان تثار .. مجرد افاره ، لكي ندرك خلفيات هذه الشخصية والغموض الذي يكتنفها .

لقد كان « ريتشارد هول » مستعدا لتبني وجهة النظر التقليدية عن ستانلي البارد المعقد ، الذي ترتبط باسمه بمظاهر الرعب والقسوة . ولقد كتب يقول : ان الخوض في دراسة شخصية ستانلي ، كتسلق جدار عمودي صلد من الجرانيت . الامر الذي يفسر احجام الكثيرين من الكتاب والمحللين عن الكتابة عن الجوانب الخاصة جدا من حياة ستانلي ، رغم انه كان من اجرا مفامرى القرن التاسع عشر ، واكثرهم اصرارا ونجاحا على الاطلاق .

لكن .. لماذا كان انطباع العالم عن ستانلي الى هذا الحد من السوء طالما لم يفص الكتاب والمحللون بين جوانب شخصيته وحياته الشخصية ؟ لقد نقلت رواية جوزيف كورنارد : « قلب الظلام » ، صورة ملطخة بالرعب والفزع والدماء واهدار الحقوق الانسانية على ارض هذا الجزء من افريقيا الذي طرقه ستانلي ، وكان دور هذا الاخير في تلك الرواية ، دور الخادم الانتهازى الذى بنى للملك ليوبولد امبراطوريته في افريقيا . فكان لا بد ان يكون قاسيا دمويا ، لما ارتبط به تاريخ السيطرة والاستعمار من امور لانسانية في تلك البقعة من العالم .

مهنته كصحفى ، وعلاقته بالسوكالات والشخصيات الصحفية .

لقد ضمن ريتشارد هول كتابه بالاضافة الى المقدمة التقليدية في بدايته ملحقاتضمن كلمة شكرين قدم له يد المساعدة في انجازه هذا وفهرسا للامكن ، وآخر للأشخاص بالكتاب وقائمة جيدة ومطولة بالمراجع والصادر قسمها وفقا لترتيب فصول الكتاب ، وعلق على كل منها .

هكذا .. وعلى امتداد اربعمائة صفحة تضمنت كافة محتويات الكتاب ، استطاع المؤلف الصحفى ان يمزج بين روح البحث والرواية ، ليخرج حقيقة ملاصق وقسمات ستانلي . لقد اجدد المؤلف نفسه كثيرا لكي يبعث اللثام عن الشخصية الحقيقية لهذا الرجل الذى طالما اخفاها من الناس . ولقد حقق المؤلف غايته ، اذ يدرك القارى ، عقب سرد المؤلف لطفولة ستانلي وظروف نشأته ، التفسير الحقيقي للغموض المتعمد الذى ميز ستانلي وتصرفاته ، فكان حرينا ابدا مفتقرا الى الثقة بالنفس .

ان المؤلف يعرض حقائق هذه النشأة ، ويترك للقارىء يتساءل : ترى بعد ان قرأت هذا الجزء عن ستانلي .. هل كان لاصل نشأته تأثير على شخصيته اذ انه حقا « ابن زنا » لسيدة تسمى ( Elizebeth Parry ) من ويلز ام لدخوله اصلاحية الاحداث فترة من الزمن ؟ فقد دخلها وهو في السابعة من عمره وهرب منها بعد تسع سنوات ليعيش بعدها حياة التشرذ والسعى المضني للرزق ، معتمدا على نفسه ، خلال سنوات العذاب والمهانة في إنجلترا والولايات المتحدة . ام كان لحبه من تلك الفتاة ذات السبعة عشر ربيعا



اليه معونة عاجلة . وبر ستانلى بوعده فعلا  
ووصله ما يريد فى افسطس عام ١٧٨٢ .

لقد ذهل ستانلى - الذى طافت مقاله  
عن هذه المهمة الناجحة كل ارجاء العالم -  
عندما سمع اسمه يتردد كبطل من الانباط ،  
 واصبح العالم المفتون بنظرائه كبطل الساعة ،  
لقد استطاع ان ينقذ الدكتور لفنجستون ،  
 ويعيد للعالم صلته به ، بل ويحقق مع كل  
هذا جانباً من الاكتشاف الجغرافية التى ذهب  
من اجلها لفنجستون ( ٣ ) ويعود بالاخبار  
والحقائق والغرائب معا .

لكن ستانلى الذى استطاع ان ينقذ  
لفنجستون وفريقه لم يكن يلقن بهذه المهمة  
التي انجزها فى افريقيا . انه مجرد صحفى  
يتابع الاخبار ويحقق الحوادث ويراسل  
صحيفته . لا .. هذه المرة لا بد من سبر  
اغوار افريقيا . نعم ، ساكون مكتشفاً .  
هكذا اراد وصمم وخطط لمهمته القادمة .  
لقد جربت بنفسى الامر ، ونجحت فيما عجز  
عنه آخرون ، بل واشتركت مع لفنجستون  
نفسه فى جزء من المحاولة . لماذا اذن لا اكون  
فى سجل الخالدين من امثال بورتون وسبيك  
ولفنجستون نفسه ؟ . اننى ستانلى المنقذ .

لقد تردد وارتاب فى امكانيات نجاحه فى  
بادىء الامر ، بل داخله شعور بان الصدفة  
وحدها كانت وراء خروجه سالماً من رحلته  
الاولى . وان الحظ لاشك سوف يخلّده هذه

الا ان افكار المؤلف قد تغيرت تماما عن  
ستانلى - على حد قوله - عندما سلك نفس  
الطريق الذى سلكه صاحبنا من قبل فى رحلة  
بحثه عن الدكتور لفنجستون .

يقول ريتشارد هول : لقد احسست بمقدار  
الجهد الجهد الذى بذله ستانلى وهو يخترق  
تلك المسافات منذ قرن مضى . لقد ادرك  
المؤلف ان ستانلى حجب شخصيته الحقيقية  
خلف مظاهر كاذبة ، او على الاقل ، لا يعرفها  
العالم عنه . لقد وقف « هول » امام النصب  
التذكارى الحقيقى لستانلى وقال : ينبغي ان  
يكون الكونفو بأسره صاحب هذه الحدود  
التراميقي افريقيا (١) ، هو النصب التذكارى  
الحقيقى لهذا الرجل .

لقد كان ستانلى عدواً حقيقياً لذاته . ولقد  
كان تعاميه عن اظهار بعض الحقائق ، سبباً  
كافياً للانتقاص من روعة انجازاته . ان  
المؤلف يحاول السمو والتحليق بستانلى  
كواحد من اكبر اصحاب الانتصارات فى العالم ،  
ليمحو السمعة السيئة التى التصقت بهذا  
الرجل . الا ان الانسانية لن تغفر له ما ارتكب  
فى حق ابنائها من جرائم فى سبيل تحقيق  
غاياته .

نجح ستانلى فى رحلته الاولى وعاد بأخبار  
مطمئنة عن الدكتور لفنجستون ( ٢ ) الذى  
رفض العودة معه ، مفضلاً استمرار عمله ليتم  
كشوفه ، فتركه ستانلى على امل ان يرسل

( ١ ) يشترك الكونفو بحدوده مع عشر دول مجاورة تحيط به من جميع الاتجاهات تقريباً .

( ٢ ) اوفد لفنجستون من قبل الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية عام ١٨٦٦ لحل لغز شبكة التصريف النهري  
فى وسط افريقيا ، وبحيرات هذه المنطقة ، وبذل الجهد لتحقيق منع تجارة الرقيق فى اكبر اسواقه .

( ٣ ) انتهز الفرصة ليصبح دكتور لفنجستون فسارمه وحققاً معا كشف الاجزاء الشمالية من بحيرة تنجانيقا ،  
وتأكد انها ليست ضمن منابع النيل ، كما اعتقد « بورتون » من قبل .

ان التفاصيل الدقيقة التى يذكرها المؤلف ليست جديدة على الجغرافيين ، الا ان المتبع للرد السلس الجذاب الذى تميز به اسلوب ريتشارد هول يكتشف مقدار مفامرة ستائلى بحياته وسمعته ورجاله ومستقبله . كان انتهازيا يحارب مع الاقوى من الجماعات الافريقية المتصارعة ، وحدث هذا عندما انضم الى رجال مملكة متيسا Mtesa ضد القوما Voma عند الطرف الشمالى لبحيرة فكتورا ، وبنفس القدر كان قاسيا لا يعرف الرحمة . . فقد قتل امامه العشرات ، وهو واقف يتسلى بمنظرهم ، حدث هذا وسجله بالصورة ريتشارد هول مع وصف دقيق لطريقة الاقدام المحلية هناك ، وقد وقف ستائلى يشاهد ويتمعن .

اخيرا وصلت جماعة الى بوما عند مصب الكنفو . يالها من مفامرة حقيقية راي فيها ستائلى لم يره انسان ن تقاضى الطبيعة . . كم مرة اجتمعت فيها المشاكل مع المظهر الطبيعى الرائع لقلب افريقيا . كم مرة سقط امامه المرضى على بسط خضراء بين افناء يعجز امهر الفنانين عن رسمها ، او حتى تخيلها . وكم كان مضحكا فعلا منظره بلباسه الفرنجى بين جماعات ضحكت عليه قبل ان يحاول حتى ان يقترب ليكتشف ما يريدون . كل هذا غير ذى موضوع امام ستائلى الآن . لقد حقق انجازا هائلا فقل بعده عائدا مرة اخرى الى زنبار عن طريق راس الرجاء الصالح .

الا ان ريتشارد هول يعود مرة اخرى الى شخصية ستائلى فى قسمه الثانى ولا يستطرد فى نتائج رحلة ستائلى . فمن هو ستائلى هذا ؟ وما هو الاسم الحقيقى له ؟ ماهى ظروف نشأته المشينة البائسة ؟ .. انها ولا شك

المرة . لقد كان ستائلى قليل الثقة بنفسه دائما لقد كان يتصور ان الرحالة والمستكشفين يكونون من عليا القوم وكبراهه ، ابناء الاسر العريقة من الضباط والرياضيين .... الا انه - ولاول مرة - يصمم على كسر هذا الحاجز النفسى الذى اقتطعه بنفسه . لقد قرر ان يفرض اسمه فرضا على العالم بأسره .... لابد ان يحدث هذا .. نعم لابد .

ان المؤلف ريتشارد هول يتحدث بأسهاب فى القسم الاول من الكتاب عن ادق التفاصيل المتعلقة بفتاة حبه ( اليك بيك ) ، شكلها ، عمرها ، ودارها ، ثم عن تفاصيل اتفاقه معها على الزواج قبيل رحلته . . ذلك الزواج الذى لم يتم قط . ثم يقدم سردا لتحركاته بين نيويورك ولندن ، ومناطق اخرى من العالم وكيف سبق له ان وطد علاقته بالعديد من الشخصيات الانجليزية حينما كان ضمن فريق المراسلين لجريدة النيويورك هيرالد ، وكيف كان « وقحا » فى شجاره بالجمعية الجغرافية الانجليزية ، حينما ساورتها الشكوك حول رحلته لاتخاذ لفنجستون ، ولماذا وصفته الملكة فكتوريا بعد ان دعى لمقابلتها بقصرها بأنه رجل عنيد وقبيح .

ان ستائلى مرة اخرى فى لندن يحاول ان يعد لرحلته انسب الظروف ، كما سعى للاتصال بمصادر جديدة لتمويل رحلته الثانية ، ونجح فى اجتذاب جريدة الدبلى لجراف التى وافقت على الاشتراك مع النيويورك هيرالد لتمويل المشروع . هكذا أصبحت رحلته بعثة انجلو امريكية ، وفر لها قسيما من لندن ، والاخوين Pocock اودارد وفردريك ، والاقرعوى المخلص الذى رافقه من زنبار Kalulu ، مع بعض كلابه .

يزال اسمه مدرنا في سجلات الإصلاحية وقد كتب امامه اصطلاح ( لقيط ) . وفي هذه الإصلاحية حيث بقي تسع سنوات ، تلقى كل تعليمه . وكان مجيدا للرياضيات والجغرافيا والرسم ؛ الا انه كان سميء السلوك ، مشاغبا . فقد حاول الهرب من الإصلاحية مرتين وفشسل ، ولكنه حينما تسلىق سور هذه الإصلاحية للمرة الثالثة واستطاع ان يخططاه ، اطلق ساقبيه للريح هاربا . والى الابد من هذا المكان البغيض .

اتجه بعد هربه الى مسقط رأسه ، ولكنه لم يجد أرضا صلبة يقف عليها ليحصل حتى على قوت يومه . . انه ابن تلك السيدة سيئة السمعة . ولكنه نجح بعد أسابيع قليلة في الحصول على وظيفة مساعد مدرس بمدرسة ( St. Asaph ) ■

ويتحدث « ريتشارد هول » عن كيفية التوصل الى حقيقة اسم ستانلي الحقيقي وذلك عن طريق خطاب ارسله الى خالة في ليفربول ، عقب هربه من الإصلاحية ، لكي يساعده في الحصول على عمل . ثم ينتعج تنقلاته وظروف عمله وكيف كان ضعیف السيطرة على الطلاب ، وكيف كان فاشلا في الحصول على وظيفة بمحطة سكة حديد ( مؤلد ) . وحينما وفر له خاله وظيفة كاتب في مكتب للتأمينات في ليفربول تركها ليعمل ساميا خصوصيا .

وفي خضم يأسه وامراره على عمل ، تسائل : الا يمكن ان تكون ليفربول بداية النهاية لشقاء السنين الماضية ؟ الهجرة في

استفسارات بعيدة تماما عن خواطر المهتمين بدراسة تاريخ الكشوف الجغرافية التي ارتبطت في جزء منها - بشخصية ستانلي . ولكنه كصحفي ، تحركه كوامن المهنة و « غريزتها » ، فيسعى بصبر لتحقيق سبق لا جدال ، حول هذه الشخصية ، والجوانب النفسية التي تتحكم في تصرفاتها .

ولد جون رولاندز ( John Rolands ) وهو الاسم الحقيقي لستانلي ، من ابنة جزار كانت تعمل في مخبز عند أطراف مدينة ( Denbigh ) الصغيرة ، الواقعة في شمال شرق ويلز في ٢٨ من يناير عام ١٨٤١ ( ٤ ) . ويقال ان المخبز الذي كانت تعمل فيه هذه السيدة واسمها اليسزابيث بارى ( Elizabeth Parry ) كان يقع خلف مكتب للشئون القانونية والمحاماة ، يعمل به شخص يسمى فوغان هورن ( Vaughan Horne ) الذي ولع بها حبسا ، وتورطت معه في علاقة غرامية حملت خلالها منه سفاحا هو جون رولاندز ( ستانلي فيما بعد ) . الا ان ابوة هذا الرجل لجون ، او حتى ابوة غيره لهذا الطفل ، لا تزال لغزا غامضا ، خصوصا وان امه قد انجبت بعده ، وخلال الخمس عشرة سنة التي أعقبت ميلاده ، انجبت ثلاثة أبناء آخرين غير شرعيين . يالها من امرأة سيئة السمعة إذن ، ويالها من نشأة قائمة لجون !

لقد وجد نفسه وهو في سن السادسة - أي جون رولاندز - بين اسوار إصلاحية للاحداث ( مثل فبراير عام ١٨٤٧ ) . ولا

( ٤ ) لم يجد ستانلي مطلقا تاريخ ميلاده ربما عن عمد . وكان يفضل ان يقول انه من مواليد عام ١٨٤٢ . كتب على قبره انه ولد في العاشر من يونيو عام ١٨٢٠ . ويذكر سجل وفيات التاينز انه ولد « حوالي » عام ١٨٢٠ . اما دائرة المعارف البريطانية فتذكر ان طبعها العادية مشرقة في عام ١٨٤٢ ، كما يذكر قاموس ناشيونال بيوغرافى ، ان ستانلي من مواليد عام ١٨٢١ .

لم يدم عمله خلال الحرب الأهلية ، فقد كان جنديا فيدراليا ، ولكنه مرة أخرى كان مشبوه التصرف كالمرتزقة ، يحارب مع الجانبين . وأصبح يحسن في قرارة نفسه بأنه فعلا كالمتردد الذي يحيا حياة مشبوهة يعوزها الاستقرار .

وفي اجازة له كان يقضيها في اوربوا زار مدينته ( Benbigh ) وكتب في سجلها اسمه الحقيقي : أنا جون رولاندز اللازم في البحرية الامريكية ، ملتحق بالفرقاطة Teconderoga ، وأعمل حاليا في تركيا . وكتب تاريخ الزيارة : ١٤ ديسمبر ١٨٦٦ .

وحينما قام برحلة الى لندن ، استطاع ان يقابل مندوب جريدة النيويورك هيرالد ، وهو الكولونيل اندرسون ( Finally Anderson ) عام ١٨٦٧ ، ووطد علاقته به ، الامر الذي مهد لستانلي ليصبح مراسلا لنفس الجريدة فيما بعد ، بل بعد قليل جدا من تركه عمله بالبحرية الامريكية في نفس السنة ( ١٨٦٧ ) .

بدأ عمله مراسلا بمخالفة اوامر المسؤولين في هذه الجريدة الذين طلبوا اليه ان يتجه غربا من لندن ، ولكنه رفض واتجه شرقا .. هكذا . كما اخفى اسمه الحقيقي - والى الابد هذه المرة - ولم يكن قد استقر على اسمه الاوسط حتى اصبح يوربون . هنري يوربون ستانلي ، ذلك المراسل الصحفي لجريدة نيويورك هيرالد الامريكية ، الذي تنقل بين الحبسة والهند والاسكندرية والقاهرة وغيرها من مدن شرق افريقيا والشرق الادنى .

ومن خلال العودة الى الحديث عن مغامراته في افريقيا بعد هذا السرد الطول والدقيق عن

ذروتها ، والميناء يستقبل الف اسيرة مهاجرة الى العالم الجديد اسبوعيا . والميناء غاص بالسفن ، والبحارة بالمشترات والمئات .

نجح ستانلي في العمل على ظهر السفينة ونندرمير ( Windermere ) المتجهة الى نيو اورليانز كموظف للكبان ، لقد رأى الاهوال في أول رحلة له استغرقت سبعة اسابيع . لقد وجد نفسه مرة أخرى قريسة للوحدة والانعزال والمهانة ، كما قاسى كثيرا من نومه تحت القاعد ، ومن اضطراب صحته بتأثير دوار البحر ... وغير ذلك كثير .

وحينما دخلت السفينة الى الميسيسيبي ، وقمت عينه على عظمة هذا النهر ، وشاهد ما عوضه عن شقاء الاسابيع الست ، وفي وصف ادبي رائع يتحدث المؤلف عن هذا المشهد مستطردا : انه الجنوب ، ارض القطن والزئوج وملاك الاقطاعيات الزراعية الهائلة من المهاجرين الادروبيين .

وحينما كان العجوز « ستانلي » الذي يعمل سمسارا للقطن بين الزراع على امتداد الميسيسيبي ، وتجار نيو اورليانز ، وقمت عيناه على جون رولاندز الذي بادره بالسؤال في رنة حزين شقيقة : سيدى ... هل تريد غلاما يكون في خدمتك ؟

بعد ان رجب العجوز ستانلي الذى لم فى ينجب ولم يتخذ من قبل ولدا ، وكذلك زوجته ، بمقدم هذا الغلام ، لم يلبث ان طرده لقلّة حياته ولسوء اديه ، ولكنه بعد ان استقام ومارس العمل الشريف ، وحقق ارباحا سال لها لعابه ، استقل في اعماله وكان محبا مخلصا لعمله لدرجة كبيرة . وكان قد عرف آنذاك باسم هنرى ، انه الآن هنرى ستانلي .

الزعيم العربي (Tippu Tib) الذي ساعده في الهبوط الى نهر الكونغو .

ويكتب المؤلف عن رحلته في مجرى هذا النهر الكبير بأسهاب ، ويكتب عن تفاصيل توزيع قواته او افراد حملته في النهر والبر ، وكيف تعرضت جماعة النهر الى متاعب جمة ارتبطت في معظمها بالاندفاع الشديد للعباءة والشلالات ، بنفس القدر الذي تعرضت فيه جماعات البر لمتاعب المستنقعات والغابات والأمراض والحيوانات المفترسة . ولكنه بعد كل هذا ، استطاع ان يبلغ مدينة بوما Boma على مصب هذا النهر ، ولقد اكد المؤلف - وهو موفق في هذا كل التوفيق - على وقفة الركب عند الشلالات التي سميت فيما بعد بشلالات ستانلي ( يناير ١٨٧٧ ) ، والمدينة الصغيرة التي عرفت كذلك فيما بعد بمدينة ستانلي ( ستانلي فيل ) . واخيرا ... عاد « ستانلي » الى زنبار بطريق البحر عن طريق رأس الرجاء الصالح . وهكذا وفق المؤلف في عرض هذا الجانب ، ولكنه عرض اساسه المعلومات التاريخية التي اتي بها غيره من قبل . ولقد سجل خط سير الرحلة على الخريطة الوحيدة بالكتاب ، التي وضعها « ديكونرا » للغلاف الداخلي للكتاب .

حكى « ستانلي » وكتب ونشر العديد من المقالات عن رحلته الرئيسية هذه . وكان من بين ما ذكره طواف العالم وفتن رجال اعمال اوروبا واقتصاديينها ، حديثا مسهبيا عن الاقتصاد الغابي الممكن قيامه في افريقيا ، نخيل الزيت ، الاخشاب بأنواعها ، والمطاط ... وغيرها كثير كثير . فسال لعاب القوم ،

حياته الشخصية ، يعود « ريتشارد هول » مرة اخرى ليحكى ادق علاقاته مع جماعات الكشف التي صاحبته من الاهالي او المرافقين البيض ، ومقدار حرصه على الحصول على اية مكاسب ترفعه الى حد الشهرة او الغنى ، وفي سبيل ذلك استخدم اسلوب الرزقة تارة والمهادنة تارة اخرى والقمع والمكر والخداع تارة ثالثة ، حتى انه عاجل تمرد جماعة الوطنيين التي كانت تصاحبه في احدي رحلاته ، بالقتل رميا بالرصاص . ولقد سجل ريتشارد هول هذه الحادثة بين حوادث اخرى تتم عن نفس شرسة بعيدة عن الرحمة ، كما صور لنا كيف كان ينتقل من ورطة الى اخرى خلال تجواله في وسط افريقيا بين وحوش مفترسة ، وغابات هائلة كثيفة ، وامراض قاتلة ، وشلالات رهيبة ، بالاضافة الى ما ذكره من مشاكل « ستانلي » مع بعض الشخصيات والجمعيات العلمية ، ووصف مفصل للقاءه بالدكتور « لفنجستون » .

حينما توجه ستانلي الى زنبار عام ١٨٧٤ - كما يقول « ريتشارد هول » حقق بعد انطلاقه منها اهم هدف له ، حينما اطمان الى انه اتي بجديد حينما اكد ان بحيرة فيكتوريا بحيرة واحدة ، واكتشف لأول مرة وادي نهر كاجرا كمخرج وحيد لهذه البحيرة . ثم اتجه الى تنجانيقا ، ووصل الى اوجيجي ، ودار محاذيا سواحلها بقرابه واثبت انها بحيرة مغلقة لا علاقة لها بنهر النيل كما قال « يونون » من قبل ، والتقى - بعد ان عبرها الى الجانب الغربي - بالشيخ حميد بن محمد

بين صفحاته ، قصة الصراع العالمي الدموي على ارض افريقيا ، قصة الصراع على الارض والرجال والثروات ، اجرت فيها اراض افريقية ، وبيعت اخرى ، ودار قتال على انتزاع ثالثة من ابناءها .. وهكذا سار الشوط بافريقيا الصابرة .

ان المؤلف يختم كتابه بعرض لشخصيات مجهولة وقفت وراء ستاني تدفعه وتؤازره ، مالا وعطفا وجبا . ولكنه ابدا لم يتغير حتى آخر ايام حياته حينما وافته المنية صباح العاشر من مايو عام ١٩٠٤ . فرغم انه منح الجوائز والتقدير من الملوك والعظماء ودور الصحف الكبرى في اوروبا وامريكا ، الا انه لم يدفن بجوار العظماء في كنيسة « وست منستر » بجوار لفتنجستون كما اراد نفسه في بداية الشوط . لقد رفض رئيس الكنيسة دفنه بها بدون ابداء الاسباب . ويبدو ان شعورا خفيا لدى ستاني كان يحركه نحو عدم الثقة بما يود ان يبلغه ، فكتب في مذكراته بالحرف الواحد : « انني لم آت الى الدنيا من اجل الحصول على السعادة ، او السعي اليها ، فقط اتيت من اجل عمل خاص اؤديه ... » .

ان الكتاب يزرخ بالتحقيقات الدقيقة التي تنتج حياة الرجل ، ساقها « ريتشارد هول » بأسلوب ذكي ، ولكنه بسيط وسلس وجذاب ، شأن الكتابة الصحفية المنعوسة التي تخاطب العامة والمتقنين على حد سواء . والكتاب بهذا الاسلوب حين يجمع بين البحث الدقيق لبعض القضايا التاريخية والجغرافية مما لا ينسج المجال لمرسه في هذا السياق ، وبين الرواية الجذابة المثيرة المصورة ، وهذا بالإضافة الى قرب المؤلف الشديد من دقائق اسرة

وتشكلت الرابطة الدولية للكونفو ( ٥ ) برأس مال بلجيكي الماني ايطالي ، لكن حماس مساهمة ملك بلجيكا « ليوبولد » كان ينبيء بان امرا ما ينتظر تلك المنطقة .

وبالتدريج ، تحول ستاني الى خادم مخلص للملك « ليوبولد » حينما سافر للمرة الثالثة عام ( ١٨٧٩ ) وظل حتى عام ( ١٨٨٤ ) جمل الكونفو خلالها مزربة هائلة لهذا الملك . فكانت الشرارة الاولى التي احرقته هذه القارة فيما بعد .

وفي عام ١٨٨٦ - علمت اوروبا بحصار وعزل الحاكم المصري للمنطقة الاستوائية - الذي لم يكن مصريا ابدا - بعد قيام الثورة الهدية ، ولا بد من العمل على انقاذه . وعندما تشكلت لجنة الانقاذ هذه ، كان على رأسها « ستاني » ، وكيف لا .. الم ينقذ دكتور « لفتنجستون » من قبل ؟ ..

وصل « ستاني » فعلا الى حيث التقى بأمين باشا على شاطئ بحيرة البرت ، وبدلا من انقاذه ، عرض عليه العمل كمدير في خدمة الملك « ليوبولد » بشروط مالية لم يوافق عليها « أمين باشا » . وفي طريقه الى الساحل الافريقي ، استطاع ستاني عقد عدة اتفاقيات مع الزعماء الوطنيين من النوع الذي احكم قبضة الاستعمار على مناطقهم فيما بعد ، حتى كانت معاهدة ( ماكينون ) المعروفة التي ابرمت بين الشركة البريطانية لشرق افريقيا وحكومة الكونفو .

وهكذا تدخل افريقيا دورا لا يستغرق « ريتشارد هول » كثيرا في الحديث حوله ، ولكن التاريخ الافريقي يعرفه ويسجله بدقة

لم يخل الكتاب من بعض الأخطاء المطبعية - شأن بعض الكتب التي تخرجها دور النشر الانجليزية في الآونة الأخيرة للأسف على غير ما عودتنا . والكتاب يفتقر الى ترتيب افكاره ترتيبا علميا،بالإضافة الى ان المؤلف استخدم عناوين فصوله بأسلوب مثير فيه تورية . ومع كل هذا ، فان الكتاب بحجمه وأسلوبه وصوره ومستنداته ، يرقى الى مصاف الكتب التي يسعى المرء لاقتنائها .

« ستانلي » وأرشيفها « سواء في اتجلترا او الولايات المتحدة ، مع التجربة الخاصة والمباشرة للمؤلف في افريقيا ، يجعل كل هذا من كتاب « ستانلي » المستكشف المغامر ، كتابا مفيدا بحق لما يضيفه من جديد ، ويعدل مسار بعض الافكار عن هذه الشخصية ، ولكنه لم يأت بجديد في مجال الكشف او التحقيق التاريخي الذي كان بعيدا عنه كل البعد .



### من الكتب الجديدة

كتب وصلت إلى إدارة المجلة، وسوف نعرض لها بالتفصيل في الأعداد القادمة

1. Clark, W., Ronald, *The Life of Bertrand Russel*, Jonathan Cape and Weidenfeld & Nicolson, London 1975.
2. Frye, Richard N. , *The Golden Age of Persia, The Arabs in the East*, Weidenfeld Nicolson, London, 1975.
3. Haswell, Margaret, *The Nature of Poverty, A Case-History of the First Quarter Century After World War II*, Macmillan Press Ltd., 1975.
4. Howe, Michael, *Learning in Infants and Young Children*, Macmillan Press Ltd., 1975.
5. Swingewood, Alan, *The Novel and Revolution*, Macmillan Press, 1975.





